قِرَاءَةُ السِّيرَةِ

بَيْنَ الأَصَالَةِ وَالمُعَاصِرَةِ

منهجٌ لبناء الإنسان والمجتمع



فيصل محسن مرجان

إهداء

إلى حبيب قلوبنا ودوائها محمد ﷺ...

الذي غيّر الله به مسار البشرية في ثلاثة وعشرين عامًا.

فبنى الإنسان، وأسّس الجماعة، وأقام المجتمع، وأدار القوة، وترك الأثر.

أهدي هذا الجهد ، عسى أن يكون خطوة في طريق الاقتداء.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين ،،،،، وبعد

ليست المشكلة في السيرة النبوية أن مادتها قليلة، ولا أن أخبارها مجهولة؛ فالمكتبة الإسلامية حافلة بالمصنفات التي روت أحداثها، وجمعت أخبارها، وشرحت شمائل النبي ﷺ ومغازيه ومواقفه، وإنما تكمن المشكلة في شيء آخر: كيف نقرأ هذه السيرة قراءةً تجعلها قادرة على مخاطبة الإنسان المعاصر دون أن نفقد دقتها التاريخية، أو نحمّلها ما لا تحتمل، أو نحولها إلى مواعظ منفصلة عن سياقها؟

فالسيرة ليست مجموعة أحداث متجاورة تبدأ بمولد النبي ﷺ وتنتهي بوفاته، وإنما هي مسار متكامل تشكلت فيه الشخصية، ونمت الجماعة، وتغير المجتمع، ونشأت الدولة، ثم ظهرت آثار الرسالة في واقع الإنسان والتاريخ، ومن هنا فإن الاقتصار على سرد الوقائع يحفظ الذاكرة، لكنه لا يكفي وحده لبناء الوعي؛ كما أن الإفراط في استخراج " القوانين" و" النماذج" من غير ضوابط قد يحوّل السيرة إلى مادة لإسقاطات معاصرة لا يشهد لها النص ولا الحدث.

ومن ثم يحاول هذا الكتاب أن يسلك طريقًا وسطًا: روايةٌ تضبط الحدث، وقراءةٌ تفهم معناه، واستنباطٌ يلتزم بحدود الدليل، وتطبيقٌ معاصر يعلن عن نفسه بوصفه تطبيقًا لا جزءًا من التاريخ النبوي.

وهذه القاعدة هي التي ستظل حاكمة لفصول الكتاب جميعًا: لا نبدأ من الفكرة المعاصرة ثم نبحث لها في السيرة عن شاهد، وإنما نبدأ من السيرة نفسها، ونفهم الحدث في سياقه، ثم نسأل: ماذا يدل عليه؟ وما الذي يمكن أن نستفيد منه اليوم؟ وأين ينبغي أن نتوقف؟

📘 الباب التمهيدي: مدخل المنهج والفلسفة
الوظيفة: تهيئة القارئ ذهنيًا، وشرح الأدوات التي سيقرأ بها السيرة، وضبط المرجعيات.
الفصل الأول: لماذا هذا الكتاب؟
١. فجوة المكتبة والحاجة إلى قراءة متكاملة (الجمع بين الأصالة والمعاصرة والحركة).
٢. المرجعية الفكرية والمنهجية (القرآن والسنة هما أصل المادة الشرعية، وكتب الشيخ محمد الغزالي والمباركفوري والغضبان هي المرجعية الفكرية المعتمدة في بناء القراءة والتحليل، ولا نخرج عنها).
٣. خريطة الكتاب (كيف ترتبط الأبواب والفصول، والإجابة عن السؤال المركزي).

الفصل الأول: لماذا هذا الكتاب؟

المبحث الأول: فجوة المكتبة والحاجة إلى قراءة متكاملة

أولا: وفرة الكتب لا تعني اكتمال القراءة

من يطالع كتب السيرة يجد ثروة هائلة من الروايات، والأخبار والتحقيقات والتعليقات؛ فمن أقدم ما وصل إلينا في هذا الباب رواية ابن إسحاق التي حفظها ابن هشام في سيرته، ثم جاءت مصنفات التاريخ والتفسير والحديث والشمائل والمغازي، وتتابعت بعد ذلك المؤلفات التي أعادت تقديم السيرة في صور متعددة.

وقد امتازت هذه الجهود بتنوع مقاصدها؛ فبعضها اعتنى بجمع الروايات وترتيب الأحداث، وبعضها غلب عليه الجانب التاريخي، وبعضها اتجه إلى الفقه والأحكام، وبعضها إلى الشمائل والأخلاق، وبعضها إلى التربية والدعوة والحركة، وهذا التنوع ثروة لا ينبغي إهدارها، لكنه يجعل القارئ المعاصر أمام سؤال منهجي :كيف يجمع بين هذه الأبعاد دون أن يطغى أحدها على غيره؟

إن قراءة السيرة بوصفها تاريخًا فقط قد تجعل القارئ يعرف متى وقعت الحوادث ومن شارك فيها، لكنه قد لا يدرك كيف تشكل الإنسان الذي حمل الرسالة، وكيف انتقلت الدعوة من فرد إلى جماعة، ومن جماعة مستضعفة إلى مجتمع، ومن مجتمع إلى دولة، وكيف تعاملت القيادة النبوية مع النصر والهزيمة، والاختلاف والأزمة، والسلم والحرب.

وفي المقابل، فإن قراءتها بوصفها مادة وعظية فقط قد تفقد الحدث خصوصيته التاريخية؛ إذ يتحول غار حراء إلى " رمز" مجرد، والطائف إلى قصة للصبر، والهجرة إلى درس في التخطيط، وبدر إلى نموذج للنصر، من غير أن يبقى في كل ذلك الحدث نفسه بما له من ظروف وتفاصيل ودلالات.

والأخطر من ذلك أن تتحول السيرة إلى مستودع جاهز لإثبات أفكارنا الحديثة؛ فنأخذ من كل حادثة عبارة توافق تصورًا مسبقًا، ثم ننسب هذا التصور إلى المنهج النبوي، مع أن الحدث قد لا يدل عليه إلا بقدر محدود، أو قد يكون السياق التاريخي مختلفًا جذريًا.

ثانيا: من سرد الأحداث إلى فهم مسار التحول

الذي يميز هذا الكتاب إذن ليس دعوى اكتشاف سيرة جديدة، وإنما محاولة إعادة تنظيم النظر إليها. فالسؤال الذي يحكم القراءة ليس فقط: ماذا حدث؟

بل: كيف حدث؟ ولماذا حدث في ذلك السياق؟ وماذا صنع في الإنسان والجماعة والمجتمع؟ وما الذي يمكن استنباطه منه دون تجاوز دلالته؟

ولهذا سيظهر في الكتاب خيط ناظم يمتد من أول مرحلة السيرة إلى آخرها :بناء الإنسان، ثم بناء الجماعة، ثم بناء المجتمع، ثم إدارة القوة، ثم قراءة الأثر، ثم الانتقال من المعرفة إلى الحياة.

وهذا لا يعني أن السيرة نفسها قسمت بهذه المصطلحات، ولا أن النبي ﷺ كان يعمل وفق " خطة نظرية" مكتوبة بهذه العناوين؛ وإنما هي طريقة تحليلية تمت بتوفيق من الله وهو صاحب الفضل دائماً وأبداً وفق تنظيم المادة التاريخية وإبراز العلاقات بين أحداثها.

وهنا ينبغي التفريق بين الحدث التاريخي والقراءة التحليلية؛ فالحدث ثابت بقدر ثبوت الرواية، أما العنوان الذي نضعه له، والقانون الذي نستنبطه منه، والصياغة التي نفسر بها أثره في واقعنا، فكل ذلك عمل بشري يحتاج إلى الدليل والانضباط.

ثالثا: السيرة بوصفها تجربة إنسانية متكاملة

من أبرز ما تكشفه السيرة أن التغيير لم يبدأ من المؤسسات، وإنما بدأ بالإنسان.

بدأت الدعوة في بيئة لم تكن مهيأة لاستقبالها، ولم يكن في يد النبي ﷺ جيش ولا دولة ولا موارد مادية كبيرة، وكان الذين استجابوا في بداياتها أفرادًا متفرقين، من طبقات اجتماعية مختلفة، ثم أخذت التربية تحول هؤلاء الأفراد إلى جماعة تحمل معنى مشتركًا، وتتحمل تبعاته.

وهذا المعنى حاضر بقوة في القرآن الكريم في وصف المهمة النبوية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (١) فالقرآن نفسه يضع التلاوة والتزكية والتعليم في قلب الوظيفة النبوية، وهو ما يجعل بناء الإنسان عنصرًا أصيلًا في فهم المرحلة الأولى من السيرة، لا مجرد إضافة تربوية متأخرة.

ومن هنا كان اهتمام البعض بقراءة الأحداث من داخل معانيها، وربط الوقائع بالمقاصد التربوية والإيمانية التي شكلت شخصية الجيل الأول. كما يبرز البعض الآخر من كتاب السيرة النبوية سرد تسلسل الأحداث وتطورها، بما يساعد على رؤية المرحلة المكية والمدنية ضمن سياق تاريخي متصل، بينما يولي بعض العلماء المعاصرين كالدكتور الغضبان(٢) في المنهج التربوي للسيرة النبوية عناية خاصة باستخراج الأبعاد التربوية من مراحل التكوين والصراع والتمكين.

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) الدكتور منير محمد الغضبان، عالم وداعية وباحث من سوريا؛ متخصص في السيرة النبوية. وُلد سنة ١٩٤٢م في التل بدمشق؛ حصل على إجازة في الشريعة من جامعة دمشق، ثم ماجستير في اللغة العربية، ودكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم في السودان

ولا يراد من الجمع بين هذه الكتب أن نجعلها في مرتبة واحدة من حيث طبيعة المادة؛ فكتب السيرة والتاريخ شيء، والكتب التي تقرأ السيرة قراءة تربوية أو تحليلية شيء آخر، وإنما المقصود الإفادة من اختلاف زوايا النظر، مع بقاء القرآن والسنة الصحيحة أصل المرجعية الشرعية.

رابعاً: بين الأصالة والمعاصرة

إن الحاجة إلى هذا الكتاب تنشأ أيضًا من الحاجة إلى الجمع بين أمرين لا ينبغي أن يتعارضا :الأصالة في قراءة السيرة، والمعاصرة في الإفادة منها.

فالأصالة تعني ألا نفصل الحدث عن مصادره وسياقه، وألا نثبت رواية لمجرد شيوعها، وألا ننسب إلى النبي ﷺ قولًا أو موقفًا بلا تثبت.

أما المعاصرة فلا تعني أن نجعل السيرة نسخة من واقعنا، وإنما أن نسأل بوعي: إذا فهمنا هذا الحدث كما وقع، فما الدرس الذي يمكن أن نستفيد منه اليوم؟ وما الذي لا يجوز نقله من سياقه؟

ولهذا سيكون التطبيق المعاصر في هذا الكتاب متميزًا صراحة عن الرواية التاريخية؛ فإذا كان الحديث عن الهجرة مثلًا، فإن وصف التخطيط للرحلة، وغار ثور، واختيار الدليل، وتوزيع الأدوار، هو من الرواية التاريخية التي تحتاج إلى توثيق. أما القول إن المؤسسات المعاصرة تحتاج إلى إدارة للمخاطر وتوزيع للأدوار، فهو قراءة واستفادة معاصرة، لا خبرًا عن السيرة.

وهذا الفصل بين المستويات ليس ترفًا منهجيًا؛ بل هو ضرورة حتى لا نخلط بين " ما وقع" و " ما نفهمه من وقوعه "

عام ١٩٩٧م.وحصل على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية عام ٢٠٠٠م. وتوفي في مكة المكرمة سنة ٢٠١٤م. ومن أشهر كتبه في السيرة: "فقه السيرة النبوية"، و"المنهج الحركي للسيرة النبوية"، و"المنهج السياسي للسيرة النبوية"، و"أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية"**.**

المرجعية الفكرية والمنهجية

أولا: القرآن والسنة أصل القراءة

تبدأ المرجعية من أصل لا خلاف فيه :القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

فالقرآن هو المصدر الأول لفهم الرسالة ومقاصدها، وهو الذي يقدم كثيرًا من مفاتيح فهم الأحداث النبوية، ولا سيما حين يتحدث عن بدر وأحد والخندق، والحديبية والفتح وغيرها.

كما أن السنة الصحيحة هي المصدر الأساس في معرفة أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وتوجيهاته.

ولهذا لن يكون من المنهج أن نبدأ بحادثة تاريخية ثم نبحث لها عن معنى شرعي من خارجها، وإنما نرجع أولًا إلى النصوص التي تناولتها، ثم إلى الروايات التاريخية الصحيحة أو المقبولة بحسب قواعد أهل العلم، ثم نقارن ونحلل.

ومن هنا تأتي أهمية التخريج الحديثي؛ لأن العبارة المشهورة ليست بالضرورة حديثًا(٣)، والرواية المتداولة في كتب السيرة ليست بالضرورة في درجة واحدة من الثبوت(٤).

ثانيا: المرجعيات الأساسية في البناء التحليلي

يعتمد هذا الكتاب في بناء قراءته وتحليله للسيرة النبوية، بصفة أساسية، على ثلاثة كتب تشكل العمود الفقري لمنهجه التحليلي، وتتوزع أدوارها بين القراءة الإيمانية والفكرية، وضبط التسلسل التاريخي، واستجلاء الأبعاد التربوية والحركية للسيرة.

محمد الغزالي(٥)، *فقه السيرة* : يستند الكتاب إليه في بناء الزاوية الإيمانية والفكرية والتربوية للقراءة، مع عناية ظاهرة باستخراج المعاني الكلية من أحداث السيرة، وربط دلالاتها بواقع الإنسان وحياته.

صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم.

---

(٣) الحديث المشتهر: "اختلاف أمتي رحمة".

حكمه: لا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وقد حكم الألباني عليه بأنه "لا أصل له"، ونقل ابن باز أنه ليس من كلام النبي ﷺ.

وهناك مثال آخر أقوى من الناحية الحديثية وأشد وضوحًا في بيان خطورة نسبة المشهور إلى النبي ﷺ، وهو: "أنا مدينة العلم وعلي بابها"؛ فقد أخرجه الحاكم في المستدرك (١٣٧/٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٥/١١، رقم ١١٠٦١)، لكن أئمة من أهل الحديث نقدوا إسناده، وحكم العقيلي بأنه "لا يصح في هذا المتن حديث"، كما حكم ابن الجوزي بأنه لا يصح من جميع وجوهه.

(٤) ومن الأمثلة على تفاوت درجات الثبوت في الروايات: قصة شق صدر النبي ﷺ؛ فقد ثبت أصل هذه الحادثة بأحاديث صحيحة أخرجها البخاري ومسلم، غير أن بعض التفاصيل والزيادات التي وردت في بعض روايات السيرة لا تثبت بالدرجة نفسها. ومن ثمّ يتبين أن ثبوت أصل الحادثة لا يستلزم ثبوت جميع التفاصيل الواردة في الروايات المتعلقة بها، مما يؤكد أهمية التمييز بين مراتب الروايات عند دراسة أحداث السيرة النبوية.

(٥) محمد الغزالي هو عالم وداعية ومفكر إسلامي مصري، وُلد عام 1917م في قرية نكلا العنب بمحافظة البحيرة في مصر .نشأ في أسرة متدينة، وحفظ القرآن الكريم في صغره. التحق بالأزهر الشريف، ودرس في كلية أصول الدين، ثم عمل في مجال الدعوة والتدريس. عُرف بأسلوبه المؤثر في الكتابة والخطابة، وله مؤلفات كثيرة في الفكر الإسلامي والدعوة والسيرة.

من أشهر كتبه : فقه السيرة، و**"جدد حياتك"، وخلق المسلم"، و"معركة المصحف".**

توفي رحمه الله عام 1996م في المملكة العربية السعودية، ودُفن في المدينة المنورة.

ويُعتمد عليه بصورة أساسية في ترتيب الوقائع وضبط سياقها التاريخي، واستحضار تسلسل الأحداث ومراحل السيرة، بما يسهم في تكوين صورة عامة متماسكة عن مسارها وأحداثها.

منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية.

ويُستفاد منه في بناء الجانب التربوي والحركي للقراءة، ولا سيما في تحليل مراحل التكوين والبناء، وفهم طبيعة الابتلاء والصراع، ودور الجماعة والقيادة في مسيرة الدعوة.

ولا يعني اعتماد هذه الكتب الثلاثة أن تكون بديلًا عن المصادر الأصلية للسيرة والحديث، وإنما هي تمثل **المرجعية الفكرية والتحليلية الأساسية** التي ينتظم في إطارها بناء الكتاب. ومن ثم، فإن الإفادة من سائر المصادر والمراجع لا تمثل خروجًا عن هذا البناء، وإنما تأتي في سياق توسيعه، واستكمال جوانبه، ومراجعة مادته، وتدقيق ما يحتاج إلى تدقيق، بما يخدم القراءة العلمية المتوازنة للسيرة النبوية.

ثالثا: الاستفادة من المصادر الأخرى

الحكمة ضالة المؤمن، ومن ثم لا يحسن أن يحصر قارئ السنة النبوية نفسه في مجموعة محدودة من الكتب ما دام يستطيع أن يعود إلى مصادر أخرى معتبرة تزيد الرواية ضبطًا، والتحليل عمقًا، والتوثيق قوة.

ولهذا يستفيد الكتاب من سيرة ابن هشام في الرواية التاريخية، ومن تفسير ابن كثير عند الحاجة إلى ربط الحدث بالآيات وتفسيرها، ومن كتب ابن القيم، ولا سيما *زاد المعاد*، في استحضار الهدي النبوي والفقه المستنبط من أفعاله ﷺ، إلى جانب كتب الحديث المعتمدة، وفي مقدمتها *صحيح البخاري* و*صحيح مسلم*، وما يحتاج إليه البحث من *سنن أبي داود* و*جامع الترمذي* وغيرهما.

كما يمكن الإفادة من المصادر المتخصصة في المغازي والتاريخ والشمائل والفقه، على أن تكون الإفادة منها محكومة بوظيفتها: فالمصدر الحديثي لتوثيق الحديث، ومصدر السيرة لتتبع الحدث، وكتاب التفسير لفهم الآية في سياقها، وكتاب التحليل للاستفادة من القراءة، ولا يجوز أن تتحول ملاحظة مؤلف متأخر إلى " حقيقة تاريخية" لمجرد أنه قالها.

رابعا: مستويات النص في هذا الكتاب: ولضبط المنهج، ستتحرك مباحث الكتاب في أربعة مستويات متمايزة:

المستوى الأول: الرواية التاريخية. وفيه نثبت ما وقع بحسب المصادر المعتمدة، مع العناية بالروايات الأصلية والأحاديث الصحيحة، وبيان مواضع الاختلاف عند الحاجة.

المستوى الثاني: القراءة التربوية. وفيه نسأل: ماذا يكشف الحدث عن التربية، وبناء الشخصية، وإدارة الجماعة، والقيادة، والصبر، والمسؤولية، وغير ذلك من المعاني التي يدل عليها الحدث نفسه؟

المستوى الثالث: الاستنباط. وفيه ننتقل من الجزئي إلى الكلي، لكن بعبارات منضبطة مثل: " يظهر من ذلك"، و" يمكن أن يستفاد"، و" من الدلالات المحتملة"، بدل تحويل كل ملاحظة إلى " قانون نبوي" قطعي.

المستوى الرابع: التطبيق المعاصر. وهو أكثر المستويات احتياجًا إلى الاحتراز؛ لأن الواقع المعاصر مختلف في بنيته وظروفه. لذلك لا نقول: " أمر النبي ﷺ المؤسسات المعاصرة أن تفعل كذا"، وإنما نقول: " يمكن أن تستفيد المؤسسات المعاصرة من هذا المعنى في كذا "، وبذلك تبقى الحدود واضحة بين النص، والتاريخ، والفهم، والتطبيق.

خامسا: ضابط النسبة إلى النبي ﷺ كلما ارتفعت منزلة المنسوب إليه ارتفعت مسؤولية التثبت.

ولهذا فإن هذا الكتاب لا يتعامل مع العبارات الوعظية الشائعة على أنها أحاديث حتى يثبت تخريجها، ولا ينسب إلى النبي ﷺ معنى محددًا لمجرد أن بعض كتب السيرة أو الفكر صاغته بهذا الأسلوب.

وإذا كان الحديث صحيحًا، أُشير إلى مصدره بحسب موضعه، وإذا كانت الرواية تاريخية، أُحيل إلى مصدرها التاريخي، وإذا كان الكلام استنباطًا للمؤلف أو للباحثين، نُسب إليهم، ولم يُنسب إلى السيرة أو إلى النبي ﷺ.

وهذه القاعدة ستكون من أهم الضوابط التي تحكم فصول الكتاب.

المبحث الثالث: خريطة الكتاب والسؤال المركزي

أولا: من الإنسان إلى المجتمع

ينطلق الكتاب من تصور متدرج لمراحل التجربة النبوية، لا بمعنى أنها كانت " مراحل مغلقة" لا تتداخل، وإنما باعتبارها مستويات متراكمة في البناء.

ولهذا يبدأ الكتاب بالمرحلة التمهيدية التي تهيئ القارئ لفهم المنهج والسؤال.

١. يأتي الباب الأول: مكة — بناء الإنسان وصناعة النواة الصلبة، حيث تبرز البيئة الجاهلية، وبداية الوحي، وصناعة الشخصية، ودار الأرقم، والجهر بالدعوة، والابتلاء، والهجرة إلى الحبشة، والطائف، ثم العقبة بوصفها انتقالًا في أفق المشروع.

٢. ثم يأتي الباب الثاني: المدينة — بناء المجتمع والدولة، حيث تنتقل القراءة إلى الهجرة والتأسيس، وبناء المسجد، والمؤاخاة، وتنظيم المجتمع، وبدر وأحد والخندق، ثم صناعة القيادات والأسرة والمجتمع.

٣. ثم ينتقل الكتاب إلى الباب الثالث: التمكين — إدارة القوة والفتح، حيث لا يعود السؤال مجرد: كيف نواجه الاستضعاف؟ بل يصبح: كيف تدار القوة حين تأتي؟ وكيف يتحول النصر إلى مسؤولية؟ وكيف تُضبط القوة بالأخلاق؟

٤. ثم يأتي الباب الرابع: القوانين الجامعة، وفيه لا تعاد السيرة من جديد، وإنما يعاد النظر في خلاصتها لاستخراج القوانين التي ثبتت دلالتها عبر أكثر من مرحلة، مع بيان حدود كل قانون.

٥. ثم يأتي الباب الخامس: السيرة والأسئلة المعاصرة، حيث توضع بعض القضايا التي يكثر حولها الجدل اليوم تحت ميزان النص والتاريخ والسياق، بعيدًا عن الدفاع الانفعالي أو الإسقاط المتعسف.

٦. ثم ينتقل الكتاب إلى الباب السادس: من المنهج إلى الواقع، حيث يصبح السؤال أكثر مباشرة: كيف يمكن للفرد والأسرة والجماعة والمؤسسة والمجتمع أن يستفيدوا من هذه المعاني في واقعهم؟

٧. وأخيرًا تأتي الخاتمة لتعيد القارئ إلى نقطة البداية :السيرة ليست معلومات تحفظ، وإنما هداية تتحول إلى اقتداء، والاقتداء يتحول إلى بناء، والبناء يتحول إلى مسؤولية، والمسؤولية تترك أثرًا.

ثانيا: السؤال المركزي: من خلال هذه البنية كلها يظل سؤال الكتاب حاضرًا: كيف نقرأ السيرة النبوية قراءة تجعلها قادرة على بناء الإنسان، وتوجيه الجماعة، وفهم المجتمع، وإدارة القوة، وصناعة الأثر، دون أن نفقد أمانة الرواية أو نتجاوز حدود الاستنباط؟

وهذا السؤال يفرض علينا ألا نكتفي بالسؤال عن النتيجة.
فليس المهم فقط أن نعرف أن المسلمين انتصروا في بدر، وإنما أن نفهم كيف اجتمعت في الحدث عوامل الإيمان والاستعداد والقيادة والدعاء والأخذ بالأسباب، وأن نعرف كذلك أن النصر في التصور الإسلامي ليس نتيجة ميكانيكية لمعادلة مادية.
وليس المهم فقط أن نعرف أن المسلمين هُزموا في أحد، وإنما أن نتأمل كيف تعامل القرآن والنبي ﷺ مع الخطأ والصدمة، وكيف أعيد بناء الجماعة بعد الانكسار.
وليس المهم فقط أن نعرف أن المسلمين دخلوا مكة منتصرين، وإنما أن نسأل كيف تعاملت القيادة النبوية مع لحظة امتلاك القوة، وكيف اجتمع الحزم والعفو، وكيف أعيد تشكيل المجتمع بعد سقوط الخصومة المسلحة.

ثالثا: ما الذي لا يدعيه الكتاب؟

هذا الكتاب ليس كتابًا في الفقه السياسي الإسلامي، وإن كان يستفيد من بعض أحداث السيرة في فهم القيادة والشأن العام.
وليس كتابًا في التاريخ النقدي للسيرة من حيث استقصاء جميع الروايات ومناقشة أسانيدها سندً سندا، وإن كان يحرص على التوثيق والتمييز بين درجات الروايات.
وليس كتابًا في التنمية البشرية يستعمل السيرة لإثبات نظريات جاهزة.
وليس محاولة لإثبات أن كل مؤسسة معاصرة يمكن أن تستنسخ النموذج النبوي كما هو.
إنما هو قراءة تربوية وتحليلية للسيرة، تقوم على الرواية الموثقة، وتستفيد من المصادر الأصيلة والقراءات المعتمدة، ثم تستخرج من الأحداث ما تسمح به دلالاتها، وتضع التطبيقات المعاصرة في موضعها الصحيح بوصفها اجتهادًا بشريًا قابلًا للنظر والمراجعة.

رابعا: كيف ينبغي للقارئ أن يقرأ هذا الكتاب؟

ليس المطلوب من القارئ أن يوافق على كل استنباط يرد في الكتاب لمجرد أنه صيغ في صورة قاعدة.
بل إن من روح المنهج أن يظل القارئ قادرًا على التمييز:
هذا نص قرآني.

وهذا حديث نبوي.

وهذه رواية تاريخية.

وهذا فهم لأحد العلماء.

وهذه قراءة تربوية.

وهذا استنباط.

وهذه إفادة معاصرة.

فإذا استقام هذا التمييز، أصبح الكتاب وسيلة لفهم السيرة، لا وسيلة لخلط مستوياتها.

خاتمة الفصل: لماذا هذا الكتاب؟

لأن السيرة النبوية أكبر من أن تُختزل في قصص محفوظة، وأعمق من أن تُختصر في مواعظ، وأغنى من أن تتحول إلى مجموعة شعارات معاصرة.

نقرأها لنرى كيف بُني الإنسان قبل أن يُطلب منه حمل الأمانة، وكيف تشكلت الجماعة قبل أن تواجه المجتمع، وكيف تأسس المجتمع قبل أن يدير الدولة، وكيف أُديرت القوة حين جاءت، وكيف بقيت الأخلاق حاضرة حين تغير ميزان القوة.

ونقرأها أيضًا لنتعلم حدودنا ونحن نقرأها: فلا ننسب إلى النبي ﷺ ما لم يثبت، ولا نجعل اجتهادًا تاريخيًا قانونًا أبديًا، ولا نحول تطبيقًا معاصرًا إلى جزء من السيرة، ولا نبحث في الأحداث عن إجابات جاهزة لأسئلة لم تكن مطروحة في سياقها.

إن المقصود في النهاية ليس أن نخرج من السيرة بمجموعة من " القوانين" نحفظها، وإنما أن نتغير طريقة نظرنا إلى الإنسان والتربية والقيادة والمجتمع والمسؤولية من خلال الهدي النبوي.

وهنا يصبح الكتاب رحلة من المعرفة إلى الفهم، ومن الفهم إلى الاقتداء، ومن الاقتداء إلى البناء.

فالسيرة لا تسألنا فقط :ماذا حدث؟

بل تدفعنا إلى السؤال الأعمق:

ماذا صنع هذا الحدث في الإنسان؟ وماذا صنع الإنسان المسلم بعد ذلك في التاريخ؟

القسم الأول

العهد المكيّ

قبل أن يتغيّر العالم

الباب الأول:

مكة

بناء الإنسان وصناعة النواة الصلبة



الفصل الثاني: جذور المشهد

تمهيد: قبل أن يبدأ التغيير

لم تبدأ السيرة النبوية يوم نزل الوحي في غار حراء فحسب؛ فقد كان العالم الذي أُرسل فيه النبي ﷺ قد بلغ من الاضطراب مبلغًا جعل الحاجة إلى الرسالة أعمق من مجرد تصحيح بعض العادات أو معالجة بعض الانحرافات الجزئية.

كانت مكة مركزًا دينيًا وتجاريًا مهمًا في جزيرة العرب، وكانت الكعبة مقصد العرب، لكنها كانت في الوقت نفسه محاطة بمظاهر من الشرك والظلم الاجتماعي والاختلال الأخلاقي، ولم يكن الانحراف في الجاهلية مجرد مجموعة من السلوكيات المتفرقة، بل كان منظومة متشابكة من التصورات، والقيم، والعلاقات، والمصالح.

ومن هنا تأتي أهمية البدء من جذور المشهد؛ لأن الرسالة التي ستغير وجه التاريخ لم تواجه مشكلة سلوك منفصل عن منظومة الحياة، وإنما واجهت منظومة كاملة، وكان عليها أن تبدأ من الإنسان نفسه: من تصوره عن الله، وعن الكون، وعن الحياة، وعن المصير، ثم تعيد بناء ما تفرع عن ذلك من أخلاق وسلوك وعلاقات.

ولهذا فإن فهم المرحلة المكية لا يستقيم إذا قرأناها بوصفها سلسلة من الأحداث: بعثة، ثم دعوة، ثم اضطهاد، ثم هجرة. إنما ينبغي أن نراها عملية بناء طويلة للإنسان المؤمن، جرت داخل بيئة شديدة المقاومة، حتى تهيأت النواة التي حملت الرسالة بعد ذلك إلى آفاق أوسع.

وهنا تتضح إحدى القضايا المركزية في هذا الكتاب :أن تغيير الواقع يبدأ من إعادة بناء الإنسان الذي يعيش فيه.

المبحث الأول: الجاهلية منظومة حياة، ولماذا يبدأ التغيير بالإنسان؟

أولا: الجاهلية ليست فراغا من القيم

حين نتحدث عن الجاهلية، ينبغي أن نحذر من اختزالها في صورة مجتمع لا يعرف شيئًا من الخير؛ فقد كان في العرب خصال محمودة من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار ونصرة المستجير، وكانت فيهم بقية من آثار ملة إبراهيم عليه السلام، كما كانت بعض شعائر الحج قائمة بينهم.

لكن المشكلة لم تكن في انعدام كل قيمة، وإنما في اختلال المرجعية التي تنتظم بها القيم.

كان الشرك هو الإطار العقدي الغالب، وكانت عبادة الأصنام قد أصبحت جزءًا من الحياة الدينية والاجتماعية، وفي هذا يقول الله تعالى واصفاً حال العرب: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (٦).

ولم يكن هذا التصور منفصلًا عن بقية الحياة، فالتصور عن الله والعبادة والمصير يترك أثره بالضرورة في الإنسان وفي علاقاته وموازين الحكم عنده.

ولهذا جاء القرآن المكي في بداياته ليعيد بناء التصور قبل أن يعيد بناء النظام، وليحرر الإنسان من الخضوع لغير الله قبل أن ينقله إلى صورة جديدة من صور الحياة.

وهنا تظهر أهمية النظر إلى الجاهلية باعتبارها منظومة لا مجرد قائمة من الأخطاء.

وقد أشار الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة إلى أن الإسلام لم يواجه مظاهر الانحراف منفردة، وإنما واجه جذورًا فكرية ونفسية واجتماعية متشابكة، ولذلك كان إصلاحه عميقًا بدأ من العقيدة والضمير، ثم انعكس على السلوك والحياة. (٧)

ويعرض صفي الرحمن المباركفوري صورة المجتمع العربي قبيل البعثة في سياقه الديني والاجتماعي والسياسي، مبينًا أن الشرك والعصبية القبلية واضطراب الموازين الاجتماعية كانت جزءًا من المشهد الذي جاءت الرسالة لتغييره. (٨)

---

(٦) سورة يونس: ١٨

(٧) الشيخ محمد الغزالي ، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، القاهرة؛ وينظر في عرضه لطبيعة المرحلة المكية ومقاصد التربية فيها.

(٨) صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام؛ وينظر مباحث المجتمع العربي قبل البعثة وبداية الدعوة.

أما منير الغضبان، فإن قراءته التربوية للسيرة تؤكد أهمية إدراك البيئة التي نشأت فيها الحركة الإسلامية الأولى؛ لأن التربية النبوية لم تكن تربية مجردة عن الواقع، وإنما كانت تربية لإنسان يعيش داخل مجتمع له عقيدته، وعاداته وضغوطه ومصالحه. (٩)

ومن هنا، فإن أول درس في قراءة السيرة هو ألا نسأل فقط :ماذا فعل النبي ﷺ؟ بل نسأل قبل ذلك :ما البيئة التي كان هذا الفعل يجري داخلها؟ وما نوع الإنسان الذي كان ينبغي أن يُبنى لمواجهة هذه البيئة؟

ثانيا: حين يصبح الانحراف جزءا من النظام الاجتماعي

كان من أخطر ما واجهته الدعوة أن الانحراف لم يكن شأنًا فرديًا معزولًا؛ بل كان سلوكاً عاماً وثقافة مجتمعية وكانت وراؤه مصالح وقوى اجتماعية تحرص على بقاء الواقع كما هو.

فالكعبة كانت مركزًا دينيًا للعرب، ومكة كانت تستفيد من مكانتها، وكانت الزعامة القرشية مرتبطة بصورة من صور القيادة الدينية والاجتماعية والتجارية، ولذلك لم يكن رفض قريش للإسلام مجرد خلاف في مسألة غيبية، بل ارتبط أيضًا بما يمكن أن يحدثه التوحيد من تغيير في موازين السلطة والمكانة.

وقد سجل القرآن جانبًا من هذا الاعتراض في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (١٠) فالمشكلة في نظرهم لم تكن أن محمدًا ﷺ يدعو إلى إله جديد فحسب؛ بل إن دعوته كانت تهدم التصور الذي قامت عليه منظومتهم الدينية والاجتماعية بأكملها.

كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ فالتوحيد في الخطاب القرآني لم يكن إضافة عقيدة إلى عقائد قائمة، وإنما كان تحريرًا للإنسان من كل عبودية لغير الله.

ولهذا كان الصدام حتميًا بين رسالة تريد أن تعيد الإنسان إلى عبودية الله وحده، ومنظومة تقوم في جوانب منها على الولاءات القبلية والمصالح والموروثات التي اكتسبت قداسة اجتماعية.

ويظهر هذا المعنى في قراءة ابن هشام لأحداث الدعوة المكية؛ إذ يعرض مراحل المواجهة بين النبي ﷺ وقريش، وكيف انتقل موقف قريش من الاستغراب والإنكار إلى السخرية والمساومة ثم التضييق والإيذاء. (١١)

---

(٩) منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء؛ وينظر مباحث التربية المكية وبناء الفرد والجماعة.

(١٠) سورة ص: الاية ٥.

(١١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت؛ وينظر خبر دعوة النبي ﷺ لقريش ومراحل موقفها من الدعوة.

كما أن ابن كثير، في عرضه لأحداث البعثة وما تبعها، يبرز طبيعة التحول الذي أحدثته الدعوة في المجتمع المكي، وكيف واجهت قريش الرسالة بالرفض والمقاومة. [١٢]

وهذا يلفت النظر إلى حقيقة تربوية متجددة ومهمة لكل من يتصدر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما كان التغيير عميقًا في جذور التصور، كان أكثر عرضة لمقاومة المنظومة القائمة.

ولذلك لم يكن غريبًا أن يبدأ الصراع حول العقيدة، ثم يتسع ليشمل الاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلاقات الإنسانية؛ وفي هذا تقول أم المؤمنين أمنا عائشة رضي الله عنها"...**إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدا**"[١٣]

ثالثا: القرآن يبدأ من الإنسان

إذا كان الواقع المكي منظومة متكاملة، فلماذا لم تبدأ الرسالة بإعادة تنظيم المجتمع مباشرة؟

الجواب يظهر بوضوح في طبيعة القرآن المكي؛ لقد كانت السور المكية تبني الإنسان قبل أن تطلب منه حمل أعباء المجتمع. كانت تعرّفه بالله، وتوقظه إلى الآخرة، وتحرر قلبه من الخوف من غير الله، وتربيه على الصبر، وتعيد تشكيل نظرته إلى المال والسلطة والقوة والضعف ؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١) قُمۡ فَأَنذِرۡ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ (٤) وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ (٥) وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ (٧)﴾ [١٤].

فالخطاب منذ البداية ليس مجرد تكليف بالحركة، وإنما بناء لشخصية تحمل التكليف:

قم، وأنذر، وكبّر ربك، وطهّر نفسك، واهجر الرجس، واصبر لربك.

وهذه المعاني تُفسِر جانبًا من طبيعة المرحلة المكية؛ فالرسالة كانت تصنع الإنسان الذي يستطيع أن يقول " نعم" لله بكل حريته وإرادته المطلقة حين يقول له الواقع والمحيط الاجتماعي المرتبط بديانة الأباء والواقع " لا".

---

(١٢) إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر؛ وينظر أخبار المبعث وبداية الدعوة المكية.

(١٣) صحيح البخاري (٤٩٩٣) • [صحيح] • أخرجه عبد الرزاق (٥٩٤٣)، والمستغفري في ((فضائل القرآن)) (٤٢٦) واللفظ لهما، والنسائي في ((الكبرى)) (١١٤٩٤)

(١٤) سورة المدثر: ١-٧.

ويؤكد الشيخ محمد الغزالي أن التربية المكية قامت على غرس الإيمان العميق الذي يجعل المسلم قادرًا على احتمال تبعات العقيدة الجديدة، وأن بناء العقيدة لم يكن درسًا نظريًا، بل كان إعادة لصياغة الشخصية والضمير والسلوك. (١٥)

كما أن التربية النبوية في المرحلة المكية كانت تركز على بناء العقيدة واليقين والصبر والثبات؛ لأن الفرد الذي لم تتكون داخله هذه المعاني لن يستطيع تحمل تكاليف الطريق حين تشتد المحن. (١٦)

كما تبرز لنا طبيعة القرآن المكي ومضامينه أنها كانت متعلقة بالتوحيد والبعث والرسالة وتزكية النفوس، بما يكشف أن الأولوية في تلك المرحلة كانت لإقامة الأساس الذي سيحمل البناء اللاحق. (١٧)

وتؤيد السنة النبوية هذا المعنى من جهة منهج الدعوة وترتيب الأولويات؛ فقد أمر النبي ﷺ معاذًا رضي الله عنه، حين بعثه إلى اليمن، أن يجعل أول ما يدعو إليه توحيد الله، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الصلاة والزكاة. وفي ذلك دلالة على أن ترسيخ أصل الإيمان والعقيدة مقدَّم على تفصيل الأحكام، وهو ما ينسجم مع طبيعة المرحلة المكية التي غلب على خطابها تقرير التوحيد والبعث والرسالة وتزكية النفوس، تمهيدًا لبناء التشريع في المرحلة اللاحقة .

حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ونحنُ فِتيانٌ حَزاوِرَةٌ، فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعلَّمَ القرآنَ، ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازدَدنا به إيمانًا. (١٨) والمقصود بالإيمان هنا أصول الاعتقاد وما يتصل بها من معرفة الله ورسوله واليوم الآخر وغيرها، ثم جاء تعلم القرآن فزادهم إيمانًا.

وهنا لا ينبغي أن نفهم " البناء" بمعناه الفردي الضيق؛ فالإنسان الذي يعاد بناؤه في مكة سيكون بعد سنوات هو نفسه الذي سيحمل مسؤولية الأسرة والمجتمع والدولة والجهاد، والقضاء، والتعليم والدعوة.

فبناء الإنسان لم يكن مرحلة هامشية تسبق المشروع؛ بل كان هو المشروع الإسلامي في بدايته.

رابعا: التغيير القرآني يبدأ من الداخل من أبرز خصائص المنهج القرآني أن التغيير لا يبدأ دائمًا من الخارج ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١٩).

---

(١٥) الشيخ محمد الغزالي ، فقه السيرة؛ وينظر حديثه عن طبيعة البناء العقدي والتربوي في المرحلة المكية.

(١٦) الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١؛ وينظر مباحث العقيدة والتربية والصبر في المرحلة المكية.

(١٧) المباركفوري، الرحيق المختوم؛ وينظر عرضه لموضوعات القرآن المكي ومراحل الدعوة الأولى.

(١٨) رواه ابن ماجه (٦١)، وصححه الألباني، كما صححه الوادعي، ورجاله ثقات عند شعيب الأرناؤوط.

(١٩) الرعد: ١١

وهذه الآية أصل عظيم في فهم علاقة الإنسان بالتغيير، وإن كان تنزيلها على كل صورة من صور الإصلاح يحتاج إلى مراعاة سياقها ودلالتها التفسيرية.

والذي تكشفه السيرة بوضوح أن النبي ﷺ بدأ بتكوين الإنسان المؤمن، ثم تكوّنت من هؤلاء الأفراد جماعة مؤمنة، ثم انتقلت الجماعة إلى مجتمع، ثم نشأت في المدينة الدولة.

لكن من المهم هنا التمييز بين النص الشرعي وبين القاعدة التحليلية التي نستنبطها من تسلسل أحداث السيرة.

فلا يصح أن نقول إن الآية نصت على أن " بناء الدولة يبدأ ببناء النخبة" أو أن " كل تغيير سياسي يجب أن يمر بالمسار نفسه"؛ فهذا تجاوز للنص.

لكن يمكن أن نقول: إن تسلسل السيرة النبوية يقدم مثالًا واضحًا على أن بناء الجماعة المؤمنة سبق بناء المجتمع السياسي في المدينة، وأن التربية المكية كانت عنصرًا أساسيًا في إعداد الجيل الذي حمل أعباء المرحلة المدنية.

وهذا التفريق مهم؛ لأنه يحفظ للسيرة مكانتها التاريخية، وللنص الشرعي دلالته، وللاستنباط حدوده.

خامسًا: من الإنسان إلى النواة

لم يكن بناء الإنسان في مكة مشروعًا فرديًا منفصلًا عن بناء الجماعة؛ فالنبي ﷺ لم يربِّ أفرادًا متفرقين ثم يتركهم فرادى، وإنما نشأت حول الدعوة نواة مؤمنة أخذت تنمو تدريجيًا.

بدأ الأمر بخديجة رضي الله عنها، ثم أبي بكر رضي الله عنه، وعلى رضي الله عنه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه، ثم اتسعت دائرة الداخلين في الإسلام.

وكان لأبي بكر رضي الله عنه دور ظاهر في دعوة عدد من السابقين الأولين إلى الإسلام، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم، كما تذكر كتب السيرة. (٢٠)

ولم تكن هذه النواة متجانسة من حيث الطبقة الاجتماعية أو العمر أو المكانة؛ بل جمعت رجالًا ونساءً، وأحرارًا وموالي، وأشرافًا ومستضعفين.

وهذه من الخصائص اللافتة في البناء الأول؛ إذ لم تكن الدعوة مشروعًا قبليًا ولا طبقيًا.

كان بلال رضي الله عنه، وهو العبد الحبشي، في صف واحد مع أبي بكر وعثمان وغيرهما من كبار قريش.

---

(٢٠) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، في أخبار إسلام السابقين الأولين ودعوة أبي بكر رضي الله عنه؛ وابن كثير، البداية والنهاية، في أخبار السابقين إلى الإسلام.

وكانت سمية رضي الله عنها وزوجها ياسر وابنهما عمار رضي الله عنهم من أوائل من تحملوا الأذى في سبيل الإسلام.

وكانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن بالنبي ﷺ وسانده، وكانت ذات مكانة وشرف ومال، لكن قيمتها في الصف الإسلامي الأول لم تكن نابعة من مكانتها الاجتماعية، وإنما من إيمانها ونصرتها وثباتها.

وهكذا بدأ الإسلام في مكة بناء جماعة تتجاوز حدود النسب والمال والقبيلة.

ويشير الغضبان في تحليله للمنهج التربوي للسيرة إلى أهمية هذا التنوع في النواة الأولى؛ لأن التربية النبوية صنعت من أفراد مختلفين في ظروفهم الاجتماعية شخصيات يجمعها الإيمان، والهدف، والولاء لله ورسوله. (٢١)

وهذا ليس مجرد وصف تاريخي؛ بل يكشف عن خاصية أساسية في طبيعة الرسالة نفسها: أنها لا تختار الإنسان بحسب طبقته، وإنما بحسب استعداده للإيمان وتحمل تبعاته.

سادسا: لماذا لم يبدأ التغيير من المجتمع كله؟

قد يبدو للوهلة الأولى أن الاقتصار في البداية على عدد محدود من المؤمنين أبطأ طريق التغيير.

لكن قراءة الأحداث تكشف أن الرسول ﷺ لم يكن بصدد إنشاء حركة جماهيرية سريعة، وإنما كان بصدد تكوين جيل يستطيع حمل الرسالة.

ومن هنا جاءت مرحلة الدعوة السرية في بدايتها.

يذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ بدأ بمن يثق بهم من قومه، وأن أبا بكر رضي الله عنه كان من أوائل من استجاب له، ثم أخذ يدعو من يثق بهم من أصحابه. (٢٢)

ويعرض آخرون هذه المرحلة بوصفها مرحلة تأسيس للنواة الأولى، حيث دخل السابقون الأولون الإسلام تباعًا، وكانت التربية تتم في ظروف لا تسمح بالمواجهة المفتوحة. (٢٣)

ولا يعني هذا أن " السرية" قاعدة دائمة في العمل الدعوي؛ فالسيرة نفسها تُظهر انتقال الدعوة بعد ذلك إلى الجهر، ثم إلى مواجهة قريش، ثم إلى الهجرة.

إنما العبرة التاريخية هنا أن الوسيلة تغيّرت عندما تغيرت المرحلة، بينما بقي الهدف ثابتًا.

وهذا يقودنا إلى قاعدة منهجية ينبغي أن تصاحب قراءة السيرة كلها:

---

(٢١) الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في مباحث بناء الجماعة الأولى وتنوع عناصرها.

(٢٢) ابن هشام، السيرة النبوية، في بدء الدعوة ومن أسلم من السابقين الأولين.

(٢٣) المباركفوري، الرحيق المختوم، في مرحلة الدعوة السرية وبداية انتشار الإسلام.

لا ينبغي تحويل وسيلة اتخذها النبي ﷺ في ظرف معين إلى حكم ثابت خارج ظرفها، وإنما يُنظر في السبب والسياق والمقصد.

سابعاً: الإنسان الذي تصنعه العقيدة

لم تكن العقيدة في المرحلة المكية مجرد تعريفٍ بالخالق سبحانه، وإنما كانت بناءً إيمانيًا متكاملًا ينعكس أثره على القلب والسلوك والمواقف.

لقد كان التوحيد يعيد تشكيل علاقة الإنسان بالخوف والرجاء، والرزق، والموت والحرية.

فحين يؤمن الإنسان أن الله وحده هو المالك والرازق، وأن إليه المصير، وأن الموت ليس نهاية الحياة، تتغير قدرته على مقاومة الإغراء والخوف.

ولهذا جاءت السور المكية بقوة في الحديث عن اليوم الآخر قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٢٤).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٢٥)؛ فالإنسان الذي يعيش تحت رقابة الله ويستحضر الحساب لا يحتاج في كل لحظة إلى سلطة خارجية تراقبه.

وهذه إحدى ثمار البناء العقدي :أن يتحول الضمير إلى قوة داخلية تحمل الإنسان على الاستقامة حين لا يراه الناس.

ولهذا كان بناء العقيدة في مكة إعدادًا لإنسان قادر على حمل المسؤولية في المدينة.

ثامناً: من الصبر على الأذى إلى قوة الاحتمال

كانت التربية المكية تضع المؤمن أمام اختبار حقيقي.

لم يكن الدخول في الإسلام آنذاك طريقًا إلى الجاه أو المال أو القوة، بل كان في كثير من الحالات طريقًا إلى الأذى.

وهنا ظهرت قيمة التربية بالممارسة.

فبلال رضي الله عنه عُذب في مكة، وعمار بن ياسر وأهله تعرضوا للأذى واستشهدت والدته سمية تحت التعذيب (٢٦)، وغيرهم من السابقين تحملوا ألوانًا من التضييق.

---

(٢٤) المدثر: ٣٨-٣٩

(٢٥) الزلزلة: ٧-٨

(٢٦) ابن حجر العسقلاني (١٩٩٥)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود (ط. ١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ج. ٨، ص. ١٩٠"سُمَيَّة بنت خَبَّاط وقيل خَيَّاط (ت ٧ ق هـ) صحابية سابقة، وأول شهيدة في الإسلام. أسلمت بمكة مع زوجها

وكان القرآن يعالج هذا الواقع لا بإيهام المؤمنين بأن الطريق خال من الإبتلاء، وإنما بإعدادهم نفسيًا وإيمانيًا لحمله ؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٧) ، وقال: سبحانه وتعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٨) ومن هنا يمكن فهم الصبر المكي باعتباره تكوينًا للإنسان تحت الضغط، لا مجرد فضيلة أخلاقية منفصلة.

وقد كان الصبر والثبات من المعاني المركزية في التربية المكية؛ لأن الجماعة التي ستواجه لاحقًا مسؤوليات الدعوة والدولة تحتاج إلى أفراد لا تنهار شخصياتهم عند أول اختبار. (٢٩)

ويعرض ابن القيم في زاد المعاد أحداث السيرة ضمن سياق الابتلاء والتدرج في الدعوة، بما يكشف أن ما واجهه النبي ﷺ وأصحابه لم يكن عارضًا منفصلًا عن مسيرة الدعوة، بل كان جزءًا من الطريق الذي انتقلت خلاله الجماعة من الاستضعاف إلى التمكين. (٣٠)

تاسعاً: جذور المشهد تصنع مفتاح قراءة السيرة

إذا جمعنا هذه العناصر، أمكننا أن نفهم لماذا بدأت السيرة المكية من الإنسان.

لأن الواقع كان عبارة عن:

١. عقيدة منحرفة في جانبها الغالب.
٢. منظومة اجتماعية تقوم على العصبية والتراتبية والمصالح.
٣. قوة سياسية واقتصادية واجتماعية ترفض التغيير.
٤. أفراد يعيشون داخل هذه البيئة ويحتاجون إلى إعادة بناء.
٥. رسالة تريد أن تنقل الإنسان من عبودية الخلق إلى عبودية الخالق، ومن ثم لم يكن السؤال الأول :كيف نصل إلى السلطة؟

بل كان التحدي العملي الذي تكشفه مسيرة الدعوة في مكة: كيف يُبنى الإنسان القادر على حمل رسالة التوحيد ، والثبات عليها ، والصبر على تبعاتها حين يقتضي الإيمان بها دفع ثمنها؟

ياسر بن عامر العنسي وابنها عمّار بن ياسر، فهم من السابقين الأوَّلين في الإسلام من غير بني هاشم. وكان إسلامهم بعد بضعة وثلاثين رجلًا. وهي أول شهيدة في الإسلام؛ طعنها عمرو بن هشام بحَرْبة في قُبُلِها حتى ماتت، وكانت عجوزًا ضعيفة. فكنَّاه النبيُّ محمد ﷺ عقبَ ذلك بأبي جهل. وكان استشهادُها بمكة في السنة السابعة قبل الهجرة. وقيل إنها كانت سابعَ من آمن بالنبيِّ محمد ﷺ".

(٢٧) سورة آل عمران: ١٤٢.

(٢٨) سورة البقرة: ١٥٥.

(٢٩) الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في التربية على الصبر والثبات وتحمل الأذى.

(٣٠) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة؛ وينظر عرضه لأحداث الدعوة المكية وما صاحبها من ابتلاء وتدرج.

وهذا هو المفتاح الذي يساعدنا على فهم بقية المرحلة المكية؛ فالأحداث التي تبدو متفرقة في ظاهرها، تتصل في حقيقتها بسياق تربوي متدرج، وتتتابع في بناء الجماعة وإعدادها لحمل أعباء الرسالة.

فدار الأرقم لم تكن مجرد مكان للاختباء، وإنما كانت جزءًا من سياق تربوي تتشكل فيه الشخصية المؤمنة، وتتربى فيه النواة الأولى على الثبات وحمل التكاليف.

والدعوة السرية لم تكن مجرد تعبير عن الخوف من قريش، وإنما كانت مرحلة اقتضتها ظروف الدعوة ومقتضيات بنائها، حتى تتهيأ لها القدرة على الانتقال إلى طور جديد.

والجهر بالدعوة لم يكن مجرد تغيير في الأسلوب، وإنما كان إعلانًا عن دخول الدعوة مرحلة جديدة من المواجهة والظهور.

والابتلاء لم يكن مجرد معاناة يتعرض لها المؤمنون، وإنما كان اختبارًا يكشف حقيقة التكوين، ويميز بين الإيمان الذي استقر في القلب والدعوى التي لم تتجاوز اللسان.

والهجرة إلى الحبشة لم تكن مجرد فرار من الاضطهاد، وإنما كانت موقفًا يجمع بين الأخذ بأسباب الحماية والمحافظة على استمرار الرسالة، بما يكشف عن واقعية المنهج النبوي في التعامل مع ظروف الدعوة.

ثم تأتي بيعة العقبة لتفتح أفقًا جديدًا في مسار الدعوة، بعد أن أصبحت النواة المؤمنة أكثر قدرة على حمل التكاليف، وأصبح الانتقال إلى مرحلة جديدة من البناء والتمكين أمرًا مهيأً له.

المبحث الثاني: النبي ﷺ قبل البعثة — تهيئة الإنسان لحمل الرسالة

أولا: النسب والمكانة الاجتماعية

وُلد محمد بن عبد الله ﷺ في بني هاشم من قريش، من أشرف بيوت العرب نسبًا.

قال رسول الله ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" (٣١).

ولم تكن هذه المكانة النسبية هي التي صنعت نبوته؛ فالنبوة اصطفاء من الله، ولكنها كانت من جملة ما عرفه قومه عنه قبل البعثة.

فالرجل الذي سيواجه قريشًا بعد البعثة لم يكن مجهولًا بينهم، ولم يكن شخصًا ظهر فجأة بلا تاريخ، بل كان معروفًا بينهم قبل البعثة، وله سيرة وتجربة سبقت نزول الوحي، ولم يكن شخصًا ظهر فجأة بلا تاريخ؛ بل كان له تاريخ طويل في الصدق والأمانة وحسن المعاملة. (٣٢)

ثانيا: الصدق والأمانة قبل البعثة

من اللافت في السيرة أن النبي ﷺ لم يبدأ بناء الثقة بعد نزول الوحي، وإنما كانت حياته السابقة شاهدة على شخصيته. وكانت قريش تعرفه بالصادق الأمين. ولما دعاهم إلى الإسلام، لم يستطيعوا أن يتهموه بالكذب في تاريخه الشخصي بسهولة. وفي الحديث المشهور أن النبي ﷺ جمع قريشًا، فقال لهم: " أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟"

قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

فقال:" فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ". (٣٣)

- وهنا تظهر دلالة مهمة :الدعوة الجديدة قامت على شخصية عرفها الناس قبل الدعوة بالصدق، وهذا لا يعني أن كل داعية لا بد أن يمر بالظروف نفسها، وإنما يكشف عن قيمة الثقة الأخلاقية في حمل الرسالة؛ فالرسالة العظيمة لا يحملها لسان منفصل عن سيرة صاحبه.

---

(٣١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة؛ والحديث بلفظ: «إن الله اصطفى كنانة...».

(٣٢) أنظر محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة؛ وانظر عرضه لأحداث الدعوة المكية وما صاحبها من ابتلاء وتدرج.

(٣٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، في تفسير سورة الشعراء، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، في دعوة النبي ﷺ قومه؛ وفيه سؤال النبي ﷺ قريشًا عن تصديقهم له قبل الإنذار.

ثالثا: التجارة والاحتكاك بالناس

عمل النبي ﷺ في التجارة، وتعامل مع الناس، وسافر في بعض رحلات التجارة، وعرف أحوال العرب وغيرهم؛ وكانت خديجة رضي الله عنها قد استأمنته على تجارتها لما بلغها عنه من صدق وأمانة.

وتذكر كتب السيرة أنه خرج في تجارتها إلى الشام، وكان ذلك قبل زواجه بها. (٣٤)

والأهمية هنا ليست في التجارة ذاتها، وإنما في أنها تكشف جانبًا من جوانب شخصية النبي ﷺ قبل البعثة :الاحتكاك بالناس، وتحمل المسؤولية، ومعرفة طبائع التعامل، والوفاء بالأمانة.

وهذه المعاني ستظهر آثارها بعد البعثة في تعامله مع أصحابه وخصومه، وأهل الكتاب، والقبائل، والوفود.

رابعا: التحنث في غار حراء

ثم جاء طور آخر من حياته ﷺ؛ فقد كان يخلو بغار حراء ويتحنث، ويعبد الله الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزل عليه الوحي.

قالت أمي أم المؤمنين الطاهرة عائشة رضي الله عنها :" ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ... (٣٥)." ثم ذكرت قصة مجيء جبريل عليه السلام ونزول الوحي.

وهنا ينبغي أن نقف عند حد مهم في التحليل.

فلا يصح أن نجزم بأن الخلوة كانت " برنامجًا تدريبيًا" بالمعنى الاصطلاحي المعاصر، ولا أن نقول إن النبي ﷺ كان يتعمد إعداد نفسه للنبوة وفق خطة بشرية؛ فالوحي اصطفاء إلهي، والنبوة ليست نتيجة تدريب بشري.

لكن يمكن أن نقول، استنادًا إلى ثبوت خلوته وتحنثه، إن حياته قبل البعثة تضمنت نفورًا من بعض مظاهر الجاهلية وإقبالًا على الخلوة والتعبد، وأن ذلك كان جزءًا من السياق الذي سبق نزول الوحي.

والفرق بين الأمرين مهم جدًا؛ لأنه يحفظ للسيرة دقتها، ويمنعنا من إسقاط المصطلحات الحديثة عليها دون دليل.

---

(٣٤) ابن هشام، السيرة النبوية، في خبر تجارة النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها وزواجه منها؛ وينظر كذلك: المباركفوري، الرحيق المختوم.

(٣٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي والتحنث بغار حراء.

خامساً: خديجة رضي الله عنها وثبات البيت الأول

وحين جاء الوحي لم يكن أول ما احتاج إليه النبي ﷺ خطاباً جماهيرياً، وإنما احتاج إلى قلب يثبته في اللحظة الأولى.

فحين رجع رسول الله ﷺ إلى أمنا الكبرى خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده، وقال:" زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي".

فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة وأخبرها الخبر:" لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي".

فقالت رضي الله عنها:

" كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ".(٣٦) ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل، فكان ما كان من شأن الوحي

وهذا النص من أعظم النصوص التي تكشف قيمة التاريخ الأخلاقي للإنسان في لحظة الاختبار؛ فخديجة رضي الله عنها لم تذكر له أنه قوي أو غني أو صاحب جاه، وإنما ذكرت خصالًا أخلاقية رأت آثارها في حياته:

فالرجل الذي سيواجه قريشًا بعد البعثة لم يكن مجهولًا بينهم، ولم يكن شخصًا ظهر فجأة بلا تاريخ، بل كان معروفًا بينهم قبل البعثة، وله سيرة وتجربة سبقت نزول الوحي.

وتشهد قصة خديجة رضي الله عنها بذلك حين ذكّرت النبي ﷺ بخصاله الحميدة ؛ وكأنها تقول له: إن الرجل الذي عُرف بهذه الخصال، وشهد له الناس بها، لا يمكن أن الله سيخزيه.

وهنا يتضح أن الأخلاق لم تكن زينةً على هامش البناء النبوي، ولا خصالًا طارئة ظهرت بعد البعثة، بل كانت جزءًا أصيلًا من شخصيته ﷺ قبل نزول الوحي. ومن هنا نفهم أن بناء الإنسان الذي حمل رسالة التوحيد لم يبدأ لحظة نزول الوحي، وإنما سبقه إعدادٌ طويل ظهرت آثاره في سيرته وخلقه وصلته بالناس.

---

(٣٦) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، في حديث بدء الوحي، من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه رجوع النبي ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها وقولها: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق."

الخلاصة:

الرسالة الإسلامية لم تبدأ في فراغ. لقد جاءت في مجتمع له عقيدته، وعاداته، وقيمه، ومصالحه، وقوته الاجتماعية والسياسية، ولذلك لم يكن التحدي مجرد إقناع أفراد بمعلومة جديدة، وإنما كان إعادة توجيه الإنسان نحو الله، ثم إعادة بناء ما يتصل بذلك من أخلاق وسلوك وعلاقات.

وفي الجانب الآخر، كان محمد ﷺ يدخل مرحلة النبوة وهو صاحب تاريخ معروف بالصدق والأمانة، وقد عرف الناس فيه مكارم الأخلاق، وخبر التجارة والتعامل، وعاش حياة بعيدة عن كثير من مظاهر الجاهلية، وكان يتحنث في غار حراء حتى جاءه الحق.

ومن هنا يمكن فهم وظيفة المرحلة المكية :

لم يكن الهدف في البداية أن يتغير العالم كله؛ بل أن يتغير الإنسان الذي سيحمل رسالة تغيير العالم. وهذه ليست دعوى بأن كل مشروع إصلاحي في كل زمان يجب أن يكرر التفاصيل التاريخية نفسها، ولا أن السيرة تقدم وصفة تنظيمية جاهزة، وإنما هي قراءة في مسار تاريخي محدد :بدأ الوحي ببناء الإنسان، ونمت من هذا البناء نواة مؤمنة، ثم أخذت هذه النواة تتسع حتى استطاعت أن تحمل تكاليف الرسالة في مراحلها التالية.

وهكذا، قبل أن نصل إلى دار الأرقم، والجهر بالدعوة، والابتلاء، والهجرة، وبيعة العقبة، ينبغي أن نفهم أصل الحكاية:

كان هناك عالم يحتاج إلى التغيير، وكان هناك إنسان أُعدَّ لحمل الرسالة، ثم بدأت الرسالة بصناعة الإنسان الذي يستطيع أن يحملها.

الفصل الثالث: الوحي.. لحظة التأسيس الكبرى





المبحث الأول: مشهد غار حراء وبداية التحول

تمهيد: حين بدأ الإنسان يتلقى الرسالة

لم تبدأ السيرة النبوية بمشروعٍ مكتمل المعالم، ولا بدولةٍ تبحث عن أرض، ولا بجماعةٍ تحمل تصوراً سياسياً أو اجتماعياً جاهزاً؛ بدأت بإنسانٍ اصطفاه الله لحمل أعظم رسالة، ثم جاءه الوحي في لحظة غيّرت مجرى حياته ومجرى التاريخ من بعدها. وكانت هذه البداية في غار حراء.

لم يكن الغار مجرد مكان جغرافي في أحداث السيرة، بل هو الموضع الذي شهد الانتقال من التهيئة إلى التكليف، ومن التحنث إلى الوحي، ومن البحث الفطري عن الحق إلى حمل الرسالة، ومن هنا فإن فهم مشهد حراء لا يقتصر على معرفة ما جرى فيه، وإنما يقتضي النظر في كيفية إعداد النبي ﷺ قبل نزول الوحي، وكيف استقبل الصدمة الأولى، وكيف انتقل من الخلوة والتأمل إلى مواجهة العالم برسالة الله.

وقد سبقت هذه اللحظة إرهاصات وتهيئة امتدت قبل البعثة؛ فقد كان النبي ﷺ يخلو بغار حراء، ويتعبد الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى أهله، ويتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في الغار [1]، وهذه التهيئة لا ينبغي أن تُحمّل أكثر مما تحتمل الروايات، لكنها تكشف أن لحظة التكليف لم تكن منفصلة عن حياةٍ سبقتها، وإنما جاءت في سياقٍ من الطهارة الخلقية، والخلوة، والتأمل، والبعد عن أوضار الجاهلية.

موقع الغار جغرافياً:

يقع غار حراء في أعلى جبل النور، في الجهة الشمالية الشرقية من المسجد الحرام بمكة المكرمة، على بُعد نحو **٤ كيلومترات** تقريبًا من المسجد الحرام. ويبلغ ارتفاع جبل النور نحو **٦٣٤ إلى ٦٤٢ مترًا** فوق مستوى سطح البحر، بينما يقع الغار نفسه على ارتفاع يقارب **٢٧٠ إلى ٢٨١ مترًا**.

والغار عبارة عن فجوة أو تجويف صخري يبلغ طوله نحو **٣٫٥ إلى ٤ أذرع**، وعرضه قرابة **١٫٥ إلى ١٫٧٥ ذراع**، وهو متجه نحو الشمال، ويُطل على الكعبة المشرفة.

يقول المباركفوري في عرضه لبداية الوحي إن النبي ﷺ كان قبل البعثة يحب الخلوة، فيتعبد في غار حراء، وأن ذلك كان من مقدمات الوحي [2]، وتعتبر هذه المرحلة مقدمة نفسية وروحية للحظة التحول الكبرى، حيث كان النبي ﷺ يعيش بعيداً عن مظاهر الشرك والانحراف السائدة في قومه، حتى جاءه الوحي [3]. وتبرز أهمية هذه المرحلة في إعداد الشخصية التي ستنهض بحمل الرسالة، وإن كان ينبغي التمييز بين ما تثبته الرواية وما يعيشه الدعاة ويستفيدوا من دلالاتها التربوية.[4]

أولاً: الخلوة قبل المواجهة

كان النبي ﷺ قبل البعثة يعتزل قومه في غار حراء، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يعود إلى خديجة رضي الله عنها، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في الغار.[1]

وهنا تظهر إحدى الخصائص اللافتة في بداية السيرة: أن أول مراحل التحول لم تكن في ساحة الصراع، وإنما في مساحة الخلوة.

لم يكن النبي ﷺ قد بدأ دعوته بعد، ولم يكن حوله أصحاب أو أنصار، ولم تكن هناك جماعة منظمة، وإنما كان هناك إنسان اصطفاه الله، وهيأه لحمل الأمانة.

ولا يصح أن نستخرج من ذلك قاعدة عامة بأن كل مشروع إصلاحي لا بد أن يمر بالخلوة بالمعنى نفسه؛ فهذا أمر خاص بظروف البعثة ووحيها. لكن يمكن أن نستفيد تربوياً من معنى أوسع، وهو أن العمل الذي يغيّر الواقع يحتاج إلى عمق داخلي يسبق حركة صاحبه في الواقع، وهذه دلالة تربوية مستنبطة، وليست وصفاً لواقعة تاريخية أخرى "وما كان يعيشه النبي ﷺ من ابتعاد عن الجاهلية، واستعداد نفسي وروحي للحمل الذي سيُلقى عليه" [3]. ومن جملة مقدمات النبوة وإرهاصاتها الرؤيا الصادقة كانت من أوائل ما ظهر للنبي ﷺ من مبادئ الوحي.[5]

ثانياً: الرؤيا الصادقة وبداية الاتصال بالوحي

من مقدمات الوحي ما رواه عائشة رضي الله عنها [6]:

[أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾].

وهذا الحديث من أهم النصوص المؤسسة لفهم بداية الوحي؛ لأنه يجمع بين الإرهاص، والخلوة، ومشهد نزول الملك، وأول الآيات في رواية واحدة صحيحة.

ولعل أكثر ما يلفت النظر في المطلع القرآني أنه لم يبدأ بأمرٍ سياسي أو عسكري أو تنظيمي، وإنما بدأ بكلمة:

﴿اقْرَأْ﴾ .

ثم جاء الأمر مرتبطاً بالربوبية:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ .

ثم جاء التذكير بأصل الإنسان:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ .

ثم تأكيد قيمة العلم والتعليم:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

وهذا من المواضع التي ينبغي أن نتعامل معها بحذر منهجي: فالآيات لا تقدم لنا "برنامجاً تربوياً معاصراً" بالمعنى الاصطلاحي، ولا يصح تحميلها ما لم تدل عليه؛ لكن ترتيب المعاني في أول خطاب الوحي يلفت النظر إلى ارتباط الربوبية بالعلم، والخلق بالمعرفة، والإنسان بالتعليم.

ومن هنا يمكن أن يُفهم أن الرسالة التي ستغير الإنسان والعالم بدأت بإعادة بناء علاقته بربه وبالمعرفة التي يتلقاها عنه.

ثالثاً: الصدمة الأولى

لم يكن استقبال الوحي الأول تجربة عادية؛ فقد كان موقفاً عظيماً واجه فيه النبي ﷺ جبريل عليه السلام، وما صاحبه من شدة اللقاء وتكراره.

فلما انتهى الملك، عاد النبي ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها، وهو يقول:

[زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي]

فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة:

[أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي؟]

وأخبرها بما حدث، ثم قال:

[لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي].

فكان موقف خديجة رضي الله عنها من أعظم المواقف الإنسانية في بداية الرسالة. قالت له:

[كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ].[6]

هذه الكلمات ليست مجرد مواساة زوج لزوجها؛ فهي قراءة في الشخصية قبل البعثة، وربط بين السيرة الأخلاقية السابقة وبين احتمال الثبات على التكليف القادم.

لقد ذكّرت خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ بما يعرفه هو ويعرفه الناس عنه: صلة الرحم، وحمل الكل، وإغاثة المحتاج، وإكرام الضيف، والإعانة على نوائب الحق.

وكأنها تقول له: إن الإنسان الذي عرفناه لا يُظن به أن يكون موضع خزي من الله.

وهنا تتجلى قيمة القدوة الأخلاقية قبل الرسالة؛ فالأخلاق لم تكن شيئاً أضيف إلى شخصية النبي ﷺ بعد البعثة، وإنما كانت جزءاً أصيلاً من سيرته قبلها.

ويشير الشيخ محمد الغزالي إلى المكانة التربوية لموقف خديجة رضي الله عنها، وإلى أنها كانت أول من ثبت قلب النبي ﷺ في هذه اللحظة الحرجة [3]، ويعرض ابن كثير قصة بدء الوحي وما جرى بعدها، ويؤكد مكانة خديجة في نصرة النبي ﷺ وتصديقه.[7]

رابعاً: خديجة رضي الله عنها وتثبيت اليقين

لم تكتف خديجة رضي الله عنها بالمواساة، وإنما اصطحبت النبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر وقرأ الكتب، فأخبره النبي ﷺ بما رأى.

فقال له ورقة: [هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ] فقال رسول الله ﷺ: [أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟]

قال: [نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا].[6]

وهنا يكتمل مشهد البداية: تجربة عظيمة، ثم رجوع إلى البيت، ثم احتواء نفسي من خديجة، ثم طلب التحقق والمعرفة من رجل يعرف شيئاً من أخبار النبوات.

ومن الخطأ أن نحول هذه الواقعة إلى وصفة جاهزة لكل تجربة دعوية أو تربوية؛ فهي واقعة مرتبطة ببداية النبوة. لكن دلالتها الإنسانية واضحة: الإنسان الذي يحمل مسؤولية كبيرة قد يحتاج، في لحظات التحول، إلى من يثبته، ويفهم تجربته، ويعيد وضعها في سياقها الصحيح.

وهذه الدلالة تؤيدها الوقائع نفسها، دون حاجة إلى تكلف الاستنباط.

خامساً: من حراء إلى العالم

بعد هذه اللحظة لم يعد النبي ﷺ ذلك المتحنث الذي يخلو بنفسه بعيداً عن الناس؛ لقد أصبح رسولاً مكلفاً بالبلاغ.

ومن هنا بدأ التحول الجوهري في طبيعة حياته: الخلوة انتهت لتبدأ الرسالة، والعزلة عن الجاهلية انتهت إلى مواجهة الجاهلية، والاستعداد الداخلي أصبح تكليفاً خارجياً.

لكن هذه المواجهة لم تبدأ بصورة عشوائية؛ بل جاءت في مراحل، وكان أول من آمن به من الناس خديجة رضي الله عنها، ثم أبو بكر رضي الله عنه، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم زيد بن حارثة رضي الله عنه، على اختلاف ما تذكره كتب السيرة في ترتيب السابقين بحسب الاعتبارات المختلفة.

وهكذا لم تنشأ الجماعة دفعة واحدة، وإنما بدأت من إنسانٍ واحد يحمل الرسالة، ثم بيت آمن بها، ثم دائرة محدودة من السابقين.

خلاصة كيف تعامل النبي ﷺ مع الفترة التي تلت بدء الوحي؟ وكيف تشكلت التربية الأولى قبل أن تنتقل الدعوة إلى مرحلة الحركة العلنية؟

الفهم التربوي: ماذا تكشف لنا بداية الوحي؟

إذا فصلنا بين الواقعة التاريخية وبين الدلالة المستنبطة منها، أمكن أن نقف على مجموعة من المعاني التربوية المهمة:

1. التحولات الكبرى تحتاج إلى بناء داخلي

الثابت في الرواية أن النبي ﷺ كان قبل البعثة يتحنث في غار حراء، ثم جاءه الوحي.

أما القول بأن الخلوة كانت "منهجاً تربوياً مقصوداً لإعداد القيادة" فهو تفسير واستنباط، لا ينبغي تقديمه على أنه تصريح تاريخي في الرواية.

لكن من حيث الدلالة التربوية، تكشف القصة عن أهمية أن يكون وراء العمل الظاهر رصيد من العمق الروحي والخلقي.

2. الأخلاق رصيد قبل التكليف

لمّا اضطرب النبي ﷺ بعد نزول الوحي، لم تستند خديجة رضي الله عنها إلى مجاملة عاطفية مجردة، وإنما استندت إلى وقائع من سيرته:

[إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ].

وهذا يجعل الأخلاق السابقة للرسالة جزءاً من فهم الشخصية النبوية، لا هامشاً في سيرتها.

3. التثبيت النفسي ليس أمراً ثانوياً

موقف خديجة رضي الله عنها يبين أن التثبيت في لحظات الخوف والاضطراب يمكن أن يكون عملاً عظيماً من أعمال النصرة.

فهي لم تقل للنبي ﷺ كلاماً عاماً، وإنما ذكّرته بما في شخصيته من خصال الخير، وربطت بين أفعاله وبين حسن الظن بالله.

ومن هنا يمكن للمربي أن يدرك أن الكلمة المناسبة في اللحظة المناسبة قد تكون من أقوى وسائل تثبيت الإنسان، وهذه دلالة تربوية مستفادة من الموقف، لا حكماً تاريخياً مستقلاً.

4. المعرفة تعين على فهم التجربة

لم تكتف خديجة رضي الله عنها بالحدس، بل ذهبت بالنبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل، واستُعين بمعرفته بالكتب وأخبار الأنبياء.

وهذا يكشف عن قيمة الرجوع إلى أهل المعرفة عند مواجهة الأحداث الكبرى، بدلاً من تفسيرها بالظنون والانفعالات.

5. الرسالة تبدأ من الإنسان لكنها لا تنتهي عنده

بدأ الوحي بتغيير حياة محمد ﷺ، ثم انتقلت آثار هذا التغيير إلى من حوله، ثم إلى مكة، ثم إلى الجزيرة، ثم إلى العالم.

لكن ينبغي ألا نستعجل هنا بإسقاط هذه المراحل على مشاريعنا المعاصرة؛ فالنبي ﷺ رسول، والوحي وحي، والرسالة النبوية ذات خصوصية لا تتكرر.

وإنما الذي يمكن الإفادة منه تربوياً هو أن التغيير العميق يبدأ من بناء الإنسان الحامل للرسالة، ثم ينتقل أثره إلى محيطه.

الضابط المنهجي: ما الذي نقوله، وما الذي نستنبطه؟

من أهم ما ينبغي مراعاته في قراءة السيرة أن نفرق بين ثلاث دوائر:

الدائرة الأولى: ما ثبت بالنص.

ومن ذلك نزول جبريل عليه السلام، وأمر النبي ﷺ بالقراءة، وعودته إلى خديجة رضي الله عنها، وكلامها له، ثم ذهابهما إلى ورقة بن نوفل، وكل ذلك ثابت في حديث بدء الوحي.

الدائرة الثانية: التفسير التاريخي.

كأن نقول إن مرحلة ما قبل البعثة كانت مرحلة تهيئة، أو إن الخلوة كانت مقدمة للحظة الوحي؛ فهذا مستند إلى السياق العام للرواية، لكنه يحتاج إلى صياغة منضبطة لا تتجاوز دلالة النص.

الدائرة الثالثة: الاستنباط التربوي.

كأن نستخلص أهمية التثبيت النفسي، أو قيمة القدوة الأخلاقية، أو ضرورة الرجوع إلى أهل المعرفة، وهذه معانٍ يمكن أن يستفيد منها المربي، لكنها استنباطات بشرية لا يجوز نسبتها إلى النبي ﷺ بوصفها قواعد صريحة قال بها.

وهذا التفريق مهم حتى لا تتحول السيرة من مادة هداية ودراسة إلى مجموعة من القواعد الحديثة التي نبحث لها عن شواهد تاريخية بعد صياغتها مسبقاً.

خلاصة المبحث

كانت بداية الوحي نقطة التحول الأعظم في حياة النبي ﷺ، لكنها جاءت بعد حياة من الطهارة الخلقية، والخلوة، والتعبد، والبعد عن مظاهر الجاهلية.

وقد بدأت مقدمات الوحي بالرؤيا الصادقة، ثم حُبب إليه التعبد وحيدا يتفكر بالكون والاختلاء وحيداً في غار حراء، حتى جاءه جبريل عليه السلام في غار حراء، ونزلت الآيات الأولى من سورة العلق.

وكانت خديجة رضي الله عنها أول سند بشري في هذه اللحظة؛ فثبتت النبي ﷺ، وذكّرته بأخلاقه وأعماله، ثم اصطحبته إلى ورقة بن نوفل، الذي أخبره أن الذي جاءه هو الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام.

ومن هذه البداية يمكن فهم عدد من المعاني التربوية: عمق البناء الداخلي، ومركزية الأخلاق، وأهمية التثبيت، وقيمة المعرفة، والانتقال من التهيئة إلى حمل الرسالة.

لكن هذه المعاني تبقى في دائرة الاستنباط، ولا ينبغي أن تُقدَّم بوصفها وقائع تاريخية أو نصوصاً شرعية مستقلة.

والدرس الأهم أن الوحي لم يبدأ بتغيير العالم من الخارج؛ بل بدأ بتكليف إنسان اصطفاه الله، ثم بدأ هذا الإنسان، بما حمله من يقين وأمانة، في بناء الدائرة الأولى من المؤمنين.

وهكذا بدأت القصة التي سيصنع مسارها لاحقاً الإنسان، ثم النواة، ثم الجماعة، ثم المجتمع.

❖ الهوامش والمراجع

1أنظر محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

2أنظر صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، الرياض: دار السلام، في مبحث بدء الوحي وما تقدم البعثة من إرهاصات.

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، في مباحث بدء الدعوة ومقدمات البعثة.

4منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المنصورة: دار الوفاء، في مباحث بناء الشخصية النبوية والتربية السابقة لمرحلة الحركة.

5أنظر محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، فصل في هدي النبي ﷺ في بدء الوحي ومقدمات النبوة.

6أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، حديث عائشة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي، وهو أصل هذا المبحث في وصف غار حراء، ونزول جبريل، والآيات الأولى، وموقف خديجة وورقة.

7أنظر إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر، في أخبار مبعث النبي ﷺ وبدء الوحي.

8أنظر عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: دار المعرفة، في أخبار بدء الوحي وأوائل من آمن برسول الله ﷺ.

الفصل الرابع: النواة الأولى وصناعة الشخصية

لم يبدأ بناء المجتمع الإسلامي يوم قامت الدولة في المدينة، كما لم يبدأ يوم اجتمع المسلمون في دار الأرقم فحسب؛ وإنما بدأ قبل ذلك حين أخذ الوحي يصوغ إنساناً جديداً، ويعيد ترتيب نظرته إلى الله والكون والحياة، ويحرره من مقاييس الجاهلية، ثم يجمع حول رسول الله ﷺ أفراداً متفرقين، تتباين أصولهم ومكانتهم وأعمارهم وظروفهم، لكنهم يلتقون على الإيمان برسالته.

وهنا تظهر إحدى الخصائص العميقة في المرحلة المكية: أن النبي ﷺ لم يكن أمام جماعة متجانسة في طبقتها الاجتماعية أو قوتها الاقتصادية أو انتمائها القبلي، بل أمام أفراد مختلفين جمعهم الوحي، وربط بينهم الإيمان، وأعاد تشكيل شخصياتهم من الداخل؛ فكان أبو بكر إلى جوار بلال، وخديجة إلى جوار عمار، وأبو عبيدة إلى جوار صهيب، وخباب إلى جوار غيره من المستضعفين؛ ولم تعد قيمة الإنسان في ميزان هذه الجماعة بما كان عليه في الجاهلية من مال أو نسب أو منزلة، وإنما بما حمله من إيمان واستجابة وثبات.

وقد كان هذا التحول في الإنسان هو المقدمة الضرورية لكل تحول لاحق؛ فقبل أن تصبح للمسلمين أرض يأوون إليها، أو قوة تحميهم، أو مجتمع يحتضنهم، كان لا بد أن تتكون في داخلهم القوة التي تجعلهم قادرين على حمل الرسالة، ومن هنا يمكن النظر إلى هذه المرحلة باعتبارها مرحلة صناعة الشخصية المؤمنة، لا بمجرد كثرة الداخلين في الإسلام، وإنما بعمق التحول الذي أحدثه الإسلام في أولئك الذين حملوه.

المبحث الأول: السابقون الأولون وتنوع الطبقات

أولاً: الإسلام يدخل من أبواب متعددة

كان من اللافت في بدايات الدعوة أن الإسلام لم يدخل من باب اجتماعي واحد، ولم يتجه إلى طبقة بعينها؛ فقد آمنت خديجة رضي الله عنها، وآمن أبو بكر رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه، ثم أسلم عدد من الصحابة من بطون قريش وغيرهم، كما دخل في الإسلام رجال ونساء من المستضعفين والموالي.

وتذكر كتب السيرة في عداد السابقين الأولين أسماءً متعددة، وتختلف الروايات في ترتيب بعضهم بحسب اختلاف المقصود بالسابقية: أهي في مطلق الدخول في الإسلام، أم في أول من أسلم من فئة معينة؟ ولذلك يحسن في العرض العلمي ألا نجعل ترتيب الأسماء في قائمة واحدة حقيقة قطعية لا خلاف فيها، وإنما نثبت ما اتفقت عليه الروايات من سبق هؤلاء إلى الإيمان برسول الله ﷺ، مع التنبيه إلى مواضع الاختلاف عند الحاجة[1].

وكان أبو بكر رضي الله عنه من أبرز هؤلاء السابقين، ولم يكن إسلامه مجرد استجابة فردية، بل كان له أثر في دخول عدد من كبار الصحابة في الإسلام، وتذكر كتب السيرة أنه دعا إلى الإسلام رجالاً من قومه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وغيرهم ممن كان لهم شأن عظيم في تاريخ الإسلام.[2]

وهذه الواقعة تكشف جانباً مهماً من طبيعة الدعوة في بدايتها: فقد كان الإنسان الذي يتغير بالإيمان يتحول في الوقت نفسه إلى حامل للرسالة.

لم يكن المطلوب من المسلم الأول أن يحتفظ بإيمانه لنفسه، بل كان إيمانه نفسه مؤهلاً لأن يكون جسراً يصل الدعوة بغيره.

وقد أشار الشيخ محمد الغزالي إلى هذا المعنى حين عرض لبدايات الدعوة وما أحاط بها من دقة واختيار، مبيناً أن الدعوة في بدايتها كانت تتجه إلى من يُرجى فيهم قبول الحق وحمله، وأن الإسلام لم يكن مجرد اعتقاد ذهني، وإنما بناء لجماعة تحمل رسالة وتتحمل تبعاتها[3].

غير أن ذلك لا يعني أن النبي ﷺ أقام دعوة الإسلام على أساس انتقاء طبقة اجتماعية مخصوصة أو إنشاء جماعة مغلقة، فالمسار التاريخي للدعوة يبين منذ بدايتها تنوع الداخلين فيها، وأن الرسالة كانت تتجاوز الحدود التي أقامها المجتمع الجاهلي بين الشريف والوضيع، والحر والمولى، والقوي والضعيف.

ثانياً: خديجة رضي الله عنها – الإيمان حين يكون سنداً

كانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن برسول الله ﷺ، وكانت منزلتها في بداية الوحي أعمق من مجرد كونها أول المؤمنين به؛ فقد كانت أول بيت وجد فيه النبي ﷺ السكينة حين عاد من غار حراء مضطرباً من هول ما رأى.

وفي حديث بدء الوحي، لما رجع رسول الله ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها يقول: [زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي]، حتى ذهب عنه الروع، أخبرها بما وقع له، فقالت له كلماتها المشهورة:

[كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ][4].

ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل، فكان موقفها أول موقف تثبيت في اللحظة التي كان النبي ﷺ يواجه فيها تجربة الوحي الأولى.

وهنا لا ينبغي أن نختزل دور خديجة رضي الله عنها في صورة "الدعم النفسي" بالمعنى المعاصر المجرد؛ فالرواية تقدم موقفاً إيمانياً وعقلياً وأخلاقياً متكاملاً. لقد استدلت على صدق ما وقع للنبي ﷺ بما عرفته من سيرته قبل البعثة، وربطت بين أخلاقه وبين عناية الله به. ثم وقفت إلى جانبه حين أصبحت الدعوة عبئاً عظيماً.

ويبرز ابن القيم هذا الجانب في حديثه عن بدء الوحي وما تلا ذلك من تثبيت خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ، كما تبرز روايات السيرة ما بذلته من مالها ومكانتها في نصرة الدعوة[5].

وهنا تظهر حقيقة تربوية بالغة الأهمية: الشخصية المؤمنة لا تُبنى في عزلة عن دوائر الدعم الإيماني والاجتماعي؛ فالإنسان قد يكون قوياً في المبدأ، لكنه يحتاج في لحظات التحول الكبرى إلى من يثبت قلبه، ويذكره بما يعرفه من نفسه، ويعينه على حمل تبعات الطريق.

ثالثاً: أبو بكر رضي الله عنه – حين يتحول الإيمان إلى حركة

إذا كانت خديجة رضي الله عنها تمثل صورة السند الإيماني في البيت الأول، فإن أبا بكر رضي الله عنه يمثل نموذجاً آخر من نماذج الصحبة المؤمنة: الإيمان الذي يتحول سريعاً إلى دعوة، والدعوة التي تتحول إلى علاقات بشرية تحمل الرسالة.

وتذكر كتب السيرة أثر أبي بكر رضي الله عنه في إسلام عدد من السابقين الأولين، ممن أصبحوا بعد ذلك من أعمدة المجتمع الإسلامي[6].

وليس المقصود من ذلك أن نجعل الصحابة مجرد أدوات في مشروع تنظيمي، فهذا تعبير لا يلائم طبيعة المرحلة ولا روحها، وإنما المقصود أن الإسلام حين استقر في قلوبهم أعاد تشكيل علاقاتهم ومجال تأثيرهم؛ فأصبح الواحد منهم داعياً بما عرفه من الحق، ومثالاً لما آمن به، وجسراً يصل الرسالة إلى من حوله.

وهذا يفسر شيئاً من سرعة انتشار الإسلام في دوائر محدودة في السنوات الأولى: لم تكن الدعوة تعتمد على خطاب عام واسع فحسب، وإنما كانت تتحرك عبر علاقات بشرية حقيقية، يعرف فيها الداعي من يخاطبه، ويعرف المدعو صدق الداعي وحاله.

رابعاً: بلال وعمار وخباب – حين يحرر الإيمان الإنسان من ميزان الجاهلية

وفي الطرف الآخر من المشهد برز رجال لم تكن لهم في ميزان الجاهلية المكانة التي كانت لقريش وسادتها، لكنهم أصبحوا في الإسلام من رموز الثبات.

كان بلال بن رباح رضي الله عنه من أشهر من أوذي في مكة بسبب إسلامه، وكان تعذيبه من قبل أمية بن خلف مثالاً صارخاً على محاولة قريش إخضاع المستضعفين الذين لا يجدون حماية قبلية تمنع عنهم الأذى.

وقد ثبت بلال رضي الله عنه على التوحيد، وتروي كتب السيرة أنه كان يردد تحت التعذيب: شعار لم يسبقه إليه أحد وكان: [أَحَدٌ أَحَدٌ][7].

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبوه وأمه من أهل البلاء في مكة، حتى كانت أسرة ياسر من الأسر التي ذاقت العذاب بسبب الإسلام، وفي الحديث أن النبي ﷺ مر بهم وهم يعذبون فقال: [صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ][8].

فلم يكن بناء الشخصية المؤمنة قائماً على تجنب الألم، وإنما كان يقوم على إعطاء الألم معنى، وربط الصبر على البلاء بوعد الله.

وكذلك كان خباب بن الأرت رضي الله عنه من الذين عُذبوا بسبب إسلامهم، ثم جاء إلى النبي ﷺ يشكو ما يلقاه المسلمون من الأذى، فقال له النبي ﷺ:

[قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُمْشَطُ بِمِشْطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ

حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ][9].

والحديث يكشف جانباً مركزياً من التربية المكية: لم يكن النبي ﷺ يربي أصحابه على الوهم بأن الطريق سيكون سهلاً، ولم يكن يعدهم بنهاية سريعة للابتلاء، وإنما كان يعيد وضع معاناتهم في سياق أوسع: سياق سنة الله في ابتلاء المؤمنين، وسياق المستقبل الذي لم يكن قد ظهر بعد.

خامساً: تنوع النواة الأولى ليس تفصيلاً هامشياً

حين ننظر إلى هؤلاء السابقين مجتمعين، يظهر أن النواة الأولى لم تكن طبقة واحدة.

فيها المرأة والرجل، والحر والمولى، والغني والفقير، والقوي والمستضعف، والكبير والصغير، ومن له حماية قبلية ومن لا حماية له.

وهذا التنوع لم يمنع وحدة الجماعة؛ بل كان الإسلام يعيد تعريف العلاقة بين أفرادها على أساس الإيمان.

وهذه حقيقة تاريخية ينبغي أن تبقى منفصلة عن أي استنباط معاصر؛ أما الدلالة التربوية التي يمكن قراءتها من هذا التنوع فهي أن الإيمان حين يصبح معياراً مركزياً للانتماء يعيد بناء الإنسان وعلاقته بالآخرين، ويخفف من هيمنة المقاييس الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الإسلام.

وليس من الدقة أن نقول إن النبي ﷺ كان في هذه المرحلة "يصنع نخبة" بالمعنى التنظيمي الحديث؛ فهذه لغة تحليلية معاصرة، والأدق أن نقول: إنه كان يربي مؤمنين أفراداً، ثم أخذ هؤلاء المؤمنون يشكلون جماعة مترابطة، ظهر فيها أصحاب سبق وثبات وقيادة، وكان لبعضهم أثر بارز في حمل الدعوة ونشرها[10].

المبحث الثاني: دار الأرقم — منهج الانتقاء والتربية بالممارسة

أولاً: لماذا احتاجت الدعوة إلى دار الأرقم؟

مع اتساع دائرة الداخلين في الإسلام واشتداد المواجهة مع قريش، أصبحت الحاجة إلى موضع يجتمع فيه المسلمون للتعلم والعبادة والتربية أكثر وضوحاً.

وتذكر كتب السيرة أن دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه كانت موضعاً لاجتماع النبي ﷺ بأصحابه في المرحلة المكية، ولا سيما في الفترة التي اشتدت فيها مواجهة قريش[11].

ولم تكن أهمية الدار في حجارتها، ولا في موقعها وحده، وإنما في الوظيفة التي أدتها؛ فقد وفرت للمسلمين موضعاً يجتمعون فيه حول رسول الله ﷺ، ويتلقون عنه القرآن، ويتعلمون منه الدين، ويقوون روابط الأخوة والإيمان، في وقت كانت فيه البيئة المحيطة تضيق عليهم.

ويشير المباركفوري إلى دار الأرقم في سياق عرضه للمرحلة السرية، مبيناً كيف أصبحت الدعوة تتحرك في نطاق محدود قبل أن يأذن الله بالجهر بها، وكيف كان المسلمون يجتمعون في هذا الموضع للتربية والتعليم[12].

ومن هنا ينبغي ألا تتحول دار الأرقم في القراءة المعاصرة إلى "نموذج تنظيمي" جاهز يُسقط على كل جماعة أو مؤسسة؛ فوظيفتها التاريخية كانت مرتبطة بظروف الدعوة المكية، وبحاجة المسلمين إلى موضع آمن نسبياً يجتمعون فيه مع رسول الله ﷺ.

لكن يمكن للباحث التربوي أن يلاحظ من وظيفتها أن التربية تحتاج إلى بيئة حاضنة، وأن التعليم لا ينفصل عن الصحبة والممارسة وبناء الروابط.

ثانياً: التربية بالقرآن

كان القرآن هو المادة الأولى في بناء هذه الشخصيات.

فلم تكن دار الأرقم مدرسة للمعلومات المجردة، وإنما كان القرآن ينزل على واقع حي، ويعيد بناء التصورات والمشاعر والسلوك.

ولهذا كانت السور المكية تعالج قضايا الإيمان بالله، والبعث، والجزاء، وقصص الأنبياء، ومصارع المكذبين، وتحرير النفس من سلطان غير الله، وربط الإنسان بالآخرة.

ويقرر الشيخ محمد الغزالي أن المرحلة المكية كانت مرحلة إعداد وبناء، وأن القرآن المكي ركز على ترسيخ العقيدة وتكوين الضمير قبل أن تتسع دائرة التشريع التفصيلي[13].

وهذا المعنى تؤيده طبيعة القرآن المكي نفسها، فالله سبحانه يقول:
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ * الجمعة: ٢.
فالآية تجمع بين التلاوة والتزكية والتعليم، بما يدل على أن بناء الإنسان في المنهج النبوي لم يكن عملية معرفية منفصلة عن السلوك، ولا عملية وعظية منفصلة عن العلم، بل كان بناءً متكاملاً.

ثالثاً: من سماع القرآن إلى عيش القرآن

كان الصحابة يتلقون الوحي في ظرف مختلف عن ظرف القارئ المعاصر؛ فالآية كانت تنزل وهم يعيشون أحداثها، ويجدون أنفسهم أمام توجيه يطالبهم بموقف أو يصحح لهم تصوراً أو يثبتهم في ابتلاء.
ومن هنا كانت التربية بالممارسة جزءاً أصيلاً من بناء الشخصية.
لم يكن الصحابي يتعلم الصبر بوصفه تعريفاً أخلاقياً، ثم ينتظر فرصة لتطبيقه؛ بل كان يعيش الصبر في مكة.
ولم يكن يتعلم التوكل بوصفه مفهوماً ذهنياً، ثم يعود إلى حياته الطبيعية؛ بل كان يرى نفسه في مواجهة مجتمع أقوى منه، ويتعلم كيف يثبت قلبه بالله.
ولم يكن يتعلم الأخوة باعتبارها فضيلة مجردة؛ بل كان يرى المؤمنين من حوله يتقاسمون الألم والخوف والهجرة والبلاء.
وهذا هو الجانب الذي يلفت إليه الغضبان في قراءته التربوية للسيرة: أن التربية النبوية لم تكن منفصلة عن الواقع، بل كانت تتعامل مع الأحداث نفسها باعتبارها مجالاً لصناعة الإنسان[14].

رابعاً: التربية في جماعة لا في عزلة

لم يكن المقصود من الاجتماع أن يعيش المسلمون بعيداً عن المجتمع، وإنما أن تتكون بينهم رابطة إيمانية قادرة على الصمود أمام ضغط البيئة.
فالإنسان يتأثر بجماعته، ويقوى بها ويضعف بانهيارها.
ولهذا كانت الأخوة بين السابقين الأولين جزءاً من تكوينهم، لا مجرد نتيجة جانبية للدعوة.
ويشير ابن كثير في عرضه لبدايات الإسلام إلى صور من اجتماع المسلمين حول النبي ﷺ، وإلى ما كان يلقونه من أذى قريش، وهو ما يبين أن التربية كانت تجري في سياق اجتماعي ضاغط، لا في بيئة محايدة[15].

وكان اجتماع المسلمين في دار الأرقم يجمع بين ثلاثة عناصر متداخلة:
القرآن الذي يبني التصور،
ورسول الله ﷺ الذي يجسد المنهج،
والجماعة المؤمنة التي توفر الصحبة والمساندة.
وهذه العناصر الثلاثة هي التي أعطت التربية المكية قوتها؛ إذ لم يكن المسلم يتلقى فكرة مجردة، وإنما يتلقى وحياً، ويعيش مع رسول، وينتمي إلى جماعة.

خامساً: الانتقاء ليس غاية

ومن المهم هنا ضبط مفهوم "الانتقاء."
لقد كانت الدعوة في بدايتها محدودة الانتشار، وكان من الطبيعي أن يكون الدخول فيها عبر أفراد معدودين، ثم تتسع الدائرة شيئاً فشيئاً. كما أن النبي ﷺ كان يعرف أصحابه ويخاطب كلاً منهم بما يناسب حاله.
لكن لا يصح أن نستخرج من ذلك نظرية تنظيمية معاصرة كاملة عن "انتقاء النخبة"، ثم ننسبها إلى السيرة.
الأدق أن نقول: إن المرحلة الأولى من الدعوة قامت على بناء أفراد مؤمنين، وكان لبعض هؤلاء من الاستعداد والسبق والقدرة ما جعلهم من أعمدة الجماعة فيما بعد.
وهذه ملاحظة تستند إلى الوقائع نفسها، وليست بحاجة إلى تحميل السيرة مصطلحات لم ترد فيها.

المبحث الثالث: دائرة البناء الأولى — الفرد، فالأسرة، فالنواة الجماعية

أولاً: الإسلام يغير الفرد

بدأ التغيير من الإنسان.

لم تكن قريش تحتاج في أول الأمر إلى مؤسسة سياسية جديدة بقدر ما كانت تحتاج إلى إنسان جديد يرى أن العبودية لله وحده، وأن الحياة ليست محكومة بموازين الجاهلية.

ولهذا جاءت الآيات المكية تبني العقيدة في القلب، وتربط الإنسان بالآخرة، وتعيد تعريف الكرامة والخوف، والرجاء والمحبة والطاعة.

وكان لهذا البناء أثره في سلوك الصحابة.

فبلال الذي كان عبداً في المجتمع الجاهلي صار التوحيد عنده أثمن من حياته.

وعمار الذي رأى العذاب لم يتخل عن إيمانه.وخباب الذي جاء يشكو الأذى تلقى من النبي ﷺ تربية على الصبر وانتظار موعود الله.وخديجة التي آمنت منذ اللحظة الأولى بذلت من مكانتها ومالها وحياتها في نصرة رسول الله ﷺ.وأبو بكر الذي آمن حمل إيمانه إلى من حوله.

فلم يكن الإيمان عند هؤلاء حالة شعورية منعزلة، بل كان قوة تعيد تشكيل الاختيارات والسلوك والعلاقات.

ثانياً: من الفرد إلى الأسرة

ولم تتوقف آثار الإسلام عند الفرد، فقد دخلت الدعوة إلى البيوت.

وكان بيت النبي ﷺ أول بيت احتضن الوحي، وكانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن به.

كما أسلمت بنات النبي ﷺ في الجملة، وكان علي رضي الله عنه في بيت النبي ﷺ قبل الهجرة، وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه قريباً من بيته.

ثم دخل الإسلام بيوتاً أخرى من بيوت الصحابة.

وهكذا بدأت تتكون في مكة وحدات أسرية تحمل الإيمان داخل المجتمع الجاهلي.

ولم تكن الأسرة مجرد وحدة سكنية، بل أصبحت في بعض الحالات موضعاً لحفظ الإيمان وتعليمه وتحمل تبعاته.

ومن اللافت أن القرآن نفسه حين تحدث عن عناية الله برسوله في سياق بدايات الدعوة، قال:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ * الضحى: ٧-١١. وهكذا تداخلت التربية الإيمانية مع الرحمة والمسؤولية الأخلاقية، ولم يتحول الإيمان إلى فكرة منفصلة عن التعامل مع الإنسان.

ثالثاً: الأسرة تحت ضغط الجاهلية

لكن هذا البناء لم يكن سهلاً.

فبمجرد أن أصبح الإسلام مخالفاً لمصالح قريش وتقاليدها، أصبحت الأسرة نفسها ميداناً من ميادين الصراع.

ومن أقسى صور ذلك ما وقع لآل ياسر رضي الله عنهم، حيث تعرضوا للعذاب بسبب إسلامهم.

وهنا يظهر أن بناء الأسرة المؤمنة لا يعني بالضرورة أن أفرادها جميعاً سيستجيبون للإيمان بالطريقة نفسها؛ فقد كانت البيوت المكية تضم مؤمناً ومشركاً، ومسلماً ومعادياً، وقريباً للنبي ﷺ أو للصحابي ثم لا يؤمن.

ولذلك لا ينبغي أن نقرأ دائرة "الفرد ← الأسرة" باعتبارها قانوناً آلياً يقتضي أن انتقال الإيمان إلى الفرد يؤدي حتماً إلى إسلام أسرته.

الأدق أن نقول إن الفرد كان أول مجال للتغيير، وكانت الأسرة إحدى أهم البيئات التي ظهرت فيها آثار هذا التغيير، سواء بالاستجابة أو بالمواجهة أو بالابتلاء.

رابعاً: من الأسرة إلى النواة المؤمنة

ومع اتساع عدد المسلمين، لم يعد المؤمن يعيش وحده.

أصبح هناك مجتمع صغير يتشكل حول رسول الله ﷺ.

وكانت هذه الجماعة تلتقي على القرآن، والصلاة، والصحبة، وتحمل الأذى.

ولذلك كان بناء النواة الجماعية امتداداً طبيعياً لبناء الفرد والأسرة.

وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على معانٍ تتجاوز المصلحة الفردية: الأخوة، والصبر، والتضحية، والصدق، والأمانة، والطاعة في المعروف، والثقة بالله.

وهذه المعاني هي التي جعلت من أفراد متفرقين جماعة تستطيع أن تتحمل المرحلة التالية.

ويشير الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة إلى أن المسلمين في مكة كانوا يتلقون التربية التي تؤهلهم لحمل الرسالة، وأن هذه التربية كانت ضرورية قبل الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل الدعوة[16].

كما يبرز الغضبان في تحليله التربوي أن بناء الشخصية لم يكن منفصلاً عن بناء الجماعة؛ إذ إن التربية المكية أوجدت أفراداً قادرين على حمل أعباء الدعوة، ثم جاء انتقال الدعوة إلى المدينة في مرحلة لاحقة على أساس هذا البناء[17].

أما المباركفوري فيعرض تسلسل الأحداث بما يظهر التدرج من الدعوة الفردية المحدودة إلى اتساع دائرة الإسلام، ثم الجهر، ثم اشتداد الابتلاء، حتى انتهت المرحلة المكية إلى تكوين جماعة مؤمنة مؤهلة للانتقال إلى طور جديد[18].

خامساً: النواة الصلبة لا تعني جماعة مغلقة

ومن هنا ينبغي أن نفرق بين "النواة الصلبة" بوصفها وصفاً تحليلياً لجماعة من السابقين ثبتوا على الإسلام وتحملوا تبعاته، وبين تحويل هذا المصطلح إلى مفهوم تنظيمي مغلق.

فالنواة الأولى لم تكن جماعة منفصلة عن المجتمع تعيش لنفسها، وإنما كانت جماعة تحمل دعوة موجهة إلى الناس كافة.

وكان من أبرز خصائصها أنها تنمو بالامتداد؛ يدخل فرد جديد في الإسلام، فيصبح جزءاً من الجماعة، ويتحول المجتمع شيئاً فشيئاً من بيئة معادية إلى بيئة يوجد فيها المسلمون ويؤثرون فيها.

وهذا يفسر كيف انتقلت الدعوة بعد سنوات قليلة من أفراد محدودين إلى جماعة لها وزن اجتماعي، ثم إلى مجتمع الأنصار في يثرب، ثم إلى الهجرة وبناء مجتمع المدينة.

لكن هذه التحولات لم تحدث دفعة واحدة؛ بل كانت كل مرحلة تعتمد على ما راكمته المرحلة السابقة من إيمان وتجربة وصبر وعلاقات بشرية.

سادساً: القراءة التربوية – كيف صنعت المرحلة المكية شخصية مختلفة؟

عند النظر في هذه المرحلة كلها، لا يكفي أن نقول إن الصحابة "تعلموا الإسلام"، فالتعليم وحده لا يفسر عمق التحول الذي وقع في شخصياتهم.

لقد انتقلوا من تصور إلى تصور، ومن ميزان إلى ميزان، ومن مرجعية اجتماعية إلى مرجعية إيمانية.

كان الواحد منهم يعيش في مجتمع يحدد قيمة الإنسان بالنسب والمال والقوة والحماية، ثم جاء الإسلام ليعيد ترتيب هذه القيم.

وكان يعيش في مجتمع يرى الآلهة والأعراف والعلاقات القبلية مراجع عليا، فجاء التوحيد ليجعل المرجعية لله وحده.

وكان يعيش في بيئة تستعجل النتائج المادية، فجاء القرآن يربطه بالآخرة وبوعد الله.

وكان يتعرض للأذى، فيتعلم الصبر.
وكان يستطيع أحياناً أن ينتصر لذاته، فيتعلم أن القضية أكبر من ذاته.
ومن هنا كانت التربية المكية صناعة للإنسان قبل صناعة الواقع.
وهذا المعنى هو من أبرز ما يركز عليه الشيخ محمد الغزالي والغضبان في قراءتهما للسيرة: أن السنوات المكية لم تكن زمناً ضائعاً في انتظار الدولة، وإنما كانت زمناً مركزياً في بناء الإنسان الذي سيحمل أعباء الدولة والرسالة بعد ذلك[19].
وهذا لا يعني أن كل تصرف في المرحلة المكية يمكن تحويله إلى قاعدة تربوية عامة، ولا أن كل ترتيب وقع فيها كان نتيجة "خطة بشرية" بالمعنى التنظيمي الحديث؛ وإنما يعني أن قراءة مجموع الوقائع تكشف بوضوح عن مركزية الإيمان والتزكية والقرآن والصحبة والصبر في تكوين الجيل الأول.

سادساً: ما الذي يمكن استنباطه؟ وما الذي لا يجوز ادعاؤه؟

من مجموع هذه الوقائع يمكن استخلاص عدد من الدلالات التربوية، بشرط التمييز بينها وبين الرواية التاريخية نفسها.

١. بناء الإنسان يسبق قدرته على حمل الأعباء

هذه ليست عبارة تاريخية وردت بهذا اللفظ في السيرة، وإنما هي استنباط تربوي من طبيعة المرحلة المكية.
فالأفراد الذين حملوا الرسالة في مراحلها اللاحقة كانوا قد مروا قبل ذلك بتجربة طويلة من الإيمان، والتعليم والصبر والابتلاء.

٢. التربية لا تنفصل عن الواقع

لم تكن التربية المكية في بيئة مدرسية معزولة عن الحياة، بل جرت في قلب الابتلاء.
وهذا استنباط تدعمه مواقف خباب وآل ياسر وغيرهما، حيث تحولت المحنة نفسها إلى مجال للتربية على الصبر والثبات.

٣. الصحبة عنصر مهم في البناء

اجتماع المسلمين حول النبي ﷺ، ووجود دار الأرقم، وتكوين الروابط بين المؤمنين، كلها وقائع تدل على أن المسلم الأول لم يكن يبنى بعيداً عن جماعة المؤمنين.
أما تحويل ذلك إلى نظرية تنظيمية تفصيلية، فذلك أمر آخر يحتاج إلى دليل مستقل.

٤. اختلاف الناس لا يمنع وحدة الغاية

ضمّت النواة الأولى شخصيات شديدة التنوع في الأصل الاجتماعي والاقتصادي والقبلي، ومع ذلك جمعها الإيمان، وهذه ملاحظة تاريخية ذات دلالة تربوية، لا ينبغي أن تتحول إلى شعار مجرد منفصل عن سياق السيرة.

٥. الصلابة نتاج تراكم لم يصنع موقف واحد شخصية بلال أو عمار أو خباب أو أبي بكر رضي الله عنهم، وإنما ظهرت صلابتهم عبر مسار طويل من الإيمان والتربية والابتلاء.

وهذا يجعل "النواة الصلبة" نتيجة لمسار، لا مجرد اختيار أسماء قوية منذ البداية.

ثامناً: الضابط المنهجي

ينبغي عند دراسة هذه المرحلة الحذر من ثلاثة أنواع من الخلط.

الأول: الخلط بين الرواية والاستنباط.

فحين نقول: "كان المسلمون يجتمعون في دار الأرقم"، فهذه رواية تاريخية تحتاج إلى مصدر.

أما حين نقول: "البيئة التربوية الحاضنة تساعد على تثبيت الإنسان"، فهذا استنباط من تلك الوقائع، وليس رواية عن النبي ﷺ.

الثاني: الخلط بين لغة السيرة ولغة التحليل المعاصر.

فعبارات مثل "النواة الصلبة"، و"بناء الشخصية"، و"دائرة البناء"، و"الانتقاء"، هي أدوات تحليلية يستخدمها المؤلف لفهم الأحداث، وليست مصطلحات نبوية.

ومن ثم ينبغي ألا نقول: "كان النبي ﷺ يتبع نظرية النواة الصلبة"، وإنما نقول: "يمكن أن تُقرأ تجربة السابقين الأولين من زاوية تكوّن نواة مؤمنة متماسكة".

الثالث: الخلط بين الحكمة العامة والحكم الشرعي.

فإذا استنبطنا من المرحلة المكية أهمية الصبر، أو أثر الصحبة، أو مركزية التربية، فهذا لا يجعله حكماً شرعياً مستقلاً عن النصوص، ولا يعني أن كل واقع معاصر يجب أن يكرر تفاصيل المرحلة المكية. إنما هي قراءة تربوية للسيرة تستأنس بها حركة الإصلاح، مع بقاء القرآن والسنة الصحيحة هما المرجع الأعلى.

الهوامش والمراجع

1 ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ج١، في أخبار السابقين الأولين؛ وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ج٣، في أخبار بدء الإسلام وإسلام السابقين.

2ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر إسلام أبي بكر ودعوته إلى الإسلام؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، في ترجمة أبي بكر وإسلام عدد من كبار الصحابة بدعوته.

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، القاهرة، في مباحث بدء الدعوة وبناء الجماعة الأولى.

4صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، واللفظ من حديث عائشة رضي الله عنها.

5ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، في فصل بدء الوحي وما جرى بعده؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، في أخبار خديجة رضي الله عنها وموقفها من بدء الوحي.

6ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في إسلام أبي بكر ودعوته إلى الإسلام؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، الرياض، في مرحلة الدعوة السرية وأوائل الداخلين في الإسلام.

7ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر تعذيب بلال رضي الله عنه؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، في أخبار بلال وصبره على الأذى، وترد عبارة "أحد أحد" في كتب السيرة في سياق تعذيبه، مع اختلاف الروايات في بعض تفاصيل القصة.

8رواه الحاكم في المستدرك، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية في أخبار آل ياسر، وله شواهد في كتب السيرة والحديث.

9صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام؛ ورواه أيضاً أبو داود في السنن في كتاب الجهاد، والحديث من رواية خباب بن الأرت رضي الله عنه.

10ينظر في مجموع أخبار السابقين الأولين: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، في فصل عرض الدعوة وأوائل المسلمين.

11ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في أخبار الدعوة السرية ودار الأرقم؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، في أخبار إسلام عمر رضي الله عنه واجتماع المسلمين في دار الأرقم.

12صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في مرحلة الدعوة السرية والجهر بالدعوة وأخبار دار الأرقم.

13الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في مباحث التربية المكية ومراحل الدعوة الأولى.

14منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، ج١، في مباحث التربية في المرحلة المكية وبناء الشخصية المؤمنة.

15ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، في أخبار المسلمين في مكة، وما تعرضوا له من الأذى، واجتماعهم حول النبي ﷺ.

16الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن المرحلة المكية، وبناء الإنسان المؤمن، ومراحل الدعوة الأولى.

17الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في مباحث التربية الجهادية وبناء الشخصية في المرحلة المكية.

18المباركفوري، الرحيق المختوم، في مراحل الدعوة المكية، من الدعوة السرية إلى الجهر، ثم الابتلاء والهجرة إلى الحبشة، وصولاً إلى بيعة العقبة.

19الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، في مجموع مباحث المرحلة المكية وبناء الجيل الأول.

الفصل الأول: الجهر بالدعوة ومواجهة المنظومة

لم تكن السنوات الأولى من الدعوة في مكة مرحلة هادئة يمكن أن يستمر فيها البناء بعيداً عن أعين المجتمع؛ فقد جاءت لحظة الانتقال من دائرة محدودة من المؤمنين إلى إعلان الرسالة في المجتمع كله، وكان هذا الانتقال إيذاناً ببدء طور جديد: طور المواجهة.

ولم تكن المواجهة في بدايتها مواجهة بالسلاح، ولا صراعاً على سلطة أو ملك، وإنما كانت مواجهة بين التوحيد والشرك، وبين قيم الرسالة وبنية الجاهلية، وبين دعوة تريد تحرير الإنسان من عبادة غير الله ونظام اجتماعي واقتصادي وسياسي رأى في هذه الدعوة تهديداً لمصالحه ومكانته.

ومن هنا تكتسب هذه المرحلة أهميتها التربوية؛ إذ لم يكن المطلوب من المؤمنين مجرد إعلان اعتقاد جديد، وإنما الثبات على هذا الاعتقاد حين يتحول من فكرة يؤمن بها الإنسان في داخله إلى موقف يعلنه في وجه المجتمع، ويتحمل تبعاته.

وقد أحسن الشيخ محمد الغزالي حين قرأ السيرة باعتبارها انتقالاً متدرجاً من بناء العقيدة في النفوس إلى مواجهة الواقع بها، كما يبرز المباركفوري تسلسل الأحداث وتصاعد موقف قريش، بينما يولي الغضبان عناية خاصة للبعد التربوي الذي صنعت من خلاله هذه المرحلة شخصيات قادرة على الصبر والثبات وحمل الرسالة، وتفيد روايات ابن هشام وابن كثير وابن القيم في ضبط الوقائع وتفاصيلها، بما يمنع القراءة التربوية من الانفصال عن مادتها التاريخية.

المبحث الأول: الانتقال من السر إلى العلن وأساليب المقاومة

تمهيد: حين خرجت الدعوة من الدائرة الضيقة

مرت الدعوة الإسلامية في بدايتها بمرحلة من الدعوة السرية، كان المقصود منها أن تتكون النواة الأولى بعيداً عن صدمة المواجهة العامة قبل أن تتهيأ لمرحلة الإعلان، وقد دخل في الإسلام خلال هذه الفترة عدد من السابقين الأولين، وتربوا على يد رسول الله ﷺ، فكانت دار الأرقم من المواطن المهمة في هذا البناء.

ثم جاء الأمر الإلهي بالإنذار العلني: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ * الشعراء: ٢١٤.

ثم جاء الأمر: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ * الحجر: ٩٤.

وهكذا انتقلت الدعوة من مرحلة بناء النواة الأولى إلى مرحلة مخاطبة المجتمع، وأصبح على المؤمنين أن يعيشوا إيمانهم في المجال العام، لا في الدائرة الخاصة وحدها.

ويرى المباركفوري أن الدعوة السرية استمرت نحو ثلاث سنوات، ثم انتقلت إلى مرحلة الدعوة العلنية، وهو انتقال لم يكن عفوياً، وإنما جاء في سياق التدرج في إقامة الدعوة وبناء جماعتها الأولى، ويؤكد الشيخ محمد الغزالي أن التربية السابقة لم تكن مرحلة منفصلة عن الحركة، وإنما كانت إعداداً للرجال الذين سيحملون عبء المرحلة التالية. أما الغضبان فيلفت النظر إلى أن الانتقال إلى العلن يعني انتقال التربية نفسها من مجرد التلقي إلى تحمل تبعات الالتزام[1].

أولاً: الإنذار يبدأ من الدائرة الأقرب

من المشاهد الدالة في هذه المرحلة أن النبي ﷺ بدأ بإنذار عشيرته الأقربين.

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

خرج حتى صعد الصفا، فنادى بطون قريش، فلما اجتمعوا قال لهم:

[أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟]

قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

قال:[فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ].

فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ ثم قام، فنزلت:﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ .[2]

وتكشف هذه الرواية عن حقيقة مهمة: أن رسول الله ﷺ لم يبدأ الدعوة العلنية بمساومة على مضمون الرسالة، ولم يقدمها باعتبارها مشروعاً لتحسين بعض العادات فحسب، وإنما أعلن منذ البداية جوهرها: الإنذار والتوحيد والمسؤولية أمام الله.

وفي هذه اللحظة أيضاً ظهر الفرق بين الإيمان الذي يعيش في بيئة خاصة، والإيمان الذي يدخل ساحة المجتمع؛ فقبل الإعلان يستطيع الإنسان أن يتجنب كثيراً من الأسئلة والضغوط الاجتماعية، أما حين يعلن موقفه، فإن الموقف يصبح امتحاناً عملياً.

ثانياً: قريش تكتشف أن الدعوة ليست حادثة عابرة

لم تتعامل قريش مع الدعوة في أول الأمر باعتبارها مجرد انحراف فردي يمكن تجاهله، ومع اتساع دائرة الداخلين في الإسلام، بدأت ترى أن الأمر يتجاوز الأفراد إلى التأثير في البنية العامة للمجتمع.

وقد نقلت كتب السيرة صوراً متعددة من مواقف قريش: السخرية والاستهزاء، والتشكيك، والاتهام، ومحاولة صرف الناس عن سماع القرآن، ثم الانتقال إلى الضغط الاجتماعي، والتعذيب، والمساومة، والمقاطعة.

وكان القرآن نفسه يسجل جانباً من طبيعة هذه المواجهة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فصلت: ٢٦.

وهذه الآية تكشف أن مواجهة الدعوة لم تكن محصورة في الأذى البدني، بل شملت محاولة منع الرسالة من الوصول إلى الناس أصلاً.

وتشير روايات ابن هشام وابن كثير إلى تصاعد هذه الأساليب كلما ظهر انتشار الإسلام واستعصى على الإخماد[3].

ثالثاً: السخرية والتشويه

كان من أول الأساليب التي لجأت إليها قريش محاولة التشويه النفسي والمعنوي للدعوة ولرسول الله ﷺ.

فقد اتُّهم النبي ﷺ بالسحر والشعر والكهانة والجنون، مع أن قريشاً كانت تعرف شخصيته وسيرته قبل البعثة.

وقد سجل القرآن بعض هذه الاتهامات:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الحجر: ٦.

وسجل كذلك قولهم:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ الأنبياء: ٥.

ولم تكن قيمة هذه الاتهامات في صدقها، وإنما في وظيفتها الاجتماعية: إعادة تعريف الداعية في أذهان الناس قبل أن يسمعوا منه.

ومن هنا كان القرآن يواجه هذا الأسلوب بتثبيت النبي ﷺ، وتصحيح الصورة، وتوجيهه إلى الاستمرار:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ الروم: ٦٠.

فالرسالة لا تُقاس دائماً بسرعة قبول المجتمع لها، ولا يثبت صاحبها لأن الجميع صدقه، وإنما لأنه يعرف حقيقة ما يدعو إليه.

رابعاً: الإغراء والمساومة

لما لم تفلح وسائل التشويه وحدها، انتقلت قريش إلى أسلوب آخر، وهو محاولة إيقاف الدعوة بالمساومة والإغراء.

وقد أوردت كتب السيرة قصة عتبة بن ربيعة حين جاء إلى النبي ﷺ يعرض عليه أموراً من المال والملك وغير ذلك، مقابل أن يتوقف عن دعوته.

فلما فرغ عتبة من عرضه، قال له النبي ﷺ:[أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟]

قال: نعم.

قال:[فَاسْمَعْ مِنِّي].ثم تلا عليه صدر سورة فصلت، حتى بلغ قوله تعالى:﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

فأمسك عتبة بيده على فم النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف عنه[4].

وبصرف النظر عن تفاصيل الرواية التي تكلم أهل الحديث في أسانيد بعضها، فإن كتب السيرة أوردتها في سياق محاولات قريش إيقاف الدعوة بالمساومة، وهي صورة تتكرر في روايات هذه المرحلة بأشكال متعددة[5].

والدلالة التربوية هنا ليست أن كل عرض أو تفاوض هو بالضرورة انحراف، وإنما أن ثوابت الرسالة لا تصبح قابلة للبيع حين تكون المساومة على أصلها.

خامساً: التعذيب حين فشلت وسائل الإغراء

وحين لم تتوقف الدعوة بالسخرية والتشويه والمساومة، انتقل الاضطهاد إلى صور أكثر قسوة.

وكان المستضعفون من المسلمين أكثر الفئات تعرضاً للأذى؛ لأن العصبية القبلية كانت توفر لبعض المسلمين حماية تمنع الاعتداء عليهم أو تخففه.

وكان بلال رضي الله عنه من أشهر من عُذبوا في سبيل الإسلام، وكذلك عمار بن ياسر وأبوه ياسر وأمه سمية رضي الله عنهم.

وقد مر النبي ﷺ بآل ياسر وهم يعذبون، فقال:[صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ][6].

وكانت هذه الكلمات القليلة تحمل معنى تربوياً عميقاً: لم يكن النبي ﷺ يملك في تلك اللحظة أن يرفع عنهم كل الأذى، لكنه كان يربط الألم العابر بالمصير الأبدي، ويمنحهم معنى يجعل التضحية قابلة للاحتمال.

وهنا تظهر وظيفة التربية الإيمانية التي سبقت المواجهة؛ فالذي لم يتشبع بمعنى الآخرة، ولم يتأسس قلبه على التوحيد، قد يعجز عن تحمل ضغط الواقع.

سادساً: المقاطعة والحصار

ثم تطورت المواجهة إلى مستوى اجتماعي أوسع، حين اجتمعت قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب ومن معهم، فكتبوا الصحيفة، وحُبس المسلمون ومن ناصرهم في شعب أبي طالب، واشتد عليهم البلاء.

وتذكر كتب السيرة أن الحصار استمر سنوات، وأن القوم عانوا شدة بالغة حتى أكلوا أوراق الشجر، وبلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً[7].

ولم يكن هذا الحصار موجهاً إلى الأفراد وحدهم، بل كان محاولة لخنق البيئة الاجتماعية التي تحمي النبي ﷺ ومن معه.

وهنا يظهر أن مقاومة الدعوة قد تنتقل من استهداف الأفكار إلى استنزاف الحاضنة الاجتماعية.

ومع ذلك لم تتحول المحنة إلى انهيار للنواة الأولى؛ بل خرج منها المؤمنون أكثر خبرة بسنن الابتلاء، وأكثر إدراكاً لطبيعة الطريق الذي اختاروه.

المبحث الثاني: صناعة الثبات وإدارة الرفض

تمهيد: من الاستجابة إلى الاحتمال

إن بناء الإنسان المؤمن لا يكتمل بمجرد أن يقتنع بالفكرة؛ إذ تأتي مرحلة يصبح فيها عليه أن يتحمل ثمنها.

وهذا ما جعل المرحلة المكية مدرسة استثنائية في الثبات تحت الضغط.

فلم يكن الصحابة يواجهون خصومة فكرية مجردة، بل كانوا يواجهون السخرية، والحرمان، والتعذيب، والقطيعة، والتهديد، وفقدان المكانة الاجتماعية، وأحياناً فقدان الحياة نفسها.

ولهذا كان النبي ﷺ يتعهد أصحابه بالتثبيت، ويذكرهم بوعد الله، ويعيد توجيه أنظارهم من ضغط اللحظة إلى أفق الآخرة.

أولاً: حمزة ودخول القوة في صف الدعوة

كان إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حدثاً مهماً في تاريخ الدعوة.

وتذكر روايات السيرة أن أبا جهل آذى النبي ﷺ عند الصفا، ثم بلغ حمزة ما وقع، فغضب، وأعلن إسلامه، وكان في إسلامه قوة ومنعة للمسلمين[8].

وليس المقصود من إسلام حمزة اختزال التحول في مجرد القوة المادية؛ فحمزة أصبح واحداً من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وحمل الإيمان كما حمل الشجاعة.

لكن الحدث يكشف عن جانب من طبيعة المرحلة: كلما اشتدت الضغوط احتاجت الجماعة إلى رجال يجمعون بين قوة الشخصية وقوة الإيمان.

ثانياً: عمر بن الخطاب والتحول في موازين القوة

وجاء إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليزيد المسلمين قوة ومنعة.

وقد اشتهرت قصة إسلامه في كتب السيرة، وفيها أنه خرج يريد النبي ﷺ، ثم انتهى إلى أخته وزوجها وهما يقرآن شيئاً من القرآن، فكان سماعه للقرآن سبباً في تحول قلبه، ثم ذهب إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه[9].

وقد كان إسلام عمر تحولاً مهماً في البنية الاجتماعية للجماعة؛ لأنه لم يكن مجرد زيادة عددية، وإنما انضم إلى الدعوة رجل ذو شخصية قوية ومكانة معروفة في قريش.

وقد ربط الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة بين إسلام الرجال ذوي القوة والشخصية وبين تطور قدرة الجماعة على مواجهة الواقع، مع بقاء الأصل هو التحول الإيماني الذي حدث في القلب[10].

وهذه نقطة منهجية مهمة: القوة في المنهج النبوي ليست بديلاً عن الإيمان، وإنما تصبح ذات قيمة حين تدخل في خدمته.

ثالثاً: النبي ﷺ في مواجهة رفض قومه

لم يكن النبي ﷺ بمعزل عن أثر هذا الرفض النفسي.

فالقرآن يصور شدة حرصه على هداية قومه:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ * الكهف: ٦.

ثم جاء التوجيه الإلهي:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ * القصص: ٥٦.

فكان في ذلك تصحيح لمفهوم المسؤولية: وظيفة الرسول ﷺ البلاغ والدعوة والإنذار، أما هداية القلوب فبيد الله.

وهذا من أعظم ما يحمي الداعية من الانهيار النفسي؛ لأنه لا يجعل نجاحه مرهوناً باستجابة كل من يدعوه.

رابعاً: الثبات ليس إنكاراً للألم

ومن الخطأ أن نفهم الصبر النبوي على أنه غياب للألم الإنساني.

فالنبي ﷺ حزن، وبكى، وتألم لفقد الأحبة ولرفض قومه، لكنه لم يسمح للألم أن يحرفه عن رسالته.

وقد قال عند وفاة ابنه إبراهيم:

[إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ][11].

وهذا يضع أمام التربية الإسلامية تصوراً بالغ الأهمية للثبات: الثبات لا يعني إلغاء المشاعر، وإنما يعني ضبطها بالحق وعدم السماح لها بإفساد الموقف الشرعي.

المبحث الثالث: التربية في زمن الاستضعاف

تمهيد: القوة ليست دائماً في المواجهة

كانت المرحلة المكية مرحلة استضعاف حقيقي، ولم يكن المسلمون يملكون في بدايتها القدرة على مواجهة قريش مواجهة عسكرية.

ولذلك كان المنهج النبوي في تلك المرحلة قائماً على الصبر، والدعوة، وتحمل الأذى، واتخاذ الوسائل التي تحفظ المؤمنين والرسالة.

وقد قال خباب بن الأرت رضي الله عنه:[شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ][12].

وهذا الحديث من النصوص المركزية في فهم التربية المكية؛ لأنه يجمع بين الاعتراف بقسوة الواقع، وتثبيت المؤمنين، وبناء الأفق البعيد، والنهي عن استعجال النتائج.

لم يقل لهم النبي ﷺ إن الألم غير موجود، ولم يعدهم بانتهاء المحنة فوراً، وإنما نقلهم من سؤال اللحظة: متى ينتهي الأذى؟ إلى سؤال الرسالة: هل يستطيع الأذى أن يصدنا عن الدين؟

أولاً: الاستضعاف لا يعني السلبية

لم يكن المسلمون في مكة جماعة سلبية مستسلمة للواقع، بل كانوا يدعون إلى الله، ويقرأون القرآن، ويجتمعون للتربية، ويتحركون في حدود ما يستطيعون، وهاجر بعضهم إلى الحبشة حين ضاقت بهم مكة.

ومن هنا ينبغي التفريق بين الصبر وبين الاستسلام، وبين عدم القدرة على المواجهة المسلحة وبين العجز عن العمل.

فالنبي ﷺ لم يجعل الاستضعاف سبباً لوقف الدعوة، وإنما جعل له وسائل تناسبه.

وهذا ما يلفت إليه الشيخ محمد الغزالي في قراءته للمرحلة المكية: أن المسلم لا يملك دائماً اختيار الظروف، لكنه يملك اختيار موقفه منها[13].

ثانياً: فقه الموازنة بين حفظ الجماعة وحمل الرسالة

من أبرز الشواهد على ذلك الهجرة إلى الحبشة.

فحين اشتد الأذى، أذن النبي ﷺ لبعض أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة، وقال:[إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ][14].

وهذه الحادثة ستأتي بتفصيلها في الفصل التالي، لكنها هنا تكشف عن مبدأ مهم في إدارة مرحلة الاستضعاف: حماية الإنسان المؤمن جزء من حماية الرسالة.

فلم يكن المطلوب أن يبقى المسلم في موضع الهلاك لمجرد إثبات الشجاعة، وإنما اتخذ النبي ﷺ وسيلة مشروعة لحفظ أصحابه وتمكينهم من الاستمرار في دينهم.

ثالثاً: الصبر مع استمرار الحركة

من الخطأ كذلك أن تتحول التربية على الصبر إلى انتظار سلبي.

فالمرحلة المكية نفسها شهدت حركة مستمرة: دعوة، وتربية، وتعليم، وهجرة، واتصال بالقبائل، وبحثاً عن منافذ جديدة، حتى انتهت إلى بيعة العقبة.

وهنا تظهر طبيعة المنهج النبوي: الثبات لا يناقض الحركة، والصبر لا يعني الجمود.

فالإنسان الثابت هو الذي يستطيع أن يتحرك من غير أن يفقد بوصلته، وأن يغير الوسيلة من غير أن يغير المبدأ.

الفهم التربوي للمرحلة

إذا نظرنا إلى هذه المرحلة لا بوصفها سلسلة من الأحداث فقط، وإنما بوصفها مرحلة في صناعة الإنسان، وجدنا أن الجهر بالدعوة كشف عن مستوى جديد من التربية.

في المرحلة السابقة كان المطلوب أن يؤمن الإنسان.

أما الآن فأصبح مطلوباً منه أن يثبت على ما آمن به حين يصبح إيمانه مكلفاً.

وهذا فرق جوهري.

فالإيمان الذي لم يدخل ساحة الابتلاء قد يبقى في مستوى القناعة الذهنية، أما الإيمان الذي يواجه الأذى والرفض والمساومة فإنه يتحول إلى بناء راسخ في الشخصية.

ومن هنا يمكن فهم تنوع الابتلاءات التي مر بها الصحابة: لم تكن كلها من نوع واحد؛ فهناك من ابتُلي بالتعذيب، وهناك من ابتُلي بفقد المكانة، وهناك من ابتُلي بمفارقة الوطن، وهناك من ابتُلي بالحصار، وهناك من ابتُلي بفقد الأحبة.

وكان المقصود التربوي ـ كما يظهر من مجموع أحداث المرحلة ـ أن يتعلم المؤمن أن علاقته بالله ليست مرتبطة براحة دنيوية عاجلة.

وهذا هو أحد المعاني التي يبرزها الغضبان في قراءته للمنهج التربوي للسيرة؛ فمرحلة الاستضعاف صنعت القدرة على الصبر، وربطت التربية بالعقيدة والآخرة، وجعلت المحنة نفسها وسيلة لبناء الشخصية المؤمنة[15].

وهذه المرحلة باعتبارها مرحلة اختبار حقيقي لصدق الإيمان؛ إذ لا يكفي أن يرفع الإنسان شعاراً، وإنما تظهر حقيقة الموقف عندما يدفع ثمناً لما يؤمن به[16].

كما أن أحداث العهد المكي المتتابعة، وضحت أن الاضطهاد لم يؤد إلى توقف الدعوة، بل تتابعت الأحداث حتى وصلت إلى مرحلة البحث عن أرض جديدة تحتضن الرسالة[17].

الاستنباط المنضبط: ماذا نستطيع أن نستخلص من هذه المرحلة؟

ينبغي هنا أن نفرق بوضوح بين ما وقع في السيرة وبين ما يمكن أن نستنبطه منها.

فالسيرة لا تقدم لنا في هذه المرحلة عبارات من قبيل "قانون إدارة الرفض" أو "نظرية مواجهة المنظومة" بهذه المصطلحات الحديثة؛ وإنما هذه عبارات تحليلية معاصرة لوصف مجموعة من الوقائع.

وبناء على ذلك يمكن استنباط جملة من المعاني، مع بقائها في دائرة الاستنباط لا في دائرة الرواية التاريخية:

الإيمان يحتاج إلى اختبار

تكشف أحداث المرحلة أن الإيمان لا يبقى في مستوى الاعتقاد المجرد، بل يظهر أثره حين يتعرض صاحبه للضغط.

وهذا ليس حكماً تاريخياً خاصاً بمكة، وإنما معنى يمكن أن يستفاد من طبيعة الابتلاء التي عرضتها السيرة.

بناء الإنسان يسبق تحميله أعباء المواجهة

فالمرحلة السرية والتربية السابقة سبقت مرحلة الجهر وما ترتب عليها من أذى.

ومن ثم يمكن تربوياً القول إن الجماعة لا ينبغي أن تطلب من أفرادها تحمل أعباء كبيرة قبل أن توفر لهم من البناء الإيماني والمعرفي ما يعينهم عليها.

وهذا استنباط تربوي من تسلسل الأحداث، وليس نصاً تاريخياً يقول إن النبي ﷺ وضع "نظرية تنظيمية" بهذا الاصطلاح.

الصبر ليس تعطيلاً للحركة

تظهر السيرة أن الصبر في مكة لم يكن توقفاً عن العمل، وإنما استمراراً في الدعوة والتربية واتخاذ الأسباب الممكنة.

ومن ثم فالجمع بين الثبات والحركة معنى تربوي معتبر في قراءة المرحلة.

٤. الوسيلة تتغير بحسب القدرة والظرف

الهجرة إلى الحبشة مثال واضح على اتخاذ وسيلة جديدة حين اشتدت الظروف، كما أن الانتقال من السرية إلى الجهر ثم إلى الهجرة يبين تنوع الوسائل بحسب المرحلة.

لكن لا يصح أن نستخرج من ذلك قاعدة آلية تقول إن كل مشروع إصلاحي يجب أن يمر بالمراحل نفسها؛ لأن ذلك تجاوز لخصوصية السيرة.

٥. حفظ الإنسان من مقاصد التعامل مع الأزمات

إذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة يدل على أن حماية المؤمنين من الفتنة والأذى مقصد معتبر في تلك المرحلة.

أما تحويل ذلك إلى نظرية سياسية أو تنظيمية عامة، فيحتاج إلى أدلة أخرى ولا يصح نسبته إلى السيرة بمجرد هذا الحدث.

الضابط المنهجي: لا نسقط مكة على واقعنا

وهنا تبرز ضرورة الحذر من القراءة الحركية المنفلتة.

فالعهد المكي ليس نموذجاً جاهزاً يمكن نسخه في كل بيئة، ولا يصح أن يقال: إن كل مجتمع معاصر يمر بالضرورة بمرحلة "مكية"، وإن كل جماعة إصلاحية تستطيع أن تعتبر نفسها مماثلة لجماعة المسلمين في مكة.

فالنبي ﷺ رسول مؤيد بالوحي، والمرحلة المكية جزء من تاريخ النبوة، وأحداثها مرتبطة بأشخاص ووقائع وظروف لا تتكرر بحذافيرها.

ولهذا فالمشروع العلمي الصحيح لا يبحث عن إسقاط الأحداث، وإنما عن فهم السنن والمعاني التي تسمح النصوص باستخلاصها.

كما ينبغي الحذر من استعمال ألفاظ مثل "المواجهة" و"الصراع" و"المنظومة" بطريقة تجعل السيرة تبرر العنف أو الصدام غير المنضبط؛ فالمرحلة المكية، رغم شدة الأذى، لم تكن مرحلة قتال مسلح، ولم يأذن النبي ﷺ لأصحابه بتحويل الاضطهاد إلى عنف مضاد.

بل كان التوجيه واضحاً في الصبر، والدعوة، وضبط النفس، واتخاذ الوسائل المشروعة.

وهذا من أهم الفروق بين وصف الواقع التاريخي وبين إسقاط مفاهيم معاصرة عليه.

تطبيقات تربوية معاصرة

إذا انتقلنا من الاستنباط إلى التطبيق، وجب أن نصرح بأننا هنا لم نعد نصف حدثاً تاريخياً، وإنما نقترح توظيفاً تربوياً لمعانيه.

في التربية

لا يكفي أن نعلّم الإنسان المبادئ، بل ينبغي أن نربيه على الصبر والثبات حين تتعرض هذه المبادئ للاختبار.

في القيادة

القائد التربوي لا يكتفي بإصدار التعليمات، وإنما يشارك من معه في تحمل الأعباء، ويثبتهم عند الأزمات، ويعطيهم المعنى الذي يجعل الصبر ممكناً.

في إدارة الرفض

ليس كل رفض دليلاً على فشل الفكرة، كما أن كل مواجهة ليست دليلاً على صحة الموقف. المطلوب هو فهم أسباب الرفض، والتمييز بين ما يحتاج إلى بيان وإقناع، وما يحتاج إلى صبر، وما يحتاج إلى تغيير في الوسيلة.

في الأزمات

حين تضيق الخيارات، لا ينبغي أن تتحول الأزمة إلى شلل، بل يبحث الإنسان عن الوسائل المشروعة الممكنة، كما تكشف قصة الهجرة إلى الحبشة عن اتخاذ سبب جديد لحفظ الدين والنفس.

في الثبات النفسي

ينبغي أن يتعلم المربي أن الثبات لا يعني إنكار الألم؛ فالإنسان قد يحزن ويتألم، لكنه يستطيع أن يحافظ على مبادئه وأدبه ووجهته.

وهذا من أعمق ما تعلمه السيرة في صناعة الشخصية المتوازنة.

الخلاصة : كان الانتقال إلى الجهر بالدعوة نقطة تحول في العهد المكي؛ إذ انتقلت الرسالة من دائرة التكوين المحدود إلى مواجهة المجتمع.

ولم تكن مواجهة قريش في بدايتها مواجهة بالسلاح، وإنما بدأت بالسخرية والتشويه والمساومة، ثم تصاعدت إلى التعذيب والمقاطعة والحصار.

وفي هذه البيئة ظهرت قيمة التربية السابقة؛ فالإيمان الذي زُرع في السنوات الأولى صار الآن مطالباً بأن يثبت تحت الضغط.

وكان النبي ﷺ يربي أصحابه على الصبر دون أن يحول الصبر إلى سلبية، وعلى الثبات دون أن يحول الثبات إلى تهور، وعلى اتخاذ الأسباب دون أن يجعل الوسائل بديلاً عن التوكل.

وكان من ثمار هذه المرحلة أن ظهرت شخصيات أكثر رسوخاً وقوة، وأسهم إسلام رجال مثل حمزة وعمر رضي الله عنهما في زيادة منعة الجماعة، بينما كشفت هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة عن مرونة الوسائل مع ثبات المقصد.

ومن خلال هذه المرحلة يمكن استنباط معانٍ تربوية مهمة: أن الإيمان يحتاج إلى اختبار، وأن بناء الإنسان يسبق تحميله أعباء المواجهة، وأن الصبر لا يعني الجمود، وأن الوسائل تتنوع بحسب القدرة والظرف، وأن حماية الإنسان والرسالة من مقاصد التعامل مع الأزمات.

لكن هذه المعاني تظل استنباطات تربوية، لا وقائع تاريخية مستقلة، ولا يجوز تحويلها إلى قواعد حركية مطلقة أو نسبتها إلى النبي ﷺ بغير دليل.

وهكذا لم تكن مكة مجرد ساحة اضطهاد؛ كانت مدرسة لصناعة الإنسان الذي يستطيع أن يحمل الحق حين لا تكون الظروف مواتية، وأن يبقى ثابتاً حين تتغير مواقف الناس من حوله، وأن يتحرك في حدود قدرته دون أن يفقد بوصلته.

وهذا هو أحد أهم أسرار العهد المكي: أن الرسالة لم تبدأ بتغيير العالم، وإنما بدأت بصناعة الإنسان القادر على حملها.

الفصل السادس: الابتلاء والبحث عن البيئة البديلة

لم تكن المرحلة المكية طريقاً مستقيماً من الدعوة إلى النصر، وإنما كانت مساراً طويلاً تتعاقب فيه لحظات القوة والضعف، والانفتاح والانغلاق، والرجاء والألم، وكلما اشتد الخناق على الدعوة، ظهرت الحاجة إلى قراءة الواقع من جديد، والبحث عن الوسيلة التي تحفظ للرسالة وجودها، وللإنسان المؤمن قدرته على الاستمرار.

وفي هذا السياق جاءت محطات كبرى: الهجرة إلى الحبشة، ثم عام الحزن، ثم الخروج إلى الطائف، ثم العودة إلى مكة في ظروف أشد تعقيداً، حتى انتهى الأمر إلى فتح الأفق اليثربي الذي مهد للهجرة النبوية.

واللافت في هذه المرحلة أن الابتلاء لم يكن سبباً لتوقف الدعوة، كما أن انسداد بعض الأبواب لم يكن حكماً بانسداد الطريق كله؛ فقد ظل النبي ﷺ يتحرك في دائرة الممكن، ويبحث عن موضع تستطيع فيه الرسالة أن تنمو، دون أن يتنازل عن أصلها أو يساوم على حقيقتها.

ومن هنا تأتي أهمية هذه المرحلة تربوياً: فالابتلاء لم يكن مجرد ألم تحمله الجيل الأول، بل كان ميداناً لإعادة ترتيب الخيارات، واكتشاف الطاقات، وتعلم الصبر، وقراءة الواقع، والتمييز بين ثبات المبدأ وتنوع الوسيلة.

المبحث الأول: الهجرة إلى الحبشة — حماية الإنسان وحفظ الرسالة

أولاً: حين أصبح البقاء في مكة خطراً على المؤمنين

اشتد أذى قريش للمؤمنين في مكة، ولا سيما المستضعفين الذين لا يجدون من يحميهم، ولم يكن موقف النبي ﷺ من هذا الواقع أن يطلب من أصحابه مواجهة قريش بما لا يملكون، وإنما بحث لهم عن مخرج يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم.

وقد روى ابن إسحاق، كما نقل ابن هشام، أن النبي ﷺ قال لأصحابه:

[إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ][1].

لم تكن هذه الهجرة فراراً من الرسالة، بل كانت حماية لأهلها من أن يُستأصلوا أو يُفتنوا عن دينهم، ولم تكن كذلك إعلاناً عن انتهاء المواجهة مع قريش، وإنما كانت انتقالاً مؤقتاً إلى أرض تتوافر فيها مساحة من الأمن يستطيع المؤمنون أن يحفظوا فيها عقيدتهم.

وهنا تظهر دقة التوجيه النبوي؛ فحين تعذر على بعض المؤمنين ممارسة دينهم بأمان في مكة، لم يكن المطلوب منهم أن يثبتوا في المكان مهما كانت العواقب، وإنما أُرشدوا إلى أرض أخرى.

ويذكر المباركفوري أن الهجرة إلى الحبشة كانت من أولى الوسائل التي اتخذها المسلمون للتخلص من اضطهاد قريش، وأن اختيار الحبشة لم يكن عشوائياً، بل لما عُرف عن ملكها من العدل[2].

ويؤكد ابن القيم أن الهجرة في أصلها انتقال من موضع يتعذر فيه القيام بالدين إلى موضع يمكن فيه إقامته، وأنها من أعظم الوسائل التي حفظ الله بها دين المؤمنين[3].

ثانياً: اختيار البيئة الآمنة

لم يكن اختيار الحبشة قائماً على مجرد البعد الجغرافي عن مكة؛ فقد كان العامل الحاسم هو وجود ملك لا يُظلم عنده أحد.

وهذا التفصيل مهم؛ لأن السيرة لا تقدم الهجرة باعتبارها انتقالاً جغرافياً فحسب، وإنما تكشف من خلال التوجيه النبوي عن أهمية معرفة خصائص البيئة التي يُنتقل إليها.

فالرسالة تحتاج إلى إنسان قادر على حملها، والإنسان يحتاج إلى قدر من الأمن يستطيع فيه أن يحافظ على إيمانه ويؤدي وظيفته.

وقد كان النجاشي ـ بحسب الروايات ـ ملكاً عادلاً، ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه ما قال.

وهنا لا يصح أن نحمّل الرواية أكثر مما تحتمل؛ فالنص لا يقدم نظرية سياسية أو نموذجاً تفصيلياً للعلاقات الدولية، وإنما يثبت واقعة واضحة: النبي ﷺ اختار لأصحابه أرضاً يغلب على الظن فيها أن يجدوا الأمن والعدل.

ومن هذه الواقعة يمكن أن يستأنس قارئ السنة النبوية ـ على سبيل الاستنباط لا النقل التاريخي ـ بأن حفظ الإنسان المؤمن من أسباب حفظ الرسالة، وأن تقدير الظروف المحيطة جزء من حسن التدبير.

ثالثاً: الهجرة لا تعني الانقطاع

خرج بعض الصحابة إلى الحبشة، ومع ذلك لم تنقطع صلتهم بمكة، ولم تتحول الهجرة إلى انسحاب من القضية.

وهذا يكشف عن معنى مهم في إدارة الابتلاء: قد تتغير الجغرافيا، وتتغير الوسيلة، لكن لا يلزم من ذلك تغير المقصد.

وقد كان من المهاجرين إلى الحبشة عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم[4].

وكانت هذه الهجرة اختباراً جديداً للشخصية المؤمنة؛ إذ ترك المهاجرون الأهل والوطن والمال، واختاروا المحافظة على الدين.

ومن هنا كانت الهجرة نفسها تربية عملية على أن الإيمان ليس مجرد قناعة ذهنية، وإنما استعداد لتحمل كلفته حين تصبح المحافظة عليه محتاجة إلى تضحية.

رابعاً: جعفر أمام النجاشي – حين تتكلم العقيدة بلسان واضح

من أبرز مشاهد الهجرة إلى الحبشة موقف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي.

فقد أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة في محاولة لإعادة المهاجرين، وحملا إلى النجاشي الهدايا، وسعيا إلى إقناعه بتسليم المسلمين إليهما.

فلما طلب النجاشي أن يسمع من المسلمين أنفسهم، كان جعفر هو المتحدث باسمهم.

وقد حفظت لنا الرواية جوابه حين قال:

[أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ

دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ].

ثم قال:

[فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَا مَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ][5].

وهذا النص من أهم النصوص التي تكشف عن طبيعة التحول الذي أحدثه الإسلام في الإنسان.

فجعفر لم يقدم الإسلام باعتباره مجرد شعائر منفصلة عن الحياة، بل عرضه باعتباره انتقالاً شاملاً: من الجاهلية إلى التوحيد، ومن الفساد الأخلاقي إلى الصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، ومن الظلم إلى حفظ الدماء والأعراض والأموال.

ومن الناحية التربوية، تكشف خطبته عن قدرة الجيل الأول على اختصار تجربته الحضارية في خطاب واضح: ماذا كنا؟ ماذا جاء به الرسول ﷺ؟ ماذا فعل بنا قومنا؟ ولماذا اخترنا الهجرة؟

وهذه القدرة لم تكن وليدة لحظة الخطاب، وإنما هي ثمرة تربية طويلة على القرآن والعقيدة.

وقد أبرز الشيخ محمد الغزالي هذا المعنى في حديثه عن الهجرة إلى الحبشة، إذ يرى أن المسلمين لم يكونوا جماعة هاربة من واقعها، وإنما جماعة تحمل عقيدة واضحة، وتبحث عن موضع تستطيع فيه أن تعيش بهذه العقيدة[6].

خامساً: القراءة التربوية

تكشف الهجرة إلى الحبشة عن عدة معانٍ تربوية، أهمها:

أن حماية الإنسان جزء من حماية المشروع؛ فحين أصبح بقاء بعض المسلمين في مكة سبباً لتعريضهم للفتنة والاضطهاد، فُتح لهم باب الهجرة.

وأن الثبات على المبدأ لا يعني الثبات على المكان؛ فقد خرج الصحابة من مكة، لكنهم لم يخرجوا من الإسلام، ولم يتخلوا عن رسالتهم.

وأن حسن قراءة الواقع لا يناقض التوكل على الله، فقد كان النبي ﷺ واثقاً بنصر الله، ومع ذلك أخذ بالأسباب، وأرشد أصحابه إلى أرض آمنة.

وأن التربية الإيمانية تظهر آثارها في المواقف الحرجة؛ فجعفر لم يحتج إلى بناء خطاب جديد حين وقف أمام النجاشي، وإنما عبّر عما تربى عليه المسلمون.

وهذه معانٍ تربوية مستنبطة من مجموع الوقائع، وليست نصوصاً تاريخية مستقلة عنها.

المبحث الثاني: عام الطائف — حين تغلق الأبواب

أولاً: من حصار مكة إلى فقد السند

جاء عام الحزن في مرحلة شديدة القسوة من الدعوة؛ فقد توفي أبو طالب، ثم توفيت خديجة رضي الله عنها، ففقد النبي ﷺ أحد أقوى من كان يحميه من قريش، وفقد في الوقت نفسه السند العاطفي والنفسي العظيم الذي كانت تمثله خديجة رضي الله عنها.

وقد كانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن به وصدقه، وكانت له عوناً وسكناً وتثبيتاً.

ويربط الشيخ محمد الغزالي بين هذه الأحداث وبين شدة المرحلة التي دخلها النبي ﷺ، مبيناً أن فقد هذين السندين جعل النبي ﷺ أمام واقع أشد قسوة، لكنه لم يكن سبباً في توقفه عن الدعوة[7].

ومن هنا جاء التوجه إلى الطائف.

ثانياً: الطائف محاولة جديدة لا هروباً من مكة

خرج النبي ﷺ إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف، ويعرض عليهم الإسلام، ويرجو أن يجد فيهم من يقبل الدعوة ويحميها.

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ قصد الطائف، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، بل قابلوه بالأذى[8].

وكانت هذه الرحلة دليلاً على أن النبي ﷺ لم يحصر حركته في مكة، وإنما كان يبحث عن أبواب جديدة يمكن أن تصل منها الرسالة إلى الناس.

لكن النتيجة كانت مؤلمة.

فقد روى ابن إسحاق أن سادة ثقيف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فوقفوا له صفين، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه[9].

وهنا تظهر صورة أخرى من صور الابتلاء: ليس كل باب يُطرق يُفتح، وليس كل محاولة تؤدي إلى نتيجة مباشرة.

ومع ذلك، لم تتحول هذه التجربة إلى انهيار نفسي أو إلى انقطاع عن الدعوة.

ثالثاً: دعاء النبي ﷺ بعد الطائف

من أعظم النصوص التي تحفظ لنا الأثر النفسي لهذه المحنة الدعاء المشهور الذي رواه ابن إسحاق، وفيه أن النبي ﷺ قال:

[اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ

بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ][10].

وهذا الدعاء من أعمق مشاهد السيرة من الناحية التربوية.

فالنبي ﷺ لا يخفي ضعفه الإنساني، ولا يتظاهر أمام ربه بالقوة المطلقة. يشكو ضعف القوة وقلة الحيلة وهوانه على الناس، ولكنه في اللحظة نفسها يعيد الأمر كله إلى الله.

وهنا ينبغي التفريق بين أمرين:

الأول: الضعف الإنساني، وهو ظاهر في كلمات الدعاء.

والثاني: الثبات على الرسالة، وهو ظاهر في بقية الموقف.

فالشكوى إلى الله لم تكن انسحاباً من الطريق، وإنما كانت لجوءاً إليه.

وهذا من أهم ما ينبغي أن يلتفت إليه المربي: الإيمان لا يلغي الألم، ولكنه يمنع الألم من أن يتحول إلى انهيار في الصلة بالله أو تخلي عن المبدأ.

رابعاً: الرحمة حتى في لحظة الانتصار الممكن

بعد عودته من الطائف، جاءه ملك الجبال، وقال له ـ كما في الحديث الصحيح ـ إنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين.

فقال النبي ﷺ: [بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا][11].

وهذا الحديث من أصح الشواهد على أن الألم لم يحوّل النبي ﷺ إلى الانتقام.

لقد آذوه، وطردوه، وسلطوا عليه سفهاءهم حتى أدموا قدميه، ومع ذلك ظل أفقه أبعد من لحظة الألم.

وهنا تتجلى التربية النبوية في أصفى صورها: الإنسان الذي يحمل الرسالة لا يقيس المستقبل دائماً بسلوك خصمه في الحاضر.

وليس معنى ذلك التساهل مع الظلم، وإنما أن الرحمة والرجاء في هداية الناس ظلا حاضرين في قلب النبي ﷺ حتى في أشد لحظات الأذى.

وقد أشار ابن القيم إلى أن من أعظم خصائص هديه ﷺ الرحمة بالخلق، والحرص على هدايتهم، وأن ذلك لم يكن يسقط عند اشتداد الأذى[12].

المبحث الثالث: عدم تحويل الهزيمة إلى انهيار — الاستمرار رغم انسداد الأفق

أولاً: الطائف ليست نهاية الطريق

لو نظرنا إلى الأحداث من زاوية النتائج المباشرة، لبدت رحلة الطائف فشلاً واضحاً: ذهب النبي ﷺ يلتمس النصرة، فلم يجدها، وعاد وقد أصابه الأذى.

لكن السيرة لا تتوقف عند هذه النتيجة.

فبعد الطائف استمر النبي ﷺ في الدعوة، وعاد إلى مكة، وواصل عرض نفسه على القبائل، حتى جاءت الاتصالات بأهل يثرب، ثم بيعتا العقبة، ثم الهجرة.

ومن هنا يمكن أن نرى أن فشل محاولة معينة لا يعني فشل المشروع كله.

وهذا ليس قانوناً تاريخياً بصيغة قطعية، وإنما قراءة تربوية لمسار الأحداث: أُغلق باب الطائف، لكن أبواب أخرى لم تكن قد فتحت بعد.

ثانياً: العودة إلى مكة

كانت العودة إلى مكة في ظل حماية أحد رجال قريش من الوقائع التي تبرز صعوبة المرحلة وحاجتها إلى تدبير دقيق.

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ بعد رجوعه من الطائف دخل مكة في جوار المطعم بن عدي[13].

وهذا المشهد يكشف جانباً من السنن العملية في إدارة الظروف الصعبة؛ فالنبي ﷺ لم يعتبر الاستعانة بالحماية المتاحة تناقضاً مع التوكل، ولم يجعل طلب الأمان عيباً في طريق الدعوة.

وقد قبل المطعم أن يجيره، ودخل النبي ﷺ مكة في جواره.

ومن المهم هنا ألا ننقل الواقعة إلى معانٍ سياسية حديثة لم يدل عليها النص، وإنما نكتفي بما تثبته السيرة: الاستفادة من الحماية المتاحة في ظرف الاستضعاف، مع بقاء الرسالة مستقلة في أصلها ومقصدها.

ثالثاً: استمرار العرض على القبائل

بعد ذلك لم يتوقف النبي ﷺ عن البحث عن منفذ جديد.

فكان يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج، يدعوهم إلى الإسلام، ويطلب منهم أن يؤووه وينصروه حتى يبلغ رسالة ربه.

وقد روى ابن هشام من أخبار هذه المرحلة قول النبي ﷺ للقبائل:

[يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي وَتُصَدِّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي حَتَّى أُبَيِّنَ عَنْ اللَّهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ][14].

وهذا الاستمرار هو الذي يربط بين الطائف والعقبة.

فالطائف لم تكن محطة منفصلة عن بقية المسار، وإنما جاءت ضمن سلسلة من المحاولات المتتابعة.

ومن الخطأ التربوي أن نقرأ السيرة بمنطق اللحظة الواحدة؛ لأن بعض الثمار لا تظهر إلا بعد زمن، وبعض المحاولات التي تبدو غير مثمرة في حينها قد تكون جزءاً من الطريق الذي يقود إلى نتيجة أكبر.

رابعاً: من انسداد الأفق إلى فتحه

استمر النبي ﷺ في دعوته، حتى جاء نفر من يثرب فسمعوا منه، وآمنوا به، ثم عادوا إلى قومهم، وانتشر الإسلام في يثرب، وأرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه ليعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين.

ثم جاءت بيعة العقبة الأولى، ثم الثانية، ثم أذن الله بالهجرة.

وقد كان هذا الانتقال ثمرة تراكم طويل، وليس استجابة سريعة لمحاولة واحدة.

ويصف المباركفوري هذا التحول باعتباره انتقالاً تدريجياً من مرحلة اشتد فيها الأذى إلى مرحلة ظهر فيها أفق جديد للدعوة[15].

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن هذه المرحلة تكشف عن معنى مهم في فقه السيرة: أن الطريق إلى النصر قد يمر بمحطات يبدو ظاهرها الانكسار، لكن المؤمن لا يقيس وعد الله بنتيجة موقف واحد[16].

أما الغضبان فيبرز في قراءته التربوية أن المحن كانت تصنع في الجيل الأول قدرة على الاحتمال والثبات، بحيث لا تهدمهم الصدمات المتتابعة، بل تزيدهم استعداداً للمرحلة التالية[17].

خامساً: القراءة التربوية – كيف يتعامل المؤمن مع انسداد الأفق؟

إذا جمعنا بين مشاهد الحبشة والطائف والعودة إلى مكة، فإننا نجد أمامنا مجموعة من المعاني التربوية التي تكمل بعضها بعضاً.

1. الابتلاء لا يعني غياب العناية الإلهية

الهجرة إلى الحبشة جاءت في وقت اشتد فيه الأذى، والطائف انتهت بالألم، ومع ذلك استمر الطريق. فليس كل ابتلاء علامة على أن الطريق خاطئ، كما أن كل انفراج لا يأتي بالضرورة فوراً بعد المحنة.

2. **الثبات على المبدأ لا يعني الجمود على الوسيلة**

في مكة وسيلة، وفي الحبشة وسيلة أخرى، وفي الطائف محاولة أخرى، ثم جاء الأفق اليثربي.
الذي بقي ثابتاً هو أصل الرسالة، أما الوسائل فتغيرت بحسب الظروف.

3. **الإنسان المؤمن يحتاج إلى الأمان ليستمر في أداء رسالته**

الهجرة إلى الحبشة شاهد واضح على ذلك.
فلم يكن المقصود مجرد النجاة الفردية، وإنما حفظ جماعة من المؤمنين من الفتنة والاضطهاد، ليظلوا قادرين على عبادة الله وحمل الرسالة.

4. **الألم يمكن أن يتحول إلى عبادة**

دعاء النبي ﷺ بعد الطائف نموذج بالغ الدلالة؛ فقد تحولت المحنة إلى شكوى لله، والشكوى إلى عبادة، والضعف إلى تعلق أقوى بالله.

5. **الرحمة لا تسقط عند اشتداد الخصومة**

جواب النبي ﷺ بعد الطائف يبين أن القلب الذي امتلأ بالرسالة لا تحكمه ردود الفعل الآنية.

6. **لا ينبغي الحكم على المسار من محطة واحدة**

فالطائف لم تفتح الباب الذي ذهب النبي ﷺ يطلب فتحه، لكنها لم تكن نهاية الطريق.
وبعد سنوات قليلة كان أهل يثرب يفتحون للنبي ﷺ باباً جديداً.

سادساً: الاستنباط – قانون الاستمرار مع إعادة ترتيب الخيارات

إذا أردنا صياغة قانون تربوي مستنبط من هذه المرحلة، فيمكن أن نقول:
حين ينسد طريق من طرق الإصلاح، لا يعني ذلك انتهاء الطريق؛ بل يُعاد تقييم الواقع، وتحفظ الثوابت، وتُغيّر الوسائل بقدر الحاجة، ويستمر العمل في دائرة الممكن.
وهذا استنباط تربوي من تسلسل الوقائع، وليس نصاً شرعياً ولا قاعدة تاريخية مطلقة.
فالسيرة لا تعطينا وصفة جاهزة تقول إن كل مشروع يواجه الانسداد ينبغي أن ينتقل إلى مكان آخر، ولا أن كل فشل يجب أن يتبعه تغيير جغرافي أو تنظيمي، وإنما تقدم لنا وقائع محددة: هجرة إلى الحبشة لحفظ الدين، وخروج إلى الطائف طلباً للنصرة، وعودة إلى مكة، ثم استمرار في عرض الدعوة، حتى جاء الفتح اليثربي.
والجامع بينها هو عدم الاستسلام لنتيجة المحاولة الواحدة.

وهنا ينبغي أن يكون الاستنباط منضبطاً: الثابت تاريخياً هو ما وقع، والمستنبط تربوياً هو المعنى الذي يمكن فهمه من مجموع ما وقع، أما تنزيل هذا المعنى على الواقع المعاصر فهو اجتهاد ثالث يحتاج إلى مراعاة اختلاف الظروف.

سابعاً: التطبيقات المعاصرة

لا ينبغي تحويل أحداث هذه المرحلة إلى نموذج تنظيمي جاهز لكل زمان، وإنما يمكن الإفادة منها في بعض المعاني العامة، ومنها:

في التربية: لا تجعل المربي نجاح المتربي مرتبطاً بخلو الطريق من الألم؛ فالابتلاء جزء من الحياة، والمهم أن يتعلم الإنسان كيف يحول المحنة إلى مزيد من الصلة بالله والثبات على الخير.

في العمل الدعوي والإصلاحي: إذا تعذر تحقيق مقصد مشروع بوسيلة معينة، فليس من الحكمة بالضرورة تكرار الوسيلة نفسها إلى ما لا نهاية؛ بل ينبغي إعادة قراءة الواقع والبحث عن الوسائل المشروعة الممكنة.

في إدارة الأزمات: لا تجعل فشل محاولة واحدة حكماً نهائياً على المشروع كله. قيّم التجربة، واحفظ الثوابت، وعدّل الوسائل عند الحاجة.

في بناء الإنسان: علّم أصحابك أن الاعتراف بالألم والضعف الإنساني لا يناقض الإيمان؛ فدعاء النبي ﷺ بعد الطائف يبين أن اللجوء إلى الله في لحظة الانكسار ليس ضعفاً في الإيمان، بل من كمال العبودية.

في التعامل مع الخصوم: لا ينبغي أن يتحول الألم إلى رغبة دائمة في الانتقام؛ فالنبي ﷺ، مع ما لقيه في الطائف، بقي يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده.

ثامناً: الضابط المنهجي

هذه المرحلة من السيرة غنية جداً بالدروس، لكنها تحتاج إلى قدر كبير من الانضباط في الاستنباط. فليس كل ما يمكن أن يخطر للباحث عند قراءة السيرة يصح أن ينسب إلى النبي ﷺ، ولا كل معنى تربوي يمكن استنتاجه يصبح سنة نبوية صريحة.

ولهذا ينبغي التفريق بين ثلاث درجات:

الأولى: الرواية التاريخية: ما ثبت من أحداث السيرة بأسانيدها ومصادرها.

الثانية: الفهم التربوي: المعاني التي يمكن استخلاصها من هذه الأحداث، مع نسبتها إلى كونها قراءة أو فهماً مستنبطاً.

الثالثة: التطبيق المعاصر: ما يقترحه قارئ السنة النبوية من الإفادة من تلك المعاني في واقع مختلف. وهذا التفريق مهم حتى لا تتحول السيرة من مادة تاريخية موثقة إلى مجموعة من الشعارات المعاصرة التي تُنسب إلى النبي ﷺ دون دليل.

كما أن بعض التفاصيل الواردة في كتب السيرة تختلف في درجة ثبوتها، ولذلك ينبغي أن تكون النصوص التي يُبنى عليها أصل الاستدلال من القرآن والسنة الصحيحة أو من الروايات التاريخية التي يثبتها أهل الاختصاص، مع التنبيه عند الحاجة إلى ما فيه خلاف أو ضعف.

الخلاصة : تكشف مرحلة الابتلاء والبحث عن البيئة البديلة أن الطريق المكي لم يكن طريقاً خالياً من الانكسارات الظاهرة، وإنما كان مليئاً بالمحن التي اختبرت قدرة الجيل الأول على الثبات وإعادة ترتيب الخيارات.

ففي الحبشة ظهر معنى حماية الإنسان وحفظ الدين، وفي موقف جعفر ظهر أثر التربية الإيمانية في صناعة خطاب واضح قادر على التعبير عن حقيقة الإسلام.

وفي الطائف ظهر الوجه الإنساني للنبي ﷺ: ألمٌ وشكوى وضعف بشري، لكن من غير انقطاع عن الله أو سقوط في اليأس.

ثم جاء موقفه من عرض ملك الجبال، ليظهر أن الأذى لم يقتل في قلبه الرجاء في هداية الناس.

وبعد الطائف لم يتوقف العمل؛ عاد النبي ﷺ إلى مكة، واستمر في عرض دعوته على القبائل، حتى فتح الله باب يثرب.

وهكذا تكشف هذه المرحلة ـ من خلال تسلسل أحداثها ـ أن الابتلاء لا يساوي نهاية الطريق، وأن انسداد باب لا يعني انسداد الأبواب كلها، وأن الثبات على المقصد يمكن أن يجتمع مع تغيير الوسيلة، وأن حفظ الإنسان المؤمن قد يكون في بعض الظروف مقدماً على البقاء في البيئة التي يتعرض فيها للفتنة والأذى.

ومن هنا يمهد هذا الفصل لما سيأتي في الفصل السابع؛ إذ لم تكن بيعة العقبة وليدة لحظة عابرة، وإنما جاءت بعد تراكم طويل من التربية، والصبر، والهجرة، ومحاولات البحث عن موضع جديد تستطيع فيه الرسالة أن تنمو.

الهوامش والمراجع

1 ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص ٣٢١ وما بعدها؛ وينظر: صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار السلام، الرياض، في فصل الهجرة الأولى إلى الحبشة.

2صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الموضع الخاص بالهجرة الأولى إلى الحبشة.

3ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، في حديثه عن الهجرة وما اشتملت عليه من حفظ الدين.

4ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، باب الهجرة إلى الحبشة؛ وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ج٣.

5ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر جعفر بن أبي طالب مع النجاشي؛ وأصل القصة مروي في كتب الحديث والسيرة بألفاظ متقاربة.

6الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، القاهرة، الموضع الخاص بالهجرة إلى الحبشة.

7الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها وما أعقب ذلك من اشتداد المحنة.

8ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف.

9ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر أذى ثقيف للنبي ﷺ.

10أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية من حديث دعاء النبي ﷺ عقب رجوعه من الطائف، وهو من أشهر أخبار السيرة في هذا الموضع، مع التنبيه إلى أن أهل الحديث تكلموا في إسناد هذه الرواية.

11أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، في قصة أذى قريش للنبي ﷺ ورجائه أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده.

12ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، في بيان هديه ﷺ في الرحمة والشفقة على الخلق.

13ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، خبر دخول النبي ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف.

14ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل في مواسم الحج.

15صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، المواضع المتعلقة بمرحلة ما بعد الطائف والتمهيد لبيعة العقبة.

16الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن مراحل الدعوة المكية والابتلاء والتمهيد للانتقال إلى المدينة.

17منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، في مباحث التربية الجهادية وبناء الشخصية المؤمنة في المرحلة المكية.

الفصل السابع: بيعة العقبة وفتح الأفق الجديد

لم تكن نهاية المرحلة المكية مجرد انتقال جغرافي من مكة إلى يثرب، وإنما كانت انتقالًا في طبيعة المرحلة نفسها؛ فقد أمضت الدعوة سنواتها الأولى في بناء الإنسان، وترسيخ التوحيد، وتربية الضمير، وتعميق الصلة بالله، وتخريج جيل قادر على حمل الرسالة تحت ضغط الابتلاء. ثم جاء الوقت الذي ظهرت فيه في الأفق بيئة أخرى، لم تكن قد تشكلت فيها الدولة بعد، ولكنها أصبحت مهيأة لاستقبال الدعوة وحمل تبعاتها.

ومن هنا تكتسب السنوات الأخيرة من العهد المكي أهمية خاصة؛ لأنها تكشف عن العلاقة بين بناء الإنسان وبناء البيئة؛ فلم يكن انتقال الدعوة إلى يثرب قفزًا فوق مرحلة التربية، ولا بحثًا مجردًا عن ملاذ آمن، وإنما جاء بعد أن تكونت نواة مؤمنة في مكة، وبعد أن بدأت الدعوة تجد في يثرب قلوبًا مستعدة، ثم جماعة قادرة على الالتزام والنصرة.

وقد مثّل الأنصار في هذه المرحلة ثمرةً من ثمار الدعوة التي خرجت من مكة إلى خارج حدودها، ثم عادت تلك الدعوة إلى مكة في صورة عرض جديد: أن يجد رسول الله ﷺ قومًا يؤمنون به، ويستعدون لاستقباله، ويتحملون تبعات نصرته.

ومن هنا جاء الفصل في ثلاثة مباحث متتابعة: يبدأ برحلة الإسلام في يثرب وتكوّن البيئة المستجيبة، ثم يقف عند بيعة العقبة الأولى والثانية بوصفهما حلقتين متدرجتين في هذه الرحلة، ثم ينتهي إلى القانون المستنبط من المرحلة، مع التمييز بين ما ثبت في السيرة وبين ما يمكن أن يستنبطه قارئ السنة النبوية من دلالات تربوية وإصلاحية.

المبحث الأول: الأنصار والاستعداد للبيئة المستجيبة

تمهيد: حين خرجت الدعوة من مكة

كان من خصائص الدعوة المكية أنها لم تبقَ محصورة في البيئة التي بدأت فيها؛ فالنبي ﷺ كان يعرض الإسلام على القبائل في مواسم الحج، يبحث عن موضع يمكن أن تُسمع فيه كلمة الحق، وأن تجد فيه الدعوة من يحملها ويحمي أهلها.

وقد كانت يثرب واحدة من البيئات التي اتصل بها هذا الجهد؛ ففي موسم الحج التقى رسول الله ﷺ نفرًا من الخزرج، فدعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا، وكان إسلامهم بداية تحول مهم في علاقة الدعوة بهذه المدينة.

وتذكر كتب السيرة أن ستة نفر من الخزرج أسلموا في موسم الحج قبل بيعة العقبة الأولى، ثم عادوا إلى قومهم فدعواهم إلى الإسلام، فلم يلبث الإسلام أن بدأ ينتشر في يثرب[1].

وهنا ينبغي أن نتوقف عند طبيعة هذا التحول؛ فلم يكن دخول هؤلاء الستة في الإسلام إعلانًا عن تغير المجتمع اليثربي كله، ولم تكن يثرب قد أصبحت بين ليلة وضحاها مجتمعًا مسلمًا؛ وإنما كانت بداية سلسلة من الاتصالات والدعوة والاستجابة، تراكمت حتى أثمرت في العام التالي عن وفد أكبر، ثم عن بيعة أوسع.

وهذه نقطة مهمة في قراءة السيرة: التحولات الكبرى لا تبدأ دائمًا بأحداث ضخمة في ظاهرها؛ فقد يكون اللقاء المحدود، أو الكلمة الصادقة، أو استجابة عدد قليل من الناس، هو أول حلقة في سلسلة تاريخية طويلة.

أولًا: بيعة العقبة الأولى وبداية التكوّن

في موسم الحج من السنة الثانية عشرة للبعثة، قدم إلى مكة اثنا عشر رجلًا من الأنصار، عشرة من الخزرج ورجلان من الأوس، فلقوا رسول الله ﷺ عند العقبة، وبايعوه البيعة الأولى[2].

وكان مضمون هذه البيعة أخلاقيًا وإيمانيًا في جوهره، وقد روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه نصها، فقال: [بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ]؛ فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ[3].

وهذه الرواية من أهم النصوص التي ينبغي أن تقرأ بيعة العقبة الأولى من خلالها؛ لأن مضمون البيعة نفسه يبين طبيعة المرحلة. لم تكن البيعة إعلانًا لحرب، ولم تكن عقدًا على إقامة دولة، وإنما كانت عهدًا على التوحيد، والعفة، وصيانة الدماء، والابتعاد عن البهتان، والطاعة في المعروف.

ومن هنا جاءت تسميتها في كتب السيرة ببيعة النساء، من حيث موافقتها في الجملة لما ورد في بيعة النساء بعد ذلك[4].

فالذي حدث في العقبة الأولى لم يكن مجرد إضافة اثني عشر شخصًا إلى عدد المسلمين، بل كان تحويل الإيمان الفردي إلى التزام جماعي معلن. لقد انتقل هؤلاء من مجرد الإيمان برسول الله ﷺ إلى الدخول في عهد محدد المعالم، يعرفون فيه ما لهم وما عليهم.

ثانيا: مصعب بن عمير وبناء المجتمع من الداخل

ولم يترك النبي ﷺ هذا الوفد بعد البيعة دون متابعة. بل بعث معه مصعب بن عمير رضي الله عنه؛ ليقرأ عليهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويدعو من بقي من أهل يثرب إلى الإسلام[5].

وكان اختيار مصعب رضي الله عنه ذا دلالة عملية؛ فالمهمة لم تكن مجرد نقل خبر الإسلام، وإنما بناء معرفة دينية وتكوين جماعة مؤمنة.

وتذكر روايات السيرة أن مصعبًا نزل على أسعد بن زرارة، وأنه أخذ يدعو الناس إلى الإسلام، حتى كان من أبرز المواقف في دعوته ما وقع مع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وهما من سادات قومهما، وقد انتهى الأمر بإسلامهما، وكان لإسلامهما أثر كبير في انتشار الإسلام في قومهما[6].

وتبرز هنا قيمة العمل الهادئ المتدرج؛ فمصعب لم يدخل يثرب باعتباره صاحب سلطة، ولم يملك أدوات سياسية أو عسكرية، وإنما دخلها داعيًا ومعلّمًا، يقرأ القرآن، ويشرح الإسلام، ويصل بالناس إلى الإيمان من خلال الكلمة والحجة والقدوة.

وقد أفاض الشيخ محمد الغزالي في إبراز هذه المرحلة بوصفها ثمرة من ثمار التربية المكية، إذ إن الدعوة لم تكن تنتظر التمكين لتبدأ التربية، وإنما كانت التربية نفسها هي التي تصنع الأرضية التي يمكن أن يقوم عليها التمكين.[7] ويشير المباركفوري إلى سرعة انتشار الإسلام في يثرب بعد بعثة مصعب، حتى أصبح الإسلام حاضرًا في عدد من بيوت الأنصار، وأصبح اسم رسول الله ﷺ معروفًا في المدينة.[8] أما الغضبان فيقرأ هذه المرحلة في إطار المنهج التربوي للسيرة، فيلفت إلى أن

إعداد الجماعة لم يكن منفصلًا عن إعداد الأفراد، وأن انتقال الدعوة إلى بيئة جديدة احتاج إلى رجال يحملون المنهج ويترجمونه في واقع الناس[9].

وهذا كله ثابت في سياق السيرة، أما تحويله إلى قاعدة عامة من قبيل أن "كل تغيير لا بد أن يبدأ بسفير تربوي" فهو استنباط معاصر وليس نصًا تاريخيًا، ولذلك ينبغي أن يبقى في دائرة الاستنباط لا أن ينسب إلى النبي ﷺ بهذه الصيغة.

ثالثا: من أفراد متفرقين إلى بيئة قابلة للاستجابة

مع انتشار الإسلام في يثرب، أخذت صورة جديدة تتشكل. لم تعد القضية متعلقة بأفراد قلائل التقوا بالنبي ﷺ في موسم الحج، وإنما بدأ الإسلام يجد له حضورًا اجتماعيًا متناميًا.

ثم جاءت السنة التالية بوفد أكبر، وتروي المصادر أن عدد من حضر بيعة العقبة الثانية بلغ ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين، وهو العدد الذي اشتهر في رواية كعب بن مالك رضي الله عنه، وإن كانت بعض الروايات تذكر سبعين رجلًا[10].

وهنا تظهر أهمية التمييز بين ثبوت أصل الحدث وبين اختلاف الروايات في بعض جزئياته؛ فأصل البيعة الثانية ثابت، وكذلك حضور الأنصار ووجود المرأتين واختيار النقباء، أما بعض التفاصيل العددية والأسماء فتوجد فيها اختلافات بين الروايات[11].

ولم تكن هذه الزيادة العددية وحدها هي التحول الحقيقي؛ إذ إن الجماعة بدأت تحمل تصورًا أوضح لتبعات استقبال رسول الله ﷺ؛ فالبيعة المقبلة لن تكون كالأولى؛ لأنها ستتضمن النصرة والحماية، وما يترتب على ذلك من مواجهة محتملة مع قريش.

ومن هنا يمكن فهم معنى "البيئة المستجيبة" في هذه المرحلة: ليس المقصود بيئة مثالية خالية من المشكلات، ولا مجتمعًا مكتمل الإسلام، وإنما بيئة ظهر فيها من الإيمان والقبول والاستعداد ما يجعل انتقال الدعوة إليها ممكنًا.

وهذا التفريق مهم؛ لأن يثرب نفسها كانت مجتمعًا له تركيبته وصراعاته وتحالفاته، وكان فيها اليهود والمشركون، كما كانت المنافسات القديمة بين الأوس والخزرج حاضرة في خلفيتها التاريخية، ولذلك لم يكن الانتقال إليها هروبًا إلى بيئة مثالية، وإنما انتقالًا إلى بيئة ظهر فيها استعداد حقيقي لاستقبال الرسالة وحمل بعض تبعاتها.

المبحث الثاني: بيعة العقبة — الانتقال من الدعوة إلى التأسيس

أولا: العقبة الأولى – عهد الإيمان والأخلاق

إذا كانت بيعة العقبة الأولى قد كشفت عن استعداد أولي في يثرب، فإن قيمتها التاريخية تظهر بصورة أوضح عندما نضع مضمونها في سياق المرحلة المكية كلها.

لقد جاءت البيعة بعد سنوات طويلة من التربية على التوحيد والصبر والخلق، ولذلك لم يبدأ النبي ﷺ مع الأنصار بمطلب سياسي أو عسكري، وإنما بدأ بما بدأ به القرآن المكي نفسه: تصحيح العلاقة بالله، وإصلاح السلوك، وربط الإنسان بعهد المسؤولية.

وهذا ليس مجرد استنتاج؛ فنص البيعة نفسه شاهد عليه؛ فالأمر يبدأ بـ"ألا نشرك بالله شيئًا"، ثم ينتقل إلى السرقة والزنا وقتل الأولاد والبهتان والطاعة في المعروف[12].

إن ترتيب هذه المضامين يكشف عن طبيعة البناء الذي كانت الدعوة تؤسسه: عقيدة تضبط القلب، وأخلاق تضبط السلوك، وطاعة منضبطة بالمعروف.

ولهذا لا يصح أن تُقرأ بيعة العقبة الأولى باعتبارها خطوة تنظيمية منفصلة عن التربية المكية؛ بل هي في جانب مهم منها امتداد للتربية التي سبقتها.

وهنا يلتقي تحليل الشيخ محمد الغزالي مع الاتجاه التربوي عند الغضبان، ومع العرض التاريخي عند المباركفوري: فالنواة التي ستتحمل أعباء المرحلة المقبلة لم تُصنع في ليلة العقبة، وإنما جاءت العقبة لتكشف عن مستوى من النضج بلغته تلك النواة[13].

ثانيًا: العقبة الثانية — حين أصبحت النصرة مسؤولية

مر عام على البيعة الأولى، وتغيرت موازين المشهد في يثرب، وفي موسم الحج التالي خرج الأنصار للقاء رسول الله ﷺ في العقبة، وكان اللقاء في الليل، بعيدًا عن أعين قريش.

ويروي كعب بن مالك رضي الله عنه أنهم خرجوا من رحالهم بعد مضي ثلث الليل، متسللين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين، ثم جاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب[14].

وتكشف رواية كعب عن أن اللقاء لم يكن اندفاعًا عاطفيًا مجردًا، بل كان عقدًا واعيًا، أدرك أطرافه طبيعة المخاطر.

وكان العباس أول المتكلمين، وكان يومئذ على دين قومه، لكنه أراد أن يتوثق لابن أخيه؛ فقال للأنصار:[يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ

رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الِانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الْآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ][15].

إن أهمية هذه الكلمات ليست في كونها تمهيدًا تاريخيًا للبيعة فحسب، بل في أنها تكشف بوضوح أن الطرفين كانا يدركان أن الأمر يتجاوز مجرد اعتناق الإسلام؛ فالانتقال بالنبي ﷺ إلى يثرب سيغير علاقة الأنصار بقريش، وسيضعهم أمام تبعات سياسية واجتماعية وأمنية لا يمكن تجاهلها.

ثم تكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال:[أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ][16].

وهنا جاء جواب الأنصار يحمل إدراكًا واضحًا لما يدخلون فيه؛ فقال البراء بن معرور رضي الله عنه: [نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ][17].

ولم تكن هذه الكلمات مجرد حماسة؛ فقد ظهر في الحوار ما يدل على أن الأنصار كانوا يوازنون بين الإقدام والتبعة.

فقال أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه:[يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ حِبَالًا — يَعْنِي الْيَهُودَ — وَإِنَّا قَاطِعُوهَا، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟][18].

وهذا السؤال بالغ الأهمية في قراءة البيعة؛ لأنه يكشف أن أصحابها لم يكونوا غافلين عن المستقبل. كانوا يسألون عن طبيعة العلاقة بعد النصر، ويطلبون وضوح الالتزام.

فكان جواب النبي ﷺ:[بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ][19].

ومهما اختلفت ألفاظ الروايات في بعض طرق نقل هذه الجملة وتفسير ألفاظها، فإن معناها في سياق الرواية ظاهر: الالتزام المتبادل وعدم ترك الأنصار بعد تحملهم تبعات النصرة.

ثم انتقلت البيعة من مستوى الاتفاق العام إلى مستوى التنظيم، فقال رسول الله ﷺ:

[أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ][20].

فأخرجوا اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[21].

وهنا ينبغي أن نكون دقيقين في العبارة: النص لا يقول إن النبي ﷺ أنشأ "هرمًا تنظيميًا" بالمفهوم المعاصر، ولا يقرر نظرية إدارية في القيادة؛ وإنما الثابت أنه طلب اختيار اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم، وهو إجراء تنظيمي واضح داخل الجماعة في ذلك الظرف. أما استخلاص مبادئ إدارية عامة منه فهو مجال للاستنباط لا للرواية.

ثالثًا: الحماسة المنضبطة — "لم نؤمر بذلك"

ومن أكثر مشاهد البيعة دلالة على طبيعة القيادة النبوية أن بعض الأنصار أبدى استعدادًا للمواجهة الفورية؛ ففي رواية كعب أن رجلًا قال:

[وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا].

فأجابه النبي ﷺ:

[لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ].[22]

وهذا النص من أهم الشواهد في هذه المرحلة؛ لأنه يبين أن قوة الاستعداد لا تعني تجاوز التوجيه الشرعي أو استعجال المواجهة؛ فالأنصار كانوا مستعدين، لكن النبي ﷺ لم يحول هذا الاستعداد إلى تصرف عفوي؛ لأن لكل مرحلة حكمها، ولكل خطوة توقيتها.

وهنا يظهر الفرق بين الشجاعة المنضبطة وبين الاندفاع؛ فلم تكن المشكلة في وجود القوة، وإنما في معرفة متى تستخدم، وفي أي إطار، وتحت أي توجيه.

وهذه دلالة يمكن استنباطها تربويًا من الرواية، أما صياغتها في صورة قاعدة إدارية عامة فهي اجتهاد لاحق ينبغي أن يبقى منسوبًا إلى قارئ السنة النبوية لا إلى نص السيرة.

رابعًا: السرية ليست غاية

كانت بيعة العقبة الثانية ليلًا، وفي موضع بعيد عن أعين قريش، وهذا أمر ثابت في الروايات[23].

لكن من المهم ألا تتحول هذه الجزئية إلى نظرية عامة في "العمل السري"؛ فالبيعة نفسها كانت مرتبطة بظرف محدد: لقاء جماعة من الأنصار برسول الله ﷺ في مكة، مع علم قريش بعدائه للدعوة وترصدها لها.

ومن ثم فالأدق أن يقال: راعت البيعة طبيعة الظرف الأمني والسياسي المحيط بها. أما تحويل ذلك إلى قاعدة مطلقة في كل عمل إصلاحي أو دعوي، فليس مما يثبته الحدث بذاته.

وهذه الدقة المنهجية ضرورية في دراسة السيرة، لأن وظيفة قارئ السنة النبوية ليست أن يستخرج من كل تفصيل تاريخي حكمًا عامًا، وإنما أن يميز بين الواقعة، ودلالتها، والاجتهاد الذي يمكن أن يبنى عليها.

المبحث الثالث: القانون المستنبط من المرحلة — من بناء الإنسان إلى بناء البيئة

تمهيد: ماذا أضافت العقبة إلى البناء المكي؟

إذا نظرنا إلى المرحلة المكية في مجموعها، بدا لنا أن العقبة لم تكن حدثًا منفصلًا عن مسارها، وإنما كانت ثمرة من ثمارها.

ففي مكة بُني الإنسان قبل أن تُبنى الأرضية السياسية، وفي يثرب بدأت الدعوة تجد بيئة قادرة على استقبال هذا الإنسان وحمايته. ثم جاءت البيعة لتربط بين الطرفين: إنسان تربى على الإيمان، وبيئة بدأت تستجيب، وعهد يحدد المسؤولية، وقيادة تنتقل بالمشروع إلى مرحلة جديدة.

وهذا هو القانون الأوسع الذي يمكن استخلاصه من نهاية المرحلة المكية: أن بناء الرسالة لا يقف عند بناء الأفراد، بل يحتاج — عندما تتوافر أسبابه — إلى بناء البيئة التي تستطيع أن تحمل هؤلاء الأفراد وتحمي دعوتهم وتتيح لها أن تؤدي وظائفها.

لكن ينبغي التأكيد أن هذه صياغة استنباطية، وليست نصًا ورد عن النبي ﷺ بهذه العبارة.

أولًا: التربية لا تلغى عند الانتقال إلى مرحلة جديدة

من أبرز الأخطاء في قراءة السيرة أن يُنظر إلى الانتقال من مكة إلى المدينة على أنه انتقال من "التربية" إلى "السياسة"، أو من "الدعوة" إلى "الدولة"، وكأن المرحلة الأولى انتهت تمامًا وبدأت الثانية من الصفر. والسيرة لا تؤيد هذا الفصل الحاد.

فالذين انتقلوا إلى المدينة كانوا هم أنفسهم ثمرة التربية المكية، والأنصار الذين استقبلوا النبي ﷺ لم يكونوا بديلًا عن التربية، وإنما كانوا ثمرة دعوة بدأت تصل إليهم وتربّيهم قبل الهجرة.

ولهذا يقرر الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة أن المرحلة المكية كانت مرحلة إعداد وبناء، وأن هذا الإعداد هو الذي جعل الجماعة قادرة على تحمل تبعات المرحلة المدنية[24].

ويؤكد الغضبان هذا المعنى من زاوية تربوية؛ إذ يرى أن التربية في السيرة ليست مرحلة منفصلة عن الحركة، وإنما هي التي تصنع الإنسان القادر على الحركة وتحمل أعبائها[25].

أما المباركفوري، فعند عرضه لتطور الدعوة من مكة إلى يثرب، يبرز التتابع بين الدعوة والبيعة والهجرة، بحيث لا تبدو الهجرة قرارًا منفصلًا، وإنما نتيجة لمسار طويل من الدعوة والاتصال والاستجابة[26].

وهذا يتيح لنا صياغة استنباط منضبط:

كل انتقال ناجح إلى مرحلة جديدة يحتاج إلى رصيد من البناء السابق يستطيع حمل أعباء المرحلة اللاحقة.

وهذا استنباط من تسلسل الأحداث، لا قاعدة شرعية مستقلة.

ثانيا: البيئة لا تبحث بمعزل عن الإنسان

لم تكن يثرب "بيئة مستجيبة" لأن ظروفها الخارجية وحدها كانت مناسبة؛ وإنما لأنها ضمت أفرادًا استجابوا للإسلام، ثم حملوا الدعوة إلى قومهم، ثم اتسعت دائرة الاستجابة.

فالبيئة في السيرة ليست مجرد جغرافيا.

لقد بدأت المسألة بأشخاص: ستة من الخزرج، ثم اثنا عشر في البيعة الأولى، ثم مصعب بن عمير، ثم اتساع دائرة الإسلام، ثم وفد العقبة الثانية[27].

ومن هنا يمكن فهم العلاقة بين الإنسان والبيئة: الإنسان المؤمن يمكن أن يكون أحد عوامل تحويل البيئة نفسها.

وهذه ملاحظة مهمة؛ لأن القول بأن "البيئة هي التي تصنع الإنسان" وحدها لا يفسر تجربة يثرب، كما أن القول بأن "الإنسان يصنع البيئة" وحده لا يكفي، والسيرة تكشف عن تفاعل متبادل بين الفرد والجماعة والبيئة.

ثالثا: الاستجابة لا تعني اكتمال المجتمع

ومن المهم أيضًا ألا نبالغ في وصف يثرب قبل الهجرة.

لم تكن المدينة مجتمعًا إسلاميًا مكتمل البناء، ولم يكن كل أهلها قد دخلوا الإسلام، ولم تختفِ فيها التناقضات الاجتماعية والسياسية، وإنما ظهر فيها قدر من الاستجابة مكّن الدعوة من الانتقال إليها.

وهذا يحررنا من تصور غير واقعي للبيئة المناسبة؛ فالبيئة الصالحة للعمل ليست بالضرورة بيئة كاملة، وإنما قد تكون بيئة تتوافر فيها شروط أو إمكانات تجعل البناء ممكنًا.

لكن هذا أيضًا استنباط تحليلي من قارئ السنة النبوية ، وليس عبارة يمكن نسبتها إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أئمة السيرة.

رابعا: من الالتزام الفردي إلى المسؤولية الجماعية

تكشف البيعة الأولى عن انتقال مهم من الإيمان الشخصي إلى الالتزام المشترك.

فالأنصاري لا يكتفي بأن يقول: أنا مؤمن؛ وإنما يدخل في عهد يلتزم فيه بترك السرقة والزنا والقتل والبهتان والطاعة في المعروف[28].

ثم تتسع دائرة الالتزام في البيعة الثانية، لتصبح النصرة والحماية جزءًا من المسؤولية.

وهذا التدرج يكشف أن الجماعة في التصور النبوي ليست مجرد تجمع عددي؛ وإنما تقوم على عقيدة مشتركة، والتزام أخلاقي، ومسؤولية متبادلة.

ولا يعني ذلك أن كل جماعة معاصرة تحتاج إلى "بيعة" بالمعنى التاريخي نفسه؛ فهذا إسقاط لا دليل عليه، وإنما يمكن أن نستفيد — على مستوى الاستنباط — من أهمية وضوح المسؤوليات والعهود في أي عمل جماعي مشروع.

خامسا: القيادة لا تبنى على الحماسة وحدها

من المشاهد اللافتة في العقبة أن الأنصار أظهروا شجاعة عالية واستعدادًا للتضحية، لكن النبي ﷺ لم يكتفِ بالحماسة.

اختيار النقباء، وضبط موعد اللقاء، ورفض المبادرة العسكرية الفورية بقوله: [لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ]، كلها وقائع تدل على أن الحماس كان يحتاج إلى قيادة وضبط وتوجيه[29].

وهذا من أقوى الدروس التربوية التي يمكن استخلاصها من المشهد: ليست المشكلة في أن تكون الجماعة متحمسة، وإنما في أن تتحول الحماسة إلى التزام واعٍ ومسؤولية منضبطة.

وهنا تظهر قيمة صناعة القيادات التي أشار إليها الغضبان في قراءته التربوية للسيرة، كما يظهر في اختيار النقباء في روايات ابن هشام وابن كثير[30].

لكن ينبغي ألا نحمّل لفظ "النقباء" أكثر مما يحتمل؛ فهم كانوا مسؤولين عن قومهم في سياق البيعة، ولا يلزم من ذلك أن نستخرج نموذجًا تنظيميًا مطابقًا للمؤسسات الحديثة.

سادسا: وضوح التبعات جزء من صناعة القرار

من أهم ما يلفت النظر في البيعة الثانية أن تبعات القرار لم تكن مخفية عن الأنصار.

فالعباس يحذرهم من خذلان النبي ﷺ بعد خروجه إليهم، وأبو الهيثم يسأل عن مستقبل العلاقة، ثم يأتي جواب النبي ﷺ واضحًا.

وهذا يعني أن البيعة لم تُبنَ على وعود غامضة أو إغراء دنيوي.

بل إن الروايات التي تذكر سؤال الأنصار عن الجزاء تروي أن النبي ﷺ قال لهم: [الجنة][31].

إن استحضار الآخرة هنا مهم في فهم طبيعة القرار، فالبيعة لم تكن صفقة دنيوية، وإنما كانت التزامًا دينيًا عظيم التبعات، والجزاء الذي رُبط به هو الجزاء الأخروي.

ومن هنا يمكن للباحث أن يستنبط أن الالتزام الحقيقي يحتاج إلى وعي بالتبعات، لا إلى إخفائها، وهذه نتيجة تربوية مستنبطة، وليست حكمًا تاريخيًا عامًا.

سابعا: الحكمة في الانتقال بين المراحل

تكشف بيعة العقبة عن أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى لم يقع فجأة.

فقد سبقه عرض الدعوة، ثم الاستجابة الأولى، ثم البيعة الأولى، ثم بعثة مصعب، ثم انتشار الإسلام في يثرب، ثم البيعة الثانية، ثم الهجرة.

وهذا التسلسل هو أحد أوضح مظاهر التدرج في السيرة.

ويشير المباركفوري إلى هذا التتابع في عرضه لأحداث السيرة، بينما يربطه الشيخ محمد الغزالي بالمنهج العام في بناء الدعوة، ويعطيه الغضبان بعده التربوي من حيث تدرج الإنسان والجماعة في تحمل المسؤولية[32].

ومن مجموع ذلك يمكن صياغة استنباط محدود:

الانتقال من مرحلة إلى مرحلة في البناء الإصلاحي يحتاج إلى مقدمات تهيئ له، وإلى قدر من النضج يجعل المرحلة الجديدة قابلة للحمل.

وهذه صياغة تفسيرية، لا قانون شرعي مستقل.

ثامنا: من مكة إلى يثرب – اكتمال الحلقة الأولى

إذا تأملنا مسار القسم الأول من الكتاب، أمكن أن نرى كيف تتصل العقبة بما سبقها.

بدأت الرحلة في بيئة جاهلية احتاجت إلى تغيير الإنسان.

ثم جاء الوحي.

ثم بُنيت النواة الأولى.

ثم تربى السابقون على القرآن والصلاة والصبر.

ثم جهر النبي ﷺ بالدعوة، وواجهت النواة منظومة الرفض.

ثم جاء الابتلاء والهجرة إلى الحبشة والطائف، لا بوصفهما نهاية الطريق، وإنما بوصفهما محطات في طريق أطول.

ثم خرجت الدعوة إلى يثرب.

ثم عاد أهل يثرب إلى رسول الله ﷺ في العقبة.
وهكذا أصبحت النواة التي تربت في مكة على استعداد للانتقال إلى بيئة جديدة، وأصبحت البيئة الجديدة — بعد أن دخلها الإسلام وتكونت فيها جماعة مؤمنة — على استعداد لاستقبال الرسالة.
فكانت الهجرة نتيجة هذا التفاعل بين إنسان بُني، وبيئة استجابت، وقيادة اختارت التوقيت والوسيلة.
وهنا ينتهي العهد المكي من حيث وظيفته الأساسية في بناء النواة، لا بمعنى انتهاء التربية أو انتهاء التحديات.

تاسعا: الضابط المنهجي – ماذا نأخذ من العقبة؟

إن قوة السيرة لا تحتاج إلى تحميلها أكثر مما تحتمل؛ فهي غنية في ذاتها، وتفاصيلها الصحيحة تحمل من الدلالات ما يكفي.
ولهذا ينبغي عند استخراج القوانين منها أن نميز بين أربع دوائر:

الدائرة الأولى: الرواية التاريخية.

وهي ما ثبت في مصادر السيرة والحديث، مثل وقوع البيعتين، ومضمون البيعة الأولى، وبيعة النصرة في الثانية، واختيار النقباء.

الدائرة الثانية: الفهم التربوي.

وهو قراءة دلالة هذه الوقائع في سياق التربية، مثل ملاحظة أن البيعة الأولى جاءت على التوحيد والأخلاق قبل الانتقال إلى النصرة.

الدائرة الثالثة: الاستنباط.

وهو صياغة قاعدة تفسيرية عامة من مجموع الوقائع، مثل القول بأن الانتقال إلى مرحلة جديدة يحتاج إلى رصيد من البناء السابق.

الدائرة الرابعة: التطبيق المعاصر.

وهو محاولة الإفادة من هذه الدلالات في واقعنا، مع الاعتراف بأن التطبيق اجتهاد بشري تحكمه ظروف الواقع ومقاصد الشريعة وأحكامها.

وبهذا لا نقول: "كان النبي ﷺ يؤسس المؤسسات الحديثة بهذه الصورة"، ولا: "السرية في العقبة تعني وجوب العمل السري"، ولا: "النقباء نموذج تنظيمي ملزم لكل جماعة"، ولا: "البحث عن البيئة المستجيبة يعني ترك المجتمعات الصعبة."

بل نقول: هذه وقائع ثابتة، ويمكن أن تُقرأ منها دلالات تربوية محددة، ثم يمكن للباحث أن يقترح تطبيقات معاصرة بشرط ألا ينسبها إلى السيرة نفسها.

وهذا هو الفارق بين دراسة السيرة باعتبارها مصدرًا للعبرة والهداية، وبين تحويلها إلى مخزن جاهز لشعارات معاصرة.

عاشرا: التطبيقات المعاصرة

بعد فصل الرواية عن الاستنباط، يمكن أن ننتقل إلى التطبيقات المعاصرة في دائرة الاجتهاد لا في دائرة النقل.

1؛ في التربية

تفيد هذه المرحلة — على سبيل الاستنباط — في التأكيد على أن التربية ليست نشاطًا هامشيًا يسبق العمل الحقيقي ثم ينتهي، وإنما هي التي تصنع الإنسان القادر على تحمل المسؤولية.

ومن ثم فإن المؤسسات الدعوية والتربوية يمكن أن تجعل بناء الشخصية الإيمانية والأخلاقية أساسًا لأي مسؤولية لاحقة.

2؛ في العمل الجماعي

تلفت البيعة الثانية النظر إلى أهمية وضوح المسؤوليات والعهود، وإلى أن العمل الجماعي لا يقوم على الحماسة وحدها.

لكن هذا لا يعني نقل "البيعة" التاريخية إلى واقعنا كما هي، وإنما الاستفادة من معناها العام في وضوح الالتزام والمسؤولية ضمن الأطر المشروعة والقوانين المنظمة.

3؛ في صناعة القيادات

يمكن الاستفادة من اختيار النقباء في إبراز أهمية توزيع المسؤولية وعدم ترك الجماعة كلها معلقة بشخص واحد.

لكن النموذج التنظيمي المعاصر ينبغي أن يبنى وفق حاجات المؤسسة والقانون والاختصاص، لا باعتباره نسخة مطابقة لما وقع في العقبة.

4؛ في إدارة الانتقال

تقدم السيرة مثالًا واضحًا على أن الانتقال الكبير سبقه إعداد طويل: دعوة، واستجابة، وتربية، واتصال، وبيعة، ثم انتقال.

والدرس المستنبط هنا أن القرارات الكبرى تحتاج إلى مقدمات واقعية، لا إلى الرغبة وحدها.

5، في قراءة البيئات

لا يلزم أن تكون البيئة التي يعمل فيها المصلح كاملة حتى تكون قابلة للبناء، وقد يكون من المهم معرفة مواطن الاستجابة، وتقدير الإمكانات المتاحة، بدل التعامل مع الواقع كله باعتباره كتلة واحدة.

وهذا استنباط معاصر، وليس وصفًا مباشرًا لنية النبي ﷺ في كل بيئة أو زمان.

6، في ضبط الحماسة

يقدم قول النبي ﷺ: [لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ] درسًا بالغ الأهمية في ضرورة أن تخضع الحماسة للعلم والتوجيه والانضباط.

فليس كل ما يستطيع الإنسان فعله ينبغي أن يفعله، وليس كل لحظة مناسبة لكل وسيلة.

وهذه قاعدة تربوية عامة يمكن الاستفادة منها، دون تحويلها إلى وصفة سياسية أو تنظيمية جاهزة.

الخلاصة:

لم تكن بيعة العقبة بداية الدعوة، كما لم تكن الهجرة مجرد نتيجة لاتفاق عابر؛ وإنما جاءت العقبة في نهاية مرحلة طويلة من البناء المكي، لتكشف أن الدعوة التي بدأت في مكة قد أنتجت رجالًا قادرين على حمل تبعاتها، وأنها بدأت تجد في يثرب بيئة تستجيب لها وتستعد لاستقبالها.

بدأت القصة بأفراد قلائل أسلموا في موسم الحج، ثم عادوا إلى قومهم، ثم جاء وفد العقبة الأولى، فكانت البيعة على التوحيد والأخلاق والطاعة في المعروف. ثم بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلم الناس القرآن والإسلام، فانتشرت الدعوة في يثرب، واتسعت دائرة الاستجابة.

ثم جاءت بيعة العقبة الثانية، فانتقلت العلاقة إلى مستوى النصرة والحماية، وظهر فيها وعي الأنصار بالتبعات، وحرص النبي ﷺ على وضوح الالتزام، ثم اختاروا اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم.

ولم تكن قوة الأنصار سببًا في اندفاع النبي ﷺ إلى المواجهة قبل أوانها؛ فعندما عرض بعضهم المبادرة بالسيف قال لهم: [لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ]؛ فكان الاستعداد حاضرًا، لكن القرار ظل مرتبطًا بالتوجيه والمرحلة.

ومن مجموع هذه الوقائع يمكن استنباط أن بناء الإنسان في المرحلة المكية لم يكن غاية معزولة عن الواقع، وإنما كان إعدادًا للإنسان الذي يستطيع — عندما تتوافر البيئة والأسباب — أن يحمل الرسالة في مرحلة جديدة.

كما تكشف نهاية العهد المكي عن تفاعل ثلاث دوائر: إنسان تربى، وبيئة استجابت، وقيادة أحسنت تقدير المرحلة.

ومن هنا يمكن أن نضع خلاصة القسم الأول كله في عبارة واحدة:

لم يبدأ التغيير بتغيير العالم؛ بدأ بتغيير الإنسان، وحين نضج الإنسان، بدأت الرسالة تبحث عن البيئة التي تستطيع أن تحمل هذا الإنسان وتحمي رسالته.

الهوامش والمراجع

1ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ)، ج١، ص ٤٢٨-٤٣٠؛ وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج٣، في أخبار ابتداء إسلام الأنصار.

2المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، (الرياض: دار السلام، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص ١١٨-١٢٠؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر العقبة الأولى.

3صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، وباب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة؛ وينظر أيضًا: صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، والنص الوارد في المتن من رواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

4ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر بيعة العقبة الأولى؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، (القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٠م)، في حديثه عن العقبة الأولى.

5ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في بعث مصعب بن عمير إلى يثرب؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، في أخبار مصعب بن عمير وانتشار الإسلام بالمدينة.

6ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في قصة إسلام أسعد بن زرارة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣.

7الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٧٢-٧٥، في سياق حديثه عن انتقال الدعوة من مكة إلى يثرب ونتائج بيعة العقبة.

8صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١١٨-١٢٢، في عرض انتشار الإسلام في المدينة وبعث مصعب بن عمير وبيعة العقبة.

9منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، (المنصورة: دار الوفاء، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج١، في مباحث التربية وبناء الجماعة في المرحلة المكية.

10رواية كعب بن مالك في مسند الإمام أحمد؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر العقبة الثانية، وقد ورد في بعض الروايات التعبير بسبعين، بينما جاءت الرواية المشهورة عن كعب بن مالك بلفظ ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين.

11ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، قصة بيعة العقبة الثانية، حيث ناقش اختلاف الروايات في بعض أسماء النقباء.

12صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في بيعة العقبة.

13الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٧٢-٧٥؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١١٨-١٢٢؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١.

14ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر العقبة الثانية؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤.
15ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في حديث العباس بن عبد المطلب ليلة العقبة الثانية.
16رواية كعب بن مالك في مسند الإمام أحمد؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١.
17المصدر نفسه.
18المصدر نفسه.
19ابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، في قصة بيعة العقبة الثانية.
20صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١.
21ابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، وقد وقع خلاف في بعض أسماء النقباء، مع الاتفاق على أصل اختيار اثني عشر نقيباً.
22رواية كعب بن مالك في مسند الإمام أحمد، كما أوردها ابن هشام في سياق خبر العقبة؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤.
23ابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤.
24الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٤٥-٥٠، وص ٧٢-٧٥.
25الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في حديثه عن التدرج في التربية وبناء الجماعة.
26المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١١٨-١٢٢.
27ابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١١٨-١٢٢.
28صحيح البخاري، كتاب الإيمان، حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في بيعة العقبة.
29ابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤.
30الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤.
31ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في رواية بيعة العقبة الثانية، حيث ورد سؤال الأنصار عن الجزاء، وجواب النبي ﷺ: [الجنة].
32الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٧٢-٧٥؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١١٨-١٢٢؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١.

القسم الثاني

العهد المدنيّ:

حين بدأ العالم يتغيّر

الباب الثاني: المدينة — حين بدأ العالم يتغير

الفصل الثامن: الهجرة.. قرار استراتيجي لا هروب

تمهيد: حين لم يعد البقاء هو الخيار

لم تكن الهجرة النبوية خروجًا مفاجئًا من مكة فرارًا من الأذى، ولا انتقالًا جغرافيًا معزولًا عن سياق الدعوة؛ بل جاءت في نهاية مرحلة طويلة من الصبر والتربية والابتلاء، وبعد أن تهيأت في يثرب جماعة من الأنصار، وتمت بيعتا العقبة، وأصبح للدعوة أفق جديد يمكن أن تنمو فيه.

ومع ذلك، فإن وصف الهجرة بأنها قرار استراتيجي ليس وصفًا واردًا في النصوص التاريخية بهذه العبارة، وإنما هو توصيف تحليلي لطبيعة القرار كما تكشفها وقائع السيرة: خطر متصاعد في مكة، وإذن إلهي بالخروج، وبيئة جديدة في المدينة، ثم تخطيط دقيق لمسار الرحلة، وتوزيع للأدوار، واختيار للرفيق والدليل، واتخاذ أسباب الحماية مع كمال التوكل على الله.

ومن هنا ينبغي ألا تُقرأ الهجرة باعتبارها انتقالًا من مكان إلى مكان فحسب، بل باعتبارها حلقة متصلة بما سبقها من البناء المكي؛ فقد سبقها بناء الإنسان، ثم بناء الجماعة، ثم البحث عن البيئة المستجيبة، ثم جاءت الهجرة لتصل بين هذه المراحل جميعًا.

فالذين خرجوا من مكة لم يكونوا جماعة تبحث عن النجاة الفردية، وإنما كانوا يحملون رسالة، وقد أصبح لهذه الرسالة مجتمع ينتظرها في يثرب، ولذلك كانت الهجرة انتقالًا بالإنسان والدعوة معًا من واقع الاستضعاف إلى واقع جديد أتاح للإسلام أن يدخل طورًا آخر من أطوار وجوده.

المبحث الأول: قراءة الخطر واتخاذ القرار المصيري

أولا: الرواية التاريخية – من بيعة العقبة إلى قرار الخروج

كانت بيعتا العقبة منعطفًا حاسمًا في علاقة الدعوة بمكة وبالبيئة المحيطة بها، فقد أدركت قريش أن الأمر لم يعد محصورًا في جماعة من المؤمنين داخل مكة، وأن للنبي ﷺ أنصارًا خارجها، وأن هؤلاء الأنصار قد التزموا بنصرته ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم.

وقد عبّر ابن إسحاق، كما نقل ابن هشام، عن إدراك قريش لهذا التحول، فقال إنهم لما رأوا أن لرسول الله ﷺ "شيعة وأصحابًا من غيرهم بغير بلدهم"، ورأوا خروج أصحابه إلى تلك الدار، "عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم منعة"، فخافوا أن يخرج رسول الله ﷺ إليهم، وأن يجتمع أمره معهم[1].

فلم يكن الخطر في نظر قريش مجرد زيادة عدد المسلمين، وإنما انتقال الدعوة إلى بيئة أخرى يمكن أن تجد فيها الحماية والمنعة.

وفي هذا السياق اجتمع الملأ من قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي ﷺ، وقد روى ابن إسحاق تفاصيل هذا الاجتماع، وذكر أن الآراء دارت حول حبسه أو إخراجه أو قتله، ثم استقر رأيهم على أن يؤخذ من كل قبيلة شاب قوي، فيضربوا النبي ﷺ ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل[2].

وينبغي هنا التفريق بين أصل المؤامرة وبين بعض تفاصيل الرواية؛ فأصل مكر قريش ثابت بنص القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ * الأنفال: ٣٠.

أما تفاصيل الحوار الذي دار في دار الندوة، وما ورد فيه من حضور "شيخ من نجد"، فهي من أخبار السيرة التي رواها ابن إسحاق عن بعض شيوخه، ولذلك ينبغي عرضها بصيغة الرواية التاريخية لا بصيغة الحديث الصحيح[3].

وبعد أن أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة، بدأ الاستعداد للخروج.

وتكشف الرواية الصحيحة عن أن أبا بكر رضي الله عنه كان قد استعد لهذا الأمر قبل وقوعه؛ فقد كان قد أعد راحلتين، وعلفهما مدة أربعة أشهر انتظارًا لما قد يأذن الله به من الهجرة؛ فلما جاء النبي ﷺ إليه في وقت غير معتاد، وأخبره أنه قد أُذن له في الخروج، قال أبو بكر رضي الله عنه:

[الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟]
فقال رسول الله ﷺ:
[نَعَمْ][4].
وكان جوابًا قصيرًا، لكنه حمل وراءه معنى عظيمًا؛ فقد كان أبو بكر قد هيأ نفسه وراحلتَه، وانتظر الإذن، فلما جاء الإذن كان حاضرًا للقيام بما يتطلبه القرار.
ولم يكتف أبو بكر بإبداء رغبته في الصحبة، بل عرض إحدى راحلتيه على النبي ﷺ، فقال:
[خُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ].
فقال النبي ﷺ:
[بِالثَّمَنِ][5].
وهنا يظهر جانب آخر من شخصية النبي ﷺ في إدارة اللحظة: فالهجرة قرار عظيم، لكنها لا تلغي الضوابط الأخلاقية ولا الحقوق المالية.
ثم بدأت عملية التجهيز، وأعدت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها الطعام، وشدت السفرة بقطعة من نطاقها، فكانت بذلك سببًا في شهرتها بلقب ذات النطاقين[6].
ثم خرج النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، واتجها إلى غار ثور، لا إلى طريق المدينة مباشرة.
وهذا التفصيل مهم في بناء الرواية؛ إذ إن الطريق الأقرب لم يكن هو المسار الذي سلكاه في البداية، وإنما اختارا الاختفاء في الغار ثلاثة أيام، حتى تهدأ حدة الطلب ويضعف بحث قريش عنهما.
وهكذا لم يكن الخروج مجرد رد فعل على الخطر، بل كان قرارًا تم بعد تقدير للظرف، وإعداد للوسائل، واختيار للتوقيت والمسار.

ثانيا: القراءة التربوية – القرار الكبير لا يتخذ في لحظة واحدة

تكشف قصة الهجرة أن القرار المصيري لا يبدأ لحظة إعلانه، بل تسبقه مقدمات طويلة.
فالهجرة لم تبدأ من غار ثور، وإنما بدأت من سنوات مكة كلها: من التربية، والصبر، والهجرة إلى الحبشة، والبحث عن النصرة، وبيعة العقبة، ثم ظهور البيئة التي يمكن أن تستقبل الدعوة.
ومن هنا تأتي قيمة قراءة الهجرة في سياقها الكامل.
فلو عُزلت الهجرة عن مقدماتها، أمكن أن تبدو وكأنها انتقال اضطراري تحت ضغط المطاردة.
أما حين توضع في سياق السيرة، فإنها تظهر بوصفها مرحلة تالية لمسار طويل من البناء.
وهذا قريب من القراءة التي يقدمها الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة؛ إذ لا يعالج الهجرة كحادثة منفصلة، بل يربطها بمرحلة الابتلاء المكي، وبانتقال الدعوة من واقع لم يعد يتيح لها مجالًا كافيًا للنمو إلى واقع جديد[7].
والمباركفوري يعرض الهجرة ضمن سلسلة من الأحداث المتتابعة: بيعة العقبة، ثم اشتداد خطر قريش، ثم الإذن بالخروج، ثم التخطيط للرحلة.[8] أما الغضبان فيبرز في قراءته التربوية للسيرة معنى التدرج، وأن الأحداث لم تكن جزرًا منفصلة، وإنما كانت كل مرحلة منها تمهد لما بعدها[9].
ومن الناحية التربوية، فإن هذا يلفت إلى أن القرار لا يكون قويًا لمجرد أنه حاسم، وإنما يكون قويًا حين يكون مسبوقًا ببناء يجعل الجماعة قادرة على تحمله.
فالصحابة الذين هاجروا لم يكونوا يواجهون قرارًا مجهولًا من الناحية الإيمانية؛ لقد تربوا طويلًا على أن الله هو ربهم، وأن طاعة رسوله مقدمة على متاع الدنيا، وأن الطريق إلى الحق قد يمر بالابتلاء والفقد.
ولهذا كانت الهجرة انتقالًا مكانيًا، لكنها في الوقت نفسه ثمرة لتكوين روحي سابق.

ثالثا: الاستنباط المنضبط

يمكن، في ضوء الرواية السابقة، صياغة عدد من الدلالات دون تحميل السيرة أكثر مما تحتمل:

١. القرارات الكبرى لها مقدمات.

الهجرة لم تكن منفصلة عن سنوات البناء المكي، ولذلك يمكن استنباط أن القرار المصيري في حياة الجماعات والأفراد يكون أكثر رسوخًا حين يسبقه إعداد طويل.

٢. تقدير الخطر جزء من المسؤولية.

وجود خطر حقيقي لم يؤد إلى الشلل، كما أن الثقة بالله لم تؤد إلى تجاهل الخطر، وهذه دلالة تستفاد من اجتماع الأمرين في القصة: وجود المطاردة من جهة، واتخاذ أسباب التخفي والحماية من جهة أخرى.

٣. الإذن الشرعي لا يلغي الأخذ بالأسباب.

مع أن الهجرة كانت بأمر الله، فقد اتخذ النبي ﷺ الأسباب المتعلقة بالرفيق والراحلة والطعام والدليل والمسار والمبيت في الغار.

وهذا استنباط من مجموع الروايات، وليس نصًا يقول بلفظ "التخطيط الاستراتيجي" أو "إدارة المخاطر."

رابعا: تطبيقات معاصرة

هذه الدلالات يمكن الإفادة منها في العمل التربوي والإداري والدعوي المعاصر، بشرط ألا تُنسب هذه التطبيقات إلى السيرة بوصفها نصوصًا تاريخية.

فعند اتخاذ قرار كبير، لا ينبغي أن يكون الحسم رد فعل انفعاليًا على أزمة عابرة، بل ثمرة قراءة متأنية للواقع، ومعرفة بالإمكانات، وتقدير للنتائج.

وفي المؤسسات والمشروعات الإصلاحية، يمكن الاستفادة من مبدأ الإعداد قبل التحول: إعداد الأشخاص، وتأمين الموارد، ودراسة البدائل، ثم الانتقال حين تتوافر شروط القرار.

لكن لا يصح أن يقال: إن "التخطيط الاستراتيجي" بمفهومه الإداري الحديث كان هو المصطلح الذي حكم تصرف النبي ﷺ؛ فهذا إسقاط لمفهوم معاصر على واقعة تاريخية. الصحيح أن الروايات تظهر تدبيرًا وأخذًا بالأسباب وحسن تقدير للظروف، ثم يمكن للباحث المعاصر أن يستفيد من ذلك في بناء أدواته الحديثة.

المبحث الثاني: إدارة المخاطر وتوزيع الأدوار

أولا: الرواية التاريخية – غار ثور وشبكة الأدوار

تقدم رواية عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري صورة شديدة الوضوح عن الاستعداد للهجرة. فبعد أن أذن الله لرسوله ﷺ بالخروج، جهز أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين، وأعدت أسماء الطعام، ثم خرج النبي ﷺ وصاحبه إلى غار ثور، ومكثا فيه ثلاثة أيام.

ولم يكن وجودهما في الغار عشوائيًا؛ فقد كان لكل واحد من المحيطين بهما دور محدد.

كان عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما يأتيهما بالأخبار. تصف الرواية حاله بأنه كان شابًا "ثقفًا لقنًا"، وكان يخرج من عندهما قبيل الفجر، فيصبح بين قريش كأنه قضى ليلته في مكة، ثم يعود إليهما عند المساء بما سمعه من تدبير القوم[10].

وكان عامر بن فهيرة رضي الله عنه يرعى غنم أبي بكر، ثم يريحها على النبي ﷺ وأبي بكر في الليل، ليستفيدا من اللبن، وكان يفعل ذلك في الليالي الثلاث[11].

أما أسماء رضي الله عنها فكانت تتولى جانب الإمداد بالطعام، وفي الحديث الصحيح أنها قالت: [صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي. قَالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ، فَارْبِطِي بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ وَبِالْآخَرِ السُّفْرَةَ؛ ففَعَلْتُ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ][12].

ثم جاء دور الدليل.

فقد استأجر النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه رجلًا من بني الديل، وهو عبد الله بن أريقط، وكان على دين قريش، لكنه كان خريتًا، أي ماهرًا بالهداية في الطرق، وقد ائتمنه النبي ﷺ وأبو بكر على هذا الدور، وأعطياه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، ثم خرج معهما وأخذ بهما طريق الساحل[13].

وهنا تتضح الصورة: لم تكن الرحلة تعتمد على شخص واحد يؤدي كل المهام، وإنما تداخلت فيها أدوار متعددة: الخبر، والطعام، واللبن، ومحو الآثار، والقيادة في الطريق.

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد كان له دور في بداية الخروج، إذ أمره النبي ﷺ أن يبيت على فراشه تلك الليلة؛ وذلك كما تذكر روايات السيرة، ومنها رواية ابن إسحاق التي نقلها ابن هشام[14].

ومن المهم منهجياً أن نفرق هنا بين هذه الرواية وبين الروايات الصحيحة في البخاري عن تفاصيل الغار، فخبر مبيت علي رضي الله عنه على فراش النبي ﷺ من أخبار السيرة المشهورة، أما حديث عائشة الطويل في تجهيز الهجرة وغار ثور فهو ثابت في صحيح البخاري.

وبعد ثلاثة أيام خرج النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه مع عامر بن فهيرة والدليل، وسلكوا طريق الساحل.

ولم تنته المخاطر عند الغار، فقد لحق بهما سراقة بن مالك طمعًا في الجائزة التي جعلتها قريش لمن يأتي بالنبي ﷺ وصاحبه، ثم حدث له ما جعله ينصرف عنهما[15].

وهكذا كانت الرحلة سلسلة من المراحل، في كل مرحلة منها خطر محتمل، ووسيلة للتعامل معه.

ثانيا: غار ثور – حين اجتمع التخطيط واليقين

تبلغ الرواية ذروتها في الغار.

فقد اقترب المشركون حتى أصبحوا قريبين جدًا من المكان، وحين رأى أبو بكر رضي الله عنه الخطر قال للنبي ﷺ:

[لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا].

فأجابه النبي ﷺ:

[مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟][16].

وهذا النص من أهم مفاتيح فهم الهجرة كلها.

فالنبي ﷺ لم يقل لأبي بكر: لا يوجد خطر.

ولم يقل له: إننا لا نحتاج إلى الأسباب.

بل كان الخطر قائمًا بالفعل، وكانت المطاردة حقيقية، وكان المشركون يبحثون عنهما، ومع ذلك لم يتحول إدراك الخطر إلى انهيار نفسي، لأن القلب كان متعلقًا بالله.

وقد خلّد القرآن هذا المشهد بقوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ * التوبة: ٤٠.

فالآية لا تقدم الغار بوصفه مكانًا ماديًا للاختفاء فحسب، وإنما تستحضر المعنى الذي حكم الموقف: المعية الإلهية في لحظة الخوف.

وهنا يظهر الفرق بين التوكل الحقيقي وبين الاتكال، فالنبي ﷺ أخذ بالأسباب إلى أقصى ما تسمح به ظروف الرحلة، ثم لم يجعل قلبه معلقًا بالأسباب، بل بالله سبحانه وتعالى.

ثالثا: القراءة التربوية – توزيع المسؤولية وصناعة الثقة

من أكثر الجوانب التربوية دلالة في قصة الهجرة أن نجاح الرحلة لم يكن قائمًا على بطولة فردية.

ففي المشهد أسماء، وعبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، والدليل عبد الله بن أريقط، والنبي ﷺ نفسه.

لكل شخص وظيفة.

وليس من الضروري أن نحمّل هذه الواقعة مفهوم "العمل المؤسسي" الحديث، لكن يمكن أن نلاحظ من الروايات أن تعدد الأدوار وتكاملها كان جزءًا من إنجاز المهمة.

وهذه ملاحظة تتفق مع الروح التي يبرزها الغضبان في قراءته التربوية للسيرة، حيث لا ينظر إلى الصحابة كأفراد متشابهين، بل بوصفهم شخصيات متعددة القدرات والوظائف، يجمعها الإيمان والرسالة[17].

كما يبرز المباركفوري في عرضه للهجرة تفاصيل الأشخاص الذين أسهموا في نجاح الرحلة، من أبي بكر وأبنائه وعامر بن فهيرة والدليل، بما يجعل القارئ يرى الهجرة بوصفها حدثًا شاركت في صناعته مجموعة من الأشخاص، لا شخصين فقط[18].

أما الشيخ محمد الغزالي فيلفت في قراءته للسيرة إلى أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل الصحيح يحرر الإنسان من عبودية الأسباب بعد أن يؤدي ما عليه منها[19].

واللافت كذلك أن اختيار عبد الله بن أريقط، مع كونه على دين قريش، يكشف عن أن معيار الاختيار في هذا الدور كان الكفاءة والأمانة العملية التي وثق بها النبي ﷺ وأبو بكر، لا مجرد الانتماء الديني[20].

ولا ينبغي تحويل هذه الواقعة إلى قاعدة فقهية عامة دون بحث، وإنما تُذكر هنا في سياق وصف الواقعة نفسها.

رابعا: الاستنباط المنضبط

من هذه الوقائع يمكن استنباط جملة من المعاني:

١. نجاح المهمات الكبرى يحتاج إلى تكامل الأدوار.

وهذا مستفاد من تعدد الوظائف التي أدّاها المشاركون في الهجرة.

٢. حسن اختيار الأشخاص جزء من حسن التدبير.

فلكل مهمة الشخص الأنسب لها: من يعرف الأخبار، ومن يستطيع توفير الطعام، ومن يملك الخبرة بالطريق.

٣. الكفاءة قد تكون معتبرة في بعض المهام العملية.

وهذا استنباط من واقعة الاستعانة بعبد الله بن أريقط في الدلالة على الطريق، وليس تعميمًا فقهيًا على كل المجالات.

٤. السرية ليست غاية بذاتها.

فالسرية في الهجرة كانت مرتبطة بظرف أمني محدد، ولذلك لا يصح تحويلها إلى مبدأ عام يحكم كل عمل دعوي أو اجتماعي.

٥. الشجاعة لا تعني تعريض النفس للخطر بلا ضرورة.

فالرسول ﷺ لم يواجه المطاردين مواجهة مباشرة، بل اتخذ من الإجراءات ما يقلل احتمال الوصول إليه.

خامسًا: تطبيقات معاصرة

يمكن للمؤسسات والمشروعات المعاصرة الإفادة من هذا المعنى في توزيع الأدوار بحسب الكفاءة، بدل بناء العمل على شخص واحد يقوم بكل شيء.

كما يمكن الاستفادة من فكرة وجود بدائل وخطط احتياطية عند إدارة المشروعات التي تنطوي على مخاطر.

وفي المجال التربوي، ينبغي تدريب الأفراد على تحمل المسؤولية ضمن تخصصاتهم وقدراتهم، بحيث لا يكون نجاح العمل مرهونًا بوجود شخص واحد.

أما في العمل الدعوي، فليس المطلوب نسخ صورة الهجرة حرفيًا، ولا بناء هياكل سرية لمجرد الاستناد إلى حادثة تاريخية؛ وإنما يمكن الاستفادة من أصل عام هو حسن التدبير، وتحديد المسؤوليات، واختيار الأكفاء، وحفظ المصالح.

المبحث الثالث: التوكل والأخذ بالأسباب

أولا: الرواية التاريخية – الأسباب لا تناقض التوكل

قد يكون أكثر ما يُساء فهمه في قصة الهجرة هو العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب.

فقد يقرأ بعض الناس قصة الغار فيظنون أن التوكل يعني انتظار الحماية الإلهية دون إعداد، بينما تكشف الرواية الصحيحة عن صورة مختلفة تمامًا.

لقد أُذن للنبي ﷺ بالهجرة، ومع ذلك:

- اختار صاحبه.
- أعد الراحلتين.
- جهز الطعام.
- مكث في الغار ثلاثة أيام.
- اعتمد على نقل الأخبار.
- استعان بمن يعرف الطريق.
- اختار طريقًا غير الطريق المعتاد.
- ثم خرج في الوقت الذي قدره مع دليله.

كل ذلك مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذي وعد رسوله بالنصر والحفظ.

ولذلك فإن مشهد الغار يجمع بين حقيقتين لا ينبغي الفصل بينهما: بذل الوسع في الأسباب، وتعليق القلب بالله وحده.

وفي الحديث الصحيح أن أبا بكر رضي الله عنه لما رأى شدة الخطر لم يناقش الأسباب، وإنما خاف على رسول الله ﷺ، فقال ما قال، فجاء الجواب النبوي:

[مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟][21].

فالقوة النفسية هنا لم تأت من إنكار الواقع، وإنما من النظر إلى الواقع كله من خلال الإيمان بالله.

ثانيا: التوكل في المنهج النبوي ليس تركًا للأسباب

إن التأمل في الهجرة يكشف أن التوكل ليس بديلًا عن التخطيط، كما أن التخطيط ليس بديلًا عن التوكل.

فلو كان ترك الأسباب هو عين التوكل، لما احتاج النبي ﷺ إلى راحلتين، ولا إلى دليل، ولا إلى إخفاء مساره، ولا إلى المبيت في الغار.

ولو كانت الأسباب هي التي تصنع النتيجة بذاتها، لما كان لهذا الجواب النبوي في الغار ذلك المعنى العظيم: [اللَّهُ ثَالِثُهُمَا].

فالسبب سبب، والنتيجة بيد الله.

وهذا المعنى من المعاني التي اعتنى بها ابن القيم في حديثه عن التوكل والأسباب؛ إذ يقرر أن الشرع لا يدعو إلى تعطيل الأسباب، وإنما إلى القيام بها مع عدم اعتماد القلب عليها استقلالًا[22].

ويأتي الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة ليبرز هذا التوازن في قراءة الهجرة: فالمعجزة والحفظ الإلهي لا يعنيان تعطيل السنن الكونية، كما أن استعمال الوسائل البشرية لا يعني غياب العناية الإلهية[23].

أما المباركفوري، فإن عرضه التفصيلي لمراحل الرحلة يظهر هذا المعنى بصورة عملية؛ إذ يذكر إعداد الراحلتين، والطعام، والغار، والدليل، ومسار الطريق، ثم يذكر ما وقع أثناء الرحلة من أحداث تؤكد أن النصر والحفظ بيد الله[24].

وفي المنهج التربوي الذي يعرضه الغضبان، تظهر هذه الموازنة ضمن بناء الشخصية المؤمنة: شخصية تتحرك في الواقع، وتعرف سنن الحياة، لكنها لا تجعل قلبها أسيرًا لها[25].

ثالثا: من الغار إلى قوله تعالى: [لا تحزن]

لم يكن قول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه:

[لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا]

مجرد عبارة لرفع المعنويات في موقف عابر.

فالآية نفسها تجعلها جزءًا من مشهد النصر:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ * التوبة: ٤٠.

والتأمل التربوي هنا لا ينبغي أن يتحول إلى ادعاء أن المؤمن لا يشعر بالخوف أو القلق؛ فأبو بكر رضي الله عنه شعر بالخطر، ورأى أسبابه الواقعية، لكن النبي ﷺ أعاد توجيه القلب من الخوف الذي قد يشل الحركة إلى الثقة التي تمنح السكينة.

وهذا هو الفارق بين إنكار الخطر وإدارة الخوف في ضوء الإيمان.

فالخطر كان موجودًا.

والمطاردون كانوا قريبين.

والاختباء كان حقيقيًا.
لكن اليأس لم يكن هو النتيجة.

رابعًا: الاستنباط المنضبط

من قصة الهجرة يمكن صياغة مبدأ واضح:
التوكل الصحيح يجمع بين مباشرة الأسباب وعدم الاعتماد القلبي عليها.
وهذا ليس مجرد شعار مستنبط من قصة الغار، بل تؤيده مجموعة الوقائع التي اجتمعت في الرحلة نفسها.

ومن هذا الأصل يمكن فهم عدد من الدلالات:

أولًا: التخطيط لا يناقض الإيمان.

بل قد يكون التخطيط من مقتضيات المسؤولية حين تكون الأسباب متاحة.

ثانيًا: الأخذ بالأسباب لا يضمن النتيجة.

فالإنسان مسؤول عن بذل وسعه، أما النتائج فليست كلها في يده.

ثالثًا: التوكل قوة نفسية وأخلاقية.

فهو يمنع الخوف من التحول إلى يأس، كما يمنع النجاح من التحول إلى غرور.

رابعًا: لا يجوز قراءة الأحداث بمعزل عن السنن.

فحفظ الله لنبيه ﷺ لم يأت في القصة على صورة إلغاء كل سبب بشري، بل اجتمع الحفظ الإلهي مع التدبير البشري.

خامسًا: تطبيقات معاصرة

في الحياة الشخصية، يمكن أن يتحول هذا المعنى إلى قاعدة عملية: خطط لما تستطيع، واستعد لما تستطيع، ثم سلّم النتائج لله.
وفي التربية، ينبغي أن يتعلم الناشئ أن التوكل ليس انتظارًا سلبيًا، وأن بذل الجهد لا يعني ضعف اليقين.
وفي الإدارة، لا ينبغي أن تكون الثقة بالله ذريعة لغياب الخطط، كما لا ينبغي أن تتحول الخطط إلى وهم بأن الإنسان يملك النتائج كلها.
وفي الأزمات، يمكن الإفادة من نموذج الغار في التمييز بين أمرين: الاستعداد للخطر والاستسلام للخوف. الأول مسؤولية، والثاني قد يكون عائقًا عن أداء المسؤولية.

وهذه تطبيقات معاصرة مستفادة من القراءة التحليلية للقصة، وليست وقائع وردت في السيرة بهذه الصياغة.

الضابط المنهجي: ماذا نقول عن الهجرة، وماذا لا نقول؟

تحتاج قصة الهجرة إلى قدر خاص من الانضباط؛ لأنها من أكثر أحداث السيرة قابلية للتحول إلى رموز وشعارات، وقد يؤدي ذلك أحيانًا إلى تجاوز حدود الرواية.

ولذلك ينبغي التفريق بين ثلاث دوائر:

الدائرة الأولى: ما ثبت بالنص

ومن ذلك أصل خروج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وقصة الغار، وصحبة أبي بكر، وإعداد الراحلتين، وتجهيز الطعام، ومبيت الثلاث ليال، ودور عبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة، واستئجار الدليل، والحوار في الغار[26].

الدائرة الثانية: ما ورد في كتب السيرة

ومن ذلك بعض تفاصيل اجتماع دار الندوة، ومبيت علي رضي الله عنه على فراش النبي ﷺ، وبعض تفاصيل المطاردة وطريق الخروج[27].

وهذه الروايات لا تتساوى في درجة الثبوت، ولذلك لا ينبغي أن تقدم كلها بعبارة واحدة توحي بدرجة واحدة من الصحة.

الدائرة الثالثة: الاستنباط المعاصر

ومن ذلك وصف الهجرة بأنها "قرار استراتيجي"، أو الحديث عن "إدارة المخاطر"، أو "توزيع الأدوار"، أو "التخطيط الاستراتيجي."

فهذه عبارات تحليلية حديثة نستخدمها لفهم بعض جوانب الحدث، لكنها ليست ألفاظًا تاريخية نُسبت إلى النبي ﷺ، ولا ينبغي أن تُقدَّم بوصفها مفاهيم كانت حاضرة في المصادر بهذا الاصطلاح.

وهذا التفريق مهم؛ لأنه يحفظ للسيرة حقيقتها، ويتيح في الوقت نفسه الانتفاع بها في بناء الوعي المعاصر دون إسقاط مفاهيمنا عليها إسقاطًا تعسفيًا.

الخلاصة:

الهجرة النبوية لم تكن هروبًا من مكة، وإنما جاءت بعد أن استنفدت الدعوة مرحلة طويلة من البناء والابتلاء، وبعد أن ظهرت في يثرب بيئة مستعدة لاستقبال الرسالة.

وقد كشفت وقائع الهجرة عن مجموعة من المعاني المتداخلة:

•قراءة الخطر: فقد أدركت قريش خطورة انتقال النبي ﷺ إلى يثرب، وبلغ الأمر مرحلة التآمر على قتله، فكان الخروج في ضوء هذا الواقع.

•الاستعداد قبل القرار: فقد كان أبو بكر رضي الله عنه قد أعد راحلتيه، ثم جاء الإذن فوجد الاستعداد حاضرًا.

•توزيع الأدوار: شارك في الهجرة عدد من الأشخاص، وكان لكل منهم دور محدد في الخبر أو الإمداد أو محو الآثار أو الدلالة على الطريق.

•حسن اختيار الوسائل: ظهر ذلك في اختيار الغار، وتأخير الخروج، والاستعانة بالدليل، وسلوك طريق الساحل.

•التوكل مع الأخذ بالأسباب: لم يكن الإيمان بالحفظ الإلهي مانعًا من التخطيط، ولم يكن التخطيط مانعًا من كمال التوكل.

•الثبات في لحظة الخطر: وقد لخّصه قول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: [مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا].

•الهجرة ثمرة للمرحلة المكية: فلم تبدأ صناعة التحول في الغار، وإنما بدأت قبل ذلك بسنوات طويلة في صناعة الإنسان المؤمن والجماعة المؤمنة والبيئة المستقبلة.

ومن ثم يمكن صياغة القانون الذي يمهد له هذا الفصل في عبارة موجزة:

حين تضيق البيئة، لا يكون التغيير الناجح مجرد خروج من الخطر، بل انتقالًا محسوبًا يحفظ الإنسان والرسالة، ويجمع بين وضوح الغاية، وحسن تقدير الواقع، وبذل الأسباب، والتوكل على الله.

وهذا قانون مستنبط من قراءة مجموع أحداث الهجرة، وليس نصًا شرعيًا مستقلًا، ولا قاعدة تاريخية آلية تُطبق على كل زمان ومكان.

الهوامش والمراجع

1ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ج١، باب هجرة الرسول ﷺ، وينظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، دار السلام، الرياض، فصل هجرة الرسول ﷺ، وتؤكد الرواية أن قريشًا رأت أن للمسلمين دارًا ومنعة خارج مكة.

2ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، باب اجتماع الملأ من قريش وتشاورهم في أمر الرسول ﷺ، وهذه التفاصيل من روايات السيرة عن ابن إسحاق، ولذلك ينبغي تمييزها عن الأحاديث الصحيحة المرفوعة.

3سورة الأنفال، الآية ٣٠، وينظر في تفاصيل رواية اجتماع قريش: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، الموضع السابق، وقد أشار القرآن إلى أصل المكر بقوله تعالى: ﴿ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾، دون أن يورد تفاصيل مجلس دار الندوة المذكورة في روايات السيرة.

4البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم ٣٩٠٥، وفيه قول أبي بكر رضي الله عنه: "الصحبة؟" وقول النبي ﷺ: "نعم."

5المصدر نفسه، وفي الرواية: "خذ إحدى راحلتي هاتين"، فقال النبي ﷺ: "بالثمن."

6البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، حديث رقم ٢٩٧٩؛ وفيه حديث أسماء رضي الله عنها في إعداد السفرة وشق نطاقها.

7الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، القاهرة، في مباحث الهجرة النبوية؛ وينظر أيضًا في عرضه المتصل لأحداث المرحلة المكية وما انتهت إليه من الهجرة.

8صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، الرياض، فصل هجرة رسول الله ﷺ؛ وينظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج٤، في أحداث الهجرة.

9منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، في مباحث المرحلة المكية والهجرة، حيث يعالج السيرة باعتبارها مراحل متتابعة في التربية والبناء.

10البخاري، الصحيح، حديث رقم ٣٩٠٥، وفيه وصف عبد الله بن أبي بكر بأنه كان "غلامًا شابًا ثقفًا لقنًا"، وأنه كان يأتيهما بالأخبار ليلًا.

11المصدر نفسه، وفيه أن عامر بن فهيرة كان يأتي بالغنم بعد مضي ساعة من الليل، ثم ينعق بها في آخر الليل، ويفعل ذلك في الليالي الثلاث.

12البخاري، الصحيح، حديث رقم ٢٩٧٩، وهو أصل تسمية أسماء رضي الله عنها بذات النطاقين.

13البخاري، الصحيح، حديث رقم ٣٩٠٥؛ وفيه أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا رجلًا من بني الديل، ووصفته الرواية بأنه "هاديًا خريتًا"، أي ماهرًا بالطريق، وكان على دين قريش، ومع ذلك ائتمنه النبي ﷺ وأبو بكر على هذا الدور.

14ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، باب هجرة الرسول ﷺ؛ وفيه خبر أمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمبيت على فراشه، وينبغي عند إيراد هذا الخبر التمييز بين مصدره في كتب السيرة وبين الروايات الصحيحة في البخاري المتعلقة بتفاصيل الغار.

15البخاري، الصحيح، في حديث الهجرة، من رواية سراقة بن مالك؛ وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، في خبر سراقة، وتفاصيل قصة سراقة مطولة في روايات الهجرة.

16البخاري، الصحيح، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم ٣٦٥٣، عن أبي بكر رضي الله عنه: "لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا"، فقال النبي ﷺ: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما."

17منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، مصدر سابق، في مباحث التربية بالعمل وتوزيع المسؤوليات وصناعة الشخصيات القادرة على حمل أعباء الدعوة.

18صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، مصدر سابق، فصل الهجرة؛ وينظر في التفاصيل نفسها: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، في أحداث الهجرة.

19الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، مصدر سابق، في حديثه عن الهجرة والتوكل والأخذ بالأسباب.

20البخاري، الصحيح، حديث رقم ٣٩٠٥، وفيه النص على أن الدليل كان على دين كفار قريش وأن النبي ﷺ وأبا بكر "أمناه" وائتمناه على المهمة.

21البخاري، الصحيح، حديث رقم ٣٦٥٣.

22ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، في هدي النبي ﷺ في الهجرة والأخذ بالأسباب؛ وينظر في مباحث التوكل إلى تقريراته في مدارج السالكين.

23الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، مصدر سابق، في مباحث الهجرة والتوكل والأخذ بالأسباب.

24صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، مصدر سابق، فصل الهجرة النبوية؛ وينظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤.

25منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، مصدر سابق، في معاني التربية على الثبات والتوكل وحسن التعامل مع الابتلاء والأسباب.

26البخاري، الصحيح، حديثا ٣٩٠٥ و٢٩٧٩، وحديث ٣٦٥٣؛ وهي من أهم المصادر الصحيحة في تفاصيل الهجرة والغار والتجهيز.

27ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، أبواب اجتماع قريش، والخروج إلى الغار، والهجرة؛ وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، وابن القيم، زاد المعاد، في هدي النبي ﷺ في الهجرة، وتُعرض الأخبار بحسب درجة ثبوتها، ولا تُسوّى روايات السيرة بالأحاديث الصحيحة من حيث الاحتجاج.

الفصل التاسع: التأسيس في البيئة الجديدة

تمهيد: حين تنتهي الهجرة ويبدأ البناء

لم تكن الهجرة النبوية مجرد انتقال من مكان إلى مكان، ولا مجرد خروج من بيئة اضطهاد إلى بيئة أكثر أمنًا؛ فقد كان الانتقال نفسه مقدمة لمرحلة جديدة من العمل. انتهت في مكة مرحلة طويلة من بناء الإنسان تحت ضغط الاستضعاف، وبدأت في المدينة مرحلة أخرى: كيف يتحول الإنسان الذي تربى في مكة إلى عضو فاعل في مجتمع جديد؟ وكيف تتحول الجماعة المؤمنة من أفراد متفرقين إلى أمة لها روابطها ومؤسساتها ومجالها الاجتماعي؟

وهنا تظهر أهمية المرحلة المدنية الأولى؛ إذ لم يترك النبي ﷺ المجتمع الجديد يتشكل تلقائيًا تحت تأثير العادات السابقة والعصبيات الموروثة، وإنما بادر إلى بناء ركائزه الأولى، وكان من أبرز هذه الركائز المسجد، والمؤاخاة، وتنظيم العلاقة بين مكونات المجتمع.

وقد كان اختيار هذه البداية ذا دلالة بالغة؛ فالمسجد لم يكن في التجربة النبوية مكانًا للعبادة منفصلًا عن حركة المجتمع، والمؤاخاة لم تكن مجرد عاطفة أخوية، وإنما كانت معالجة عملية لآثار الهجرة، وبناءً لرابطة جديدة تتجاوز الانتماءات القبلية التي كانت تحكم جانبًا كبيرًا من الاجتماع العربي.

ومن هنا فإن تأسيس المدينة يمكن قراءته على أنه انتقال من بناء الإنسان في بيئة معادية إلى بناء البيئة التي يستطيع هذا الإنسان أن يعيش فيها رسالته.

لكن ينبغي منذ البداية التمييز بين مستويين:

الأول هو ما ثبت في الرواية التاريخية من أعمال النبي ﷺ في المدينة، والثاني هو ما يمكن للباحث أن يستنبطه منها من دلالات تربوية واجتماعية؛ فالاستنباط اجتهاد في فهم الدلالة، وليس نصًا تاريخيًا جديدًا، ولا يجوز أن ننسب إلى النبي ﷺ قصدًا أو خطةً تفصيلية لم ترد بها الرواية.

المبحث الأول: بناء المسجد والمؤاخاة

أولا: بناء المسجد – أول معالم المجتمع الجديد

١. الرواية التاريخية

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كان أول ما اتجه إليه بناء المسجد، فكان مسجد قباء من أوائل معالم المرحلة الجديدة، ثم لما دخل المدينة اتخذ موضع مسجده، وشارك أصحابه في بنائه.

وتروي كتب السيرة أن النبي ﷺ لما قدم المدينة نزل في قباء، وأقام بها أيامًا، ثم أسس المسجد، ثم سار إلى المدينة، وكان من أعماله فيها بناء مسجده ﷺ، وقد أورد ابن هشام أخبار بناء المسجد، وذكر مشاركة الصحابة فيه، كما تناول ابن كثير هذه المرحلة ضمن أحداث الهجرة والوصول إلى المدينة[1].

ولم يكن بناء المسجد مجرد عمل عمراني؛ فقد ارتبط منذ البداية بحياة الجماعة المسلمة الجديدة؛ ففي المسجد اجتمع المهاجرون والأنصار، وفيه أقيمت الصلاة، وفيه كان النبي ﷺ يلتقي بأصحابه، ومنه خرج جانب مهم من التوجيه والتعليم وإدارة شؤون المجتمع.

وتتضح مكانة المسجد في المجتمع النبوي من الحديث المشهور في وصف أولويات النبي ﷺ عند تأسيس المجتمع المدني، وما ارتبط بالمسجد من العبادة والتعليم والاجتماع.

ومن النصوص الدالة على مكانة المساجد في حياة المسلمين قوله ﷺ:

[صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً][2].

وهذا الحديث لا يتحدث عن بناء المدينة تحديدًا، لكنه يكشف عن الوظيفة الجماعية للصلاة في المسجد؛ فالمسجد ليس مجرد مكان يؤدي فيه الفرد عبادته منفردًا، بل فضاء تتكرر فيه الصلة بين أفراد الجماعة.

كما كان مسجد النبي ﷺ موضعًا للتعليم والتوجيه، وكان النبي ﷺ يجلس فيه بأصحابه، ويستقبل الوفود، ويقضي بين الناس، ويعالج قضايا المجتمع.

ومن هنا ينبغي ألا نقرأ بناء المسجد بوصفه مجرد إنشاء أول مبنى في المدينة، وإنما بوصفه واقعًا تاريخيًا كان المسجد فيه حاضرًا في قلب الحياة الدينية والاجتماعية للجماعة الجديدة[3].

٢. القراءة التربوية

تنبّه الشيخ محمد الغزالي إلى هذه البداية في سياق حديثه عن بناء المجتمع المدني، فبناء المسجد كان من الخطوات الأولى التي اتجه إليها النبي ﷺ بعد الهجرة؛ لأن المجتمع الجديد لم يكن بحاجة إلى

مساكن وأسواق فحسب، وإنما كان بحاجة إلى مركز يجتمع فيه الناس على معنى أعلى من روابط الدم والقبيلة[4].

ويظهر في هذا أن بناء البيئة لا يبدأ بالأدوات المادية وحدها، وإنما يحتاج إلى مركز معنوي يحدد اتجاه الجماعة.

وهنا تبرز قيمة المسجد في التجربة النبوية: فهو المكان الذي يجتمع فيه المهاجر والأنصاري، والغني والفقير، والقوي والضعيف، في صف واحد، وفي هذا الاجتماع المتكرر إعادة تشكيل للوعي الاجتماعي؛ إذ تتحول العبادة من ممارسة فردية محضة إلى رابطة عملية تجمع أفراد المجتمع.

وهذا المعنى ينسجم مع ما يذكره الغضبان عند حديثه عن الانتقال من مرحلة التربية المكية إلى مرحلة المجتمع المدني؛ فالإنسان الذي تربى على الإيمان والصبر في مكة أصبح في المدينة جزءًا من جماعة تحتاج إلى روابط ومؤسسات تضبط حياتها[5].

أما المباركفوري فيعرض بناء المسجد ضمن الخطوات الأولى التي اتخذها النبي ﷺ في المدينة، إلى جانب المؤاخاة وتنظيم المجتمع، بما يكشف عن سرعة الانتقال من مرحلة الهجرة إلى مرحلة التأسيس[6].

٣. الاستنباط

يمكن أن نستنبط من هذه البداية أن المجتمع لا يقوم بالإنسان المنفرد وحده، مهما بلغ صلاحه، وإنما يحتاج إلى بيئة اجتماعية تعين أفراده على الاستقامة والتعاون.

لكن هذا استنباط من بنية الأحداث، وليس من الصواب تحويله إلى قاعدة تاريخية قطعية منسوبة إلى النبي ﷺ بلفظ لم يرد عنه.

كما يمكن القول إن المسجد في التجربة المدنية الأولى أدى وظيفة تتجاوز مجرد إقامة الصلاة؛ إذ كان أحد أهم مراكز الاجتماع والتعليم والتوجيه، ولذلك فإن القيمة المستفادة ليست في تقليد صورة عمرانية بعينها، وإنما في إدراك أهمية وجود مؤسسات جامعة تحمل القيم وتربط الأفراد بها عملياً.

وهنا يلتقي هذا المبحث مع مسار الكتاب كله: فبعد أن كان التركيز في مكة على صناعة الإنسان، أصبح في المدينة من الضروري أن تُبنى البيئة التي تحتضن هذا الإنسان وتتيح له أن يعيش إيمانه في مجتمع متماسك.

ثانياً: المؤاخاة — تحويل الإيمان إلى رابطة اجتماعية

١. الرواية التاريخية

لم يقتصر عمل النبي ﷺ بعد الهجرة على بناء المسجد، بل اتجه إلى معالجة واحدة من أبرز المشكلات التي فرضتها الهجرة: كيف يعيش المهاجرون الذين تركوا أموالهم وديارهم في مجتمع جديد؟

كان القادمون من مكة قد تركوا وراءهم كثيرًا من مقومات حياتهم السابقة، بينما كان الأنصار أصحاب الدور والأموال والأرض في المدينة، وكان من الممكن أن ينشأ عن هذا تفاوت اجتماعي يهدد وحدة الجماعة الجديدة.

وفي هذا السياق جاءت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

وقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وأن من صور هذه المؤاخاة ما كان بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما.

فقد عرض سعد على عبد الرحمن أن يشاطره ماله، فقال عبد الرحمن:

[بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ][7].

فهذا النص القصير يحمل صورة بالغة الدلالة عن طبيعة العلاقة التي نشأت بين الطرفين. سعد بن الربيع عرض ما يملك، وعبد الرحمن لم يتعامل مع العرض بمنطق الاتكالية، وإنما اختار أن يعمل ويكتسب.

وهكذا اجتمع في المشهد طرفان متكاملان: سخاء الأنصاري، وعفة المهاجر وعزيمته.

ولم تكن المؤاخاة مجرد ترتيب اجتماعي مؤقت، بل كانت لها آثار عملية في حياة المسلمين الأوائل، وقد تناول ابن هشام وابن كثير هذه المؤاخاة ضمن أعمال النبي ﷺ في المدينة، وذكرا أسماء طائفة من الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ[8].

٢. القراءة التربوية

تكشف المؤاخاة عن مستوى آخر من البناء؛ فالإيمان الذي تربى عليه الصحابة في مكة لم يبق فكرة في القلب، وإنما أصبح سلوكًا اجتماعيًا.

لقد كان من السهل أن يقال للمهاجر والأنصاري: أنتم إخوة في الدين. لكن التربية النبوية نقلت هذه الأخوة من المعنى المجرد إلى علاقة عملية.

وقد أبرز الشيخ محمد الغزالي هذه الروح عند حديثه عن المؤاخاة، فهي لم تكن مجرد إعلان للمحبة، بل كانت وسيلة لإذابة الفوارق التي يمكن أن تنشأ بين أبناء المجتمع الجديد[9].

ويظهر هنا أن النبي ﷺ لم يعالج آثار الهجرة معالجة اقتصادية مجردة، وإنما عالجها داخل إطار أخلاقي وإيماني؛ فالمشكلة لم تكن نقص المال فقط، وإنما كانت أيضًا كيفية بناء شعور الانتماء المشترك بين جماعة جاءت من بيئات وتجارب مختلفة.

وهذا يفسر أهمية موقف سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف؛ فالأول يقدم، والثاني يحفظ كرامته ويختار طريق العمل.

ومن جهة أخرى، فإن المؤاخاة جاءت لتضع رابطة الإيمان في موقع عملي يتجاوز العصبية القبلية؛ فالأنصاري لم يعد ينظر إلى المهاجر باعتباره غريبًا من قبيلة أخرى، والمهاجر لم يعد يعيش في المدينة بوصفه لاجئًا منفصلًا عن المجتمع، وإنما أصبح كلاهما جزءًا من جماعة جديدة.

ويشير الغضبان إلى أن التربية النبوية في المدينة لم تكن منفصلة عن الواقع الاجتماعي، وإنما واجهت مشكلات المجتمع الجديد ببناء العلاقات على أساس الأخوة الإيمانية والتكافل[10].

أما المباركفوري فيضع المؤاخاة ضمن الأعمال الأساسية التي قام بها النبي ﷺ بعد الهجرة، إلى جانب بناء المسجد وتنظيم المجتمع، بما يدل على أن مرحلة التأسيس لم تكن عسكرية أو سياسية فحسب، وإنما كانت في جوهرها بناءً اجتماعيًا متكاملاً[11].

٣. الاستنباط

يمكن أن نستخلص من المؤاخاة أن القيم لا تصبح قوة اجتماعية بمجرد إعلانها، وإنما حين تتحول إلى علاقات وممارسات ومواقف.

وهذا الاستنباط له شاهد واضح في الرواية نفسها: عرضٌ حقيقي من الأنصاري، وموقف عفيف من المهاجر، وتحول الأخوة من شعار إلى سلوك.

كما يمكن أن نستنبط أن بناء المجتمع الجديد يحتاج إلى معالجة الآثار الاجتماعية للتحولات الكبرى، لا الاكتفاء بإعلان المبادئ؛ فالهجرة أحدثت تغيرًا في مواقع الناس وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، فجاءت المؤاخاة استجابة عملية لهذا الواقع.

ولا ينبغي مع ذلك أن ننسب إلى المؤاخاة أنها كانت "نظامًا اقتصاديًا" بالمعنى الحديث، أو أن نجعل منها نموذجًا تفصيليًا جاهزًا لكل مجتمع؛ فهذا يتجاوز ما تدل عليه الروايات.

المبحث الثاني: بناء المواطنة والانتماء

أولًا: من المهاجر والأنصاري إلى مجتمع واحد

١. الرواية التاريخية

كان المجتمع المدني عند وصول النبي ﷺ مجتمعًا متعدد المكونات، فقد كان فيه المهاجرون القادمون من مكة، والأنصار من الأوس والخزرج، وطوائف من اليهود، وغيرهم من سكان المدينة.

ولذلك لم تكن مهمة النبي ﷺ مجرد جمع المؤمنين حول العقيدة، وإنما كان عليه أيضًا تنظيم العلاقات داخل بيئة اجتماعية وسياسية متعددة الأطراف.

ومن أبرز الوثائق التي ارتبطت بهذه المرحلة ما عرف في كتب السيرة بـ صحيفة المدينة، وقد أورد ابن هشام نصوصًا منها ضمن حديثه عن تنظيم العلاقات بين سكان المدينة[12].

وقد اختلف قارئ السنة النبوية ون في بعض تفاصيل الوثيقة وصياغة موادها، كما اختلفوا في بعض مسائل توثيق الروايات المتعلقة بها، ولذلك ينبغي التعامل معها بقدر من الاحتياط العلمي، مع الاستفادة من مجموع ما ورد فيها في المصادر القديمة.

ومن أشهر ما ورد فيها من المعاني تنظيم العلاقة بين المؤمنين، وتحديد بعض الالتزامات المتبادلة، وتنظيم العلاقة مع يهود المدينة في إطار الوثيقة.

كما جاءت النصوص النبوية تؤكد وحدة الجماعة المؤمنة وتحريم الاعتداء والظلم، ومن ذلك قوله ﷺ: [الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][13].

ويكشف الحديث عن أن الأخوة لم تعد مجرد انتماء وجداني، وإنما أصبحت ذات آثار أخلاقية واجتماعية: لا ظلم، ولا تخلي، وإغاثة للمحتاج، وتفريج للكرب، وحفظ للكرامة.

٢. القراءة التربوية

إذا كانت المؤاخاة قد عالجت العلاقة بين المهاجرين والأنصار، فإن تنظيم المجتمع المدني عالج مستوى أوسع: العلاقة بين مكونات البيئة الجديدة نفسها.

وهنا تظهر براعة المنهج النبوي في عدم اختزال بناء المجتمع في تربية الفرد وحده؛ فالفرد الصالح يحتاج إلى مجتمع يحكم العلاقات فيه قدر من العدل والوضوح، حتى لا تعود العصبيات القديمة لتعيد إنتاج نفسها.

وقد أشار الشيخ محمد الغزالي في قراءته للمرحلة المدنية إلى أن النبي ﷺ لم يكتف بإقامة الشعائر، وإنما اتجه إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع الجديد[14].

وهذا يتوافق مع المنهج الذي يظهر في السيرة: فقد انتقل النبي ﷺ من بناء المسجد إلى بناء الأخوة، ثم إلى تنظيم العلاقات داخل المدينة.

وهنا ينبغي الحذر من إسقاط مصطلحات سياسية حديثة على المجتمع النبوي دون تمييز؛ فمصطلح المواطنة بمعناه القانوني المعاصر ليس مصطلحًا نبويًا، ولا يصح أن ننسبه إلى السيرة بوصفه الاسم الذي استخدمه النبي ﷺ.

لكن يمكن استخدامه كمصطلح تحليلي معاصر إذا قصدنا به دراسة كيفية تنظيم الانتماء والحقوق والواجبات والعلاقات بين مكونات المجتمع، مع التنبيه إلى أن هذا توصيف تحليلي وليس تسمية تاريخية.

٣. الاستنباط

من هذه المرحلة يمكن أن نستنبط أن بناء المجتمع لا يكتمل بمجرد جمع الأفراد الصالحين، بل يحتاج إلى تنظيم العلاقات بينهم، وتحديد المسؤوليات، وبناء قدر من الثقة والالتزام المشترك.

وهذا الاستنباط أقرب إلى قراءة في بنية التجربة منه إلى قاعدة تشريعية مستقلة.

كما يمكن القول إن الهجرة أنتجت مجتمعًا جديدًا لم يكن متجانسًا من حيث الأصل القبلي والجغرافي، فكان من مقتضيات التأسيس معالجة هذا التنوع ضمن إطار منظم.

واللافت أن السيرة لا تقدم لنا مجرد خطاب أخلاقي عن الوحدة، وإنما تعرض إجراءات عملية لبناء الوحدة: المسجد، والمؤاخاة، وتنظيم العلاقات.

ثانيًا: تجاوز العصبية دون إلغاء الخصوصيات

كانت المدينة قبل الإسلام تعرف الانتماءات القبلية بوضوح، وكانت الخصومات بين الأوس والخزرج قد تركت آثارًا عميقة في المجتمع.

وجاء الإسلام ليعيد ترتيب سلم الانتماءات، بحيث لا تصبح القبيلة هي المرجع الأعلى في الولاء والعداء.

وقد ذكّر القرآن الأنصار بما كان بينهم من عداوة، فقال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ * آل عمران: ١٠٣.

وهذه الآية ليست رواية عن إجراء تاريخي بعينه، وإنما هي شهادة قرآنية على التحول الذي أحدثه الإسلام في علاقة الأوس والخزرج.

وتؤكد السيرة أن هذا التحول لم يكن مجرد تغيير في الأسماء، وإنما كان تغييرًا في طريقة التعامل مع النزاعات والانتماءات.

وقد حذر النبي ﷺ من العصبية، فقال:

[دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ][15].

وهذا النص جاء في البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (2584) بسياق موقف وقع فيه نزاع، فنهى النبي ﷺ عن استدعاء العصبية الجاهلية- ."غَزَونا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد ثابَ معهُ ناسٌ مِنَ المُهاجِرينَ حتَّى كَثُروا، وكان مِنَ المُهاجِرينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فكَسَعَ أنصاريًّا، فغَضِبَ الأنصاريُّ غَضَبًا شَديدًا حتَّى تَداعَوا، وقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ، فخَرَجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما بالُ دَعوى أهلِ الجاهليَّةِ؟! ثُمَّ قال: ما شَأنُهم؟ فأُخبِرَ بكَسعةِ المُهاجِريِّ الأنصاريَّ، قال: فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعوها؛ فإنَّها خَبيثةٌ. وقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: أقد تَداعَوا علينا؟ لَئِن رَجَعنا إلى المَدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ، فقال عُمَرُ: ألا نَقتُلُ يا رَسولَ اللهِ هذا الخَبيثَ؟ لعَبدِ اللهِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّه كان يَقتُلُ أصحابَه".

والدلالة التربوية هنا واضحة: المجتمع الجديد لا يمكن أن يبنى إذا بقيت العصبية القديمة هي التي تحدد ردود الأفعال.

لكن ذلك لا يعني إلغاء كل الانتماءات الطبيعية أو الخصوصيات الاجتماعية، وإنما يعني ألا تتحول هذه الانتماءات إلى معيار للظلم والعدوان والتفاضل الجاهلي.

وهذا من أهم ما يميز بناء المجتمع المدني: إعادة ترتيب الانتماءات، لا محو هوية الأفراد وقبائلهم.

المبحث الثالث: القانون المستنبط من المرحلة — من بناء الإنسان إلى بناء البيئة

أولًا: من الإنسان إلى البيئة

تكشف المرحلة المكية عن عناية عظيمة ببناء الإنسان: العقيدة، والتزكية، والصبر، والثبات، والقدوة، وتحمل الابتلاء.

لكن الهجرة كشفت عن حقيقة أخرى: الإنسان الصالح يحتاج إلى بيئة صالحة أو على الأقل بيئة تسمح له بممارسة صلاحه وبناء علاقاته على أساس القيم التي آمن بها.

وهذا لا يعني أن البيئة المكية كانت خالية من كل إمكانات الخير، ولا أن المدينة كانت مجتمعًا مثاليًا منذ اللحظة الأولى، وإنما يعني أن انتقال الجماعة إلى المدينة فتح مجالًا جديدًا لتطبيق ما تربت عليه في مكة.

وهنا تكتمل الحلقة:

إنسان بُني في مكة ← هاجر إلى بيئة جديدة ← بدأت البيئة تُبنى لتحتضن هذا الإنسان ← ثم نشأ المجتمع الذي يستطيع حمل الرسالة.

وهذه صياغة تحليلية لمسار الأحداث، وليست نصًا تاريخيًا منقولًا عن أحد.

وقد كان الشيخ محمد الغزالي من أبرز من قرأ السيرة بهذا الترابط؛ إذ ينظر إلى الهجرة وما بعدها باعتبارها انتقالًا من مرحلة إعداد العقيدة والإنسان إلى مرحلة إقامة المجتمع الذي يحمل هذه العقيدة في الواقع[16].

كما يظهر عند الغضبان أن التربية النبوية لم تتوقف عند صناعة الفرد، وإنما انتقلت إلى صناعة الجماعة وتنظيم علاقاتها ومؤسساتها[17].

أما المباركفوري فيعرض أعمال النبي ﷺ الأولى في المدينة في سياق متتابع: النزول والاستقرار، وبناء المسجد، والمؤاخاة، وتنظيم المجتمع، ثم الانتقال إلى مراحل أخرى من بناء الدولة والمجتمع[18].

ومن خلال قراءة ابن هشام وابن كثير وابن القيم لهذه المرحلة تتضح كذلك حقيقة أن المدينة لم تُبنَ في يوم واحد، وإنما مرت عملية التأسيس بمراحل متتابعة، واجهت خلالها الجماعة الجديدة تحديات دينية واجتماعية وأمنية وسياسية مختلفة[19].

ثانيًا: القانون بصياغة منضبطة

إذا أردنا صياغة قانون مستنبط من هذه المرحلة، فيمكن القول:
لا يكتمل بناء الإنسان من غير بيئة تعينه على حمل القيم التي تربى عليها، كما لا تستقيم البيئة الصالحة من غير إنسان يحمل قيمها ويترجمها إلى سلوك.
وهذا القانون استنباط تربوي من تسلسل أحداث السيرة، وليس حكمًا شرعيًا مستقلًا.
فمكة قدمت نموذجًا قويًا في بناء الإنسان تحت الضغط، والمدينة قدمت مجالًا لبناء العلاقات والمؤسسات والبيئة الاجتماعية التي تستوعب هذا الإنسان.
ومن هنا لا يصح اختزال المنهج النبوي في جانب واحد؛ فلا نقول إن التربية الفردية وحدها تكفي، ولا إن بناء المؤسسات يغني عن بناء الإنسان.
بل الذي يظهر من تسلسل السيرة أن هناك تكاملًا بين البناء الداخلي والبناء الخارجي.
فالإنسان الذي لم يتربَّ على الإيمان والثبات قد تعجز البيئة عن إصلاحه، والبيئة التي لا تعين الإنسان على قيمه قد تجعل المحافظة على تلك القيم أكثر مشقة.
ثالثًا: ماذا نتعلم من هذا القانون؟
١. التربية لا تنتهي عند بناء الفرد
المرحلة المدنية تبين أن التربية ليست مجرد إعداد الفرد ليكون صالحًا في ذاته، وإنما تشمل أيضًا إعداده ليعيش مسؤولًا داخل جماعة ومجتمع.
وهذا معنى مهم في الانتقال من مكة إلى المدينة؛ فقد أصبح الصحابي مطالبًا بالصلاة والعبادة، لكنه أصبح كذلك مطالبًا بالأخوة، والإنفاق، والنصرة، والعدل، والوفاء، وتحمل مسؤولية المجتمع.
٢. القيم تحتاج إلى حواضن
المؤاخاة مثال واضح على تحويل قيمة الأخوة إلى علاقة اجتماعية.
والمسجد مثال على تحويل قيمة الاجتماع على العبادة والتعلم إلى مؤسسة حاضنة.
وتنظيم المجتمع مثال على نقل القيم من مستوى المواعظ إلى مستوى العلاقات العامة.
ومن ثم يمكن القول إن القيمة التي لا تجد لها مجالًا اجتماعيًا للتعبير قد تبقى أضعف أثرًا من القيمة التي تتحول إلى ممارسة يومية.
وهذا استنباط تربوي، لا يعني أن كل قيمة لا بد أن تتحول إلى مؤسسة مستقلة.

٣. التحولات الكبرى تحتاج إلى بناء اجتماعي

الهجرة كانت تحولًا ضخمًا في حياة المسلمين، ولم يكن كافيًا أن يصل المهاجرون إلى المدينة؛ بل كان لا بد أن تُعالج آثار الانتقال.

ومن هنا جاءت المؤاخاة وغيرها من الإجراءات التي ساعدت الجماعة الجديدة على الاستقرار.

وهذا يفتح مجالًا لاستنباط أوسع: كل تحول اجتماعي كبير يحتاج إلى مرحلة من إعادة بناء العلاقات، وليس فقط تغيير المكان أو الظروف.

رابعًا: التطبيقات المعاصرة

هذه التطبيقات ليست وقائع من السيرة، ولا أحكامًا شرعية مستخرجة منها، وإنما هي محاولة للإفادة من الدلالات التربوية السابقة في واقع مختلف.

في التربية

لا يكفي أن ننتج أفرادًا صالحين بمعزل عن البيئة التي يعيشون فيها؛ فالمربي الذي يهتم بالفرد ينبغي أن يسأل أيضًا: ما البيئة التي سيعود إليها هذا الإنسان؟ وهل تعينه على الاستقامة أم تضغط عليه للعودة إلى ما تربى على تركه؟

في المؤسسات

يمكن الإفادة من تجربة المسجد في فهم أهمية المؤسسات التي تجمع بين القيمة والوظيفة؛ فلا تكون المؤسسة مجرد هيكل إداري، ولا تتحول التربية إلى شعارات منفصلة عن الواقع.

في بناء الجماعات

يمكن الاستفادة من المؤاخاة في التأكيد على أن الأخوة لا تُبنى بالخطب وحدها، وإنما تحتاج إلى صور عملية من التعاون، والرعاية، وتقاسم المسؤولية، وحفظ الكرامة.

في إدارة التحولات

عند انتقال جماعة أو مؤسسة أو مجتمع من مرحلة إلى أخرى، لا يكفي إعلان المرحلة الجديدة؛ بل ينبغي معالجة الآثار التي خلفتها المرحلة السابقة، وبناء الروابط الجديدة التي تجعل الانتقال مستقرًا.

في الانتماء

يمكن الاستفادة من التجربة النبوية في التأكيد على أن الانتماءات الجزئية لا ينبغي أن تتحول إلى أدوات للصراع أو الظلم، وأن بناء الانتماء المشترك يحتاج إلى قيم جامعة وعدالة في التعامل.

لكن لا يصح أن نأخذ نموذج المدينة ونحوّله إلى وصفة سياسية جاهزة للمجتمعات المعاصرة؛ فاختلاف الزمان، والدولة، والقانون، وبنية المجتمع، والعلاقات الدولية، يجعل التطبيق مجالًا للاجتهاد لا للنقل الحرفي.

خامسًا: الضابط المنهجي

من أهم ما ينبغي مراعاته عند قراءة تأسيس المجتمع المدني أن نفرق بين ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: الرواية.

وهو ما ثبت في المصادر التاريخية والحديثية من أعمال النبي ﷺ وأقواله، كالهجرة، وبناء المسجد، والمؤاخاة، وما صح من النصوص المتعلقة بعلاقات المسلمين بعضهم ببعض.

المستوى الثاني: القراءة.

وهي محاولة فهم الدلالات التربوية والاجتماعية التي تكشف عنها هذه الوقائع، كفهم المسجد بوصفه مركزًا جامعًا، والمؤاخاة بوصفها تحويلًا للأخوة إلى ممارسة اجتماعية.

المستوى الثالث: التطبيق.

وهو ما يستنبطه قارئ السنة النبوية أو المربي من هذه الدلالات ليستفيد منه في واقع معاصر مختلف.

والخلط بين هذه المستويات يؤدي إلى مشكلة منهجية خطيرة؛ إذ يتحول الاستنباط الشخصي إلى "منهج نبوي"، ثم يتحول المنهج النبوي إلى إلزام شرعي لم يرد به نص.

ومن هنا فإن القانون الذي نخرجه من هذه المرحلة ينبغي أن يبقى في حدوده:

إن بناء الإنسان يحتاج إلى بيئة تعينه، وإن بناء البيئة يحتاج إلى إنسان يحمل قيمها.

أما التفاصيل التنظيمية والمؤسسية والسياسية التي يمكن أن تتخذها البيئات المعاصرة، فهي من مجالات الاجتهاد، ولا يصح نسبتها إلى السيرة إلا بدليل مستقل.

الخلاصة:

كان وصول النبي ﷺ إلى المدينة بداية مرحلة جديدة في تاريخ الدعوة؛ فلم تكن الهجرة خاتمة الابتلاء المكي فحسب، وإنما كانت بداية التأسيس.

وبناء المسجد مثّل أحد أوائل معالم الاجتماع الجديد، والمؤاخاة عالجت جانبًا مهمًا من آثار الهجرة، ثم جاء تنظيم العلاقات داخل المدينة ليمنح المجتمع الجديد إطارًا أوسع للاستقرار والتعاون.

وهكذا انتقلت التربية النبوية من سؤال كيف نصنع الإنسان المؤمن؟ إلى سؤال آخر لا يقل أهمية: كيف نبني البيئة التي يستطيع هذا الإنسان أن يعيش فيها إيمانه ويؤدي مسؤوليته؟

ومن هنا يمكن تلخيص مسار هذا الفصل في ثلاث حلقات:

بناء الإنسان ← بناء الروابط ← بناء البيئة.

ولا تعني هذه الحلقات أن المرحلة المكية كانت فردية والمدنية جماعية بصورة مطلقة؛ فالجماعة كانت حاضرة في مكة، والتربية الفردية استمرت في المدينة، وإنما المقصود أن مركز الثقل التاريخي في المرحلة المدنية انتقل إلى بناء المجتمع وتنظيم حياته بعد أن قطعت التربية المكية شوطًا طويلًا في إعداد الإنسان.

وهذا هو القانون الأوسع الذي تكشف عنه هذه المرحلة:

لا يكفي أن تبني إنسانًا صالحًا، بل ينبغي أن تسعى إلى بناء البيئة التي تعينه على الصلاح، ولا تكفي البيئة الصالحة إذا لم يحملها أناس صالحون قادرون على تحويل قيمها إلى واقع.

الهوامش والمراجع

1عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (بيروت: دار المعرفة)، ج٢، في أخبار قدوم رسول الله ﷺ المدينة وبناء المسجد؛ وينظر: إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: دار هجر)، ج٤، في أحداث الهجرة ووصول النبي ﷺ إلى المدينة.

2أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة.

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، (القاهرة: دار الشروق)، في حديثه عن بناء المجتمع المدني؛ وينظر: صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (الرياض: دار السلام)، في أحداث الهجرة وبناء المسجد.

4الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، الموضع المتعلق ببناء المسجد والمؤاخاة وأسس المجتمع المدني.

5منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، (المنصورة: دار الوفاء)، في الانتقال من التربية المكية إلى بناء الجماعة والمجتمع المدني.

6المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث الهجرة وأعمال النبي ﷺ الأولى بالمدينة.

7أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

8ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، في أحداث السنة الأولى من الهجرة.

9الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن المؤاخاة وبناء المجتمع الإسلامي الأول.

10الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في التربية الاجتماعية وبناء الأخوة في المجتمع المدني.

11المباركفوري، الرحيق المختوم، في أعمال النبي ﷺ بعد الهجرة، ولا سيما بناء المسجد والمؤاخاة.

12ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، في الصحيفة وما تضمنته من تنظيم للعلاقات بين أهل المدينة؛ وينظر: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، في دراسة وثيقة المدينة ونصوصها.

13أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

14الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في بناء المجتمع المدني وتنظيم الحياة الإسلامية بعد الهجرة.

15أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾، في قصة التنازع الذي وقع بسبب العصبية، وجاء فيه قول النبي ﷺ: "دعوها فإنها منتنة."

16الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في الانتقال من مرحلة الدعوة والاضطهاد إلى مرحلة بناء المجتمع والدولة.

17الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في التربية الاجتماعية والتنظيمية للمرحلة المدنية.

18المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث السنة الأولى للهجرة وأعمال النبي ﷺ في المدينة.

19ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤؛ وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ج٣، في هدي النبي ﷺ في المدينة وبناء المجتمع الإسلامي الأول.

الباب الثالث: المدينة — بناء المجتمع والدولة

الفصل العاشر: تنظيم المجتمع المتعدد

تمهيد: حين انتقلت الرسالة إلى بناء المجتمع

لم تكن الهجرة نهاية للمرحلة المكية فحسب، بل كانت بداية لمرحلة جديدة من العمل النبوي؛ ففي مكة انصرف الجهد الأكبر إلى بناء الإنسان: تصحيح العقيدة، وتزكية النفس، وتعميق اليقين، وتكوين الجيل الذي يستطيع أن يحمل الرسالة. أما في المدينة فقد وجد هذا الإنسان نفسه أمام سؤال آخر: كيف تتحول الجماعة المؤمنة إلى مجتمع قادر على الحياة، وحفظ الحقوق، وتنظيم المصالح، ومواجهة الأخطار، وإدارة الاختلاف؟

وهنا تظهر قيمة المرحلة المدنية؛ إذ لم يكتف النبي ﷺ بجمع المسلمين في مكان واحد، وإنما شرع في بناء البيئة التي يستطيعون أن يعيشوا فيها إيمانهم بصورة متكاملة؛ فبُني المسجد، ووثقت عرى المؤاخاة، ونظمت العلاقة بين مكونات المدينة، وأقيمت قواعد العدل والأمن، وتولى النبي ﷺ إدارة الشأن العام، وفصل الخصومات، وعقد العهود، وأرسل العمال والقادة، وأدار السلم والحرب.

وهذا الانتقال مهم في فهم السيرة؛ لأن المجتمع لا يقوم بمجرد اجتماع أفراد صالحين. قد يكون الناس صالحين في أنفسهم، ولكنهم يحتاجون كذلك إلى روابط تضبط علاقتهم، ومؤسسات تؤدي وظائفها، وقواعد تحمي الحقوق، وقيادة تتحمل مسؤولية الشأن العام.

وقد تنبه الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة إلى أن الهجرة لم تكن مجرد انتقال جغرافي، وإنما كانت انتقالًا إلى مجال أوسع تتحول فيه العقيدة إلى واقع اجتماعي، ويظهر عند المباركفوري أن أعمال النبي ﷺ الأولى في المدينة لم تكن عشوائية، بل جاءت متتابعة في بناء المجتمع الجديد. أما الغضبان فيقرأ هذه المرحلة من زاوية تربوية تؤكد أن التربية التي صنعت الفرد المكي كان لا بد أن تنتقل إلى مستوى بناء الجماعة والمجتمع.

ومن هنا يأتي هذا الفصل لا ليقدم المدينة باعتبارها نموذجًا سياسيًا جاهزًا يُستنسخ في كل عصر، ولا ليضع التجربة النبوية في قوالب الدولة الحديثة، وإنما ليقرأ كيف أدار النبي ﷺ مجتمعًا نشأ في ظروف شديدة التعقيد، وكيف انتقل بالمسلمين من مجرد جماعة مهاجرة ومستضعفة إلى مجتمع منظم له روابطه وقواعده وقيادته ومسؤوليته العامة.

المبحث الأول: صحيفة المدينة — تنظيم مجتمع متعدد المكونات

أولًا: الرواية التاريخية — مدينة واحدة ومكونات متعددة

عندما استقر النبي ﷺ في المدينة، لم يجد مجتمعًا متجانسًا من جميع الوجوه؛ فقد كان في المدينة المهاجرون الذين تركوا مكة، والأنصار من الأوس والخزرج، كما كان فيها اليهود بقبائلهم وعهودهم، وكانت آثار الصراع القديم بين الأوس والخزرج لا تزال حاضرة في الذاكرة الاجتماعية.

ومن ثم فإن بناء المجتمع الجديد لم يكن معناه إلغاء هذا التنوع في لحظة واحدة، وإنما كان يتطلب إعادة تنظيم العلاقات على أساس جديد.

وتذكر كتب السيرة أن النبي ﷺ كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادّعى فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط لهم وعليهم، ويورد ابن هشام نص الوثيقة في سياق حديثه عن أعمال النبي ﷺ بعد الهجرة، ومن أشهر ما جاء فيها:

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّد النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِم وجَاهَدَ مَعَهُمْ، أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ][1].

ثم فصلت الوثيقة أحكامًا تتعلق بالتكافل، والديات، وفداء الأسرى، ونصرة المظلوم، ومنع الظلم، وحفظ العهود، ورد النزاعات إلى الله ورسوله ﷺ، كما تضمنت أحكامًا تتعلق باليهود وعلاقاتهم بالجماعة الجديدة.

ومن العبارات الدالة في الوثيقة قولها:

[وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرٍ عَلَيْهِمْ].

وجاء فيها كذلك:

[وَإِنَّهُ لَا يَجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ].

كما قررت الوثيقة مرجعية النبي ﷺ في النزاع بقولها:

[وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوِ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ].

وتختلف الدراسات في تحديد بعض تفاصيل الوثيقة وزمن تدوين أجزائها وطبيعة العلاقة بين بنودها، ولذلك يحسن التعامل معها باعتبارها وثيقة تاريخية وردت في مصادر السيرة، مع الاحتراز من تحويل كل تفاصيلها إلى حقيقة قطعية لا خلاف فيها[2].

والأهم من ذلك أن النبي ﷺ لم يبن العلاقة مع مكونات المدينة على تجاهل وجودها، وإنما وضع إطارًا ينظم المصالح والحقوق والواجبات في المجتمع الناشئ.

وهنا تظهر نقطة جوهرية: التنوع لم يكن هو المشكلة في ذاته؛ المشكلة كانت في غياب القواعد التي تضبط هذا التنوع.

فالمدينة كانت تضم جماعات متعددة، لكن المطلوب كان إيجاد قدر من النظام المشترك يحفظ الأمن، ويحدد المسؤوليات، ويمنع الاعتداء، ويضبط العلاقات عند السلم والحرب.

ثانيًا: القراءة التربوية — الإيمان يحتاج إلى بيئة منظمة

إذا كانت المرحلة المكية قد علمت المسلمين معنى الأخوة في الإيمان، فإن المدينة علمتهم كيف تتحول هذه الأخوة إلى نظام حياة.

فالإيمان الذي يعيش في القلب لا يبقى منفصلًا عن العلاقات الاجتماعية، وحين اجتمع المهاجرون والأنصار، لم يكن كافيًا أن يقال لهم: أنتم إخوة؛ بل كان لا بد أن تظهر الأخوة في صورة مؤاخاة وتكافل وتحمل للمسؤولية.

وحين وجد المسلمون أنفسهم يعيشون إلى جانب جماعات أخرى، لم يكن كافيًا أن يعرف المسلم عقيدته، بل أصبح محتاجًا إلى معرفة كيف يحفظ عهده، وكيف يؤدي حق الآخر، وكيف يلتزم بالعدل، وكيف يميز بين الولاء لدينه وبين الظلم للآخرين.

وهذا من أهم ما تكشفه الوثيقة: أن بناء المجتمع لا يقوم على إزالة الاختلاف، وإنما على تنظيم الاختلاف في إطار من الحقوق والواجبات.

وهنا ينبغي الحذر من إسقاط المصطلحات السياسية المعاصرة على الوثيقة؛ فليس من المنهج العلمي أن نسميها دون قيد أو تحفظ "دستورًا" بالمعنى القانوني الحديث، ثم نستخرج منها نظرية دستورية كاملة. الأدق أن نقول: إنها صحيفة أو وثيقة نظمت جانبًا مهمًا من العلاقات داخل المجتمع المدني الناشئ، ووضعت التزامات متبادلة بين مكوناته[3].

وهذا الفهم أقرب إلى طبيعة المصدر وإلى سياقه التاريخي.

واللافت كذلك أن الوثيقة لم تجعل الانتماء القبلي ملغى من الناحية الواقعية، بل تعاملت معه في بعض أحكامها، ونقلت وظيفته من العصبية المطلقة إلى إطار من المسؤولية المنظمة؛ فالقبائل بقيت موجودة، لكن لم تعد العصبية القبلية هي المرجعية العليا التي تحدد الحق والباطل.

وهذا يتفق مع التحول الأوسع الذي أحدثه الإسلام في مفهوم الجماعة: أن رابطة الإيمان والعدل والعهد أصبحت أوسع من العصبية، وأن الانتماء الاجتماعي لا يبرر الظلم ولا يعطل الحق.

ثالثًا: الاستنباط — من التنوع إلى التنظيم

يمكن، في حدود ما تسمح به الرواية، استنباط عدد من الدلالات:

أولًا: المجتمع لا يستغني عن قواعد مشتركة.

فمجرد وجود القيم في نفوس الأفراد لا يكفي لإدارة مجتمع متعدد المصالح والانتماءات؛ بل يحتاج المجتمع إلى قواعد تضبط الحقوق والواجبات.

ثانيًا: إدارة التنوع لا تعني إلغاء الاختلاف.

فالوثيقة لم تجعل سكان المدينة جماعة واحدة في الاعتقاد، وإنما نظمت علاقات جماعات مختلفة في إطار التزامات مشتركة.

ثالثًا: العهد يقتضي التزامًا متبادلًا.

فالحقوق التي تقررها الوثيقة ليست منفصلة عن الواجبات، والأمن ليس منفصلًا عن الالتزام، والانتماء ليس منفصلًا عن المسؤولية.

رابعًا: المرجعية الجامعة ضرورة عند النزاع.

فالوثيقة تجعل النزاعات التي يخشى منها الفساد مردها إلى الله ورسوله ﷺ، وهو أمر مرتبط بطبيعة المجتمع المسلم والمرجعية النبوية في ذلك السياق، ولا يصح نقله آليًا إلى أنظمة الحكم الحديثة أو مساواته بمؤسساتها الدستورية والقضائية.

ومن هنا فالدرس الذي يمكن أن نستفيد منه اليوم ليس القول بأن علينا إعادة إنتاج "صحيفة المدينة" حرفيًا، وإنما أن المجتمعات المتنوعة تحتاج إلى قواعد واضحة تضبط العلاقة بين مكوناتها، وتحمي الحقوق، وتمنع تحول الاختلاف إلى صراع دائم.

رابعًا: التطبيق المعاصر

هذه خلاصة استنباطية وليست وصفًا لما حدث في المدينة:

في المؤسسات والمجتمعات المعاصرة، كلما زادت مكونات الجماعة وتنوعت مصالحها، ازدادت الحاجة إلى قواعد واضحة للحقوق والواجبات، وآليات عادلة لحل النزاعات، وعقود والتزامات يعرفها الجميع.

ولا يعني ذلك إلغاء الخصوصيات الدينية أو الثقافية أو الاجتماعية، وإنما يعني منع تحول الخصوصية إلى ذريعة للاعتداء على الآخرين.

والدرس الأهم هنا: التنوع يحتاج إلى عدل وتنظيم، لا إلى إنكار أو فوضى.

المبحث الثاني: الأمن الاجتماعي والعدل —

كيف حافظ النبي ﷺ على استقرار المجتمع؟

أولًا: الرواية التاريخية — مجتمع يحتاج إلى حماية من الداخل والخارج

لم تكن المدينة بعد الهجرة بيئة مستقرة بطبيعتها؛ فقد كانت تجربة الهجرة نفسها قد خلقت واقعًا جديدًا، ووجد المسلمون أنفسهم أمام قريش التي لم تتخل عن عدائها، كما كانت المدينة تضم جماعات متعددة، وظهرت فيها لاحقًا ظاهرة المنافقين، فضلًا عن ما نشأ من صراعات وعلاقات وتحالفات.

وفي هذا السياق جاءت إجراءات متعددة لحماية المجتمع وتنظيمه.

ومن ذلك ما ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال:

[الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ][4].

وليس المقصود من الحديث مجرد بيان حرمة بعض مظاهر المدينة، وإنما يكشف كذلك عن أن المجتمع الجديد كان له مجال عام تحكمه قواعد ملزمة.

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ:

[ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ][5].

فهذا الحديث يقرر مبدأ مهمًا في حماية العهود والأمان، ويمنع أن يصبح أمن الجماعة رهينًا بمكانة الشخص أو قوته.

ومن جهة أخرى، جاءت النصوص الكثيرة في تقرير العدل والتحذير من الظلم، ولم يكن العدل في المدينة شعارًا مجردًا، بل ظهر في القضاء، وفي الفصل بين الناس، وفي التعامل مع الحقوق والأموال والدماء.

وقد كان النبي ﷺ نفسه يتولى القضاء والفصل في الخصومات، ويوجه أصحابه إلى العدل، ويبعث الولاة والقضاة والعمال إلى المناطق المختلفة، ومن ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، وفيه أن النبي ﷺ سأله:

[كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟]

قال: أقضي بكتاب الله.

قال: [فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟]
قال: فبسنة رسول الله ﷺ.
قال [فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟]
قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال:
[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ][6].

وهذا الحديث مشهور في كتب السنن والسيرة، وإن كان أهل الحديث قد تكلموا في إسناده، فلا يصح أن يُجعل وحده أصلًا قطعيًا في بناء نظرية القضاء، وإنما يستأنس به في تصوير جانب من ممارسة الاجتهاد والولاية في العصر النبوي، مع الرجوع إلى مجموع الأدلة[7].

أما العدل في التعامل مع الخصوم وأصحاب المكانة، فقد جاءت فيه نصوص صحيحة صريحة، ومن أشهرها قول النبي ﷺ في شأن المرأة المخزومية التي سرقت:

[إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا][8].

فاستقرار المجتمع في المنظور النبوي لم يكن قائمًا على القوة المجردة، وإنما على العدل الذي يجعل الناس يشعرون بأن القاعدة لا تتغير بتغير الأشخاص.

ثانيًا: القراءة التربوية — الأمن ثمرة للعدل والثقة

الأمن الاجتماعي ليس مجرد غياب القتال. المجتمع قد يكون هادئًا من الخارج، لكنه يمتلئ بالخوف والظلم وفقدان الثقة، وعندئذ لا يكون مستقرًا في الحقيقة.

وتكشف الممارسة النبوية أن الأمن له مستويات متعددة: أمن الإنسان في نفسه وماله، وأمن الجماعة في علاقاتها، وأمن العهود والمواثيق، وأمن المجتمع من الفوضى والاعتداء.

وهنا تتضح قيمة العدل؛ فالعدل ليس قيمة أخلاقية فردية فقط، وإنما هو كذلك شرط لبقاء الجماعة. وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على المسؤولية قبل أن يجعلهم يطالبون بحقوقهم؛ فالسلطة في التصور النبوي ليست امتيازًا، بل تكليف، وهذا المعنى يعضده الحديث الصحيح:

[أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ][9].

فالمسؤولية في هذا الحديث تبدأ من موقع الإنسان الذي يملك سلطة أو ولاية، لكنها لا تنتهي عند الحاكم؛ إذ إن كل إنسان يحمل قدرًا من المسؤولية بحسب موقعه.

وهذا يفسر جانبًا من قوة المجتمع المدني الأول: لم يكن بناء المجتمع قائمًا على انتظار القائد أن يفعل كل شيء، بل كان كل فرد يُربّى على تحمل مسؤوليته.

وهنا يلتقي البناء المدني بالبناء المكي؛ فالإيمان الذي رُبي عليه المسلم في مكة لم يكن غاية منعزلة، وإنما كان من آثاره أن يصبح الإنسان أكثر قدرة على تحمل المسؤولية في المدينة.

ثالثًا: الاستنباط — الأمن ليس وظيفة أمنية فقط

من مجموع هذه النصوص والأحداث يمكن ضبط الاستنباط في ثلاث دوائر:

الأولى: عدالة القاعدة.

فكلما شعر الناس بأن القاعدة واحدة على القوي والضعيف، ازدادت الثقة في المجتمع.

الثانية: وضوح المسؤولية.

فالأمن لا يمكن أن يتحقق إذا كان كل طرف يلقي المسؤولية على غيره؛ ولذلك جاء الحديث النبوي ليجعل الرعاية مسؤولية مرتبطة بكل موقع.

الثالثة: حماية العهود والحقوق.

فالمجتمع المستقر هو الذي تكون فيه العهود ذات قيمة، ولا يستطيع الفرد أن يهدمها لمجرد امتلاكه القوة.

وهذه استنباطات من الممارسة النبوية، وليست ادعاءً بأن النبي ﷺ وضع نظرية حديثة في "الأمن الاجتماعي"، والمنهج الأدق هو أن نقرأ الوقائع كما وقعت، ثم نسأل: ما المبادئ التي تكشف عنها؟

رابعًا: التطبيق المعاصر

في المؤسسات والمجتمعات المعاصرة، لا يكفي إنشاء أجهزة للضبط والحماية إذا كانت الثقة بالعدل غائبة؛ فالأمن المستدام يحتاج إلى عدالة في تطبيق القواعد، ووضوح في المسؤوليات، وآليات موثوقة لحل النزاعات، وحماية للحقوق.

ومن هنا يمكن الإفادة من النموذج النبوي في التأكيد على أن الأمن يبدأ من العدل والثقة والمسؤولية، وليس من القوة وحدها.

المبحث الثالث: القيادة النبوية وتنظيم الشأن العام

أولًا: الرواية التاريخية — من جماعة مهاجرة إلى مجتمع له قيادة

مع استقرار المسلمين في المدينة، ظهرت وظائف لم تكن الجماعة المكية بحاجة إلى ممارستها بالدرجة نفسها. أصبح هناك مجتمع يحتاج إلى إدارة شؤونه، وحماية أمنه، وتنظيم علاقاته، وتسوية نزاعاته، وإدارة موارده، والتعامل مع القبائل والجماعات الأخرى.

وكان النبي ﷺ هو المرجع الأعلى في المجتمع الجديد.

وهذا لا يعني أن المدينة تحولت إلى جهاز إداري ضخم بالمعنى الحديث، ولا أن كل مؤسسات الدولة المعاصرة كانت موجودة فيها بأسمائها ووظائفها الحالية. لكن الوقائع تثبت بوضوح أن النبي ﷺ مارس ولاية عامة على المجتمع المسلم، وأن هذه الولاية شملت جوانب متعددة من الحياة.

فكان ﷺ يفصل في الخصومات، ويعقد العهود، ويبعث العمال، ويولي القادة، ويستقبل الوفود، ويبعث الرسائل إلى الملوك، وينظم شؤون الحرب والسلم، ويجمع الصدقات، ويقسم الأموال، ويقود المجتمع في الأزمات.

وكان أصحابه يشاركونه الرأي، ولا سيما في القضايا التي لم ينزل فيها وحي خاص، ومن أوضح الأمثلة مشاورته لأصحابه في بدر، وأحد، والخندق، وغيرها.

وفي غزوة أحد مثلًا أخذ النبي ﷺ برأي أصحابه في الخروج من المدينة، مع أن رأيه الأول كان الميل إلى البقاء فيها، فلما رأى منهم رغبة في الخروج خرج معهم، وتكشف هذه الواقعة عن جانب مهم من القيادة النبوية: القيادة لا تعني إلغاء مشاركة الجماعة في صناعة القرار[10].

وفي الخندق استشار أصحابه، وأخذ بفكرة سلمان الفارسي رضي الله عنه في حفر الخندق، كما تذكر كتب السيرة.[11] ومهما كان تفصيل الرواية، فإن الثابت أن إدارة الأزمة لم تكن مبنية على شخص واحد يعمل بمعزل عن أصحابه، بل على الاستفادة من الخبرات المتاحة.

وفي الوقت نفسه، لم تكن الشورى تعني غياب القيادة أو تحول القرار إلى فوضى؛ فالنبي ﷺ كان صاحب القرار النهائي في المواضع التي يملك فيها سلطة القرار، وكان الصحابة يرجعون إليه.

وهذا التوازن مهم في فهم القيادة النبوية: شورى بلا فوضى، وقيادة بلا استبداد.

وقد وصف القرآن هذا المجتمع بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ * الشورى: ٣٨.

كما خاطب الله نبيه ﷺ بقوله:
﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.
فالقيادة النبوية لم تكن منفصلة عن التربية التي سبقتها، بل كانت امتدادًا لها. الإنسان الذي تعلم في مكة الصدق والصبر والطاعة وتحمل المسؤولية أصبح في المدينة عنصرًا في مجتمع يتطلب منه أن يعمل ويتشاور ويضحي ويحفظ العهد.
ثانيًا: القيادة بين المرجعية والمرونة
من الأخطاء المنهجية أن تُقرأ القيادة النبوية باعتبارها نموذجًا سياسيًا تفصيليًا مطابقًا لأي نظام معاصر، كما أنه من الخطأ المقابل اختزالها في الجانب الروحي وإهمال حقيقة ممارسة النبي ﷺ للشأن العام.
والأدق أن نقول: إن السيرة تقدم لنا قيادة نبوية جمعت بين المرجعية الشرعية، والقدوة الشخصية، والشورى، والحزم عند الحاجة، والمرونة في الوسائل، وتحمل المسؤولية.
وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على أن السلطة مسؤولية وليست تشريفًا، ويأتي حديث:
[أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...]
ليضع مفهوم المسؤولية في أصل العلاقة بين صاحب الولاية ومن تحت ولايته[12].
ومن جهة أخرى، لم تكن القيادة النبوية قائمة على القرب الشخصي وحده؛ فقد كان النبي ﷺ يختار من أصحابه من يبعثهم في المهمات المختلفة، ويوليهم على المناطق، ويعهد إليهم بمسؤوليات محددة.
وهذا يكشف أن المجتمع لا يستطيع أن يستمر إذا بقيت كل وظائفه مرتبطة بشخص واحد؛ إذ إن القائد الناجح لا يقوم بكل الأعمال بنفسه، وإنما يوزع المسؤوليات ويختار أهلها ويحاسبهم ويوجههم.
وتظهر هذه المعاني في بعوث النبي ﷺ وسراياه وولاته وعماله، كما تظهر في تعليمه أصحابه وتحميلهم المسؤوليات.
ولذلك كان من الخطأ أن نقرأ "الدولة" في المدينة بوصفها جهازًا بيروقراطيًا مكتمل الصورة، كما أن من الخطأ القول إنها لم تكن إلا جماعة دينية بلا تنظيم للشأن العام. الواقع التاريخي أكثر دقة من كلا التصويرين.
لقد كانت هناك جماعة مؤمنة لها قيادة نبوية، ومجتمع له نظام، وعهود، ومسؤوليات عامة، وقضاء، وأمن، وعلاقات خارجية، وتدبير للمصالح؛ لكن هذه الوظائف كانت تمارس ضمن طبيعة المجتمع العربي في القرن السابع، لا ضمن مؤسسات الدولة الحديثة.

وهذا التفريق ضروري حتى لا تتحول السيرة إلى مادة لإثبات تصورات سياسية جاهزة.

ثالثًا: القراءة التربوية — القيادة امتداد للتربية

القيادة في المدينة لم تبدأ في المدينة.

هذه واحدة من أهم الدلالات التي تربط القسم المكي بالقسم المدني.

فالقائد الذي يحمل مجتمعًا في المدينة هو نفسه النبي الذي ربى أصحابه في مكة على الصبر والصدق واليقين، والرجال الذين شاركوا في إدارة المجتمع الجديد هم أنفسهم الذين مرت بهم سنوات التربية والابتلاء.

وهذا يوضح أن المجتمع القوي لا يُبنى عند لحظة التمكين، وإنما يُبنى قبلها.

وقد اهتم الغضبان في قراءته التربوية للسيرة بهذا الجانب؛ فالتربية المكية صنعت شخصيات قادرة على تحمل أعباء المرحلة المدنية، ولم يكن الانتقال إلى المدينة انتقالًا من التربية إلى ترك التربية، وإنما انتقالًا من التربية الفردية المكثفة إلى التربية داخل المجتمع.

والشيخ محمد الغزالي، في قراءته للسيرة، يلفت النظر إلى أن أحداث المدينة لا تفهم منفصلة عن البناء الذي سبقها؛ فالإيمان الذي ثبت أمام التعذيب هو الذي سيحمل صاحبه على التضحية، والأخوة التي تربى عليها المسلم ستتحول إلى مؤاخاة وتكافل، والطاعة التي تعلمها في مكة ستظهر في الانضباط، واليقين الذي زرعه القرآن سيظهر في المواقف الكبرى.

أما المباركفوري، فإن عرضه المتتابع لأحداث الهجرة وبناء المدينة يظهر هذا الانتقال بصورة عملية: فبعد الاستقرار تبدأ أعمال البناء، ثم تنظيم المجتمع، ثم مواجهة التحديات المتلاحقة.

ومن هنا لا ينبغي أن نفصل "التربية" عن "التنظيم"؛ فالتنظيم الذي لا تحمله نفوس مؤمنة قد يتحول إلى هيكل فارغ، والتربية التي لا تنتقل إلى المسؤولية الاجتماعية قد تبقى محصورة في أثرها الفردي.

رابعًا: الاستنباط — القيادة التي تبني ولا تستهلك

يمكن أن نستخلص من التجربة النبوية، في حدودها التاريخية، عددًا من الدلالات:

أولًا: القيادة مسؤولية قبل أن تكون سلطة.

فالحديث النبوي يجعل المسؤولية ملازمة للولاية، فلا معنى لقيادة لا يشعر صاحبها بأنه محاسب عن من تحت يده.

ثانيًا: الشورى أداة لاتخاذ القرار وليست إلغاءً للقيادة.

وقد دلت النصوص والوقائع على ممارسة النبي ﷺ للشورى مع أصحابه، مع بقاء المرجعية النبوية.

ثالثًا: توزيع المسؤوليات جزء من حسن الإدارة.
فالنبي ﷺ لم يحتكر جميع المهام، وإنما بعث العمال والقادة والمعلمين والولاة، واختار لكل مهمة من يناسبها.
رابعًا: القيادة تحتاج إلى الثقة والقدوة.
فالقائد الذي يطلب التضحية من الناس وهو بعيد عنها لا يستطيع بناء الثقة التي ظهرت في المجتمع النبوي.
خامسًا: المرونة في الوسائل لا تعني المرونة في الثوابت.
فالوقائع المدنية تظهر تنوع الوسائل بحسب الموقف، مع بقاء المرجعية الشرعية ثابتة.
وهذه كلها استنباطات تربوية وإدارية من قراءة السيرة، وليست نصًا تاريخيًا يقول إن النبي ﷺ أراد أن يؤسس نموذجًا إداريًا بالمعنى المتداول اليوم.
خامسًا: الضابط المنهجي — المدينة ليست قالبًا سياسيًا جاهزًا
كلما اقتربنا من أحداث المدينة، ازداد خطر إسقاط المفاهيم الحديثة عليها.
فمن جهة، لا يصح اختزال المجتمع المدني في صورة جماعة روحية لا شأن لها بإدارة المجتمع؛ إذ إن المصادر تثبت بوضوح ممارسة النبي ﷺ لوظائف القيادة والقضاء والعهد والحرب والسلم وإدارة الموارد والعلاقات.
ومن جهة أخرى، لا يصح أن نقرأ المدينة باعتبارها دولة حديثة بكل مؤسساتها ومصطلحاتها ومفاهيمها القانونية والسياسية، ثم نحاول استخراج كل تلك المفاهيم من وقائع القرن الأول الهجري.
والمنهج الصحيح يقع بين الإفراطين.
نقرأ النصوص كما وردت، ونثبت الوقائع كما ثبتت، ثم نستنبط منها قدرًا من المبادئ التي تحتمله.
ولهذا فإن تعبير "تنظيم الشأن العام" أدق في هذا السياق من تحميل السيرة مصطلحات حديثة تفصيلية.
كما أن الحديث عن إدارة التنوع يمكن أن يكون وصفًا تحليليًا معاصرًا لبعض الوظائف التي أدتها صحيفة المدينة، بشرط ألا يُنسب إلى النبي ﷺ أنه استخدم هذا المصطلح أو قصد به النظرية الحديثة المقابلة له.
وكذلك فإن الحديث عن الأمن الاجتماعي هو استنباط من مجموع ممارسات العدل وحفظ العهود وحماية المدينة ومنع الفوضى، وليس تسمية تاريخية لجهاز أو مؤسسة كانت قائمة بذلك الاسم.

هذه الدقة ليست ترفًا أكاديميًا، لأنها تحمي السيرة من أمرين متناقضين: التقديس الذي يمنع الفهم، والإسقاط الذي يمنع التاريخ.

سادسًا: التطبيقات المعاصرة — ماذا يمكن أن نتعلم؟

هذه التطبيقات ليست وقائع تاريخية، وإنما هي إفادات معاصرة مستنبطة من القراءة السابقة:

1؛ في بناء المجتمعات المتنوعة

لا يمكن لمجتمع متعدد المكونات أن يعيش طويلًا بمجرد الدعوة إلى المحبة العامة؛ بل يحتاج إلى قواعد واضحة للحقوق والواجبات، وآليات عادلة لتسوية النزاعات، وعقود تضبط العلاقات.

2؛ في إدارة الاختلاف

ليس المطلوب دائمًا إزالة الاختلاف، وإنما منع الاختلاف من التحول إلى ظلم وفوضى، ويمكن للمجتمع أن يحتفظ بتنوعه مع وجود أرضية مشتركة تحفظ الأمن والحقوق.

3؛ في القيادة

ينبغي أن ينظر القائد إلى موقعه باعتباره مسؤولية، لا امتيازًا؛ فكلما اتسعت الولاية اتسعت معها دائرة المحاسبة.

4؛ في صناعة القرار

الشورى ليست ضعفًا في القيادة، كما أن القيادة لا تعني إلغاء الشورى، والنجاح في المؤسسات يحتاج إلى الجمع بين الاستماع، والاستفادة من الخبرات، وتحمل مسؤولية القرار.

5؛ في توزيع المسؤوليات

المؤسسة التي تعتمد على شخص واحد تظل معرضة للضعف بغيابه. أما المؤسسة التي تبني القيادات وتوزع الاختصاصات وتربي أفرادها على تحمل المسؤولية، فهي أقدر على الاستمرار.

6؛ في الأمن والاستقرار

الأمن الحقيقي لا يقوم على الردع وحده؛ وإنما يحتاج إلى عدالة، وثقة، ووضوح في القواعد، واحترام للعقود، وقدرة على معالجة النزاعات قبل أن تتحول إلى أزمات.

الخلاصة:

تكشف المرحلة الأولى من البناء المدني أن الهجرة لم تكن مجرد انتقال المسلمين من مكة إلى المدينة، وإنما كانت انتقالًا من جماعة تحمل الإيمان إلى مجتمع يحمل مسؤولية الإيمان في الحياة.

وقد ظهر ذلك في ثلاثة مسارات متكاملة:

أولًا: تنظيم المجتمع المتعدد من خلال الصحيفة وما تضمنته من أحكام للعلاقات والحقوق والواجبات والعهود، مع ضرورة التعامل معها بوصفها وثيقة تاريخية في سياقها، لا بوصفها دستورًا حديثًا بالمعنى الاصطلاحي القطعي.

ثانيًا: بناء الأمن والعدل من خلال حماية المدينة، وحفظ العهود، وإقامة العدل، وتحميل أصحاب المسؤوليات تبعات ولايتهم، بحيث لا ينفصل الاستقرار عن العدالة والمسؤولية.

ثالثًا: تنظيم الشأن العام من خلال القيادة النبوية، والشورى، وتوزيع المسؤوليات، وإدارة العلاقات الداخلية والخارجية، مع المحافظة على المرجعية الشرعية.

وهكذا يتضح أن المجتمع المدني لم يُبنَ بمجرد انتقال المسلمين إلى أرض جديدة، وإنما بني عبر إعادة تنظيم العلاقات، وترسيخ الأخوة، وضبط الحقوق، وتحمل المسؤولية، وإقامة العدل، وتكوين قيادة قادرة على إدارة المجتمع في السلم والأزمة.

ومن هنا يمكن أن نضع المبدأ المستنبط من هذا الفصل في صياغة موجزة:

لا يكفي أن يُبنى الإنسان المؤمن؛ بل يحتاج الإيمان إلى بيئة منظمة تحفظ الحقوق، وتضبط العلاقات، وتحمّل الجميع مسؤولية البناء.

وهذا المبدأ ليس نصًا شرعيًا ولا قانونًا تاريخيًا قطعيًا، وإنما هو استنباط من مجموع الوقائع المدنية، وسيأتي في الفصول اللاحقة ما يوسع دائرته حين ننتقل من تنظيم المجتمع إلى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، ثم إلى بناء القدرة على الاستمرار والتوسع.

الهوامش والمراجع

1ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ، ج٢، في خبر كتاب النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود، وانظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٣، في أخبار الهجرة وبناء مجتمع المدينة.

2محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت: دار النفائس؛ وانظر: أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، في أخبار المجتمع المدني ووثيقة المدينة، ويلاحظ أن الدراسات الحديثة اختلفت في بعض تفاصيل الوثيقة وبنيتها وزمن تدوينها، ولذلك ينبغي الاحتراز من إطلاق الأحكام القطعية في كل جزئية منها.

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، في أحداث الهجرة وبناء المجتمع المدني؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الرياض: دار السلام، في أخبار الهجرة وبناء الدولة والمجتمع؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المنصورة: دار الوفاء، في التربية المدنية وبناء الجماعة.

4صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة؛ وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها، والحديث ثابت في الصحيحين، وفيه تقرير حرمة المدينة وحماية مجالها من الإفساد والاعتداء.

5صحيح البخاري، كتاب الفرائض، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، في الأحاديث الواردة في "ذمة المسلمين واحدة"؛ وصحيح مسلم، كتاب الحج/كتاب الإمارة بحسب طرق الرواية، وقد ورد الحديث بألفاظ متقاربة، ومن ألفاظه: "ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم."

6سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء؛ وسنن الترمذي، كتاب الأحكام، وحديث معاذ مشهور في كتب الأصول والسيرة، إلا أن أهل الحديث اختلفوا في تصحيحه، ولذلك لا ينبغي جعله أصلًا منفردًا في تقرير منهج القضاء.

7ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، في أبواب القضاء والحكم؛ وابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، في مباحث الاجتهاد والفتوى والقضاء، مع مراعاة التفريق بين ثبوت الرواية وبين الاستدلال الأصولي بها.

8صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان؛ وصحيح مسلم، كتاب الحدود، والحديث في قصة المرأة المخزومية ثابت في الصحيحين، وفيه تقرير المساواة في إقامة الحكم وعدم محاباة ذوي المكانة.

9صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ * النساء: ٥٩؛ وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، والحديث ثابت، ومن ألفاظه: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته."

10ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، في أحداث غزوة أحد؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، في أخبار الغزوة، وينظر في القراءة التربوية: الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية.

11ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، في خبر غزوة الخندق؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، وقد وردت قصة حفر الخندق في كتب السيرة والمغازي بألفاظ وتفاصيل متعددة، والمقصود هنا الاستدلال على أصل المشاورة والاستفادة من الخبرة، لا بناء حكم تفصيلي على كل جزئية من الرواية.

12الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في مباحث بناء المجتمع المدني؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث الهجرة وبناء المدينة؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في التربية على المسؤولية والقيادة، والحديث نفسه ثابت في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

13ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، في هدي النبي ﷺ في الغزوات والسياسة الشرعية والتعامل مع الناس؛ وابن كثير، البداية والنهاية، في أحداث المرحلة المدنية؛ وابن هشام، السيرة النبوية، في أخبار المدينة والغزوات والعهود.

14صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في مرحلة الهجرة وبناء الدولة والمجتمع المدني؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في الدلالات التربوية لأحداث المدينة؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في الانتقال من التربية المكية إلى البناء المدني.

الفصل الحادي عشر: غزوة بدر — الإيمان والقوة

لم تكن بدر في مسار السيرة النبوية مجرد معركة عسكرية انتهت بانتصار المسلمين، وإنما كانت لحظة كاشفة عن طبيعة المجتمع الذي نشأ في المدينة، وعن مستوى البناء الذي بلغته الجماعة بعد الهجرة، وعن العلاقة الدقيقة بين الإيمان والتخطيط، وبين الشورى والقيادة، وبين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله.

ومع ذلك، فإن قراءة بدر تحتاج إلى قدر من الانضباط؛ فلا يصح اختزالها في شعار مجرد من قبيل "الإيمان وحده يصنع النصر"، كما لا يصح تفسيرها بمنطق القوة المادية وحدها؛ فالقرآن نفسه يعرض الحدث في شبكة متداخلة من الأسباب: خروج، وتقدير للموقف، وتشاور، واستعداد، ومواجهة، ودعاء، وتأييد من الله، ثم يرد النصر في نهايته إلى الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * الأنفال: ١٠.

ومن هنا تأتي أهمية بدر في هذا الكتاب: فهي لا تقدم نموذجًا عسكريًا مجردًا، وإنما تكشف كيف يتحول البناء الإيماني الذي امتد في مكة، ثم البناء الاجتماعي الذي تشكل في المدينة، إلى قدرة على اتخاذ القرار، وتحمل المسؤولية، ومواجهة الاختبار حين تفرضه الظروف.

المبحث الأول: التمهيد وقرار المواجهة

أولًا: الرواية التاريخية — من متابعة القافلة إلى مواجهة الجيش

وقعت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكان خروج النبي ﷺ وأصحابه في الأصل متصلًا بقافلة قريش القادمة من الشام بقيادة أبي سفيان، في سياق الصراع الذي نشأ بين المسلمين وقريش بعد الهجرة وما سبقها من اضطهاد وإخراج ومصادرة للأموال، ولم يكن المسلمون قد خرجوا ابتداءً وهم يتوقعون مواجهة جيش قريش الجرار؛ فقد كان التقدير الأول متعلقًا بالقافلة، ثم تغير الموقف حين علمت قريش بخروج المسلمين، وخرجت بقوتها العسكرية.

وهنا تكشف سورة الأنفال عن جانب بالغ الأهمية من المشهد؛ فقد قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ * الأنفال: ٧-٨.

فالآية لا تخفي أن المسلمين كانوا يفضلون الطائفة غير ذات الشوكة؛ أي القافلة، على مواجهة القوة العسكرية، وهذه الملاحظة مهمة في فهم الحدث؛ لأنها تمنع تصوير المسلمين وكأنهم خرجوا منذ البداية بحثًا عن معركة كبرى.

لكن المشهد تغير. خرجت قريش بجيش يقارب الألف، بينما كان عدد المسلمين نحو ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، وأصبح السؤال أمام القيادة النبوية مختلفًا عن السؤال الذي خرجت الجماعة وهي تستعد له أول مرة: هل تستمر في مواجهة القوة القادمة، أم تعيد تقدير الموقف؟

وهنا برزت الشورى.

فقد استشار النبي ﷺ أصحابه، وتحدث أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم كان اهتمام النبي ﷺ منصبًا على معرفة موقف الأنصار بصورة خاصة؛ لأن بيعة العقبة كانت قد تضمنت النصرة داخل المدينة، ولم يكن من التفصيلات التاريخية الدقيقة أن يُفترض تلقائيًا أن التزامهم السابق كان يتضمن كل صورة من صور القتال خارج حدود المدينة.

وتذكر الروايات أن المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال للنبي ﷺ:

[يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سَرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَجَاهَدْنَا مَعَكَ حَتَّى تَبْلُغَهُ].

ثم تكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان كلامه تعبيرًا عن موقف الأنصار، فقال:
[يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ][1].

ومع اختلاف طرق الرواية في بعض ألفاظ هذا المشهد، فإن أصل استشارة الصحابة، وموقف المقداد، وكلام سعد بن معاذ في تقرير موقف الأنصار، ثابت في كتب السنة والسيرة[2].

وكان هذا الموقف من اللحظات الفارقة؛ إذ لم يعد الأمر متعلقًا بقرار يصدر من القيادة منفردًا، بل أصبح الجماعة شركاء في تحمل تبعات القرار.

ثانيًا: قراءة تربوية — الشورى هنا ليست ترفًا

تكشف هذه اللحظة أن القيادة النبوية لم تكن قيادة تستبد برأيها ثم تطلب من الجماعة التنفيذ. كان النبي ﷺ مؤيدًا بالوحي، ومع ذلك استشار أصحابه في أمر الحرب وتقدير الموقف.

وهذا لا يعني أن الشورى كانت بديلًا عن الوحي، ولا أن القرار النبوي كان نتيجة تصويت؛ وإنما يعني أن القيادة النبوية جمعت بين الهداية الربانية، ومعرفة الواقع، والاستماع إلى أهل الميدان.

وهنا تظهر قيمة تربوية دقيقة: إن القائد قد يعرف الهدف، لكنه لا يستغني عن معرفة قدرة الجماعة على حمل تبعات الطريق إليه.

وقد كان موقف الأنصار في بدر امتدادًا عمليًا لما سبق أن تعهدوا به في العقبة، لكنه لم يكن مجرد تكرار لفظي للبيعة؛ لقد جاءت لحظة الاختبار، فظهر صدق الالتزام في الميدان.

وهذا هو الفرق بين التربية النظرية والتربية التي تصنع أهل المواقف: أن تتحول القناعة إلى قدرة على اتخاذ موقف حين تصبح الكلفة حقيقية.

ويبرز في هذا السياق ما عني به الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة من إبراز انتقال الجماعة المسلمة من مرحلة الاحتمال والصبر في مكة إلى مرحلة تحمل مسؤوليات المجتمع والدولة في المدينة.[3] كما أن معالجة المباركفوري لبدر تضعها في سياق التطور الطبيعي للصراع بعد الهجرة، وتربط أحداثها بما سبقها من مراحل الإيذاء والهجرة وإقامة المجتمع الجديد.[4] أما الغضبان فيقرأ بدر ضمن مسار

التربية الجهادية، حيث يظهر أثر التربية السابقة حين ينتقل المسلم من مجرد التصديق إلى تحمل تبعات الإيمان[5].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن، في ضوء هذه الروايات، استنباط عدد من الدلالات:

١. القرار الكبير يحتاج إلى وضوح في الموقف الجماعي؛ فالشورى لا تعني إلغاء القيادة، وإنما تساعد القيادة على معرفة مدى استعداد الجماعة لتحمل القرار.

٢. الاختبار يكشف حقيقة البناء السابق؛ فقد ظهرت في بدر آثار التربية المكية في الصبر والثبات والثقة بالله.

٣. القيادة الناجحة لا تنفصل عن الواقع؛ فالقرار لم يبن على مجرد الحماس، بل جاء بعد معرفة طبيعة الموقف واستشارة أهل الشأن.

٤. الالتزام الحقيقي يظهر عند ارتفاع الكلفة؛ فالمواقف التي لا يترتب عليها ثمن لا تكشف بالضرورة عمق الالتزام.

وهذه استنباطات من الحدث، وليست نصوصًا شرعية مستقلة، ولا يجوز تحويلها إلى قوانين حتمية تعمل بالطريقة نفسها في كل ظرف.

المبحث الثاني: إدارة الموارد والقيادة الميدانية

أولًا: الرواية التاريخية — جماعة قليلة أمام قوة أكبر

لم يكن المسلمون في بدر جيشًا مكتمل التجهيز بالمعايير العسكرية المعتادة. كانوا نحو ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، وكانت وسائل النقل محدودة، حتى تناوب بعضهم على البعير الواحد.

وهذا التفصيل ليس مجرد رقم في قصة المعركة؛ فهو يبين طبيعة الموارد التي دخل بها المسلمون المعركة، ويكشف أن النصر لم يكن نتيجة تفوق مادي مجرد.

ومع ذلك، لم يتحول نقص الموارد إلى ذريعة لترك الاستعداد.

فقد نزل المسلمون عند بدر، وكان للحباب بن المنذر رضي الله عنه رأي في اختيار موقع النزول، فسأل النبي ﷺ: هل هذا منزل أنزلكه الله لا نتقدم عنه ولا نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فلما تبين له أنه الرأي، أشار بموقع آخر أقرب إلى الماء، فقبل النبي ﷺ مشورته[6].

وتكشف هذه الرواية عن معنى مهم في القيادة الميدانية: التمييز بين ما هو وحي وما هو مجال للاجتهاد والخبرة.

ثم اتخذ المسلمون موقعهم، وبني للنبي ﷺ عريش يكون فيه، وجعل له الحرس، وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه ممن أشاروا بذلك، بينما تولى النبي ﷺ قيادة المعركة بنفسه.

وهنا يلتقي التنظيم الميداني بالثقة الإيمانية؛ فلم تكن القيادة تعني أن القائد بعيد عن الخطر، كما لم يكن الاعتماد على الله يعني إهمال ترتيب الصفوف واتخاذ الموقع والاستعداد للمواجهة.

وفي أثناء المعركة كان النبي ﷺ حاضرًا في المشهد حضور القائد الداعي إلى الله، المتابع للمعركة، الداعي لربه، والمحرك لأصحابه.

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال يوم بدر:

[قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ].

فقال عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟

قال:

[نَعَمْ].

قال: بخ بخ؛ فقال له النبي ﷺ:

[مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخ بَخ؟]

قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها؛ فقال:

[فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا].

فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة؛ فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[7].

ولا ينبغي قراءة هذا الموقف بمعزل عن سياق المعركة؛ فهو لا يقدم اندفاعًا عاطفيًا منفصلًا عن القيادة، بل يكشف كيف كان الإيمان بالآخرة يمنح المقاتل معنى يتجاوز الخوف من الموت.

ثانيًا: قراءة تربوية — الإيمان لا يلغي الكفاءة

تظهر بدر بوضوح أن التربية الإيمانية لم تنتج أفرادًا يكتفون بالمشاعر، بل أفرادًا يستطيعون أن يتحركوا داخل واقع معقد.

فالحباب بن المنذر لم يكن مطلوبًا منه أن يكرر ما قيل له، وإنما مارس خبرته العسكرية، وقبل النبي ﷺ مشورته.

وهذه صورة مهمة من صور القيادة: أن تعرف متى تستمع إلى المتخصص، ومتى يكون الرأي البشري مجالًا للأخذ والرد.

كما أن محدودية الموارد لم تمنع التنظيم. لم يكن لدى المسلمين فائض من الرجال والسلاح والدواب، لكنهم لم يدخلوا المعركة في صورة جماعة عشوائية.

وهذا المعنى يتفق مع القراءة التي يقدمها الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ إذ لا يرى الإيمان حالة انعزال عن قوانين الحياة، بل قوة تدفع الإنسان إلى العمل وتحمل المسؤولية.[8] ويظهر عند المباركفوري في عرضه لبدر حضور واضح للتدبير العسكري، ومتابعة أخبار العدو، واختيار المواقع، وترتيب الصفوف.[9] كما يبرز الغضبان أثر التربية السابقة في إعداد الصحابة نفسيًا لتحمل الموقف العسكري حين جاءت مرحلته[10].

أما قصة عمير بن الحمام فتكشف جانبًا آخر: فالمقاتل الذي يرى الآخرة حقيقة حاضرة في وجدانه لا يكون الموت بالنسبة إليه نهاية عبثية، وإنما يتحول معنى التضحية لديه إلى عبادة وطلب للثواب.

لكن ينبغي هنا الحذر من تعميم الموقف بصورة تخلط بين الشجاعة الشرعية وبين الاندفاع غير المحسوب؛ فعمير كان في معركة قائمة، وتحت قيادة نبوية، وفي سياق مشروع مشروعته الشريعة آنذاك، وليس في موقف فردي يقرر فيه الإنسان إلقاء نفسه في التهلكة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

من مجموع هذه الوقائع يمكن استنباط أن البناء القوي يجمع بين ثلاثة عناصر:

الإيمان، والكفاءة، والتنظيم.
فالإيمان يمنح الغاية والمعنى، والكفاءة تساعد على حسن التصرف في الواقع، والتنظيم يحول طاقات الأفراد إلى عمل جماعي منضبط.
ولا يصح أن يُستخرج من بدر قانون يقول إن قلة العدد تؤدي بذاتها إلى النصر، أو أن ضعف الإمكانات لا قيمة له؛ فالقرآن نفسه أثبت التفاوت العددي، وأثبت الأخذ بالأسباب، ثم نسب النصر إلى الله.

المبحث الثالث: سنن النصر والهزيمة

النصر من عند الله بعد الأخذ بالأسباب

أولًا: الرواية التاريخية — الدعاء والاستعداد في مشهد واحد

إذا كان مشهد بدر يكشف شيئًا بوضوح، فهو أن النبي ﷺ لم يضع التوكل في مقابل التخطيط، بل جمع بينهما.

لقد تحرك، واستطلع، وشاور، واختار الموقع، ونظم أصحابه، ثم توجه إلى الله بالدعاء.

ومن أبلغ مشاهد ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن دعاء النبي ﷺ يوم بدر:

[اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ][11].

وقد كان النبي ﷺ يرفع يديه ويستغيث بربه، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبيه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإن الله منجز لك ما وعدك[12].

ثم جاء القرآن يقرر الحقيقة الكبرى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * الأنفال: ٩-١٠.

وهنا تتضح العلاقة بين الأسباب والنتائج بصورة لا تحتمل الاختزال: بذل المسلمون أسبابهم، ثم تعلق قلبهم بمسبب الأسباب.

ولم يكن تأييد الله في بدر مجرد معنى معنوي في وعي المسلمين؛ فقد أثبت القرآن الإمداد بالملائكة، وذكر ما وقع من تثبيت المؤمنين وإلقاء النعاس عليهم وإنزال المطر عليهم وتهيئة أسباب الثبات في الميدان * الأنفال: ٩-١٤، ٤٢-٤٤.

وهكذا اجتمع في بدر ما قد يظنه الإنسان متناقضًا: قلة مادية، واستعداد بشري، وخوف طبيعي، ودعاء شديد، وتأييد إلهي، ثم نصر.

ثانيًا: قراءة تربوية — لا تجعل التوكل بديلًا عن السبب

من أخطر الأخطاء في قراءة بدر أن يتحول قول الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ * إلى فهم يلغي الأسباب.

فالآية لا تقول إن الأسباب غير مهمة، وإنما تصحح نسبة النتيجة النهائية؛ فالمؤمن يأخذ بالسبب، لكنه لا يعبد السبب ولا يعتقد أن السبب مستقل بالتأثير.

وهذا المعنى حاضر في بناء الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ إذ يبرز في قراءته أن التربية النبوية صنعت إنسانًا يجمع بين الثقة بالله والعمل في الواقع.[13] ويكشف المباركفوري في عرضه لبدر عن تداخل الإعداد العسكري مع الدعاء والاعتماد على الله.[14] أما الغضبان فيجعل التربية على الجهاد امتدادًا للبناء الإيماني، فلا يكون العمل العسكري منفصلًا عن العقيدة والتزكية[15].

ومن هنا يمكن فهم بدر بوصفها اختبارًا مزدوجًا:

- اختبارًا لقدرة الجماعة على الأخذ بالأسباب.
- واختبارًا لقدرتها على عدم التعلق بالأسباب.

فالسبب مطلوب، لكن القلب متعلق بالله.

وهذا التوازن بالغ الأهمية؛ لأن الاقتصار على أحد الطرفين يفسد المعنى.

فمن قال: "يكفيني الإيمان، ولا حاجة إلى التخطيط"، خالف ما يظهر من التدبير النبوي في بدر.

ومن قال: "النصر نتيجة مباشرة للتفوق في التخطيط والقوة"، غفل عن التصور القرآني الذي يجعل النصر من عند الله.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن التعبير عن الدرس المستنبط من بدر بالصيغة الآتية:

النصر في التصور الإسلامي لا يُطلب بترك الأسباب، ولا يُنسب إلى الأسباب استقلالًا؛ وإنما تُبذل الأسباب الممكنة، ويظل القلب متعلقًا بالله.

وهذا استنباط تربوي من مجموع الحدث والنصوص القرآنية، وليس نصًا شرعيًا بلفظه.

كما يمكن أن نستنبط أن الأزمات الكبرى تختبر قدرة الجماعة على الجمع بين ثلاثة مستويات:

وضوح الغاية، وحسن التدبير، وقوة الصلة بالله.

وهذه صياغة تفسيرية معاصرة لمعاني الحدث، لا ينبغي أن تُنسب إلى النبي ﷺ أو الصحابة بهذه الألفاظ.

المبحث الرابع: دفع الشبهات حول الغزوات — بدر في سياقها التاريخي

أولًا: لماذا تحتاج بدر إلى قراءة تاريخية منضبطة؟

تُستعمل غزوات النبي ﷺ أحيانًا في سجالات معاصرة بصورة تخرجها من سياقها التاريخي، فتُقدَّم تارة باعتبارها مجرد حروب توسعية، وتارة باعتبارها حروبًا دفاعية بالمعنى الحديث الضيق، وكلا الاختزالين لا يساعد على فهم السيرة كما وقعت.

وبدر تحديدًا لا يصح فصلها عن السنوات التي سبقتها.

فالمسلمون في مكة تعرضوا للاضطهاد، ثم هاجروا، ثم تركوا ديارهم وأموالهم، واستمرت قريش في موقفها العدائي، ولم تنته العلاقة بين الطرفين بمجرد خروج المسلمين إلى المدينة.

ثم جاءت مرحلة المدينة، فأصبح للمسلمين مجتمع مستقل، وأصبح الصراع مع قريش صراعًا بين جماعتين متواجهتين، لا مجرد علاقة بين أفراد مستضعفين وقوة مهيمنة.

وقد سجل القرآن جانبًا من هذا السياق حين قال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ * الحج: ٣٩-٤٠.

ومن ثم لا يصح قراءة بدر باعتبارها حادثة منفصلة عن الاضطهاد والإخراج والهجرة وما أعقبهما.

وفي الوقت نفسه، لا ينبغي تحويل هذا السياق إلى تبرير تاريخي مطلق لكل فعل عسكري وقع بعد ذلك؛ فلكل غزوة ظروفها وأسبابها وأحكامها، ويجب دراسة كل واقعة في سياقها.

ثانيًا: القافلة والجيش — ضرورة التمييز بين المرحلتين

من أكثر النقاط التي تحتاج إلى ضبط أن المسلمين خرجوا أولًا باتجاه قافلة أبي سفيان، ثم تحولت القضية إلى مواجهة مع جيش قريش.

وهذا ما توضحه سورة الأنفال بجلاء، فقد ذكرت أن المسلمين كانوا يودون أن تكون لهم الطائفة غير ذات الشوكة، بينما أراد الله أن يحق الحق ويقطع دابر الكافرين * الأنفال: ٧-٨.

فلا يصح أن يُقال إن المسلمين خرجوا ابتداءً لمواجهة جيش قريش، كما لا يصح إخفاء أنهم كانوا يتحركون في سياق صراع قائم بينهم وبين قريش.

إنما وقعت المواجهة الكبرى حين أصبح جيش قريش أمام المسلمين.

وهذه الدقة مهمة في الكتابة التاريخية؛ لأن الأمانة العلمية لا تعني الدفاع الخطابي عن الأحداث، وإنما تعني عرضها كما تساعد المصادر المعتبرة على فهمها.

ثالثًا: القوة في السيرة ليست غاية مستقلة

لقد كان انتقال المسلمين إلى المدينة انتقالًا من الاستضعاف إلى القدرة على حماية المجتمع، ولذلك لا يمكن فهم الإذن بالقتال بمعزل عن نشأة المجتمع المدني وضرورة الدفاع عنه.

لكن هذا لا يعني أن القوة أصبحت قيمة مستقلة في المشروع النبوي.

فالقرآن الذي تحدث عن القتال هو نفسه الذي جعل الإيمان والتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة لله ورسوله من صفات الجماعة المؤمنة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ * الأنفال: ٢-٤.

ومن هنا فإن بدر لا ينبغي أن تتحول في الوعي التربوي إلى درس في القوة المجردة، وإنما إلى درس في المسؤولية التي ترافق القوة.

رابعًا: الاستنباط المنضبط

يمكن الإفادة من هذه القراءة في صياغة عدد من القواعد المنهجية في دراسة السيرة:

أولًا: لا يجوز اقتطاع الحدث من سياقه السابق واللاحق.

ثانيًا: لا يصح إسقاط المصطلحات السياسية والعسكرية الحديثة على أحداث القرن الأول الهجري دون تعريف ومقارنة دقيقة.

ثالثًا: ينبغي التفريق بين الرواية التاريخية التي تصف ما حدث، والتحليل الذي يحاول تفسير دلالته.

رابعًا: لا يجوز تحويل المواقف العسكرية في السيرة إلى نماذج عامة قابلة للاستنساخ في كل زمان ومكان؛ لأن مشروعيتها وظروفها وقيادتها وسياقها التاريخي كانت محددة.

المبحث الخامس: بدر وصناعة الجماعة المؤمنة —

من البناء المكي إلى الاختبار المدني

إذا نظرنا إلى بدر من زاوية الكتاب كله، وجدنا أنها لم تبدأ في بدر.

فالرجال الذين وقفوا في ذلك اليوم كانوا هم أنفسهم الذين مرت بهم سنوات مكة بما فيها من قرآن، وصلاة، وابتلاء، وهجرة، وصبر، ثم عاشوا تجربة المؤاخاة والاستقرار في المدينة.

ومن هنا فإن بدر تمثل ثمرة من ثمار البناء السابق، لا بداية مستقلة.

فالمكي بنى العقيدة والضمير والصبر، والهجرة نقلت الجماعة إلى البيئة الجديدة، والمدينة وفرت لها المجتمع والمؤسسات الأولية، ثم جاءت بدر لتختبر قدرة هذا البناء على مواجهة أزمة حقيقية.

وهذا المعنى ينسجم مع المسار العام الذي يبرزه الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة: أن الأحداث لا تأتي منفصلة عن التربية التي سبقتها[16].

كما أن المباركفوري، في عرضه للسيرة، لا يفصل بدر عن التحولات التي أحدثتها الهجرة في وضع المسلمين السياسي والاجتماعي.[17] أما الغضبان فيربط المواقف القتالية بالتربية السابقة التي صنعت القدرة على الصبر والطاعة وتحمل المسؤولية[18].

وعليه، فإن قيمة بدر التربوية لا تكمن في نتيجة المعركة وحدها، وإنما في أنها كشفت نوع الإنسان الذي صنعته التربية النبوية.

فالصحابي في بدر ليس فردًا عسكريًا ظهر فجأة؛ وإنما هو نتاج رحلة طويلة من الإيمان والتزكية والصبر.

وهذا ما يجعل النصر في بدر مختلفًا عن مجرد انتصار عسكري؛ فقد أثبتت الجماعة الناشئة أنها أصبحت قادرة على حماية وجودها، وأن البناء الذي بدأ في مكة صار يمتلك في المدينة قدرة على الفعل.

التطبيقات المعاصرة

ينبغي هنا الفصل بوضوح بين السيرة وبين ما يمكن أن نستفيد منه اليوم؛ فما يأتي ليس وصفًا لما فعله النبي ﷺ في واقعنا، ولا إسقاطًا مباشرًا لأحداث بدر على المؤسسات والجماعات الحديثة، وإنما هو إفادة تربوية معاصرة من معاني الحدث.

١. في صناعة القرار

يمكن الإفادة من موقف النبي ﷺ في بدر في التأكيد على أهمية الاستماع إلى أهل الخبرة قبل اتخاذ القرارات الكبرى، خصوصًا حين تكون للقرار تبعات على الجماعة كلها.

والشورى هنا لا تعني غياب القيادة، وإنما تعني أن القيادة لا تستغني عن المعرفة والخبرة والاستماع.

٢. في إدارة الموارد

تكشف بدر أن محدودية الموارد لا تعني بالضرورة تعطيل العمل، لكنها في الوقت نفسه لا تبرر تجاهل الواقع.

فالمطلوب هو معرفة الإمكانات، وترتيب الأولويات، والاستفادة من الموارد المتاحة، وتجنب بناء القرارات على الأمنيات.

وهذا استنباط إداري معاصر، وليس وصفًا تاريخيًا لبدر بلغة الإدارة الحديثة.

٣. في العلاقة بين الإيمان والتخطيط

يمكن للمربي أن يستفيد من بدر في تصحيح ثنائية زائفة كثيرًا ما تقع فيها النفوس: إما الاعتماد على الله وترك التخطيط، أو التخطيط والاعتماد على القدرات البشرية.

أما النموذج الذي تكشفه بدر فهو الجمع بين بذل الوسع والتوكل على الله.

٤. في بناء الثقة داخل الجماعة

الثقة لا تُبنى بالخطب وحدها، وإنما تتشكل عندما يشعر أفراد الجماعة أن القيادة تسمعهم، وأنها تشاركهم المسؤولية، وأنها لا تحملهم ما لم يتهيؤوا له دون بيان أو تشاور.

ومع ذلك، فإن هذا تطبيق تنظيمي معاصر، وليس من الصواب أن نقول إن النبي ﷺ أسس "نظرية حديثة في إدارة الفرق"؛ فهذا تحميل للحدث أكثر مما يحتمل.

٥. في التعامل مع المخاطر

لا تكفي الشجاعة وحدها لإدارة المخاطر، كما لا يكفي الخوف لحماية الإنسان من الخطر.

والدرس المستنبط من بدر هو أهمية الجمع بين تقدير الواقع، والاستعداد، والاستشارة، ثم الإقدام حين يتبين وجه القرار.

٦. في الخطاب عن القوة

ينبغي أن تُفهم القوة في التصور الإسلامي داخل منظومة أوسع من الإيمان والعدل والمسؤولية، لا باعتبارها قيمة مستقلة.

ومن ثم فإن استدعاء بدر في الخطابات المعاصرة ينبغي أن يكون منضبطًا، بعيدًا عن تمجيد العنف أو إسقاط ظروف المعارك النبوية على النزاعات المعاصرة.

الخلاصة:

كانت بدر أول مواجهة كبرى تختبر المجتمع المسلم بعد الهجرة، ولذلك جاءت كاشفة عن مستوى البناء الذي تحقق خلال السنوات السابقة.

لم يبدأ الحدث بالرغبة في معركة شاملة، وإنما خرج المسلمون في سياق متابعة قافلة قريش، ثم وجدوا أنفسهم أمام جيشها، وعند تحول الموقف ظهرت الشورى، فاستمع النبي ﷺ إلى أصحابه، وتأكد من استعدادهم لتحمل تبعات القرار.

ثم ظهر في الميدان أن قلة العدد لا تعني ترك الأسباب؛ فاختيار الموقع، وتنظيم الصفوف، والاستفادة من الخبرة، والاستعداد للمواجهة، كلها كانت حاضرة.

وفي الوقت نفسه لم تتحول الأسباب إلى مصدر ثقة مستقل، بل بقي القلب متعلقًا بالله، وبرز دعاء النبي ﷺ واستغاثته، ثم جاء البيان القرآني الحاسم: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ * الأنفال: ١٠.

ومن هنا يمكن صياغة الدرس المركزي لبدر على النحو الآتي:

القوة التي تصنعها التربية ليست قوة الجسد وحده، ولا قوة العدد والعدة وحدها، وإنما قدرة الإنسان المؤمن على أن يجمع بين وضوح الغاية، وحسن التدبير، والثبات عند الاختبار، والتوكل على الله.

ولا يعني ذلك أن كل جماعة مؤمنة ستنتصر بالضرورة عسكريًا إذا توافرت لها هذه الصفات؛ فالنصر والهزيمة في التاريخ لا يختزلان في معادلة بشرية بسيطة، وإنما تكشف بدر عن نموذج خاص في السيرة النبوية اجتمعت فيه التربية والإعداد والشورى والأخذ بالأسباب والتأييد الإلهي.

وبذلك تتصل بدر بما قبلها اتصالًا طبيعيًا: فمكة صنعت الإنسان، والهجرة نقلته إلى البيئة الجديدة، والمدينة صنعت المجتمع، وبدر كشفت قدرته على حمل مسؤولية هذا المجتمع والدفاع عن وجوده.

الهوامش والمراجع

1 محمد بن إسحاق، روايته في السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، في خبر بدر؛ وأحمد بن حنبل، المسند، مسند المقداد؛ ومحمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة بدر، وقد وردت ألفاظ متعددة في الروايات، ولذلك أثبتنا هنا المشهور من مجموع الروايات، مع التنبيه إلى اختلاف بعض الألفاظ.

2 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة بدر؛ ومسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، في أخبار بدر؛ وأبو عبد الرحمن النسائي، السنن الكبرى، كتاب السير، باب غزوة بدر، وقد ورد في السنن الكبرى للنسائي أصل استشارة النبي ﷺ للمسلمين في بدر، ثم موقف الأنصار.

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، في المواضع المتعلقة بالهجرة وبناء المجتمع المدني وغزوة بدر.

4صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، الموضع الخاص بغزوة بدر الكبرى.

5منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المبحث المتعلق بالتربية الجهادية وغزوة بدر.

6ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، ج٢، خبر نزول المسلمين ببدر ومشورة الحباب بن المنذر؛ وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج٤، أخبار غزوة بدر.

7أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة/الجهاد، من حديث أنس رضي الله عنه في قصة عمير بن الحمام يوم بدر، وقد ورد نصه في رياض الصالحين مع العزو إلى مسلم: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض"، ثم جواب النبي ﷺ لعمير: "نعم"، وقوله: "فإنك من أهلها."

8الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، المواضع المتعلقة ببدر وبناء الشخصية المؤمنة؛ وهو من المعاني المركزية في منهجه في قراءة السيرة.

9المباركفوري، الرحيق المختوم، فصل غزوة بدر الكبرى، وما أورده في خروج النبي ﷺ، والاستطلاع، ومواقع النزول، وترتيب الجيش.

10الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المباحث المتعلقة بالتربية الجهادية وأثر التربية المكية في مواقف الصحابة.

11أخرجه مسلم والترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في دعاء النبي ﷺ يوم بدر، وأورد الترمذي الرواية بلفظ دعائه ﷺ: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض."

12مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وروايات دعاء النبي ﷺ يوم بدر.

13الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في عرضه لمواقف بدر وصلتها بالتربية الإيمانية والأخذ بالأسباب.

14المباركفوري، الرحيق المختوم، فصل غزوة بدر الكبرى، وما أورده في الاستعداد للمعركة ومقدماتها ونتائجها.

15الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المباحث الخاصة بالتربية الجهادية، وبناء الشخصية المؤمنة القادرة على تحمل التكاليف.

16الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في تحليله للانتقال من المرحلة المكية إلى المجتمع المدني وأحداث بدر.

17المباركفوري، الرحيق المختوم، في ترتيب أحداث الهجرة ثم تأسيس المجتمع المدني ثم الغزوات الأولى.

18الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في بيان أثر التربية السابقة في بناء القدرة على التضحية والطاعة وتحمل المسؤولية.

19ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج٣، المواضع المتعلقة بغزوة بدر وهديه ﷺ في الغزو والتدبير.

20إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج٤، أخبار بدر وما اتصل بها من روايات.

21محمد بن إسحاق، كما رواه ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، أخبار بدر؛ مع مقارنة الروايات بما ثبت في الصحيحين وكتب السنن.

22سورة الأنفال، ولا سيما الآيات ١-١٩، والآيات ٤١-٤٤؛ وهي من أهم النصوص الأصلية في قراءة الحدث؛ فالقرآن يذكر رغبة المسلمين في الطائفة غير ذات الشوكة، ثم يذكر الاستغاثة والإمداد والتثبيت، ويقرر أن النصر من عند الله.

23ابن هشام، السيرة النبوية؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيم، زاد المعاد؛ مع الإفادة من كتب الحديث الصحيحة في تمييز الروايات الثابتة من الأخبار التي تحتاج إلى نقد.

الفصل الثاني عشر: غزوة أحد — التربية في لحظة الانكسار

لم تكن غزوة أُحد مجرد مواجهة عسكرية بين المسلمين وقريش، ولا كانت قيمتها التاريخية محصورة في نتائجها الميدانية؛ وإنما كانت — في سياق السيرة النبوية — مدرسة تربوية عميقة، ظهر فيها أثر الطاعة والمعصية، وأثر الانضباط والاضطراب، وظهر فيها كذلك وجه آخر من وجوه القيادة النبوية: كيف يتعامل القائد والمجتمع مع الخطأ، وكيف يُدار الانكسار دون أن يتحول إلى انهيار؟

وقد جاءت أُحد بعد بدر بوقت قصير، والمسلمون يومئذ يعيشون آثار أول انتصار كبير، بينما كانت قريش تستعد للثأر واستعادة مكانتها؛ فخرجت المواجهة في السنة الثالثة للهجرة، وكان فيها من الأحداث ما جعل القرآن ينزل على المجتمع المسلم لا ليقص عليه خبر المعركة فحسب، وإنما ليعيد بناء وعيه بنفسه، وبأسباب النصر والهزيمة، وبطبيعة الابتلاء، وبأخلاق القيادة والجماعة.

ومن هنا فإن قراءة أُحد لا ينبغي أن تختزل في عبارة: "مخالفة الرماة أدت إلى الهزيمة"، فهذه العبارة — مع صحة أصلها — لا تستوعب الدرس كله؛ فالقرآن نفسه لم يعالج أُحد باعتبارها خطأً عسكريًا منفردًا، وإنما جعل منها مناسبة لإعادة التربية، وتصحيح التصورات، وبيان السنن، ومعالجة الجراح النفسية، وإعادة الجماعة إلى توازنها.

وسيأتي هذا الفصل في أربعة مباحث: يبدأ كل مبحث بالرواية التاريخية، ثم ينتقل إلى القراءة التربوية، ثم إلى الاستنباط المنضبط، مع بيان ما يمكن الإفادة منه في واقعنا المعاصر دون أن ننسب إلى السيرة ما لم تقله.

المبحث الأول: مخالفة الأمر والكارثة

أولاً: الرواية التاريخية — من التفوق الأول إلى اضطراب الميدان

خرجت قريش في السنة الثالثة للهجرة تريد مواجهة المسلمين والثأر لهزيمتها في بدر، وتذكر كتب السيرة أن أبا سفيان قاد جيش المشركين، وكان معه عدد كبير من قريش وحلفائها، حتى بلغوا نحو ثلاثة آلاف، ومعهم النساء اللاتي خرجن لتحفيز الرجال ومنعهم من الفرار.

واستشار النبي ﷺ أصحابه في كيفية مواجهة هذا الخطر، وكان من رأى الخروج من المدينة، فاستجاب النبي ﷺ لذلك، وخرج المسلمون حتى بلغوا أُحدًا، وفي أثناء الطريق رجع عبد الله بن أُبيّ بن سلول بمن معه من المنافقين، وكان عددهم نحو ثلاثمائة، وبقي مع رسول الله ﷺ نحو سبعمائة من أصحابه[1].

وكان اختيار موقع المعركة جزءًا من إدارة الموقف؛ فجعل النبي ﷺ جبل أُحد خلف المسلمين، ورتب الجيش، وجعل على جبل الرماة خمسين من أصحابه، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه.

وقال لهم النبي ﷺ — فيما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه:—

[جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا، عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ، فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ][2].

وفي رواية أخرى قال لهم:

[احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقْتُلُ فَلَا تُشْرِكُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا][3].

كان الأمر إذن واضحًا، وكانت المهمة محددة: البقاء في الموقع مهما تغيرت صورة المعركة.

وفي بداية القتال كان التفوق للمسلمين، واضطرب صف المشركين، وبدأت بشائر النصر تظهر في الميدان؛ فلما رأى بعض الرماة ذلك، ظنوا أن المعركة قد انتهت، ونزل أكثرهم من الجبل، يريدون جمع الغنائم، مع بقاء أميرهم عبد الله بن جبير يذكرهم بأمر رسول الله ﷺ.

روى البراء بن عازب رضي الله عنه:

[فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَظَهَرَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَبْرَحْ هَؤُلَاءِ مَكَانَهُمْ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلَسْتُمْ تَرَوْنَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا: بَلَى، وَلَكِنَّا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ قَضَى اللَّهُ أَمْرَهُ؛

فانْهَزَمُوا، فَذَاكَ حِينَ أُتِيَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِبَلِ ظُهُورِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ كَانَ يَوْمَئِذٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَصَابَ مِنْهُمْ غِرَّةً، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَاقْتَتَلُوا][4].

فانقلبت صورة المعركة، وأصبح المسلمون بين ضغط المشركين من الأمام ومن الخلف، واضطربت الصفوف، ووقع من المسلمين عدد كبير من القتلى والجرحى، وأصيب رسول الله ﷺ، وشُجَّ وجهه الشريف، وكُسرت رباعيته، وسقط في حفرة أصابته منها جراح.

وكان من أشد ما وقع في ذلك اليوم شيوع خبر مقتل رسول الله ﷺ، فزاد ذلك في اضطراب المسلمين، وانكشف أثر الصدمة على الجماعة.

وقد سجل القرآن هذه اللحظة بكل وضوح، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ * آل عمران: ١٥٢.

فالقرآن لم يخفِ الخطأ، ولم يفسر الهزيمة بتفسير غيبي مجرد، ولم يلقها كلها على عدو خارجي؛ بل سمّى أسبابًا داخلية: الفشل، والتنازع، والعصيان.

وهنا تظهر إحدى أهم خصائص التربية القرآنية بعد أُحد: أن الاعتراف بالخطأ لم يكن لإذلال الجماعة، وإنما لإعادة بنائها.

ثانياً: القراءة التربوية — حين يكشف الانكسار ما تخفيه لحظة الانتصار

كان المسلمون قد ذاقوا في بدر معنى النصر، فجاءت أُحد لتعلمهم أن النصر ليس امتيازًا دائمًا، وأن الانتساب إلى الإيمان لا يعفي الجماعة من قوانين الأسباب.

فالآية الكريمة لم تقل إن المسلمين هُزموا لأنهم أقل إيمانًا من قريش، ولم تجعل الهزيمة دليلًا على بطلان الطريق؛ بل شرحت أن الجماعة يمكن أن تكون على الحق، ثم تخطئ في بعض الأسباب فتدفع ثمن الخطأ.

وهذه نقطة بالغة الأهمية في التربية: الحق لا يجعل أصحابه فوق سنن الحياة.

وقد أبرز الشيخ محمد الغزالي في حديثه عن أُحد هذا المعنى؛ فالابتلاء لم يكن خروجًا عن التربية النبوية، بل كان جزءًا منها؛ فالمجتمع الذي انتصر في بدر كان بحاجة إلى أن يتعلم كيف يتعامل مع القوة، وكيف لا تتحول لحظة النصر إلى غفلة[5].

ويؤكد الغضبان في قراءته التربوية للسيرة أن أُحد كشفت حاجة الجماعة إلى التربية على الطاعة والانضباط، وأن التربية لا تُختبر في لحظة الضعف وحدها، بل قد يكون اختبارها الأخطر حين تبدو النتائج في صالح الإنسان[6].

أما المباركفوري فيعرض تسلسل أحداث أُحد بما يظهر أثر المخالفة في تحول سير المعركة، ويجعل من توجيهات النبي ﷺ للرماة ومن ثم مخالفتهم محورًا مهمًا لفهم ما وقع[7].

لكن من المهم هنا ألا نختزل المعركة في "حب الغنيمة" وحده، فالقرآن قال: ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ *، وهي إشارة إلى اختلاف الدوافع في لحظة الاختبار، مع بقاء الصحابة في الجملة أهل فضل وإيمان.

ومن ثم فإن التربية لا تتعامل مع الإنسان بوصفه كتلة واحدة لا تتغير دوافعها، وإنما تربيه على مراقبة نفسه خصوصًا في اللحظات التي تختلط فيها المصلحة الشخصية بالمصلحة العامة.

ثالثاً: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من أُحد — في حدود ما تسمح به الرواية والآية — عددًا من المعاني:

١. الطاعة ليست قيمة نظرية، بل شرط في انتظام العمل الجماعي.

فقد كان الأمر النبوي واضحًا، وكان الخلل في ترك الموقع سببًا مباشرًا في تحول الميدان.

٢. النجاح الجزئي لا يعني اكتمال المهمة.

فقد ظهرت بوادر النصر، لكن المعركة لم تكن قد انتهت، وهذه نتيجة تستفاد من الحدث نفسه، دون الحاجة إلى تحويلها إلى "قانون" مطلق.

٣. الخطأ الداخلي قد يغير نتائج العمل مهما كانت قوة المقصد.

فالقرآن نسب التحول إلى الفشل والتنازع والعصيان، ولم يجعل العامل الخارجي وحده سببًا للنتيجة.

٤. لحظات النصر قد تكون من أشد لحظات الاختبار.

لأن الإنسان يكون فيها أكثر عرضة للغفلة عن الانضباط.

ولا يصح أن نستخرج من أُحد قاعدة تقول إن كل هزيمة سببها عصيان داخلي؛ فهذا تعميم لا يدل عليه النص؛ فقد تقع الابتلاءات والهزائم لأسباب متعددة، وقد يكون الابتلاء نفسه سنة من سنن الحياة.

رابعاً: التطبيق المعاصر

هذا تطبيق معاصر لا وصفٌ للسيرة: يمكن الإفادة من درس أُحد في المؤسسات والمشروعات والجماعات بأن نجاح مرحلة من العمل لا يلغي ضرورة الالتزام بالخطة، وأن وضوح الأدوار لا يكفي إذا لم يصاحبه انضباط في التنفيذ.

كما يمكن للمؤسسات أن تتعلم من الحدث أهمية مراجعة الأخطاء الداخلية بدل تعليق الإخفاق كله على المنافسين والظروف الخارجية.

لكن لا يصح نقل حادثة الرماة إلى كل اختلاف تنظيمي معاصر، ولا وصف كل مخالفة إدارية بأنها "مخالفة لأمر نبوي"؛ فالتطبيق المعاصر اجتهاد، لا جزء من الرواية التاريخية.

المبحث الثاني: القيادة في الأزمة وإعادة التجميع

أولاً: الرواية التاريخية — ثبات القيادة وسط الانهيار

كان أخطر ما في أُحد أن الخطر لم يكن عسكريًا فقط؛ فقد أصيب مركز القيادة نفسه، وشاع بين الناس أن رسول الله ﷺ قد قُتل.

وكان لهذه الشائعة أثر شديد، حتى إن بعض المسلمين ألقى السلاح، وبعضهم همَّ بالرجوع إلى المدينة، بينما ثبت آخرون حول النبي ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ في قلب الميدان، يقاتل ويثبت، ولم يكن موقفه موقف القائد الذي يدير المعركة من بعيد.

ومن الأحاديث التي تصور شدة ذلك اليوم ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه في وصف إصابة النبي ﷺ:

[وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ يَصُبُّ الْمَاءَ، وَبِمَا دُووِيَتْ جِرَاحُهُ. قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَصُبُّ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا حَتَّى صَارَتْ رَمَادًا، فَأَلْصَقَتْهَا بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ][8].

ومع شدة الإصابة، لم يكن النبي ﷺ مستسلمًا للصدمة، بل ظل يجمع أصحابه ويعيد ترتيب الموقف.

وقد أثنى القرآن على الذين استجابوا للرسول بعد أُحد، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ * آل عمران: ١٧٢.

فبعد الجراح والخسائر، لم يكن المطلوب أن يتحول المسلمون إلى جماعة منهارة، بل استجابوا لنداء النبي ﷺ، وخرجوا في أثر أبي سفيان ومن معه في حمراء الأسد.

وكان ذلك في ذاته معالجة للصدمة: لم يُترك المجتمع المسلم ليستسلم نفسيًا لصورة الهزيمة، وإنما أعيد إدخاله في دائرة الفعل.

وقد روى ابن إسحاق وغيره تفاصيل ذلك، وذكروا أن النبي ﷺ نادى في الناس أن يخرجوا، ولم يأذن لمن لم يشهد أُحدًا بالخروج معه[9].

ثانياً: القراءة التربوية — القائد لا يلغي الأزمة ولكنه يمنعها من ابتلاع الجماعة

من أعظم ما يظهر في أُحد أن القيادة النبوية لم تتعامل مع الانكسار بمنطق الإنكار.

لم يقل النبي ﷺ لأصحابه إن شيئًا لم يحدث، ولم يتجاهل الجراح، ولم يمنع القرآن من تسمية الأخطاء، ولكنه في الوقت نفسه لم يسمح بأن يتحول الخطأ إلى انهيار شامل.

وهذا التوازن هو جوهر القيادة في الأزمات:

اعتراف بالواقع، ومحاسبة للخطأ، وإعادة توجيه للطاقات.

ويبرز الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة هذا المعنى حين يقرأ أُحد باعتبارها مرحلة من مراحل التربية الجماعية، لا مجرد خسارة عسكرية؛ فالمجتمع المسلم كان يتعلم من خلال الأحداث نفسها، وكان القرآن يعالج ما وقع أثناء وقوعه ويعيد تشكيل الوعي به[10].

أما الغضبان فيبرز الجانب التربوي في إدارة آثار الأزمة، وأن الجماعة لا تُبنى في لحظات الانتصار فقط، بل تتربى كذلك على كيفية النهوض بعد التعثر[11].

ويفيد ابن القيم في حديثه عن الهدي النبوي أن أُحد كشفت جملة من الحكم المتعلقة بالابتلاء، وتمييز الصفوف، وظهور آثار الطاعة والمعصية، وأن ما يقع للمؤمنين من ابتلاء قد يحمل من الحكم التربوية ما لا يظهر في اللحظة الأولى[12].

واللافت أن القرآن لم يكتف بتقرير الخطأ، بل انتقل مباشرة إلى بناء الثقة:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.

وهذه الآية من أعمق النصوص في فهم القيادة بعد الخطأ؛ فقد جاءت المعالجة التربوية بعد الحدث مباشرة: لين، وعفو، واستغفار، وشورى.

ثالثاً: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذا المسار عدة دلالات:

١. الأزمة لا تُدار بإخفاء الحقيقة

فالقرآن سمّى الفشل والتنازع والعصيان، لكنه لم يجعل من ذلك سببًا لإعدام الثقة بالمجتمع كله.

٢. القيادة وقت الأزمة تحتاج إلى إعادة التجميع

لم تكن المعالجة النبوية مجرد موعظة، بل أعقبها فعل عملي تمثل في الخروج إلى حمراء الأسد.

٣. النقد لا يناقض الرحمة

فالقرآن عاتب وبيّن أسباب الخلل، ثم قال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ .

٤. المشورة تستمر بعد الخطأ

وهذه نقطة مهمة جدًا، فالآية لم تقل: بما أنهم أخطأوا فلا تشاوروهم بعد ذلك، بل قالت: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ .

ومن هنا يمكن القول إن التربية النبوية لا تبني العلاقة على مبدأ أن الخطأ يسقط أهلية الإنسان إلى الأبد.

رابعاً: التطبيق المعاصر

يمكن للمؤسسات والمجتمعات اليوم أن تستفيد من هذا النموذج في إدارة الأزمات: الاعتراف بالمشكلة، تحديد أسبابها، حماية الروح المعنوية، إعادة تنظيم الصفوف، ثم استئناف العمل.

لكن ينبغي الحذر من تحويل كل مدير أو قائد معاصر إلى صورة مطابقة للقيادة النبوية؛ فالنبوة لها خصوصيتها، وما نأخذه هنا هو مبدأ مستنبط من طريقة التعامل مع الأزمة، لا مساواة بين الأشخاص أو الظروف.

المبحث الثالث: معالجة الآثار النفسية وإعادة البناء

أولاً: الرواية التاريخية – العتاب دون تحطيم

كان يوم أُحد ثقيلًا على المسلمين؛ فقد قتل عدد من كبار الصحابة، وفي مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأصيب النبي ﷺ، واستشهد مصعب بن عمير رضي الله عنه، ووقع الاضطراب في صفوف المسلمين.

وكان من الطبيعي أن تترك المعركة أثرًا نفسيًا عميقًا.

ولهذا جاء القرآن يعالج مشاعر الجماعة بصورة مباشرة، فقال:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ * آل عمران: ١٣٩-١٤٠.

ثم جاء تصحيح التصور المتعلق بموت النبي ﷺ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ * آل عمران: ١٤٤.

فلم يسمح القرآن بأن تتحول صدمة مقتل النبي – لو وقع – إلى انهيار في أصل العقيدة.

وفي الوقت نفسه، لم يتحول العتاب إلى إذلال.

بل جاء قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ * آل عمران: ١٥٥.

وجاءت الآية الجامعة:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ..؛ فاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.

وهنا تظهر طريقة القرآن في التعامل مع الخطأ: كشفٌ للخلل، ثم عفو، ثم استغفار، ثم إعادة إشراك في المسؤولية.

ولم يكن النبي ﷺ يكتفي بمعالجة الجماعة ككل، بل كان يولي الأشخاص عناية خاصة في مواضع الألم.

ومن ذلك موقفه مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقد كان من الثابتين معه، وموقفه مع من حوله في ذلك اليوم، وكذلك ما وقع من مواساة أهل الشهداء وتكريمهم.

ومن أعظم صور ذلك قوله ﷺ في الشهداء: لا[لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَطْعَمِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ، لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾][13].

فالمعالجة النفسية في المنهج النبوي لم تكن تجاهلًا للحزن، وإنما كانت إعادة توجيه لمعنى الحزن:

الشهداء لم يضيعوا، والمصاب ليس نهاية الطريق، والابتلاء لا يعني سقوط الرسالة.

ثانياً: القراءة التربوية — لا تُبنى الجماعة بمعاقبة الذاكرة

من الأخطاء المنهجية أن نقرأ أُحد باعتبارها درسًا في "معاقبة المخطئين."

فالسيرة لا تقدم هذا النموذج.

لقد وقع الخطأ، ونزل العتاب، وبيّن القرآن أسبابه، لكن المجتمع لم يُبنَ على الانتقام من المخطئين أو عزلهم نفسيًا.

وهنا تظهر قيمة قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ .

فالصفح لم يكن إلغاء للمسؤولية، والشورى لم تكن مكافأة على الكمال؛ وإنما كان المقصود إعادة بناء الجماعة بعد الخطأ.

وهذا من المعاني التي يبرزها الشيخ محمد الغزالي في قراءته لأحداث السيرة: التربية النبوية لا تتعامل مع الإنسان بوصفه مشروعًا مكتملًا، وإنما تنقله من موقف إلى موقف، وتصنع منه إنسانًا يتعلم من أخطائه ويواصل الطريق[14].

كما أن الغضبان يولي جانب التربية في المحن عناية واضحة؛ فالابتلاء يكشف مواطن الضعف، لكنه في الوقت نفسه يفتح بابًا لإعادة البناء إذا أحسن المربي التعامل معه[15].

أما ابن القيم فيجعل من أحداث أُحد مثالًا على تعدد الحكم في الابتلاء، وأن ما يراه الإنسان خسارة محضة قد يكون وراءه من المصالح الإيمانية والتربوية ما لا يدركه في اللحظة نفسها[16].

ومن جهة أخرى، فإن المباركفوري يعرض أحداث أُحد ضمن تسلسل السيرة، بما يكشف أن الحياة النبوية لم تتوقف بعد الخسارة، ولم يتحول المسلمون إلى جماعة منشغلة بتفسير الماضي على حساب المستقبل[17].

وهذا مهم: المعالجة النفسية ليست أن يبقى المجتمع يتحدث عن الجرح، وإنما أن يتحول الجرح إلى خبرة، ثم تستأنف الحياة.

ثالثاً: الاستنباط المنضبط

من خلال هذه المعالجة يمكن استخلاص عدد من الدلالات:

١. الاعتراف بالخطأ لا يعني إسقاط قيمة المخطئ

فقد عاتب القرآن، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ .

٢. التربية الناجحة تحول الخسارة إلى معرفة

لم يكن المطلوب أن ينسى المسلمون أُحد، وإنما أن يفهموها.

٣. معالجة المشاعر جزء من البناء

فالقرآن عالج الوهن والحزن، وصحح التصورات، وربط المصاب بالآخرة، وأعاد للناس الثقة.

٤. الجماعة لا تستمر إذا تحول الخطأ إلى وصمة دائمة

والدليل الأقوى على ذلك أن القرآن أمر النبي ﷺ بعد أُحد بالعفو والاستغفار والشورى.

وهنا ينبغي التنبيه إلى أن هذا لا يعني إسقاط المحاسبة أو إلغاء المسؤولية؛ فالقرآن بيّن الخطأ بوضوح، وإنما الفرق بين المحاسبة التي تصلح الإنسان والعقوبة النفسية التي تحوله إلى إنسان مكسور أو معزول.

رابعاً: التطبيق المعاصر

في المؤسسات والمشروعات والمجتمعات، يمكن الإفادة من هذا المبدأ في بناء ثقافة تتعامل مع الفشل بوصفه مناسبة للتعلم والمراجعة، لا مناسبة لتدمير الأشخاص.

فإذا وقع خطأ، ينبغي تحديد المسؤوليات، وتصحيح الخلل، وتطوير الإجراءات، مع إبقاء الباب مفتوحًا أمام من أخطأ ليعود ويسهم في الإصلاح.

لكن هذا التطبيق لا يعني التساهل مع كل خطأ، ولا إسقاط المساءلة القانونية أو الإدارية؛ فالصفح في السياق القرآني ليس إلغاءً للمسؤولية، وإنما جزء من إعادة بناء الجماعة.

المبحث الرابع: القانون المستنبط —

الهزيمة مرحلة تربوية إذا أحسن التعامل معها

أولاً: من الهزيمة إلى الفهم

إذا كانت بدر قد علمت المسلمين أن الإيمان لا يمنع النصر حين تستجمع أسبابه، فإن أُحد علمتهم أن الإيمان لا يعفيهم من سنن الأسباب.

وهذا من أعمق وجوه التربية في السيرة.

فالله سبحانه قال:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ * آل عمران: ١٥٢.

ثم قال:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ * آل عمران: ١٤٠.

فالهزيمة هنا لم تُقدَّم باعتبارها نهاية القصة، وإنما باعتبارها حدثًا داخل مسار التربية والابتلاء.

وقد جمع ابن القيم في حديثه عن أُحد جملة من الحكم، منها تمييز المؤمنين، واتخاذ الشهداء، وبيان آثار الطاعة والمعصية، وتعليم الأمة ألا تربط صلاحها بمجرد حصول النصر المادي[18].

ويقرأ الشيخ محمد الغزالي هذا المعنى في سياق أوسع من فقه السيرة، حيث تصبح الأحداث وسيلة لتكوين الإنسان والجماعة، لا مجرد وقائع عسكرية منفصلة[19].

أما الغضبان فيربط بين المحن وبين صناعة الشخصية والجماعة، مبينًا أن التربية التي لا تُختبر عند الأزمات تبقى تربية ناقصة[20].

ثانياً: لماذا لم تكن أُحد نهاية الطريق؟

لو كانت قيمة المشروع تقاس بعدد الانتصارات فقط، لكانت أُحد لحظة انهيار.

لكن الذي حدث أن المجتمع المسلم خرج من أُحد أكثر وعيًا بطبيعة الطريق.

ولم يسمح النبي ﷺ بأن يتحول الحدث إلى حالة من الانكفاء؛ بل جاء التحرك إلى حمراء الأسد مباشرة بعد المعركة، ثم استمرت الدولة والمجتمع والدعوة في طريقها.

كما أن القرآن لم يترك الصحابة في دائرة جلد الذات، بل قال:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .
ثم قال:
﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ .
فالآية لا تنكر الألم، لكنها تمنع تحويل الألم إلى هوية دائمة.
وهذه نقطة جوهرية في التربية: المحنة ينبغي أن تُفهم، لا أن تُعبد، وأن تُستثمر، لا أن تتحول إلى سجن نفسي.
ثالثاً: الاستنباط — ما الذي يجوز أن نسميه "قانونًا"؟
ينبغي هنا قدر من الاحتياط العلمي.
ليس لدينا نص شرعي يقول بعبارة مجردة: "كل هزيمة مرحلة تربوية"، ولذلك فهذه العبارة عنوان استنباطي، وليست نصًا نبويًا ولا قاعدة شرعية مستقلة.
والأدق أن نقول:
تكشف أُحد أن الهزيمة، في سياق الابتلاء، يمكن أن تتحول إلى مرحلة تربوية إذا قوبلت بالمراجعة، وتصحيح الخطأ، وإعادة بناء الوعي، واستئناف العمل.
وهذا أضبط من القول إن كل هزيمة نافعة، أو أن كل فشل يحمل بالضرورة درسًا إيجابيًا.
فقد تكون الهزيمة نتيجة أخطاء، وقد تكون ابتلاءً، وقد تكون نتيجة خلل في التخطيط، وقد تكون لها أسباب متعددة، ولا يجوز لنا أن نفسر كل حادثة معاصرة بالقياس المباشر على أُحد.
لكن الثابت في أُحد أن الهزيمة لم تُترك بلا تفسير؛ بل جاء القرآن ليكشف أسبابها، ويعالج آثارها، ويعيد بناء الجماعة بعدها.
ومن هنا يمكن استخراج تسلسل تربوي واضح:
الحدث ← كشف الخلل ← تصحيح التصور ← معالجة الجرح ← إعادة بناء الثقة ← استئناف العمل.
وهذا التسلسل مستفاد من طريقة معالجة أُحد، وليس نصًا مستقلًا من السنة.
رابعاً: التطبيق المعاصر — من ثقافة الفشل إلى ثقافة التعلم
يمكن الإفادة من هذا المعنى في التربية والمؤسسات والمشروعات الإصلاحية، بحيث لا يكون الفشل سببًا تلقائيًا للانهيار أو لتبادل الاتهامات.

فعند وقوع الإخفاق يمكن أن تمر المعالجة عبر أسئلة من قبيل:

•أين وقع الخلل؟

•هل كان الخلل في القرار أم التنفيذ؟

•هل كانت الأدوار واضحة؟

•هل وقع تنازع في المسؤوليات؟

•هل غلبت مصلحة جزئية على الهدف العام؟

•ما الذي ينبغي تغييره حتى لا يتكرر الخطأ؟

•كيف نحافظ على ثقة الأفراد بالمشروع دون إخفاء الحقيقة؟

وهذه أسئلة معاصرة مستفادة من منطق الحدث، وليست مما وقع في أُحد بهذه الصياغة.

كما أن من الخطأ استخدام أُحد لتبرير الفشل الدائم؛ فليس كل إخفاق دليلًا على أن "المرحلة التربوية لم تكتمل"، ولا كل خسارة ينبغي تحويلها إلى خطاب معنوي لتغطية أخطاء الإدارة.

فالدرس الحقيقي في أُحد ليس تمجيد الهزيمة، وإنما التعلم منها.

الخلاصة:

تكشف غزوة أُحد وجهًا بالغ العمق من التربية النبوية؛ فقد انتقل المجتمع المسلم في هذا اليوم من تجربة النصر في بدر إلى تجربة الانكسار، ليتعلم أن طريق الرسالة لا يقوم على النتائج السارة وحدها، وأن الإيمان لا يلغي سنن الأسباب، وأن الجماعة تحتاج إلى التربية في القوة كما تحتاج إليها في الضعف.

وقد ظهر في أحداث أُحد عدد من المعاني الكبرى:

١. أن الطاعة والانضباط جزء من صناعة القوة، وأن مخالفة التوجيه في لحظة حساسة قد تكون لها آثار تتجاوز حجم الخطأ نفسه.

٢. أن النصر لا يضمن استمرار النجاح؛ فالجماعة مطالبة بمواصلة الانضباط حتى في اللحظة التي تبدو فيها النتائج محسومة.

٣. أن القيادة تظهر حقيقتها في الأزمات؛ فقد كان النبي ﷺ وسط أصعب لحظات المعركة، ثم أعاد جمع أصحابه ومضى بهم إلى مرحلة جديدة.

٤. أن معالجة الخطأ لا تكون بتحطيم المخطئين؛ فقد جمع القرآن بين العتاب والعفو والاستغفار والشورى.

٥. أن الجراح النفسية تحتاج إلى معالجة مثل الجراح المادية، ولذلك خاطب القرآن الوهن والحزن، وصحح تصور الصحابة عن الموت والنصر والهزيمة.
٦. أن الهزيمة يمكن أن تكون مجالًا للتربية إذا قادت إلى مراجعة الأسباب، وتصحيح الأخطاء، وإعادة بناء الوعي، لا إذا تحولت إلى مبرر لليأس أو جلد الذات.
٧. أن استمرار المشروع بعد التعثر أهم من إنكار التعثر؛ فلم تتوقف مسيرة المسلمين بعد أُحد، ولم تتحول الهزيمة إلى نهاية للمشروع.

وهكذا تكمل أُحد ما بدأته بدر في بناء المجتمع المسلم: ففي بدر تعلم المسلمون أن القوة مع الإيمان والأخذ بالأسباب يمكن أن تصنع فارقًا، وفي أُحد تعلموا أن القوة لا تُحفظ إلا بالانضباط، وأن الخطأ لا ينبغي أن يتحول إلى انهيار، وأن الجماعة التي تعرف كيف تتعلم من خسارتها تصبح أقدر على مواصلة الطريق.

ومن هنا يمكن صياغة المبدأ المستنبط من هذا الفصل في عبارة أكثر احترازًا:

المحنة لا تكون بالضرورة هزيمة نهائية؛ وقد تتحول، إذا أُحسن فهم أسبابها ومعالجة آثارها وتصحيح مسارها، إلى مرحلة من مراحل النضج التربوي وبناء الجماعة.

وهذا استنباط من طريقة معالجة أُحد في القرآن والسيرة، وليس قاعدة تاريخية مطلقة، ولا وعدًا بأن كل إخفاق سيؤدي إلى النجاح.

الهوامش والمراجع

1محمد بن إسحاق، السيرة النبوية، رواية ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ)، ج٢، في أخبار غزوة أُحد؛ وينظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: دار هجر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج٤، في أحداث السنة الثالثة للهجرة؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، (الرياض: دار السلام، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، في غزوة أُحد.

2أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وفيه وصف موقف الرماة يوم أُحد.

3أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، في قصة الرماة يوم أُحد.

4أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أُحد، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه؛ وينظر في تفصيل الرواية: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، أخبار غزوة أُحد.

5الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، (القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٠م)، المواضع المتعلقة بغزوة أُحد ودلالاتها التربوية.

6منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، (المنصورة: دار الوفاء، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج١، في التربية من خلال أحداث السيرة ومواقف الابتلاء.

7المباركفوري، الرحيق المختوم، الموضع الخاص بغزوة أُحد، وما أورده من ترتيب أحداث المعركة وموقف الرماة.

8أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه في وصف معالجة جراح النبي ﷺ.

9ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، خبر حمراء الأسد؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، أحداث ما بعد غزوة أُحد؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث ما بعد أُحد.

10الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن غزوة أُحد وما تضمنته من دروس في التربية والقيادة والمراجعة.

11الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في معالجة السيرة لمواقف الابتلاء وآثارها في بناء الجماعة.

12ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج٣، في هدي النبي ﷺ في غزوة أُحد والحكم المستفادة من أحداثها.

13أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ ورواه الترمذي بمعناه، وصححه جماعة من أهل العلم، وينظر تفسير الآية في: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ * آل عمران: ١٦٩.

14الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في تحليله لأحداث أُحد وما حملته من تربية للمجتمع المسلم بعد الابتلاء.

15الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في التربية بالابتلاء وأثر المحن في بناء الشخصية والجماعة.

16ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في الحكم المستفادة من غزوة أُحد، وما ترتب عليها من تمييز الصفوف وتربية الجماعة.

17المباركفوري، الرحيق المختوم، في سياق أحداث أُحد وما أعقبها من حمراء الأسد واستمرار حركة المجتمع المسلم.

18ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في بيان الحكم والغايات التربوية المتعلقة بغزوة أُحد والابتلاء.

19الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في مواضع حديثه عن أُحد وسنن التربية النبوية من خلال الأحداث.

20الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في دلالات الابتلاء والتربية الجهادية وبناء الشخصية المؤمنة.

الفصل الثالث عشر: الخندق — إدارة الأزمة المركبة

لم تكن غزوة الخندق مواجهة عسكرية عابرة في تاريخ المدينة، بل كانت من أشد المراحل التي واجه فيها المجتمع المسلم تهديداً مركباً: تحالفات واسعة جاءت من خارج المدينة، وحصار طال أمده، وضغط نفسي شديد، وتهديد داخلي محتمل، مع شدة في البرد والجوع والخوف، ولهذا سمى القرآن هذا اليوم يوم الأحزاب، وربط بين شدته وبين ما أحدثه من امتحان للقلوب:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ * الأحزاب: ١٠-١١.

وكانت قيمة هذه الغزوة في أن النبي ﷺ واجه الخطر بكل مستوياته في وقت واحد: قرأ التهديد قبل وصوله، وشاور أصحابه، واختار وسيلة دفاعية غير مألوفة عند العرب، وشارك بنفسه في تنفيذها، ونظم المجتمع في أثناء الحصار، وتعامل مع الأخبار المتناقضة والضغوط النفسية، ثم انتهت الأزمة دون أن تقع معركة فاصلة بالمعنى التقليدي الذي عرفته بدر وأحد.

ومن هنا تأتي أهمية الخندق في البناء الذي يقوم عليه هذا الكتاب: كيف تتحول التربية السابقة إلى قدرة على إدارة أزمة مركبة؟ وكيف يجتمع الإيمان والتخطيط، والعمل الجماعي والقيادة، والأخذ بالأسباب والافتقار إلى الله في لحظة واحدة؟

المبحث الأول: قراءة التهديد المركب وإدارة التحالفات

أولاً: الرواية التاريخية — حين اجتمعت الأحزاب

جاءت غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة على قول جمهور أهل السيرة، في شوال منها، وكان من أسبابها تحرك جماعة من بني النضير ومن وافقهم من يهود المدينة بعد إجلائهم، فسعوا إلى تأليب قريش وغطفان وغيرهما على النبي ﷺ والمسلمين، وتفصل روايات ابن إسحاق التي أوردها ابن هشام، ثم نقلها ابن كثير، في قدوم هؤلاء إلى مكة وتحريض قريش على قتال المسلمين، ثم انتقال التحريض إلى قبائل أخرى حتى تكوّن التحالف المعروف بالأحزاب[1].

وهنا تغير شكل الخطر الذي واجهته المدينة؛ فلم تعد المواجهة مع قوة واحدة يمكن تقدير اتجاهها ومسارها، وإنما أصبحت أمام تجمع من قوى متعددة، تختلف مصالحها ومواقعها، لكنها اجتمعت على هدف واحد هو القضاء على الدولة الناشئة في المدينة.

وقد بلغ الأمر أن خرجت قريش ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعها من نجد، وتذكر روايات السيرة أعداداً كبيرة للأحزاب، بينما كان المسلمون في المدينة في نحو ثلاثة آلاف.[2] وليس المقصود من هذه الأرقام أن نجعلها محور القصة، إذ تختلف الروايات في بعض تفاصيلها، وإنما المهم تاريخياً أن المسلمين وجدوا أنفسهم أمام قوة تفوقهم عدداً وتحيط بالمدينة من جهات متعددة.

وكان النبي ﷺ يتابع حركة العدو ويقرأ الأخبار الواردة إليه، فلما بلغه اجتماع الأحزاب لم ينتظر حتى يصلوا إلى أبواب المدينة، بل بادر إلى تنظيم الدفاع.

وتذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ شاور أصحابه في كيفية مواجهة هذا التهديد؛ أيتقدمون إلى خارج المدينة، أم يبقون فيها؟ فأشير عليه بالخندق، وكان ذلك من الأساليب المعروفة لدى الفرس في الدفاع عن المدن[3].

وتذكر رواية ابن هشام هذه القصة بصيغة واضحة في التحفظ، إذ يقول: "يقال: إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم".[4] وهذه العبارة مهمة منهجياً؛ لأنها تفرق بين ما يروى في كتب السيرة وبين ما ثبت بإسناد صحيح؛ فلا يصح أن نعبر عن قصة اقتراح سلمان للخندق بعبارة قطعية من قبيل: "ثبت أن سلمان اقترح الخندق" دون التنبيه إلى صيغة ابن هشام.

ومهما يكن من تفاصيل الرواية، فإن الثابت أن المسلمين حفروا الخندق حول الجهة المكشوفة من المدينة، بينما كانت طبيعة المدينة من جهات أخرى توفر قدراً من الحماية بسبب البنيان والنخيل والحرات[5].

وهكذا لم تكن فكرة الخندق مجرد ابتكار تقني، وإنما جاءت ضمن قراءة لطبيعة المكان وطبيعة التهديد؛ فالمدينة لم تكن ساحة مفتوحة، والعدو لم يكن قوة واحدة، والمسلمون لا يملكون من العدد والعدة ما يمكنهم من مواجهة الأحزاب في أرض مفتوحة مواجهة متكافئة.

ثانياً: النبي ﷺ في قلب العمل

لم يكتف النبي ﷺ بإصدار القرار ثم ترك تنفيذه للناس، بل شاركهم في الحفر ونقل التراب، ويروي البراء بن عازب رضي الله عنه:

[كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ، يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا،

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا،

إِنَّ الْأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا].[6]

وفي رواية أنس رضي الله عنه أن المهاجرين والأنصار كانوا يحفرون وينقلون التراب، وكان النبي ﷺ يدعو لهم، فقال:

[اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ، فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ][7].

وتكشف هذه الصورة عن وجه بالغ الأهمية من القيادة النبوية: فالمشاركة في العمل لم تكن مجرد حركة رمزية؛ فقد كان الحفر عملاً شاقاً في البرد والجوع، حتى إن جابر بن عبد الله رضي الله عنه رأى ما بالنبي ﷺ من شدة الجوع، وكان قد ربط حجراً على بطنه[8].

وهنا يلتقي فعل القيادة بفعل التربية؛ فالنبي ﷺ لم يكن يربي أصحابه بالمواعظ وحدها، بل كان يعيش معهم ظروف الشدة، فيرونه حيث ينبغي أن يكون القائد: في مقدمة العمل، لا في مأمن منه.

ثالثاً: قراءة تربوية — من رد الفعل إلى صناعة الموقف

تظهر في هذه المرحلة عدة معانٍ تربوية مستخرجة من الحدث نفسه.

أولها: أن إدارة الأزمة تبدأ بقراءة الخطر قبل أن يتحول إلى واقع يستحيل التحكم فيه؛ فقد تعامل النبي ﷺ مع أخبار تحرك الأحزاب باعتبارها معطى يحتاج إلى قرار، لا خبراً ينتظر وصوله.

وثانيها: أن الاستفادة من الخبرة البشرية لا تتعارض مع خصوصية الرسالة؛ فاختيار وسيلة دفاعية عرفتها بيئة أخرى يدل، في حدود الواقعة، على أن الوسيلة ليست مقدسة لذاتها، وأن المسلم يستطيع أن ينتفع بخبرة صحيحة نافعة ما دامت لا تصادم أصلاً شرعياً.

وهذا المعنى ينسجم مع القراءة التي يقدمها الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ فهو لا يعرض أحداثها باعتبارها حكايات منفصلة، وإنما ينظر إليها باعتبارها ممارسة نبوية تجمع بين وضوح الغاية وحسن تدبير الوسيلة.[9] كما يبرز الغضبان في قراءته التربوية للسيرة أهمية تحويل الجماعة المؤمنة إلى جماعة قادرة على تحمل أعباء المرحلة، لا جماعة تعيش على الحماس المجرد[10].

وثالثها: أن القيادة في الأزمات لا تعني إلغاء المشاركة والشورى؛ فالقرار صدر في سياق تشاور، ثم تحولت الفكرة إلى عمل جماعي.

ورابعها: أن المشاركة العملية للقائد ترفع قدرة الجماعة على التحمل، وقد تجلت هذه الحقيقة في مشاركة النبي ﷺ أصحابه في الحفر، وفي دعائه لهم، وفي حمله التراب معهم.

رابعاً: الاستنباط المنضبط

يمكن الإفادة من هذه الواقعة في بناء مفهوم عام لإدارة الأزمات: أن الخطر المركب يحتاج إلى تشخيص مبكر، وتقدير للموارد، والاستفادة من الخبرات المتاحة، وتوزيع للأدوار، ثم تحويل القرار إلى عمل جماعي.

لكن هذا استنباط من الواقعة، وليس وصفاً لمصطلح إداري حديث في السيرة؛ فلا يصح القول إن النبي ﷺ استخدم "منهج إدارة الأزمات" بالمفهوم الاصطلاحي المعاصر، وإنما يصح القول إن في تدبيره للخندق عناصر يمكن أن تفيد الدراسات الحديثة في فهم بعض مبادئ إدارة الأزمات.

كما أن الاستفادة من الخبرات الأجنبية لا تعني إسقاط مفهوم "الانفتاح الحضاري" الحديث بكل تفاصيله على حادثة الخندق؛ وإنما الثابت أن المسلمين استفادوا من وسيلة دفاعية لم تكن معهودة في الحرب العربية آنذاك، وأن السيرة سجلت هذا التحول.

المبحث الثاني: الابتكار في مواجهة التحديات

أولاً: الخندق – وسيلة دفاعية غير مألوفة

كان التحدي الأساسي أن الأحزاب تملك القدرة على خوض مواجهة مباشرة تتفوق فيها على المسلمين بالعدد، ولذلك كان تغيير شكل المواجهة جزءاً من تدبير الدفاع.

فالخندق جعل الوصول إلى المدينة أمراً صعباً، وحال بين الفرسان وبين اقتحام الجهة المكشوفة منها، ولم يكن الغرض منه صناعة انتصار عسكري خاطف، وإنما منع العدو من استخدام تفوقه العددي بالطريقة التي يريدها.

وهنا تتضح قيمة الوسيلة في سياقها: لم يطلب النبي ﷺ من أصحابه أن يواجهوا القوة الأعظم في أرض مفتوحة، بل اختاروا موضعاً وظرفاً يقللان من أثر تفوق العدو.

وتذكر روايات السيرة أن الخندق حُفر في الجهة التي كانت المدينة فيها أكثر عرضة للاقتحام، بينما كانت جهات أخرى محمية بالبنيان والنخيل والحرات[11].

ولذلك فإن الحديث عن "الابتكار" هنا ينبغي أن يبقى مرتبطاً بهذه الواقعة المحددة: ابتكار في الوسيلة الدفاعية والاستفادة من خبرة معروفة خارج البيئة العربية، لا إطلاق مفهوم الابتكار على كل تفصيل في الغزوة.

ثانياً: سلمان بين الانتماء والكفاءة

ومن المشاهد اللافتة في رواية ابن هشام أن المسلمين اختلفوا يوم الخندق في نسبة سلمان: فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ:

[سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ][12].

والرواية نفسها أوردها ابن هشام بعد قوله: "يقال إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله ﷺ"، وهي بذلك تجمع بين عنصرين: كفاءة الرجل وخبرته، ثم اندماجه الكامل في الجماعة المسلمة.

ومن الخطأ أن نحمل هذه الرواية أكثر مما تحتمل، فنحولها إلى نظرية حديثة في "إدارة المواهب" أو "التعدد الثقافي". لكن يمكن أن نلاحظ من داخل الحدث أن الانتماء إلى الجماعة لم يكن محصوراً في الاعتبارات القبلية السابقة، وأن سلمان رضي الله عنه صار جزءاً أصيلاً من مجتمع المهاجرين والأنصار.

وهذا المعنى يتصل بالتحول الذي صنعته الهجرة في بناء الجماعة المسلمة؛ فقد كانت المدينة تعيد تشكيل علاقات الانتماء على أساس الإسلام، وتفسح المجال أمام الكفاءة والخبرة للمشاركة في الشأن العام.

ثالثاً: الشدة المادية وبناء المعنويات

لم يكن حفر الخندق عملاً سهلاً، فقد اجتمع فيه البرد والجوع والتعب والخوف، وتروي الأحاديث الصحيحة صوراً واضحة من هذه الشدة.

ومن ذلك ما رواه جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان قد ربط على بطنه حجراً من شدة الجوع، فلما رأى جابر ذلك عاد إلى أهله، وأخبر زوجته، ثم أعدا طعاماً يسيراً للنبي ﷺ[13].

وفي رواية أنس رضي الله عنه:

[خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْخَنْدَقِ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ.

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا].[14]

وفي هذا الموقف تتجلى التربية النبوية للمعنويات دون إنكار الواقع. لم يقل لهم إنهم لا يتعبون، ولم يتجاهل الجوع، بل رأى تعبهم وجوعهم، ثم نقل نظرهم من مشقة اللحظة إلى أفق الآخرة.

وهذا أسلوب تربوي بالغ العمق: لا إنكار للألم، ولا استسلام له؛ وإنما إعطاؤه معنى يتجاوز اللحظة.

رابعاً: الحصار والحرب النفسية

لم يكن الأحزاب يواجهون الخندق فقط، بل واجه المسلمون في الداخل ضغطاً نفسياً بالغاً، وقد وصف القرآن المشهد بقوله تعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ * الأحزاب: ١٠-١١.

وكان الخوف داخلياً وخارجياً؛ فالعدو يحاصر المدينة، والقلوب بلغت الحناجر، وأصبح احتمال اضطراب الجبهة الداخلية جزءاً من الخطر.

وفي هذه الظروف يظهر دور إدارة المعلومات والعلاقات بين الأطراف، وقد كان إسلام نعيم بن مسعود رضي الله عنه من الأحداث التي وقعت في أثناء الحصار، وتذكر المصادر أنه سعى في التفريق بين الأحزاب وبني قريظة.[15] وقد قال له النبي ﷺ: [إِنَّمَا أَنْتَ فَاغْذُبْ عَنْهُمْ مَا اسْتَطَعْتَ]؟

والأصح في الحديث الثابت أن النبي ﷺ قال في سياق الحرب: [الْحَرْبُ خَدْعَةٌ][16].

وهذا النص لا ينبغي أن يفهم على أنه إباحة مطلقة للكذب أو الغدر، بل هو في سياق الحرب وتدبيرها، وقد جاءت الشريعة في الوقت نفسه بالنهي عن الغدر والاعتداء، ولذلك يجب أن تبقى

الخدعة الحربية محكومة بالضوابط الشرعية والأخلاقية، لا أن تتحول إلى قاعدة عامة في التعامل بين الناس.

كما ثبت عن النبي ﷺ قوله:[لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا][17].

وهذا الحديث يضع إطاراً أخلاقياً ونفسياً مهماً: لا صناعة للبطولة الوهمية عبر تمني الصدام، ولا جبن عند وقوعه، وإنما طلب للعافية قبل المواجهة، وصبر وثبات إذا وقعت.

خامساً: القراءة التربوية

يكشف هذا المشهد أن التربية في الأزمات لا تكون بإخفاء الخطر عن الناس، وإنما بمساعدتهم على فهم الخطر والثبات أمامه.

فالمؤمنون في الخندق لم يكونوا غافلين عن حجم التهديد. القرآن نفسه وصف خوفهم واضطرابهم. لكن القرآن لم يجعل مجرد وجود الخوف دليلاً على ضعف الإيمان؛ بل قال بعد وصف الزلزلة: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

وهذا يحرر القراءة التربوية من صورة مثالية غير واقعية للإنسان المؤمن؛ فالمؤمن قد يخاف، لكنه لا يجعل الخوف قائده، وقد تضيق نفسه، لكنه لا يفقد بوصلته.

وهنا تظهر أهمية ما يسميه الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة بتربية الإنسان على مواجهة الواقع لا الهروب منه، كما يبرز الغضبان أثر الابتلاءات المتتابعة في صقل الجماعة المؤمنة وتربيتها على الصبر والطاعة وتحمل التكاليف[18].

أما المباركفوري فيعرض الخندق ضمن السياق المتصاعد للصراع، مبيناً كيف انتقلت المواجهة إلى صورة تحالف واسع، وكيف اتخذ المسلمون موقفاً دفاعياً يتناسب مع طبيعة الخطر[19].

سادساً: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستفيد من هذه المرحلة في تقرير مبدأ عام: حين تتغير طبيعة التهديد، قد تحتاج الجماعة إلى تغيير أدواتها وطرائق استجابتها، مع ثباتها على مقاصدها وأصولها.

وهذا لا يعني أن كل ظرف معاصر يستدعي "خندقاً" بالمعنى الحرفي أو أن كل أزمة يمكن إسقاطها على غزوة الأحزاب، وإنما الدرس المستنبط هو أهمية عدم الجمود على وسيلة واحدة، والتمييز بين ثبات الغاية وتغير الوسيلة.

كما يمكن الإفادة تربوياً من موقف النبي ﷺ في الجمع بين رفع المعنويات ومواجهة الحقائق، فلا يبنى الصمود على الوهم، ولا تبنى الواقعية على اليأس.

المبحث الثالث: القيادة في لحظة الخطر الأكبر

أولاً: الرواية التاريخية – حين بلغت القلوب الحناجر

كانت أيام الخندق من أشد الأيام على المسلمين؛ فقد اجتمع عليهم حصار خارجي، واشتد الخوف الداخلي، وبلغت الأزمة مبلغاً عظيماً حتى وصف القرآن حالهم وصفاً لا يترك مجالاً لتجميل الصورة: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ * الأحزاب: ١٠-١١.

وفي المقابل كان النبي ﷺ يتحرك في قلب الأزمة: يحفر مع أصحابه، ويتابع أخبار العدو، وينظم الدفاع، ويرسل من يتثبت من الأخبار، ويواجه ضغط الحصار بالدعاء والعمل.

وقد كان من دعائه ﷺ على الأحزاب:

[اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ][20].

وفي هذا الدعاء تظهر حقيقة القيادة النبوية في لحظة الخطر: العمل البشري لم يكن بديلاً عن اللجوء إلى الله، واللجوء إلى الله لم يكن بديلاً عن العمل.

ثانياً: ثبات القائد لا يعني غياب المشقة

من المهم ألا نقرأ ثبات النبي ﷺ بمعنى أنه كان يعيش خارج دائرة التعب البشري؛ فالأحاديث التي تصف حفر الخندق والجوع والتعب تنقض هذه الصورة؛ لقد كان ﷺ واحداً من أفراد الجماعة في تحمل المشقة.

وفي الوقت نفسه كان وجوده بينهم مصدراً من مصادر الطمأنينة؛ فالقيادة في لحظات الخطر لا تتطلب أن يظهر القائد وكأنه لا يتأثر بشيء، وإنما أن يبقى قادراً على توجيه الجماعة رغم شدة التأثر الإنساني بالحدث.

وهذا من أعمق المشاهد التربوية في الخندق: القيادة ليست إلغاءً للمشاعر، وإنما القدرة على عدم السماح للمشاعر بأن تعطل المسؤولية.

ثالثاً: متابعة الأخبار والتثبت

في الأزمات المركبة لا تكون المشكلة دائماً في الحدث نفسه، وإنما في المعلومات المتداولة حول الحدث.

ولهذا كانت متابعة أخبار الأحزاب وبني قريظة جزءاً من تدبير الموقف، وقد أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في ليلة شديدة إلى معسكر الأحزاب ليستطلع خبرهم، وهي القصة المشهورة في الصحيح.

وفيها يقول حذيفة رضي الله عنه:[كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ...][21].

والحديث أطول من ذلك، وهو أصل في باب معرفة الفتن والحذر منها، وليس حديثاً خاصاً بالخندق وحدها؛ لكن رواية حذيفة في الخندق تقدم نموذجاً عملياً لاختبار الخبر في لحظة حرجة.

وهنا ينبغي الحذر من إسقاط مصطلحات معاصرة مثل "الاستخبارات" أو "إدارة المعلومات" على الواقعة باعتبارها أسماءً نبوية؛ فهذا ليس من ألفاظ السيرة، وإنما يمكن القول إن في إرسال حذيفة للتحقق من حال القوم مثالاً تاريخياً على أهمية جمع المعلومات الموثوقة في إدارة موقف شديد الخطورة.

رابعاً: انقسام الأحزاب وسقوط الحصار

استمر الحصار حتى بدأت عوامل التفكك تظهر في معسكر الأحزاب، ثم أرسل الله تعالى الريح والجنود التي ذكرها القرآن:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ * الأحزاب: ٩.

وثبت عن النبي ﷺ قوله:

[نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ][22].

كما ثبت عنه ﷺ بعد انصراف الأحزاب:

[لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ][23].

وهذا النص الأخير مهم في فهم النتيجة؛ فمع أن المسلمين حفروا الخندق، وحرسوا المدينة، وتحملوا الحصار، واتخذوا الأسباب، فإن النبي ﷺ نسب النصر في النهاية إلى الله وحده.

وهنا لا يجوز أن نفصل بين السببين: الأخذ بالأسباب من فعل العبودية، ونسبة النصر إلى الله من حقيقة التوحيد.

خامساً: الريح والنصر الإلهي — لا إلغاء للأسباب

من أكثر الأخطاء شيوعاً في قراءة الخندق أن يُتصور أن المسلمين انتصروا بسبب الريح فقط، وكأن التخطيط والحفر والحراسة والتحمل كانت أموراً ثانوية.

والقرآن نفسه لا يسمح بهذه القراءة؛ فقد ذكر أولاً مجيء الجنود، ثم ذكر الريح، ثم وصف شدة الاختبار، ثم قال: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ * الأحزاب: ٢٥.

لقد فعل المسلمون ما يستطيعون: شاوروا، واختاروا موقع الدفاع، وحفروا الخندق، وحرسوه، وتحملوا الجوع والبرد، وتابعوا أخبار العدو، وحافظوا على تماسك الجبهة. ثم جاء الفرج من حيث لا يملكون.

وهذا من أدق مواضع التربية في القصة: السبب لا ينافس التوكل، والتوكل لا يلغي السبب.

سادساً: القراءة التربوية — إدارة الخوف قبل إدارة المعركة

إذا كانت غزوة بدر قد أظهرت كيف تُبنى الثقة في لحظة المواجهة، وأحد كيف يتعامل المجتمع مع آثار الخطأ والهزيمة، فإن الخندق يكشف جانباً آخر: كيف تُدار الجماعة وهي تحت ضغط طويل لا تعرف متى ينتهي؟

وهذا النوع من الأزمات أشد من الصدمة القصيرة أحياناً؛ لأن الحصار الطويل يستنزف الأعصاب، ويولد الإشاعات، ويضخم المخاوف، ويختبر قدرة الجماعة على المحافظة على تماسكها.

ولذلك كان القرآن شديد العناية بتثبيت المؤمنين، لا بإنكار خوفهم، وحين قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ *، جعل الأزمة اختباراً يكشف ما في النفوس ويعيد بناءها.

وهنا تتضح قيمة التربية التي سبقت الخندق؛ فالذين وقفوا عند الخندق لم يكونوا جماعة تشكلت في يوم واحد؛ كانوا ثمرة سنوات من بناء الإيمان والصبر والتضحية، وهذا ينسجم مع القراءة العامة التي يقدمها الشيخ محمد الغزالي للسيرة، ومع التأكيد التربوي عند الغضبان على أن مراحل الابتلاء السابقة كانت تعد الجماعة لتحمل أعباء أكبر[24].

أما المباركفوري فيضع الخندق ضمن سياق الصراع المتصاعد، ويرى فيه مرحلة مهمة في انتقال المسلمين من موقع الدفاع عن وجودهم إلى القدرة على استيعاب أعنف التحالفات التي واجهتهم[25].

سابعاً: الاستنباط المنضبط — من قيادة الأزمة إلى بناء المناعة

يمكن أن نستخلص من وقائع الخندق مبدأ تربوياً عاماً: أن قوة الجماعة في الأزمات لا تُبنى أثناء الأزمة وحدها، بل تُبنى قبلها.

فالخندق لم يصنع الإيمان من الصفر، ولم يصنع روح التضحية فجأة؛ وإنما كشف عن أثر تربية سابقة، ثم عمقها.

ويمكن الإفادة كذلك من التجربة في التأكيد على أن القيادة في الأزمات المركبة تحتاج إلى الجمع بين أربعة أمور ظهرت في الوقائع:

١. وضوح الخطر وعدم إنكاره.
٢. التخطيط العملي واختيار الوسائل المناسبة.
٣. تماسك الجماعة ومشاركة أفرادها في تحمل التكلفة.
٤. الاستناد إلى الله وعدم تحويل الأسباب إلى آلهة نفسية يستمد منها الإنسان يقينه.

لكن هذه صياغة استنباطية معاصرة، وليست مصطلحات وردت في السيرة بهذه الصورة، ولذلك ينبغي ألا ننسب إلى النبي ﷺ أنه وضع "نظرية متكاملة لإدارة الأزمات"، وإنما نقول إن ممارسته في الخندق تتيح للباحث أن يستخرج منها مبادئ نافعة في هذا المجال.

ثامناً: الضابط المنهجي — ما الذي تثبته الخندق وما الذي نستنبطه منها؟

تحتاج غزوة الخندق إلى قدر خاص من الانضباط؛ لأن كتب السيرة حفظت لنا تفاصيل كثيرة، لكن درجات ثبوتها ليست واحدة.

فما جاء في القرآن الكريم عن الأحزاب، وما ثبت في الصحيحين من أحاديث الحفر والجوع والدعاء والريح وغيرها، هو الأساس الأقوى في بناء الرواية.

أما تفاصيل التحالفات وأسبابها وأسماء المحرضين وأعداد الجيوش وبعض جزئيات الحصار، فمصادرها الأساسية كتب المغازي والسيرة، وفي مقدمتها روايات ابن إسحاق التي نقلها ابن هشام، ثم ما جمعه ابن كثير وغيره، مع ضرورة مراعاة تفاوت الروايات في الثبوت[26].

ومن ذلك قصة سلمان رضي الله عنه واقتراح الخندق؛ فقد أوردها ابن هشام بصيغة "يقال"، ولذلك ينبغي ألا تكتب في البحث بصيغة الجزم. أما كون المسلمين حفروا الخندق، فهو ثابت تاريخياً في الجملة، وجاءت به الأحاديث الصحيحة[27].

وكذلك لا ينبغي أن ننسب إلى السيرة مصطلحات حديثة مثل "إدارة الأزمة المركبة" أو "إدارة الموارد" أو "الحرب النفسية" باعتبارها أوصافاً نبوية. هذه أدوات تحليلية يستخدمها قارئ السنة النبوية المعاصر لفهم الحدث، وهي مشروعة ما دامت معلنة بوصفها قراءة تحليلية لا نقلاً تاريخياً.

وهذا التفريق ليس شكلياً؛ بل هو جزء من الأمانة العلمية؛ فالسيرة ليست مادة لإثبات كل نظرية نريدها، وإنما هي مادة تاريخية وتربوية عظيمة، نستخرج منها بقدر ما يدل عليه النص والحدث.

تاسعاً: التطبيقات المعاصرة — الإفادة دون إسقاط

لا تعني دراسة الخندق أن كل أزمة معاصرة هي "خندق جديد"، ولا أن على الجماعات والمؤسسات أن تبحث عن نظائر حرفية للحدث، وإنما يمكن الإفادة من بعض المبادئ العامة التي تكشف عنها الواقعة.

في إدارة الأزمات:

ابدأ بتشخيص الخطر كما هو، لا كما تتمنى أن يكون؛ فالتهديد الذي يزداد تعقيداً يحتاج إلى قراءة متعددة الجوانب، لا إلى رد فعل واحد.

في التخطيط:

لا تجعل التوكل بديلاً عن التخطيط؛ فالسيرة تقدم في الخندق مثالاً واضحاً على اجتماع الدعاء مع الحفر، والرجاء مع العمل، والثقة بالله مع تقدير الإمكانات.

في القيادة:

وجود القائد مع الناس في لحظة المشقة يصنع معنى للثقة لا تصنعه الخطب وحدها، والمشاركة في تحمل التكلفة تمنح التوجيه القيادي مصداقية عملية.

في الاستفادة من الخبرات:

يمكن للمؤسسات أن تستفيد من خبرات وتجارب خارج بيئتها إذا كانت نافعة ومشروعة، مع عدم تحويل قصة سلمان رضي الله عنه إلى قاعدة تاريخية أوسع مما تسمح به الرواية.

في إدارة الخوف:

لا ينبغي أن يكون الخطاب القيادي قائماً على إنكار المخاطر أو السخرية من خوف الناس. الأفضل أن يعترف بحقيقة الخطر، ثم يساعد الناس على التعامل معه بثبات ومعنى.

في المعلومات:

في الأزمات، ينبغي التثبت من الأخبار قبل بناء القرارات عليها، وهذا استنباط من طبيعة الموقف الذي واجهه النبي ﷺ، وليس نقلاً لمصطلح حديث عن السيرة.

في العمل الجماعي:

الأزمات تكشف قيمة البناء السابق؛ فالجماعة التي لم تتربَّ في أوقات السعة على الثقة والانضباط وتحمل المسؤولية يصعب أن تصنع ذلك كله في ساعة الخطر.

في التوكل:

لا تُعبد الأسباب في النفس؛ فالخندق حُفر، والحراسة أقيمت، والخطط اتخذت، ثم كان النصر بالله، وهذه الموازنة من أهم المعاني الإيمانية التي يمكن أن يستفيد منها المسلم في حياته ومشروعاته.

الخلاصة:

كانت غزوة الخندق امتحاناً مركباً للمجتمع المسلم؛ اجتمع فيه الخطر العسكري، والحصار، والجوع، والخوف، والضغط النفسي، واحتمال اضطراب الجبهة الداخلية.

وفي مواجهة ذلك، ظهرت مجموعة من الوقائع الثابتة: الشورى، وحفر الخندق، ومشاركة النبي ﷺ أصحابه في العمل، وتحمل الجوع والتعب، ومتابعة أخبار العدو، والدعاء، والثبات، ثم مجيء النصر بعد انصراف الأحزاب.

ولم يكن الخندق مجرد وسيلة دفاعية، بل أصبح في مسار السيرة مثالاً على قدرة الجماعة التي سبقتها تربية طويلة على تحويل الإيمان إلى سلوك عملي في لحظة الخطر.

ويمكن، من خلال قراءة الحدث، أن نستنبط عدداً من المبادئ:

- أن الأزمة المركبة تحتاج إلى قراءة مركبة، لا إلى معالجة جزئية.
- أن ثبات الغاية لا يمنع تجدد الوسائل.
- أن الشورى والاستفادة من الخبرة يمكن أن تكونا جزءاً من صناعة القرار.
- أن القيادة العملية تظهر قيمتها حين يتحمل القائد مع جماعته تكلفة القرار.
- أن المعنويات لا تبنى بإنكار الألم، وإنما بإعطائه معنى صحيحاً.
- أن الأسباب والتوكل متلازمان؛ فلا يترك المسلم الأسباب بحجة التوكل، ولا يعتمد على الأسباب وينسى مسببها.
- أن الأزمات تكشف أثر التربية السابقة؛ فما بُني في سنوات السلم يظهر أثره عند اشتداد الخطر.
- وأن النصر في التصور الإسلامي ليس ثمرة القوة البشرية وحدها، بل هو من عند الله بعد بذل الوسع واتخاذ الأسباب.

ومن هنا يمكن أن نرى الخندق حلقة متقدمة في البناء الذي يتابعه هذا الكتاب: لقد انتقل المسلمون من مرحلة بناء الإنسان، إلى بناء المجتمع، ثم إلى القدرة على حماية هذا المجتمع وإدارة أخطر الأزمات التي تعرضت لها الدولة الناشئة.

وهذا هو المعنى الذي يجعل الخندق محطة تربوية فارقة: لم تكن الجماعة تختبر قدرتها على القتال فحسب، بل كانت تختبر قدرتها على البقاء متماسكة حين تصبح كل الظروف المحيطة بها داعية إلى الانهيار.

الهوامش والمراجع

1عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: دار المعرفة، باب غزوة الخندق؛ وإسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر، ج٤، أخبار غزوة الخندق، وتذكر روايات السيرة خروج نفر من بني النضير ومن وافقهم إلى قريش وتحريضهم على قتال رسول الله ﷺ.

2ابن هشام، السيرة النبوية، باب غزوة الخندق؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، غزوة الخندق، وتختلف بعض الروايات في أعداد الأحزاب، ولذلك لا ينبغي جعل الرقم التفصيلي محوراً للتحليل.

3ابن هشام، السيرة النبوية، باب غزوة الخندق؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، وأصل المشاورة وتدبير الدفاع مذكور في سياق روايات غزوة الخندق.

4ابن هشام، السيرة النبوية، باب: "سلمان وإشارته بحفر الخندق"، وقد أورد ابن هشام العبارة بصيغة: "يقال: إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وهو ما يقتضي التحفظ في صياغة نسبة الاقتراح إليه على سبيل الجزم.

5ابن هشام، السيرة النبوية، غزوة الخندق؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، غزوة الخندق، في وصف موضع الخندق واستعمال ابن أم مكتوم على المدينة.

6صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في حفر الخندق، وينظر أيضاً: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق.

7صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث أنس رضي الله عنه، وجاء فيه دعاء النبي ﷺ: "اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة".

8صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، في شدة الجوع أثناء حفر الخندق.

9الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، في حديثه عن أحداث السيرة ومنهج النبي ﷺ في الجمع بين المقصد الشرعي وحسن التدبير والأخذ بالأسباب.

10منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية: التربية الجهادية، مكتبة المنار، في مباحث التربية على الصبر وتحمل التكاليف وبناء الجماعة المؤمنة.

11ابن هشام، السيرة النبوية، غزوة الخندق؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، الموضع نفسه.

12ابن هشام، السيرة النبوية، باب "سلمان وإشارته بحفر الخندق"، وقد أورد ابن هشام الخبر عن بعض أهل العلم بلفظ: "سلمان منا أهل البيت"، ولذلك يثبت هنا باعتباره من أخبار السيرة مع مراعاة درجته الحديثية.

13صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث جابر رضي الله عنه في شدة الجوع وما أعده لأهل الخندق وللنبي ﷺ.

14صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وحديث أنس رضي الله عنه في حفر الخندق ودعاء النبي ﷺ للأنصار والمهاجرين.

15ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، غزوة الخندق؛ وابن هشام، السيرة النبوية، غزوة الخندق، في خبر نعيم بن مسعود رضي الله عنه وما وقع من التفريق بين الأحزاب.

16صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، حديث جابر رضي الله عنه: "الحرب خدعة."

17صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كراهية تمني لقاء العدو؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، ولفظه: "لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا."

18الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في قراءته لأحداث السيرة باعتبارها مدرسة في بناء الشخصية ومواجهة الابتلاء؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية: التربية الجهادية، في مباحث أثر الابتلاء في بناء الجماعة المؤمنة.

19صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، الرياض: دار السلام، في أحداث السنة الخامسة من الهجرة وغزوة الخندق.

20صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، وفيه دعاء النبي ﷺ: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم."

21صحيح البخاري، كتاب الفتن، حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في سؤاله النبي ﷺ عن الشر خشية أن يدركه، ويستفاد من سياق السيرة في الخندق من روايات الصحيح وغيرها إرسال حذيفة لاستطلاع خبر الأحزاب، مع عدم الخلط بين أصل الحديث العام وبين تفاصيل مهمة الاستطلاع.

22صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور."

23صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده."

24الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ والغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية: التربية الجهادية، في تحليل أثر التربية السابقة والابتلاء في تكوين الجماعة المؤمنة.

25المباركفوري، الرحيق المختوم، أحداث السنة الخامسة من الهجرة وغزوة الأحزاب.

26ابن هشام، السيرة النبوية، غزوة الخندق؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، غزوة الخندق؛ وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، في هديه ﷺ في المغازي والسرايا.

27صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، وفيه أحاديث مشاركة النبي ﷺ في الحفر ونقل التراب؛ وابن هشام، السيرة النبوية، في خبر سلمان، مع مراعاة صيغة ابن هشام التحفظية في نسبة اقتراح الخندق إليه.

الفصل الخامس عشر: صناعة القيادات والأسرة في المدينة

لم يكن بناء المجتمع المدني مشروعاً يقوم على المؤسسات وحدها؛ فالمؤسسات تحتاج إلى رجال يحملون مسؤوليتها، والرجال لا يُصنعون في لحظة التكليف، وإنما تتكون شخصياتهم عبر التربية، والممارسة، والخطأ والتصحيح، والثقة والتفويض.

ولهذا فإن السيرة المدنية تكشف جانباً بالغ الأهمية من المشروع النبوي: صناعة الإنسان القادر على حمل المسؤولية؛ فقد كان النبي ﷺ قائداً ومربياً، يعلم أصحابه، ويختبر قدراتهم، ويوليهم المسؤوليات، ويعالج أخطاءهم، ويترك لهم مجالاً للتجربة والتعلم.

وفي الوقت نفسه لم تكن الأسرة هامشاً في هذا البناء؛ فقد كان بيت النبي ﷺ نفسه جزءاً من الحياة التي تتجسد فيها قيم الرحمة، والمودة، والتعليم، والصبر، وحسن المعاشرة، وكان للنساء في هذا المشروع حضور علمي واجتماعي وتربوي واضح، من خديجة رضي الله عنها في المرحلة المكية، إلى عائشة وأم سلمة وغيرهما في المرحلة المدنية.

ومن هنا يتناول هذا الفصل جانبين متكاملين: كيف صنعت التربية النبوية رجالاً ونساءً قادرين على حمل الرسالة، وكيف كان البيت نفسه حاضنة لهذا البناء؟

المبحث الأول: النبي ﷺ مربيًا وقائدًا

أولاً: الرواية التاريخية – القيادة التي تصنع ولا تستأثر

تكشف السيرة النبوية أن النبي ﷺ لم يكن يحتكر الأعمال والمسؤوليات، وإنما كان يوزعها بحسب القدرة والحاجة، ويمنح أصحابه فرصاً حقيقية لتحمل المسؤولية.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، حين قال له النبي ﷺ:

[إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ][1].

فهذا التكليف لم يكن مجرد إرسال رجل لأداء مهمة، بل كان توجيهاً تربوياً قبل تحمل المسؤولية؛ إذ أعطاه النبي ﷺ ترتيباً للأولويات، وفهماً لطبيعة المجتمع الذي سيذهب إليه، ومنهجاً في التعامل معه.

وفي موقف آخر، لما بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن، قال لهما:

[يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا][2].

إنها كلمات قليلة، لكنها ترسم إطاراً أخلاقياً لإدارة الناس: التيسير بدل التعسير، والبشارة بدل التنفير، والتعاون بدل التنازع.

ولم يكن التفويض النبوي إسناداً للمسؤولية دون متابعة؛ فقد كان النبي ﷺ يصحح الأخطاء ويعيد توجيه أصحابه.

ومن أشهر الأمثلة قصة معاذ رضي الله عنه حين أطال الصلاة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال له:

[أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟]

ثم قال:

[إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَذَا الْحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ][3].

وهنا لا نجد إلغاءً لمعاذ بسبب خطئه، ولا تركاً للخطأ بلا تصحيح؛ وإنما تصحيح للسلوك مع إبقاء الشخص داخل دائرة المسؤولية.

وهذه السمة تتكرر في السيرة: يخطئ الصحابي، فيُعلَّم، ويُوجَّه، وقد يُعاتب، ثم يستمر في أداء دوره.

ثانياً: القراءة التربوية – التفويض بوصفه صناعة للقدرة

من خلال هذه الوقائع يمكن ملاحظة أن التربية النبوية لم تكن تربية تلقينية تضع الفرد في موقع المتلقي الدائم.

فمعاذ يتلقى التوجيه ثم يذهب إلى مجتمع جديد، وأبو موسى ومعاذ يُبعثان معاً ويتلقيان توجيهاً في طريقة التعامل، والصحابي الذي يخطئ في التطبيق يُصحح له خطؤه.

وهذا يكشف عن تلازم بين التربية والمسؤولية.

فالإنسان لا يتعلم تحمل المسؤولية بمجرد الحديث عنها، وإنما يحتاج إلى أن يمارسها في واقع حقيقي، ثم يتلقى التوجيه والتقويم.

وهذا المعنى ينسجم مع القراءة التربوية عند الشيخ محمد الغزالي؛ إذ ينظر إلى السيرة باعتبارها مدرسة عملية لتكوين الشخصيات، لا مجرد مجموعة من المواعظ المجردة. كما يؤكد الغضبان في قراءته التربوية للسيرة أن التربية النبوية كانت مرتبطة بإعداد الرجال لتحمل أعباء الدعوة والمجتمع، ويعرض المباركفوري الوقائع التي تولى فيها الصحابة مهام مختلفة، بما يكشف عن اتساع دائرة المسؤولية في المجتمع النبوي.[4][5][6]

لكن ينبغي ألا نذهب أبعد من ذلك فنحول كل تكليف صحابي إلى "منهج إداري" بالمصطلح الحديث؛ فالواقعة تثبت التفويض والتكليف والتعليم والتصحيح في سياقها، أما صياغتها في نظريات القيادة الحديثة فهي عمل تحليلي لاحق.

ثالثاً: اكتشاف المواهب وتنوع القدرات

لم يكن أصحاب النبي ﷺ نسخة واحدة من الشخصيات.

ففيهم العالم، والقائد العسكري، والقارئ، والتاجر، والداعية، والقاضي، والكاتب، وصاحب الخبرة الاجتماعية والسياسية.

وكان النبي ﷺ يستفيد من خصائص أصحابه.

فمعاذ بن جبل عُرف بالفقه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه تولى الكتابة وتعلم لغات يحتاج إليها المسلمون في تعاملاتهم، وخالد بن الوليد ظهر تميزه العسكري، وأبو عبيدة بن الجراح عُرف بالأمانة.

وهذا التنوع لم يكن عيباً في البناء، وإنما كان من عناصر قوته.

وقد جاء في الحديث: [أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ][7].

والحديث – مع الكلام المعروف عند أهل الحديث في بعض طرقه وألفاظه – يقدم مثالاً واضحاً على إبراز الخصائص المختلفة للصحابة، لا جعل الفضيلة محصورة في نمط واحد من المواهب.

رابعاً: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذه الوقائع أن التربية القيادية الناجحة تجمع بين:

١. إعداد الشخص قبل تكليفه.

٢. منحه مسؤولية حقيقية تناسب قدرته.

٣. إعطائه توجيهات واضحة قبل العمل.

٤. متابعة النتائج وتصحيح الأخطاء.

٥. إتاحة مساحة للتجربة والنمو.

٦. الاعتراف بتنوع القدرات داخل الجماعة.

وهذه معانٍ يمكن الإفادة منها اليوم في التربية والتعليم والعمل المؤسسي، لكنها استنباطات تربوية وليست أوصافاً صريحة قدمتها السيرة بمصطلحات الإدارة الحديثة.

المبحث الثاني: الأسرة النبوية نموذجاً

أولاً: الرواية التاريخية – البيت الذي كانت فيه التربية حياة

إذا كانت السيرة تقدم النبي ﷺ قائداً ومربياً في المجتمع، فإنها تقدمه داخل بيته زوجاً وأباً، وتكشف في هذا الجانب عن منظومة من الرحمة والرفق وحسن العشرة.

ومن جوامع وصاياه قوله ﷺ:

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي][8].

وهذا النص لا يأتي في سياق حديث نظري عن الأسرة، وإنما يقدم معياراً أخلاقياً بالغ الدلالة: خير الإنسان لا يقاس فقط بعلاقته بالناس خارج البيت، بل يظهر كذلك في معاملته لأهله.

وكان ﷺ يشارك أهله في شؤون البيت.

تقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن عمل النبي ﷺ في بيته:

[كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ][9].

وهذا المشهد الصغير في ظاهره بالغ الأهمية في بناء الصورة النبوية؛ فالقائد الذي تحمل مسؤوليات الأمة لم يكن يرى خدمة أهله انتقاصاً من مقامه.

وفي علاقته بأهل بيته كان يظهر الرفق والملاطفة.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها:

[كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ][10].

وكان ﷺ يداعب أهله ويعاملهم بما يناسب أحوالهم، ولم تكن حياته الأسرية منفصلة عن إنسانيته.

وفي علاقته ببناته وأحفاده تظهر الرحمة بصورة أوضح.

فحين رأى الحسن بن علي رضي الله عنهما قال:

[مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ].

وحين قبّل النبي ﷺ الحسن بن علي، وكان عنده الأقرع بن حابس، قال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فقال النبي ﷺ:

[مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ][11].

وهكذا لم تكن الرحمة في البيت النبوي معنى تجميلياً، وإنما كانت جزءاً من التربية.

ثانياً: خديجة – سند البدايات

لا يمكن الحديث عن الأسرة في المشروع النبوي دون الوقوف عند خديجة رضي الله عنها.
ففي اللحظة الأولى من نزول الوحي، حين عاد النبي ﷺ من غار حراء مضطرباً يقول:
[زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي]،
كانت خديجة رضي الله عنها حاضرة بالاحتواء والتثبيت، وقالت له:
[كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ][12].
ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل.
وهذا المشهد سبق أن ظهر في القسم المكي، لكنه هنا يستحق أن يُستعاد من زاوية أخرى: البيت يمكن أن يكون موضع تثبيت في لحظة التحول الكبرى.
فخديجة لم تكن مجرد زوجة للنبي ﷺ في السيرة، وإنما كانت شريكة في تحمل أثقال المرحلة الأولى، بمالها وموقفها ومساندتها وثباتها.
ولذلك قال النبي ﷺ في فضلها:
[خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ][13].
ثالثاً: عائشة — البيت الذي صار مدرسة للعلم
أما عائشة رضي الله عنها فتمثل وجهاً آخر من أوجه الحضور النسائي في البناء النبوي.
فقد كانت من أكثر الصحابة رواية للحديث، وأصبحت بعد وفاة النبي ﷺ مرجعاً في العلم والفقه والسيرة والحياة الخاصة للنبي ﷺ.
وتظهر قيمة هذا الدور في أن جانباً كبيراً من تفاصيل الحياة النبوية لم يصل إلى الأمة من خلال المجال العام وحده، وإنما وصل كذلك عبر البيت النبوي نفسه.
وهذا يبين أن البيت لم يكن مكاناً منعزلاً عن صناعة المعرفة، بل كان أحد مصادرها.
ولذلك فإن دراسة عائشة رضي الله عنها لا ينبغي أن تحصرها في كونها زوجة للنبي ﷺ، بل ينبغي أن تُدرس كذلك بوصفها صحابية عالمة وراوية ومرجعاً.
رابعاً: أم سلمة — الرأي في اللحظة الحرجة
ومن النماذج المهمة أم سلمة رضي الله عنها.
ففي صلح الحديبية، لما أمر النبي ﷺ أصحابه أن ينحروا ويحلقوا بعد إبرام الصلح، ثقل عليهم الأمر من شدة ما أصابهم من الحزن، فلم يبادروا إلى التنفيذ.

فلما دخل النبي ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، ذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت عليه أن يخرج فلا يكلم أحداً حتى ينحر بدنه ويدعو حالقه، ففعل النبي ﷺ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وحلق بعضهم لبعض[14].

وهذه الرواية لا تحتاج إلى تحميلها أكثر مما تحتمل؛ فهي واقعة واضحة في أن أم سلمة رضي الله عنها أبدت رأياً في ظرف بالغ الحساسية، فكان في رأيها ما أسهم في تجاوز الموقف.

ومن هنا تظهر أهمية حضور المرأة في دوائر التفكير والمشورة داخل الأسرة والمجتمع، لكن دون تحويل الواقعة إلى صياغة حديثة لم ترد في السيرة.

خامساً: القراءة التربوية — البيت ليس هامشاً

تقدم الأسرة النبوية نموذجاً مختلفاً عن الفصل الحاد بين "المشروع العام" و"الحياة الخاصة."

فالنبي ﷺ الذي كان يقود الأمة ويواجه التحديات كان في بيته زوجاً رفيقاً، وأباً رحيماً، وإنساناً يشارك أهله ويستمع إليهم.

وهذا يعني أن التربية التي تظهر في المسجد والسوق والميدان ينبغي أن يكون لها امتداد داخل البيت.

والأهم أن النساء في السيرة لم يكن مجرد متلقّيات لآثار المشروع؛ فقد كان لخديجة دورها في مرحلة التأسيس الأولى، ولعائشة دورها في نقل العلم، ولأم سلمة حضورها في لحظة سياسية واجتماعية حساسة.

ولهذا يمكن القول — على سبيل الاستنباط — إن المشروع الذي لا يملك بيتاً قادراً على حمل قيمه يظل معرضاً للانفصال بين ما يقوله وما يعيشه.

لكن هذا استنباط تربوي، وليس نصاً تاريخياً يقرر أن النبي ﷺ قصد بهذه الوقائع بناء "نظرية الأسرة الحضارية" بهذا الاصطلاح.

المبحث الثالث: البيت والمجتمع — الأسرة اللبنة الأولى لصناعة الحضارة

أولاً: الرواية التاريخية — من البيت إلى المجتمع

تتبع السيرة مساراً واضحاً في انتقال الإسلام من الفرد إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى الجماعة، ثم إلى المجتمع.

وقد كان النبي ﷺ في مكة يبدأ بمن حوله، فأسلمت خديجة، ثم أسلم أبو بكر، وأسلم علي وزيد بن حارثة رضي الله عنهم، وتكونت من هذه الدائرة الأولى نواة الدعوة.

ثم اتسعت الدائرة شيئاً فشيئاً.

ولم يكن هذا الاتساع مجرد زيادة عددية، وإنما كان انتقالاً للقيم من قلب الفرد إلى علاقاته.

وفي المدينة اتسعت الأسرة لتدخل في بناء المجتمع، واتسعت مسؤولية المسلم من نفسه وأهله إلى جماعته ومجتمعه.

ويقرر القرآن هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ * التحريم: ٦.

كما يقول النبي ﷺ:

[كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ][15].

فالمسؤولية هنا تبدأ من الدائرة القريبة، ولا تنفصل عن المسؤولية العامة.

ثانياً: القراءة التربوية — الحضارة تبدأ من العلاقات

لا تقدم السيرة الأسرة بوصفها وحدة استهلاك أو إطاراً اجتماعياً فحسب، بل تكشف من خلال الممارسة النبوية أن البيت موضع تكوين القيم ونقلها وممارستها.

فالصدق الذي يتعلمه الإنسان في المسجد ينبغي أن يظهر في البيت.

والرحمة التي يتحدث عنها في المجتمع ينبغي أن يمارسها مع أهله.

والصبر الذي يحتاج إليه في مواجهة أعدائه يحتاج إليه كذلك في حياته الخاصة.

ولهذا فإن البيت يكشف صدق التربية أكثر مما تكشفه الكلمات.

ومن هنا يمكن فهم حديث النبي ﷺ:

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ]

بوصفه معياراً تربوياً؛ لأن الإنسان قد ينجح في تقديم صورة مثالية أمام الناس، بينما تكشف علاقته بأهله عن مستوى آخر من شخصيته.

والأسرة كذلك هي المكان الأول الذي يتعلم فيه الطفل معنى المسؤولية، والرحمة، والعدل، والانضباط، والوفاء، واحترام الآخر.

لكن هذه المعاني – وإن كانت منسجمة مع أصول التربية الإسلامية – ينبغي ألا تنسب إلى حادثة تاريخية بعينها إلا بدليل.

ثالثاً: المرأة في مشروع البناء

تظهر السيرة أن حضور المرأة في المشروع الإسلامي لم يكن محصوراً في دور واحد.

فخديجة رضي الله عنها حضرت في لحظة التأسيس، وعائشة رضي الله عنها أصبحت مصدراً واسعاً للعلم، وأم سلمة رضي الله عنها شاركت برأيها في موقف من مواقف القرار، وغيرهن من الصحابيات كانت لهن أدوار مختلفة في العبادة والهجرة والتعليم وخدمة المجتمع.

وهذا التنوع مهم؛ لأنه يمنع اختزال المرأة في وظيفة واحدة.

لكن ينبغي كذلك ألا نستورد إلى السيرة تصنيفات معاصرة ثم نبحث عن شواهد لها بأثر رجعي. المطلوب هو أن نقرأ أدوار النساء كما جاءت في مصادر السيرة والحديث، ثم نستفيد منها في بناء تصور معاصر يحترم خصوصية السياق.

رابعاً: الاستنباط المنضبط – من البيت إلى المجتمع

يمكن أن نستخلص من مجموع هذه الوقائع معنى تربوياً عاماً:

أن الأسرة ليست دائرة منفصلة عن بناء المجتمع، وإنما هي إحدى البيئات الأساسية التي تتكون فيها الشخصية التي يحمل بها الإنسان قيمه إلى المجتمع.

كما يمكن الإفادة من النموذج النبوي في التأكيد على:

- الرحمة داخل الأسرة.
- المسؤولية المتبادلة.
- احترام دور المرأة وقدرتها على الإسهام.
- ربط التربية بالممارسة اليومية.
- عدم فصل الأخلاق الخاصة عن السلوك العام.
- النظر إلى الأسرة بوصفها مجالاً من مجالات التربية، لا مجرد شأن خاص منفصل عن القيم.

لكن هذه كلها استنباطات تربوية معاصرة، وليست نصوصاً تاريخية تقول إن النبي ﷺ استخدم مصطلح "الأسرة اللبنة الأولى للحضارة."

خامساً: التطبيقات المعاصرة

وهنا ننتقل بوضوح من الرواية والاستنباط إلى مجال الإفادة المعاصرة.

في صناعة القيادات

لا يكفي أن نبحث عن أصحاب المواهب، بل ينبغي أن نهيئ لهم فرصاً حقيقية لتحمل المسؤولية، وأن نرافقهم بالتوجيه والتقويم.

والخطأ في مرحلة التعلم لا ينبغي أن يعني بالضرورة إقصاء صاحبه؛ فقد تكون التربية الحقيقية في تصحيح الخطأ وإعادة بناء القدرة.

في التربية

ينبغي أن تنتقل التربية من الكلام إلى الممارسة؛ فالإنسان يتعلم المسؤولية عندما يمارسها، ويتعلم التعاون عندما يعمل مع الآخرين، ويتعلم الانضباط عندما يتحمل تبعات قراراته.

في الأسرة

من المهم ألا يُفهم نجاح الإنسان خارج البيت على أنه نجاح كامل إذا كانت علاقته بأهله قائمة على القسوة والإهمال.

فالسنة النبوية تجعل حسن المعاشرة معياراً من معايير الخيرية.

في دور المرأة

يمكن للمؤسسات والمجتمعات أن تستفيد من النماذج النسائية في السيرة في توسيع مجالات العلم والمشاركة والمسؤولية، مع مراعاة الأحكام الشرعية وخصوصية السياقات الاجتماعية المختلفة.

في بناء المجتمع

كل مشروع إصلاحي يحتاج إلى بيئة أسرية تسنده؛ لأن القيم التي لا تجد لها مكاناً في الحياة اليومية يصعب أن تتحول إلى ثقافة اجتماعية راسخة.

سادساً: الضابط المنهجي

ينبغي في دراسة الأسرة والقيادة في السيرة أن نتجنب طرفين متقابلين:

الأول: اختزال السيرة في مواعظ عامة، بحيث تضيع تفاصيل الوقائع التي تكشف كيف كان النبي ﷺ يربي ويكلف ويصحح.

والثاني: تحميل الوقائع أكثر مما تحتمل، وتحويل كل موقف إلى "نظرية" حديثة في القيادة أو الإدارة أو الأسرة.

فالذي يثبت تاريخياً أن النبي ﷺ كلف أصحابه، ووجههم، وصحح أخطاءهم، واستفاد من قدراتهم المختلفة.

ويثبت كذلك أنه ﷺ كان رفيقاً بأهله، يشاركهم، ويستمع إليهم، ويظهر الرحمة والمودة، وأن لنساء بيته أدواراً علمية وتربوية ومواقف مشهودة.

أما صياغة هذه الوقائع في مصطلحات مثل "إدارة المواهب"، و"القيادة التشاركية"، و"رأس المال الأسري"، و"التمكين المؤسسي"، فهي لغة تحليلية معاصرة يجوز استخدامها إذا بقيت أداة تفسيرية، لا إذا نسبت إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة بهذه المصطلحات.

وهذا التفريق يحفظ للسيرة حقيقتها، وفي الوقت نفسه يسمح لها بأن تظل مادة حية للتربية والفهم.

الخلاصة:

تكشف السيرة المدنية أن بناء المجتمع لم يكن قائماً على القوانين والمؤسسات وحدها، وإنما على صناعة الإنسان القادر على حمل المسؤولية، وعلى بناء الأسرة التي تُمارس فيها القيم قبل أن تنتقل إلى المجتمع.

فالنبي ﷺ كان مربياً وقائداً: يكلف، ويوجه، ويفوض، ويتابع، ويصحح.

وكان بيته امتداداً لأخلاقه العامة؛ فيه الرحمة، والمشاركة، والمودة، والتعليم، والاستماع.

وكانت المرأة حاضرة في مسيرة البناء بصور متعددة: خديجة في تثبيت البدايات، وعائشة في نقل العلم، وأم سلمة في الرأي والمشورة، وغيرهن في مجالات مختلفة.

ومن مجموع ذلك يمكن صياغة المبدأ التربوي الآتي:

لا تُصنع المجتمعات القوية بالقيادات وحدها، ولا بالمؤسسات وحدها؛ وإنما تُبنى حين تتكامل صناعة الإنسان، وصناعة القيادة، وصناعة الأسرة التي تحمل القيم إلى الجيل التالي.

وهذا المبدأ استنباط تربوي من مجموع الوقائع، وليس نصاً تاريخياً أو حكماً شرعياً مستقلاً.

الهوامش والمراجع

1 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، وكتاب التوحيد، وحديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن.

2 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، وكتاب الأدب؛ في حديث بعث معاذ وأبي موسى رضي الله عنهما وقوله ﷺ: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا."

3محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب تخفيف الصلاة لأمر يعرض، وحديث معاذ رضي الله عنه.
4الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، في مباحث التربية النبوية وبناء الشخصية والقيادة.
5منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المنصورة: دار الوفاء، في مباحث إعداد الصحابة وتحمل المسؤولية والتربية القيادية.
6صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، الرياض: دار السلام، في أخبار البعوث والولاة وتنظيم المجتمع المدني.
7مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وأبي عبيدة ومعاذ وزيد وأبي بن كعب رضي الله عنهم، مع مراعاة اختلاف ألفاظ الروايات ودرجاتها.
8محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والكرم، في قوله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي."
9محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، في حديث عائشة رضي الله عنها: "كان يكون في مهنة أهله."
10مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الحيض، في أحاديث معاشرة النبي ﷺ لأهله.
11محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، في قصة الأقرع بن حابس والحسن بن علي رضي الله عنهما.
12محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، في قصة بدء الوحي وخديجة رضي الله عنها وقولها للنبي ﷺ: "كلا والله ما يخزيك الله أبداً."...
13مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، في فضائل خديجة رضي الله عنها.
14محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، في مشورة أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ بعد الصلح.
15محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، في حديث "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته."
16ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: دار المعرفة، في أخبار الصحابة والمرحلة المدنية، وما يتصل بأدوار النساء والأسرة والمجتمع.
17إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر، في أخبار الصحابة والبعوث والغزوات وأحوال بيت النبي ﷺ.
18ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، في هدي النبي ﷺ في معاشرة أهله وتدبير شؤون المجتمع، وما يتصل بالتربية والقيادة.
19الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، المواضع المتعلقة بالتربية النبوية وبناء الشخصيات والمجتمع.
20المباركفوري، الرحيق المختوم، المواضع المتعلقة بتنظيم المجتمع المدني والبعوث والقيادات.
21الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المواضع المتعلقة بصناعة الشخصية والقيادة والتربية بالممارسة.

الباب الرابع: التمكين — إدارة القوة والفتح

الفصل السادس عشر: الحديبية — سياسة المرونة الاستراتيجية

تمهيد: حين بدا التنازل فتحًا

بلغت الدعوة في المدينة مرحلة لم تعد فيها القضية مجرد حماية جماعة مؤمنة أو بناء مجتمع ناشئ، بل أصبحت أمام واقع سياسي وعسكري واجتماعي أكثر تعقيدًا، ومع اتساع نفوذ المسلمين، لم تعد المواجهة مع قريش محصورة في حدود مكة، بل صار على القيادة النبوية أن تتعامل مع شبكة من المصالح والتحالفات والقبائل، وأن تدير القوة الناشئة بما يحفظ مكتسباتها ويفتح أمامها آفاقًا جديدة. وفي هذا السياق جاءت الحديبية.

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون العمرة، لا يريدون قتالًا، لكن قريشًا حالت بينهم وبين دخول مكة، وتطور الموقف من محاولة منع المسلمين من الوصول إلى البيت إلى مفاوضات شاقة انتهت بعقد الصلح، وكان ظاهر بعض بنوده شديدًا على نفوس الصحابة؛ إذ بدا لهم أن المسلمين، بعد ما بلغوه من قوة، قد قبلوا شروطًا لا تتناسب مع ما كانوا يتوقعونه من موقف القيادة.

لكن القرآن سمّى هذا الحدث فتحًا قبل أن تتكشف جميع ثماره:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ * الفتح: ١.

ومن هنا تبرز الحديبية بوصفها واحدة من أهم المحطات التي تكشف الفرق بين الحكم على القرار من خلال لحظته، والحكم عليه من خلال مآلاته ونتائجه.

غير أن هذا لا يعني أن كل تنازل حكمة، ولا أن كل اتفاق نجاح، ولا أن تأجيل المواجهة فضيلة في ذاته؛ وإنما تكشف الحديبية، في سياقها الخاص، عن قدرة القيادة النبوية على الجمع بين ثبات الغاية ومرونة الوسيلة، وبين وضوح المبدأ واحتمال ما تقتضيه المصلحة من صبر وتأجيل.

المبحث الأول: الرؤية البعيدة وراء التنازل

أولًا: الرواية التاريخية — من رؤيا العمرة إلى الحديبية

رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر أصحابه بذلك، وتهيؤوا للخروج إلى مكة لأداء العمرة، ولم يكن خروجهم في صورة حملة عسكرية؛ فقد ساقوا الهدي، وأحرموا للعمرة، وأرادوا أن يعرف الناس أنهم لم يخرجوا للقتال.

وفي ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ بأصحابه قاصدين مكة، ولما بلغ خبر خروجهم قريشًا، تحركت لمنعهم من دخولها، وأرسلت في طريقهم من يصدهم عنها؛ فلما بلغ النبي ﷺ الحديبية، استقر الأمر على التفاوض، وأرسل رسله، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو للتفاوض.

وكان حضور سهيل نقطة تحول في المفاوضات؛ فقد قال النبي ﷺ عندما رآه: [لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ]، وأراد أن تنتهي المفاوضات إلى وضع يوقف القتال ويتيح للناس أن تتصل بالمسلمين وتسمع منهم[1].

وجرى الاتفاق على شروط الصلح، ومن أبرزها أن يرجع المسلمون عامهم ذلك، ويأتوا من العام المقبل، وأن تكون بينهم وبين قريش هدنة، وأن ترد قريش من جاءها من المسلمين، في حين لا ترد المسلمين من جاءهم من قريش.

وحين أمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكتب كتاب الصلح، وقع الخلاف في صياغة العبارات؛ فعندما كتب علي: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله"، اعترض سهيل قائلًا: لو كنا نقر أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب: "محمد بن عبد الله"؛ فقبل النبي ﷺ ذلك، وأمر عليًا أن يمحو العبارة، فاستثقل علي رضي الله عنه محوها، فمحاها النبي ﷺ بيده، وأتم الاتفاق[2].

وهنا تظهر دقة مهمة: لم يتنازل النبي ﷺ عن حقيقة رسالته، وإنما قبل صيغة تعاقدية لا تتضمن إثباتها لقريش؛ فالفرق بين التنازل عن الحقيقة والتنازل عن طريقة التعبير عنها في وثيقة تفاوضية فرق جوهري.

ولم تكن الحديبية مجرد مفاوضات سياسية مجردة، فقد سبقتها حادثة بيعة الرضوان؛ فقد أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة للتفاوض، وانتشر خبر قتله، فدعا النبي ﷺ أصحابه إلى البيعة على الثبات، فبايعوه تحت الشجرة. قال تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ * الفتح: ١٨.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال عن أصحاب الشجرة: [لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا][3].

وهكذا اجتمع في الحديبية أمران قد يبدوان للوهلة الأولى متعارضين: استعداد كامل للثبات إذا فُرضت المواجهة، واستعداد كامل للقبول بالصلح إذا تحقق به المقصود.

وهذه هي النقطة التي ينبغي ألا تضيع في قراءة الحدث.

ثانيًا: القراءة التربوية — ثبات الغاية ومرونة الوسيلة

تكشف الحديبية أن القيادة النبوية لم تكن تتحرك بمنطق رد الفعل؛ فقد خرج المسلمون يريدون العمرة، ولما تغيرت الظروف لم يتحول الهدف إلى البحث عن معركة لمجرد أن الخصم منعهم من دخول مكة.

كان الهدف أوسع من اللحظة: الوصول إلى مرحلة يتوقف فيها النزاع، وتتاح فيها مساحة أوسع للاتصال والدعوة، وتضعف فيها حالة الحرب المستمرة.

وهنا تظهر إحدى أهم خصائص التفكير النبوي: عدم الخلط بين الوسيلة والغاية.

فالغاية لم تكن إثبات أن المسلمين لا يتنازلون في أي صياغة أو صورة، وإنما كانت إقامة الحق وحماية الجماعة وفتح الطريق أمام الرسالة، ولهذا أمكن أن يقبل النبي ﷺ في الوثيقة صيغة "محمد بن عبد الله"، من غير أن يكون ذلك تراجعًا عن الوحي أو الرسالة.

وقد التقط الشيخ محمد الغزالي هذا المعنى في قراءته للحديبية؛ فالصلح عنده لا يُفهم باعتباره انكسارًا، وإنما باعتباره قرارًا في سياق أوسع، استطاعت فيه القيادة أن ترى ما وراء اللحظة المباشرة[4].

كما أن المباركفوري يعرض الحديبية في سياق التحول الكبير في علاقة المسلمين بقريش؛ إذ إن قبول قريش بالتفاوض مع النبي ﷺ، والجلوس معه على أساس اتفاق، كان في ذاته تحولًا في موقع المسلمين السياسي والعسكري[5].

ومن جهة أخرى، يبرز عند الغضبان البعد التربوي للحدث: فالصحابة كانوا يتربون عمليًا على أن الانتصار ليس دائمًا في الصورة التي تتوقعها النفوس، وأن القيادة قد ترى من المصالح ما لا يظهر لأفراد الجماعة في لحظة القرار[6].

وهذا المعنى تؤكده واقعة بيعة الرضوان، فالصحابة لم يكونوا جماعة مستعدة للتنازل عن حقها خوفًا من قريش، بل كانوا على استعداد للمواجهة إن اقتضى الأمر، ولذلك فإن المرونة التي ظهرت في الصلح لم تكن ناتجة عن ضعف في الإرادة، وإنما جاءت بعد أن ثبتت القدرة على الصمود.

ثالثًا: الاستنباط – الرؤية الاستراتيجية لا تعني التنازل عن الثوابت

يمكن، من خلال الحديبية، صياغة استنباط منضبط مفاده أن القيادة قد تحتاج إلى التفريق بين الثوابت التي لا يجوز التفريط فيها، وبين الوسائل والصيغ والإجراءات التي يمكن أن تتغير بحسب المصلحة والظرف.

وهذا ليس حكمًا تشريعيًا مستخرجًا من لفظ "الحديبية"، ولا قاعدة مطلقة تبيح كل تنازل، وإنما هو قراءة في فعل نبوي ثبتت خصوصياته وسياقه ونتائجه.

كما تكشف الحديبية أن القرار الاستراتيجي لا يُقاس دائمًا بما يحققه فورًا من مكاسب ظاهرة، وإنما قد تكون قيمته فيما يفتحه من إمكانات لاحقة.

وقد نزل القرآن بعد الصلح مؤكدًا هذه الرؤية:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ * الفتح: ١-٣.

فالتسمية القرآنية نفسها تعيد تشكيل زاوية النظر إلى الحدث: ما بدا لبعض الناس في اللحظة تراجعًا، كشف الوحي عن كونه فتحًا.

المبحث الثاني: إدارة المشاعر والتفكير بعيد المدى

أولًا: الرواية التاريخية — حين ثقل القرار على النفوس

كان الصحابة قد خرجوا وهم يرجون الوصول إلى البيت الحرام، فلما انتهى الأمر إلى الصلح والرجوع دون أداء العمرة، كان وقع ذلك شديدًا عليهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكثر الصحابة سؤالًا عن الحكمة من القرار، فقد جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن وجه الصلح، وقال: [أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟] فقال له النبي ﷺ: [بَلَى]. قال: [أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟] قال: [بَلَى]. ثم سأل: [فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟]، فأجابه النبي ﷺ: [إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي].[7]

ولم يكن هذا الحوار مجرد اختلاف سياسي؛ بل كان موقفًا تربويًا بالغ الأهمية؛ فعمر رضي الله عنه كان ينطلق من يقين صحيح: الإسلام حق، والمسلمون على الحق، والنبي ﷺ رسول الله. لكن الإشكال كان في كيفية تنزيل هذا اليقين على القرار السياسي في تلك اللحظة.

ثم جاء أبو عبيدة رضي الله عنه، وقال لعمر ما معناه أن يلزم غرز النبي ﷺ، وأنه رسول الله، فامتثل.

وتكشف الرواية أن الصحابة لم يكونوا فاقدي المشاعر، ولم يكونوا يستقبلون كل قرار بسهولة. كانوا يتألمون ويسألون ويجادلون، لكنهم في النهاية كانوا قادرين على ضبط الانفعال والعودة إلى الثقة بالقيادة والوحي.

وقد بلغ أثر الموقف ذروته بعد انتهاء الصلح؛ إذ أمر النبي ﷺ أصحابه أن ينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم، فلم يبادروا في أول الأمر، لما كان في نفوسهم من الحزن والذهول؛ فدخل النبي ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، وذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحدًا حتى ينحر هديه ويحلق، ففعل؛ فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وحلقوا[8].

وهنا تظهر أم سلمة رضي الله عنها في موقف من مواقف الرأي السديد؛ فقد قرأت الحالة النفسية للجماعة، ولم تدخل في جدل طويل، وإنما اقترحت معالجة عملية للموقف.

ثانيًا: القراءة التربوية — إدارة المشاعر لا إلغاء المشاعر

تُظهر الحديبية أن التربية النبوية لم تكن قائمة على مطالبة الإنسان بإلغاء مشاعره.

كان الصحابة يحبون البيت الحرام، ويكرهون أن يمنعوا منه، وكانوا يرون أنفسهم على الحق، ولذلك كان طبيعيًا أن يتساءلوا عن بعض تفاصيل القرار.

لكن التربية النبوية عملت على مستوى أعمق: كيف يبقى الإنسان ثابتًا حين لا يفهم الحكمة كاملة؟ وهذا من أصعب مقامات التربية؛ لأن الإنسان يستطيع أن يلتزم بالقرار حين يرى حكمته، لكن الاختبار الحقيقي يظهر عندما يثق بقيادته المؤتمنة، ويعرف أن لديه من المعطيات ما ليس عنده، فينضبط ولا يجعل انفعاله الشخصي معيارًا وحيدًا للحكم.

وهنا ينبغي أن نفرق بين أمرين:

الأول: حق الإنسان في السؤال والاستيضاح.

والثاني: تحويل الاعتراض والانفعال إلى تعطيل للقرار أو إسقاط للثقة.

والحادثة نفسها تقدم النموذجين؛ فقد سأل عمر رضي الله عنه، ولم يُمنع من السؤال، ثم عاد إلى التسليم والثقة.

كما تقدم أم سلمة رضي الله عنها نموذجًا آخر من النضج القيادي؛ فقد لمست أن المشكلة لم تعد في شرح القرار، وإنما في الحالة النفسية التي أعقبت القرار، فاقترحت معالجة عملية، واستجاب لها النبي ﷺ.

وقد اهتم الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة بإبراز الجانب الإنساني في التربية النبوية، حيث لا تُفترض في الإنسان حالة نفسية واحدة، ولا يُتعامل مع الجماعة بوصفها آلة تنفذ الأوامر، وإنما تُراعى طبيعتها ومشاعرها وقدرتها على الاستيعاب[9].

ويؤكد الغضبان، في قراءته التربوية للسيرة، أن المواقف الكبرى تكشف مستوى التربية الحقيقية للجماعة؛ إذ لا تظهر آثار البناء في أوقات الراحة بقدر ما تظهر عند الصدمة والاختبار[10].

أما ابن القيم، فيعرض الحديبية في سياق الهدي النبوي في تدبير المصالح، ويبرز كيف اجتمع في هذا الموقف حسن التوكل، ودقة النظر، والصبر على ما تقتضيه المصلحة[11].

ثالثًا: الاستنباط — القرار الناجح يحتاج إلى إدارة النفوس

يمكن أن نستنبط من هذه الوقائع أن إدارة القرار لا تنفصل عن إدارة المشاعر التي يصنعها القرار. فقد يكون القرار صحيحًا من الناحية الموضوعية، لكن طريقة انتقال الجماعة من الحالة السابقة إلى الحالة الجديدة تحتاج إلى معالجة تربوية ونفسية.

والحديبية تقدم هنا نموذجًا واضحًا: بيان، وحوار، ثم صبر على ردود الفعل، ثم تدخل حكيم لمعالجة الجمود النفسي، ثم عودة الجماعة إلى التنفيذ.

ولا ينبغي أن نحول هذا الاستنباط إلى قاعدة مطلقة تقول إن كل قائد يحق له أن يطلب من أتباعه الثقة العمياء؛ فالذي كان يقود الصحابة هنا هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي، وهذه خصوصية لا يجوز إسقاطها على القيادات البشرية.

إنما الذي يمكن الإفادة منه اليوم، على سبيل الاستنباط التربوي، هو أهمية الشفافية في شرح القرارات، وإتاحة مساحة السؤال، وفهم المشاعر المصاحبة للتحول، وعدم الخلط بين مخالفة القرار ومخالفة الشخص، وبين السؤال المشروع والتمرد على المسؤولية.

المبحث الثالث: القانون المستنبط — ليس كل تراجع هزيمة

أولًا: الرواية التاريخية — من الصلح إلى الفتح

حين عاد المسلمون من الحديبية، كان بعضهم لا يزال يرى في الرجوع دون العمرة صورة من صور عدم تحقق المقصود.

لكن القرآن حسم التقييم الإلهي للحدث:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ * الفتح: ١.

ثم بيّن القرآن ما ترتب على ذلك من آثار، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ * الفتح: ٤.

ثم قال سبحانه:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ * الفتح: ٢٧.

وبذلك لم تكن العودة من الحديبية نهاية الطريق، بل كانت مرحلة في طريق تحقق الوعد.

وقد كشف التاريخ اللاحق عن آثار الصلح؛ فقد هدأت حالة الحرب المباشرة، واتسع المجال للاختلاط بين الناس، وأصبح المسلمون يتحركون في مساحة أكثر استقرارًا، وهو ما أتاح للدعوة أن تصل إلى أعداد أكبر.

ومن هنا جاءت الحديبية مقدمة لمرحلة جديدة في علاقات المسلمين بالقبائل وبقريش، ثم انتهت تطورات الأحداث بعد ذلك إلى فتح مكة.

ثانيًا: القراءة التربوية — النجاح لا يُقاس بلحظة القرار

تكمن القيمة التربوية الأعمق في الحديبية في إعادة تعريف معنى النجاح.

فلو قيس الحدث فقط بصورة اليوم الذي وقع فيه، لكان من السهل أن يقال: خرج المسلمون إلى مكة ولم يدخلوها، ثم عادوا.

لكن هذا القياس تجاهل ما حدث في مستوى أعمق: لقد أُوقفت الحرب، واعترفت قريش عمليًا بوجود المسلمين كطرف تفاوضي، وفتحت أبواب الاتصال، وتهيأت الظروف لانتشار الدعوة بصورة أوسع.

ولهذا وصف القرآن الحدث بالفتح.

وقد ركز المباركفوري في عرضه للحديبية على النتائج السياسية والدعوية التي ترتبت على الصلح، فلم ينظر إلى بنوده بمعزل عن السياق العام للعلاقة بين المسلمين وقريش، ولا إلى اللحظة بمعزل عن مآلاتها[12].

أما الشيخ محمد الغزالي فيستفيد من الحديبية في بيان أهمية النظر إلى النتائج البعيدة وعدم الانخداع بالمظاهر العاجلة؛ فالقرار الذي يبدو في لحظته صعبًا قد يحمل في داخله أسباب قوة أكبر مما تحمله المواجهة المباشرة[13].

ويضع الغضبان الحدث في سياق التربية على فهم السنن؛ فالتمكين لا يأتي دائمًا في صورة انتصار مباشر، وقد تكون مرحلة الصبر وضبط النفس جزءًا من الطريق إلى نتائج أكبر[14].

وهذا المعنى لا يعني أن كل تأخير فتح، أو أن كل خسارة ظاهرية مقدمة لنصر، وإنما يعني أن الحكم على النتائج يحتاج إلى معيار أوسع من الانطباع الأول.

ثالثًا: الاستنباط — المرونة الاستراتيجية في إطار الثوابت

من الحديبية يمكن صياغة مبدأ استنباطي محدد:

ليس كل تراجع عن مكسب مباشر هزيمة، كما أن ليس كل انتصار لحظي نجاحًا استراتيجيًا؛ وإنما يُنظر إلى القرار في ضوء الغاية، والثوابت، والمصلحة، والمآلات.

وهذا المبدأ مستفاد من قراءة الحدث، وليس نصًا شرعيًا بهذا اللفظ.

والحديبية لا تعلم المسلم أن يتنازل، وإنما تعلمه أن يسأل قبل اتخاذ القرار:

- ما الغاية التي نريد تحقيقها؟
- ما الأمور التي تمثل ثوابت لا يجوز تجاوزها؟
- ما الأمور التي تدخل في باب الوسائل والصيغ؟
- ما كلفة المواجهة المباشرة؟
- وما الذي يمكن أن يحققه الاتفاق أو التأجيل؟
- وما المآلات المحتملة لكل خيار؟

لكن كل هذه الأسئلة تبقى في دائرة الاستنباط المنهجي، ولا يصح أن تنسب إلى النبي ﷺ بهذه الصياغة الاصطلاحية الحديثة ما لم يرد بها نص.

كما أن الحديبية تضع حدًا مهمًا لفكرة "المرونة" نفسها؛ فالمرونة ليست قيمة مستقلة عن الحق، وإنما تكون محمودة عندما تتحرك داخل إطار الثوابت، وتخدم مقصدًا مشروعًا، ولا تتحول إلى تفريط.

ولهذا فإن قبول النبي ﷺ حذف وصف "رسول الله" من وثيقة الصلح لا يمكن أن يُفهم بوصفه تنازلًا عن الرسالة؛ لأن الحقيقة العقدية لم تكن موضع تفاوض أصلًا. الذي تغير هو الصياغة التي قبلها الطرف الآخر في وثيقة سياسية.

وهذا التفريق ضروري حتى لا تتحول الحديبية إلى ذريعة لتبرير كل تنازل باسم "المصلحة."

رابعًا: الضابط المنهجي — خصوصية القرار النبوي وحدود القياس

الحديبية من أكثر أحداث السيرة قابلية للاستدعاء في الحديث عن السياسة والقيادة والمصلحة، ولذلك فهي من أكثرها حاجة إلى الضبط.

فالقرار النبوي في الحديبية صدر عن رسول الله ﷺ، وفي سياق تحيط به خصوصية الوحي، كما أن القرآن نفسه كشف بعض وجوه الحكمة في الحدث، وأخبر عن نتائج لم يكن الصحابة يرونها كاملة في لحظتها.

ولهذا لا يصح أن يتحول الحدث إلى وصفة جاهزة تقول: "تنازل الآن لتحقق النصر لاحقًا."

فالفرق كبير بين التنازل عن وسيلة أو صيغة لتحقيق غاية مشروعة، وبين التنازل عن أصل من أصول الدين أو حق ثابت.

كما لا يصح أن تُستعمل الحديبية لتبرير الغموض في القرارات أو مطالبة الناس بالطاعة المطلقة؛ فالصحابة سألوا، وناقشوا، وتفاعلوا مع الحدث، وكان مرجعهم في النهاية إلى رسول الله ﷺ.

ومن جهة أخرى، لا ينبغي أن ننظر إلى الحديبية بمعيار سياسي حديث منفصل عن سياقها الشرعي والتاريخي؛ فهي واقعة نبوية مخصوصة، وفيها من الأحكام والخصائص ما لا يجوز نقله آليًا إلى كل نزاع أو تفاوض.

فالاستفادة الصحيحة منها تكون في فهم المنهج، لا في استنساخ التفاصيل.

خامسًا: التطبيقات المعاصرة — ماذا يمكن أن نتعلم اليوم؟

ما يأتي ليس وصفًا للحديبية، ولا حكمًا شرعيًا مستخرجًا منها بصيغة الإلزام، وإنما هو تطبيق معاصر لاستنباطات يمكن الإفادة منها في ضوء الحدث.

١. في القيادة وصناعة القرار

قد يحتاج القائد إلى اتخاذ قرار لا يحظى بالقبول النفسي الفوري من جميع أفراد فريقه، ولذلك فإن نجاح القرار لا يعتمد على صحته فقط، بل يحتاج كذلك إلى القدرة على شرحه، وإدارة آثاره النفسية، والحفاظ على الثقة أثناء تنفيذه.

٢. في التفاوض

ليس كل اتفاق تنازلًا مذمومًا، كما أن ليس كل رفض للمساومة قوة. المعيار هو: ماذا يُتنازل عنه؟ وماذا يُحفظ؟ وما الهدف الذي يراد تحقيقه؟ وما المآلات المتوقعة؟

٣. في إدارة الأزمات

ينبغي ألا يُحكم على الأزمة من خلال لحظتها الأولى فقط؛ فقد يكون احتواء الأزمة، ولو أدى إلى خسارة جزئية، أكثر نفعًا من الدخول في مواجهة تستنزف الموارد وتغلق فرصًا أكبر.

٤. في إدارة الجماعات

عند حدوث تحول كبير، ينبغي مراعاة الحالة النفسية للأفراد؛ فالناس لا ينتقلون دائمًا من موقف إلى آخر بالسرعة نفسها، والقرار الذي يفهمه القائد بوضوح قد يحتاج إلى وقت حتى تستوعبه الجماعة.

٥. في التخطيط بعيد المدى

ينبغي أن يكون التفكير في النتائج ممتدًا إلى ما بعد المكسب المباشر؛ فقد يكون النجاح الحقيقي في فتح مجال جديد، أو تقليل الاستنزاف، أو بناء علاقة، أو إتاحة فرصة لم تكن متاحة من قبل.

٦. في ضبط مفهوم المرونة

المرونة الناجحة لا تعني فقدان الهوية، وإنما تعني القدرة على تغيير الوسائل مع الحفاظ على الغايات والثوابت، ومن الخطأ أن يتحول شعار "المصلحة" إلى مبرر مفتوح للتنازل.

الخلاصة:

كانت الحديبية محطة فارقة في السيرة النبوية؛ لأنها كشفت أن إدارة القوة لا تعني استخدامها في كل لحظة، وأن القدرة على المواجهة لا تستلزم اختيار المواجهة دائمًا.

فقد خرج النبي ﷺ وأصحابه يريدون العمرة، وأظهروا أنهم لم يخرجوا لقتال، ثم واجهوا منع قريش، وانتهى الأمر إلى مفاوضات وصلح، وفي أثناء ذلك ظهرت بيعة الرضوان بوصفها تعبيرًا عن استعداد الصحابة للثبات، ثم ظهر في قبول شروط الصلح نموذج آخر من نماذج المرونة المنضبطة.

وكانت الصعوبة التربوية في أن بعض الصحابة لم يروا في اللحظة الأولى الحكمة الكاملة في القرار، لكن الأحداث اللاحقة والقرآن نفسه كشفا أن ما بدا تراجعًا كان فتحًا.

ومن أهم المعاني التي يمكن استنباطها من الحدث:

- ثبات الغاية لا يعني الجمود في الوسيلة.
- القرار الاستراتيجي قد يُقاس بمآلاته لا بصورته الأولى.

•إدارة المشاعر جزء من إدارة القرار.
•السؤال والاستيضاح لا ينافيان الانضباط والطاعة.
•المرونة لا تكون محمودة إلا إذا بقيت داخل حدود الثوابت والمصلحة المشروعة.
•لا يجوز تحويل خصوصية القرار النبوي إلى وصفة سياسية جاهزة لكل زمان ومكان.
•ليس كل تراجع عن مكسب مباشر هزيمة، كما أن ليس كل انتصار عاجل نجاحًا استراتيجيًا.

ويمكن صياغة القانون المستنبط من هذا الفصل في عبارة موجزة:

النجاح في إدارة القوة لا يكون بكثرة استخدامها، وإنما بحسن توظيفها، وبالقدرة على الجمع بين ثبات المقصد ومرونة الوسيلة، والنظر إلى المآلات دون التفريط في الثوابت.

الهوامش والمراجع

1محمد بن إسحاق، برواية ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي؛ في خبر خروج رسول الله ﷺ إلى الحديبية، وسوق الهدي، ومنع قريش المسلمين من دخول مكة، وأحداث المفاوضات.

2محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط؛ وفيه حديث المسور بن مخرمة ومروان في قصة صلح الحديبية، وما جرى في كتابة الوثيقة.

3مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية؛ في روايات أحداث الصلح وبيعة الرضوان.

4الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، موضع حديثه عن غزوة الحديبية ودلالاتها في مسيرة الدعوة، مع مراعاة اختلاف الطبعات في ترقيم الصفحات.

5صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، فصل صلح الحديبية وما ترتب عليه من نتائج.

6منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المواضع المتعلقة بالتربية القيادية وإدارة الجماعة في أحداث الحديبية، مع اختلاف أرقام الصفحات بحسب الطبعة.

7أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، وفي رواية المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، في قصة سؤال عمر رضي الله عنه النبي ﷺ عن شروط الصلح، وفيها قول النبي ﷺ: "إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري."

8أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، في قصة الحديبية؛ وفيه مشورة أم سلمة رضي الله عنها على النبي ﷺ بعد أمره الصحابة بالنحر والحلق، وفعله ﷺ ما أشارت به.

9الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، الموضع المتعلق بصلح الحديبية وقراءة نتائجه وموقعه من تطور الدعوة.

10منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المواضع المتعلقة ببناء الجماعة والتربية في مواقف الابتلاء والقرار.

11ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، فصل هديه ﷺ في صلح الحديبية وما اشتمل عليه من المصالح والحكم.

12صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، فصل الحديبية؛ في عرض بنود الصلح ونتائجه وتطور العلاقة بين المسلمين وقريش بعده.

13الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، الموضع الخاص بالحديبية، في بيان الفرق بين الصورة الظاهرة للحدث ونتائجه البعيدة.

14منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في قراءته التربوية لأحداث الحديبية وأثرها في بناء الجماعة.

15ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، أحداث السنة السادسة للهجرة، في سياق صلح الحديبية وبيعة الرضوان وتفسير آثار الحادثة.

16ابن هشام، السيرة النبوية، في خبر الحديبية وشروط الصلح وما جرى في كتابة الصحيفة، مع الاستفادة من الروايات الصحيحة الواردة في الصحيحين عند الترجيح بين التفاصيل.

17سورة الفتح، الآية ١، وهي الآية المركزية في فهم مآل الحديبية.

18سورة الفتح، الآية ١٨.

19سورة الفتح، الآية ٢٧.

20أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، وفيه حديث أصحاب الشجرة وبيعة الرضوان.

21ابن القيم، زاد المعاد، في بيان المصالح التي ترتبت على صلح الحديبية، وربطه بسياق الهدي النبوي في تدبير شؤون الدعوة والجماعة.

الباب الرابع: التمكين — إدارة القوة والفتح

الفصل السابع عشر: خيبر — القوة والموارد

لم تكن خيبر في مسار السيرة مجرد مواجهة عسكرية انتهت بفتح حصون، ثم طُويت صفحتها؛ فبعد أن تجاوز المجتمع المسلم مرحلة البقاء والدفاع عن وجوده، بدأت تظهر أسئلة جديدة من طبيعة مختلفة: كيف تُدار القوة حين تصبح في يد جماعة ممكَّنة؟ وكيف تُدار الأرض بعد انتقال السيطرة عليها؟ وكيف تتحول الموارد من غنائم عابرة إلى مورد اقتصادي منظم؟ وكيف يبقى العدل قائمًا حين تكون العلاقة بين الغالب والمغلوب محكومة بظروف الحرب؟

ولهذا تأتي خيبر في موضعها من هذا الكتاب بوصفها مرحلة كاشفة عن جانب آخر من جوانب التمكين: أن القوة لا تكتمل قيمتها بمجرد امتلاكها، وإنما يظهر معدن المشروع في طريقة استخدامها، وفي كيفية إدارة آثارها ومواردها.

والسيرة في خيبر لا تقدم لنا نظرية اقتصادية مكتملة بالمعنى الاصطلاحي الحديث، ولا نموذجًا إداريًا جاهزًا يمكن نقله كما هو إلى الدول والمجتمعات المعاصرة؛ لكنها تقدم وقائع صحيحة، وأحكامًا شرعية، وممارسات نبوية، ومواقف قيادية، يمكن من خلال مجموعها أن نفهم بعض معالم إدارة القوة والمال والموارد في المجتمع النبوي.

ومن هنا سيكون النظر في خيبر على ثلاثة مستويات متمايزة: رواية ما ثبت من أحداثها، وقراءة دلالاتها التربوية من داخلها، ثم استنباط ما يمكن الإفادة منه في غير سياقها دون ادعاء أن كل استنباط قاعدة تاريخية أو تشريعية ملزمة.

المبحث الأول: القوة في خدمة الرسالة ومسؤوليتها

أولًا: الرواية التاريخية – خيبر في سياقها

وقعت غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة، بعد صلح الحديبية، وكانت خيبر من المواطن التي اجتمع فيها عدد من العوامل السياسية والعسكرية والاقتصادية التي جعلتها حاضرة في حسابات الدولة الناشئة في المدينة، وقد عرض أصحاب السيرة خيبر في سياق تطور القوة الإسلامية بعد الحديبية، وما ترتب على ذلك من تغير في ميزان القوى في الجزيرة العربية، وينظر في ذلك: الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، مع الرجوع إلى روايات ابن هشام وابن كثير وابن القيم في أحداث خيبر[1].

ولا ينبغي أن تُفهم هذه الحملة بمعزل عن سياقها التاريخي؛ فقد كانت خيبر ذات تحصينات ومزارع وموارد، وكانت المواجهة معها جزءًا من واقع الصراع الذي كانت تعيشه الدولة الإسلامية في المدينة، ولذلك لم يكن التعامل معها مجرد تحرك عسكري عشوائي، بل جاء في سياق مرحلة تغيرت فيها موازين القوة بعد الحديبية.

ومن المشاهد الدالة على طبيعة القيادة النبوية في هذه الغزوة ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

[لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ].

فبات الناس ليلتهم يخوضون فيمن تُعطى له الراية، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ، كل واحد منهم يرجو أن يُعطاها، فقال:

[أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟]

فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال:

[فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ].

فأُتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي رضي الله عنه: [يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟]

فقال رسول الله ﷺ: [انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ][2].

وهذا الحديث من أهم النصوص التي تكشف أن القوة في التصور النبوي لم تكن غاية مستقلة؛ فالراية تُعطى لرجل يجتمع فيه وصف الإيمان والمحبة، والنصر نفسه يُنسب إلى الله، ثم يأتي الأمر إلى القائد الميداني بأن يمضي على تؤدة، وأن يبدأ بالدعوة والبيان قبل القتال.

وفي رواية أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين أقبل على خيبر، وكان أهلها قد خرجوا إلى أعمالهم ومعهم مساحيهم، فلما رأوه قالوا: محمد والخميس، فقال النبي ﷺ:

[اللَّهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ][3].

ولا يصح أن يُقرأ هذا النص بمعزل عن سياق المواجهة العسكرية؛ فهو إعلان عن انتهاء مرحلة الإنذار والمواجهة، وليس قاعدة عامة في التعامل مع المخالفين خارج سياق الحرب.

ثانيًا: القراءة التربوية — حين تصبح القوة أمانة

تكشف رواية الراية عن معنى بالغ الأهمية في التربية القيادية: أن معيار تقديم الإنسان للمسؤولية ليس مجرد قدرته على الإنجاز، وإنما مجموع صفاته التي تؤهله لحمل القوة.

فالرسول ﷺ لم يقدم عليًا رضي الله عنه لمجرد الشجاعة العسكرية، وإنما وصفه بوصف إيماني عظيم: محبة الله ورسوله ومحبة الله ورسوله له. ثم إن الحديث نفسه يعيد توجيه معنى النصر؛ فبعد ذكر فتح الله على يده، يأتي توجيه علي رضي الله عنه إلى دعوة القوم، ويجعل هداية رجل واحد خيرًا من حمر النعم.

وهنا يظهر أن القوة حين تنفصل عن الغاية الأخلاقية يمكن أن تتحول إلى مجرد قدرة على الإخضاع، أما حين ترتبط بالهداية والعدل وحفظ المقصد الشرعي فإنها تصبح وسيلة لتحقيق غاية أعلى.

وهذا قريب من المعنى الذي يبرزه الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة؛ فالقوة في المنهج النبوي ليست انفصالًا عن الدعوة، وإنما تأتي في سياق حماية الجماعة وتمكينها من أداء رسالتها. كما يلفت الغضبان إلى أن التربية التي صنعت الجيل الأول لم تكن تربية على الحماسة المجردة، وإنما على الانضباط والطاعة وربط الحركة بالغاية، وينبه المباركفوري، في عرضه لأحداث خيبر، إلى طبيعة التحول الذي طرأ على موقع المسلمين بعد الحديبية، وما أصبح يتيحه ذلك من التعامل مع مصادر الخطر والموارد بصورة أكثر اتساعًا[4].

ومن هنا لا ينبغي أن نستخرج من خيبر مجرد درس في "القوة"، بل درسًا أدق: القوة التي لا تضبطها غاية أخلاقية قد تصبح عبئًا على صاحبها، أما القوة التي تضبطها المسؤولية فتتحول إلى أداة لحماية الجماعة وإقامة العدل وتحقيق المقاصد المشروعة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من الروايات السابقة – في حدود دلالتها – ثلاثة معانٍ:

١. أن الكفاءة القيادية لا تنفصل عن الأهلية الأخلاقية، وهذا استنباط من طريقة اختيار حامل الراية ووصفه قبل ذكر النصر.

٢. أن استعمال القوة لا يلغي المقصد الدعوي والأخلاقي، ويظهر ذلك بوضوح في توجيه النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه إلى دعوة القوم قبل القتال.

٣. أن نسبة النصر إلى الله لا تعني ترك الأسباب؛ فالحديث يجمع بين قوله ﷺ: [يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ] وبين اختيار القائد، وإعطائه الراية، وتوجيهه إلى العمل.

ولا يصح أن ننتقل من هذه المعاني إلى القول بأن السيرة وضعت "نظرية حديثة لإدارة القوة"؛ فهذا تحميل للنصوص ما لا تحتمل. إنما الذي تدل عليه الروايات بوضوح هو اجتماع الإيمان والكفاءة والانضباط والغاية في الممارسة القيادية النبوية.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في المؤسسات والمشروعات: يمكن الإفادة من هذا المعنى في عدم اختيار أصحاب المسؤوليات الكبرى على أساس القدرة الفنية وحدها، بل بالنظر كذلك إلى الأمانة والانضباط والقدرة على استعمال القوة أو النفوذ في حدود الغاية المشروعة.

في القيادة: لا ينبغي أن تتحول القدرة إلى استعلاء، ولا أن يصبح النجاح سببًا لنسيان الغاية التي من أجلها مُنحت المسؤولية.

وهذه تطبيقات معاصرة مستنبطة، وليست وقائع تاريخية من خيبر، ولا يصح نسبتها إلى النبي ﷺ بهذا اللفظ.

المبحث الثاني: إدارة الموارد والتعامل مع المهزومين

أولًا: الرواية التاريخية — من الفتح إلى إدارة الأرض

إذا كانت المواجهة العسكرية هي الوجه الأول من قصة خيبر، فإن الوجه الآخر بدأ بعد انتهاء القتال: ماذا يُفعل بالأرض؟ وكيف تُدار مواردها؟ وكيف يُتعامل مع أهلها؟

وتكشف الروايات الصحيحة أن النبي ﷺ لم يتعامل مع أرض خيبر بمنطق تركها معطلة، بل أقر أهلها على العمل فيها على نصيب معلوم من الثمر والزروع.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

[أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ][5].

وفي رواية أخرى:

[أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَفَعَ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ نَخْلَ خَيْبَرَ وَأَرْضَهَا عَلَى أَنْ يَعْتَمِلُوهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَطْرُ ثَمَرِهَا][6].

وهذه الرواية مهمة للغاية؛ لأنها تبين أن انتهاء الحرب لم يؤدِّ إلى إلغاء الخبرة الزراعية القائمة أو تعطيل الإنتاج؛ فقد بقي أهل الأرض يعملون فيها، واستمر الإنتاج، وجُعلت حصة معلومة بين الطرفين.

وتذكر روايات صحيحة أن هذا الإقرار لم يكن عقدًا أبديًا غير قابل للتغيير؛ فقد قال النبي ﷺ في شأن بقائهم:

[نُقِرُّكُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا][7].

وتكشف هذه العبارة عن طبيعة الترتيب الذي قام بين الطرفين في ذلك الظرف التاريخي، وأنه كان مرتبطًا بإرادة السلطة القائمة وشروطها، وليس حقًا أبديًا لا يتغير.

كما تكشف السنة عن جانب آخر من إدارة المال في خيبر، هو التشديد على الأمانة في الغنائم؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن المسلمين لما فتحوا خيبر لم يغنموا ذهبًا ولا فضة، وإنما أصابوا البقر والإبل والمتاع والحدائق، وأن غلامًا كان يعمل للنبي ﷺ أصابه سهم فمات، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة، فقال النبي ﷺ:

[كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا].

فلما سمع رجل ذلك جاء بشراك أو شراكين فقال: أخذتهما يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ:

[شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ، أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ][8].

وهذا النص لا يتعلق بتفصيل مالي هامشي، بل يضع مبدأ شديد الوضوح في إدارة الموارد العامة: أن المال الذي لم يأذن الشرع في أخذه لا يصبح مباحًا لمجرد وجوده في أرض المعركة، وأن الغنائم لها نظام وقسمة، وليست مجالًا للفوضى الفردية.

وفي المقابل، نجد أن النبي ﷺ أقر أهل خيبر على استثمار أرضهم بنظام معلوم من المشاركة في الناتج، فاجتمع في الواقعة حفظ الحق العام، واستمرار الإنتاج، والاستفادة من خبرة أهل الأرض، وربط الاستحقاق بالناتج الفعلي.

ثانيًا: القراءة التربوية — العدل بعد القوة

من السهل أن يتحدث الإنسان عن العدل قبل امتلاك القوة، لكن الامتحان الحقيقي يظهر حين تصبح القوة في يده.

ولهذا فإن إدارة خيبر بعد الفتح تكشف عن معنى تربوي لا يقل أهمية عن مشهد القتال نفسه: أن الانتصار لا يمنح صاحبه حق الفوضى.

فالرسول ﷺ لم يترك مسألة الغنائم للأفراد، ولم يسمح أن يتحول المال المكتسب في الحرب إلى مجال للاختلاس الشخصي، وفي الوقت نفسه، لم يؤدِّ انتقال السيطرة على الأرض إلى إلغاء القيمة الإنتاجية لأهلها، بل استُفيد من خبرتهم الزراعية ضمن ترتيب محدد.

وهنا تلتقي عدة معانٍ: العدل، والانضباط، وحفظ المال العام، والاستفادة من الخبرة، وربط الحقوق بالعمل والإنتاج.

ويبرز هذا المعنى في كتب السيرة والفقه التي تناولت خيبر؛ فالشيخ محمد الغزالي يلفت في عرضه للسيرة إلى أن الإسلام لم يكن يبني مجتمعًا روحيًا منعزلًا عن حركة الحياة، وإنما كان يتعامل مع الواقع ومشكلاته ومصالحه، والمباركفوري يعرض ما ترتب على فتح خيبر من موارد وأوضاع جديدة للدولة الإسلامية. أما الغضبان فيربط أحداث السيرة بالجانب التربوي، ولا سيما تربية الجيل الأول على الانضباط والطاعة وعدم الانفصال بين العبادة والسلوك العملي[9].

وتؤكد الرواية الخاصة بالغنيمة أن التربية المالية كانت حاضرة حتى في ميدان الحرب؛ إذ لم يكن الاستشهاد سببًا لإسقاط المساءلة عن المال المأخوذ بغير حق، وهذا يعمق معنى الأمانة: قد يكون الإنسان مجاهدًا أو عاملًا في مشروع صالح، لكن ذلك لا يبرر له التعدي على المال العام.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

من هذه الوقائع يمكن الإفادة من عدة معانٍ، دون الادعاء بأنها "نظرية اقتصادية نبوية" بالمعنى المعاصر:

أولًا: الموارد العامة تحتاج إلى نظام.

فالغنائم لم تكن ملكًا مباحًا لكل فرد يأخذ منها ما شاء، وإنما كانت لها أحكامها وقسمتها.

ثانيًا: القوة لا تلغي الخبرة.

فإبقاء أهل خيبر على العمل في الأرض يدل على إمكان الاستفادة من خبرة من كان قائمًا على مورد ما، حتى بعد تغير السلطة عليه، متى كان ذلك داخل الترتيب المشروع.

ثالثًا: استمرار الإنتاج مقصد معتبر في إدارة الموارد.

فالترتيب الذي أبقى الأرض عامرة وأهلها عاملين فيها كان أكثر اتصالًا بواقع الأرض من تحويلها إلى مورد معطل.

رابعًا: العدالة ليست شعارًا في توزيع المال، بل نظامًا يمنع الاستئثار والتعدي.

وهذا يظهر في منع الغلول، وفي تنظيم الحقوق، وفي تحديد نصيب كل طرف.

لكن ينبغي التوقف هنا عند حدود الاستنباط؛ فلا يصح القول إن ترتيب خيبر يساوي مباشرة نظامًا زراعيًا أو اقتصاديًا معاصرًا، ولا أن يجعل منه نموذجًا ملزمًا لكل زمان. إنما يدل على ممارسة تاريخية نبوية محددة، وأحكام شرعية في الغنائم والمعاملات، ومعانٍ عامة يمكن النظر في الإفادة منها.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في المؤسسات والدول والمشروعات، يمكن الإفادة من هذه المعاني في:

- وضع أنظمة واضحة لإدارة الموارد العامة.
- منع الانتفاع الشخصي غير المشروع بالمال المشترك.
- الاستفادة من الخبرات الموجودة بدل إهدارها لمجرد تغير الإدارة.
- ربط إدارة الموارد بالإنتاج والكفاءة والعدالة.
- التفريق بين الملكية، والإدارة، والانتفاع، والاستحقاق.

وهذه إفادات معاصرة، وليست وصفًا لنظام اقتصادي حديث أقامه النبي ﷺ في خيبر بهذا الاصطلاح.

المبحث الثالث: الاقتصاد وإدارة المال في الدولة النبوية

أولًا: الرواية التاريخية — خيبر والموارد في الدولة الناشئة

كان فتح خيبر ذا أثر اقتصادي واضح في الدولة الإسلامية؛ فالمنطقة كانت غنية بالزراعة والتمور والأراضي المنتجة، وقد أصبحت مواردها جزءًا من الواقع المالي للدولة والمجتمع.

وتروي عائشة رضي الله عنها:

[وَلَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا: الْآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْرِ][10].

وقد تبدو العبارة لأول وهلة خبرًا عابرًا، لكنها تكشف عن حقيقة اقتصادية عاشها المجتمع المسلم: أن توفر الموارد الزراعية والغذائية كان له أثر مباشر في مستوى المعيشة.

ولذلك لا يمكن قراءة خيبر بوصفها حدثًا عسكريًا فقط؛ فبعد الفتح ظهرت أمام الدولة موارد تحتاج إلى إدارة وتقويم وتقسيم ومتابعة.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أبقى يهود خيبر يعملون في أرضها على أن يكون له وللمسلمين نصف ما يخرج منها، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما:

[أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ][11].

وكان هذا يتطلب قدرًا من الإدارة والمتابعة والتقدير؛ إذ تذكر الروايات إرسال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى خيبر لتقدير الثمار.

وجاء في رواية أبي داود عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر، فيخرص النخل حين يطيب قبل أن يؤكل منه[12].

وهذه الرواية — مع التنبيه إلى الكلام في إسناد هذه الطريق بعينها — تتفق مع الروايات الأخرى في أصل إرسال ابن رواحة لتقدير الثمر، وتساعد على فهم صورة الإدارة المالية التي كانت قائمة على تقدير الناتج ومتابعة القسمة.

وتروي بعض الروايات أن ابن رواحة حين قدم لتقدير الثمر اعترض عليه أهل خيبر، ثم قال لهم ما معناه إنه لا يمنعه من العدل بغضهم، ولا يدفعه إلى الجور إغراء المال، وقد ورد في الموطأ:

[يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَاكَ يَحْمِلُنِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ][13].

وتتضمن الرواية كذلك رفضه ما عُرض عليه من حلي النساء مقابل تخفيف التقدير، فقال لهم إن ما عرضوه حرام وإنه لا يمسه[13].

وهذا الأثر، مع اختلاف أهل الحديث في بعض طرقه وتفاصيله، ينسجم مع أصل ثابت تؤكده الروايات الصحيحة: أن تقدير الحقوق المالية لم يكن مجالًا للمحاباة أو الخيانة، وأن الإدارة المالية في المجتمع النبوي كانت مرتبطة بالأمانة.

ثانيًا: التمييز بين الغنيمة والفيء

ومن الضروري هنا، من الناحية العلمية، ألا نخلط بين الغنيمة والفيء.

فالغنيمة في الاصطلاح الفقهي هي ما أخذه المسلمون من أموال العدو بالقتال، وقد بين القرآن حكمها في قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ * الأنفال: ٤١.

أما الفيء فهو ما أفاء الله به على المسلمين من أموال من غير إيجاف خيل ولا ركاب، وقد فصل القرآن بعض أحكامه في سورة الحشر، قال تعالى:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ * الحشر: ٧[14].

وقد وقع خلاف بين أهل العلم في تصنيف بعض أموال خيبر وتفصيل أحكام أراضيها؛ ولذلك فالأدق في الكتاب أن نقول إن خيبر اشتملت على غنائم وأراضٍ وموارد زراعية جرى التعامل معها بأحكام وتفاصيل متعددة، بدل إطلاق وصف واحد على جميع ما فيها دون تفصيل.

وهذا التفريق مهم؛ لأن المقصود من الدراسة ليس صناعة تعميمات فقهية من حادثة تاريخية مركبة، وإنما فهم كيفية انتقال المجتمع النبوي من مرحلة الحصول على الموارد إلى مرحلة إدارتها وتنظيمها.

ثالثًا: خيبر والمال العام

تقدم خيبر أيضًا صورة عن أن المال في الدولة الناشئة لم يكن مجرد ثروة تُجمع، بل كان جزءًا من مسؤولية شرعية.

فقد ظهر ذلك في ضبط الغنائم، وفي منع الغلول، وفي توزيع الحقوق، وفي إدارة الأرض، وفي متابعة الإنتاج.

والنبي ﷺ نفسه كان يضبط المال حتى في الحالات التي قد يتساهل فيها الناس، وفي حديث الغلول السابق، لم يمنع كون الرجل قد مات في سبيل الله من بيان خطورة أخذه شيئًا من المال قبل قسمته.

وهذا ينسجم مع أصل قرآني أوسع في التعامل مع المال، وهو قوله تعالى:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ * الحشر: ٧.

فالمال في التصور الإسلامي ليس غاية مستقلة، ولا ينبغي أن يتحول إلى أداة لترسيخ احتكار فئة محدودة له، والآية في سياق أحكام الفيء، ولذلك لا يصح اقتطاعها من سياقها لتحويلها إلى شعار اقتصادي عام منفصل عن حكمها الشرعي، لكن معناها في منع دوران المال في دائرة ضيقة يظل حاضرًا في بناء التصور الإسلامي للمال العام والتكافل الاجتماعي[15].

رابعًا: السوق والاقتصاد المدني — وما علاقته بخيبر؟

أما الحديث عن السوق، فلا ينبغي نسبته مباشرة إلى خيبر، لأن تأسيس السوق في المدينة كان جزءًا من بناء المجتمع المدني، وليس نتيجة مباشرة لفتح خيبر.

وقد وردت رواية عن أبي أسيد الساعدي أن النبي ﷺ ذهب إلى سوق، ثم قال:

[هَذَا سُوقُكُمْ، فَلَا يُنْتَقَصَنَّ، وَلَا يُضْرَبَنَّ عَلَيْهِ خَرَاجٌ][16].

غير أن هذه الرواية في سنن ابن ماجه قد تكلم أهل الحديث في إسنادها، ولذلك لا ينبغي جعلها وحدها أساسًا لبناء حكم تاريخي قطعي حول تفاصيل النظام التجاري في المدينة.

والأدق منهجيًا أن نقول: إن الدولة النبوية عرفت حركة اقتصادية وتجارية، وإن تنظيم السوق ومراقبة المعاملات ظهر في المجتمع المدني، وإن خيبر أضافت إلى الدولة موردًا زراعيًا مهمًا. لكن لا ينبغي دمج هذه الوقائع في صورة واحدة والقول إن خيبر أنشأت نظام السوق النبوي.

وهذا النوع من التمييز هو ما يحفظ للبحث قيمته العلمية؛ إذ لا يكفي أن تكون الفكرة جميلة أو مناسبة للمشروع التربوي، بل لا بد أن يكون لكل واقعة موضعها، ولكل دليل دلالته.

خامسًا: القراءة التربوية — حين يصبح المال امتحانًا للتمكين

كان المجتمع المكي قد تربى على الزهد والصبر والتحمل، ثم وجد نفسه في المدينة أمام واقع آخر: موارد، وأراضٍ، وأسواق، وغنائم، وحقوق، ومسؤوليات عامة.

وهنا يظهر جانب من التربية التي لا تقل أهمية عن تربية الاستضعاف: تربية الإنسان على التعامل مع القوة والمال بعد أن كان يتعامل مع الحرمان والأذى.

فالابتلاء ليس دائمًا بالفقر، كما أن الاختبار ليس دائمًا بالخوف؛ قد يكون الابتلاء بالمال، وبالقدرة، وبالسلطة، وبإمكان الوصول إلى ما كان الإنسان محرومًا منه.

ومن هذه الزاوية يمكن فهم أهمية موقف النبي ﷺ من الغلول، وأهمية ضبط القسمة، وأهمية تنظيم علاقة الدولة بالموارد؛ فالذي تربى على الصبر في مكة لا بد أن يتعلم كذلك كيف لا يفسده المال في المدينة.

وهذا المعنى ينسجم مع المنهج التربوي الذي يبرزه الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة؛ فالسيرة عنده ليست سلسلة من الوقائع العسكرية والسياسية، وإنما مدرسة لتكوين الإنسان الذي يستطيع أن يحمل أعباء الرسالة في اختلاف الظروف، ويؤكد الغضبان في قراءته التربوية للسيرة أن التربية النبوية لم تكن منفصلة عن مقتضيات المرحلة، بل كانت تهيئ الصحابة لكل طور من أطوار المسؤولية. أما المباركفوري فيعرض التحول الذي أحدثته الفتوحات في الوضع الاقتصادي والسياسي للمجتمع المسلم، مع إبراز الوقائع في سياقها التاريخي[17].

وهكذا يصبح الانتقال من مكة إلى المدينة، ومن الاستضعاف إلى التمكين، انتقالًا في نوعية الامتحان أيضًا: من امتحان الصبر على فقد القوة إلى امتحان حسن استعمال القوة، ومن امتحان الصبر على قلة المال إلى امتحان الأمانة حين تتسع الموارد.

سادسًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نخرج من خيبر بعدد من المعاني العامة:

١. التمكين يخلق مسؤوليات جديدة.

فالنجاح العسكري أو السياسي لا ينهي التحديات، وإنما ينقلها إلى مستوى آخر: إدارة الأرض والمال والناس والموارد.

٢. المورد لا يكفي، بل لا بد من إدارته.

فالأرض المنتجة تحتاج إلى عاملين، وإلى تقدير للناتج، وإلى نظام للقسمة، وإلى متابعة.

٣. الأمانة المالية جزء من التدين.

والنصوص الواردة في الغلول تؤكد أن الصلاح لا يسقط أحكام المال، وأن العمل في سبيل الله لا يمنح صاحبه رخصة في الاعتداء على المال العام.

٤. الخبرة عنصر معتبر في إدارة الموارد.

والاستمرار في استثمار أهل خيبر لأرضهم يقدم مثالًا تاريخيًا على إمكان الانتفاع بالخبرة المتخصصة ضمن ترتيب مشروع.

٥. العدالة ليست نقيض القوة.

بل إن القوة حين تضبطها العدالة تكون أقدر على بناء الاستقرار من القوة التي تتحرك بمنطق الانتقام.

وهذه المعاني استنباطات تحليلية من مجموع الوقائع، وليست عبارات وردت في السيرة بهذا الاصطلاح.

سابعًا: التطبيقات المعاصرة

إذا أردنا الإفادة من هذه الدلالات في واقعنا، فإن المجال الأوضح ليس في محاولة استنساخ نظام خيبر، وإنما في استحضار المبادئ العامة:

في إدارة المؤسسات: لا يكفي أن تمتلك المؤسسة الموارد؛ بل تحتاج إلى نظام واضح في إدارتها، وتحديد المسؤوليات، ومراقبة الإنفاق، ومنع تضارب المصالح.

في إدارة الثروات العامة: ينبغي أن تُعامل الموارد العامة باعتبارها أمانة، لا مجالًا للمنافع الشخصية أو الاستئثار.

في إدارة الخبرات: لا ينبغي أن يكون تغير الإدارة سببًا لإهدار الخبرات المتراكمة؛ بل يمكن الاستفادة من أصحاب الخبرة متى أمكن ذلك ضمن إطار عادل ومنظم.

في الاقتصاد: ينبغي أن يرتبط المال بالإنتاج والعمل والمصلحة العامة، لا بمجرد الاحتكار أو المضاربة على حساب المجتمع.

في التربية: يحتاج الإنسان إلى تربية على المال كما يحتاج إلى تربية على الفقر؛ فالتعامل مع الوفرة قد يكون امتحانًا أشد من التعامل مع الحرمان.

وهذه كلها تطبيقات معاصرة مستنبطة من القراءة، وليست أحكامًا تاريخية منسوبة إلى خيبر.

الخلاصة:

تكشف خيبر عن مرحلة مختلفة من مسار السيرة؛ مرحلة لم تعد فيها القضية مقتصرة على حماية الجماعة من الاستئصال، بل أصبحت القوة والموارد جزءًا من مسؤولية المجتمع والدولة.

وفي المشهد العسكري، يظهر النبي ﷺ قائدًا يربط القوة بالغاية، ويختار حامل الراية على أساس الأهلية، ويأمر بالدعوة قبل القتال، ويجعل هداية الإنسان غاية أرفع من المكاسب المادية.

وفي المشهد الاقتصادي، تظهر خيبر بوصفها أرضًا منتجة دخلت في نطاق إدارة الدولة، مع إبقاء أهلها على العمل فيها ضمن ترتيب معلوم من الناتج، وتظهر في الوقت نفسه صرامة السنة في منع الغلول والاعتداء على المال قبل قسمته.

أما في المستوى الأوسع، فإن خيبر تعلمنا أن التمكين ليس لحظة انتصار، وإنما بداية لامتحان جديد: كيف تُدار القوة؟ وكيف تُصان الأمانة؟ وكيف تُحفظ الموارد؟ وكيف يتحول المال من غنيمة عابرة إلى مورد يدخل في حياة المجتمع؟

ومن هنا يمكن صياغة القانون المستنبط من هذا الفصل — بصياغة احترازية لا تدعي أنه نص شرعي أو قاعدة تاريخية مطلقة — على النحو الآتي:

كلما اتسعت قدرة الجماعة ومواردها، اتسعت معها مسؤوليتها في ضبط القوة، وصيانة المال، وإدارة الموارد بالعدل والكفاءة.

وهذا القانون ليس نصًا من السيرة، وإنما استنباط تحليلي من مجموع الوقائع التي عرضها الفصل، ويمكن الإفادة منه في دراسة تجارب التمكين والإدارة في واقعنا المعاصر، دون ادعاء أن صورة خيبر قابلة للاستنساخ في كل زمان ومكان.

الهوامش والمراجع

1الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، القاهرة؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء؛ وينظر كذلك: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي؛ وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي؛ وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، في أخبار خيبر وما اتصل بها.

2أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وفيه قصة إعطاء الراية لعلي رضي الله عنه وتوجيهه إلى الدعوة قبل القتال، وأصل الحديث في صحيح البخاري برقم ٣٧٠١، وقد وردت رواياته بألفاظ متقاربة.

3أخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه في قصة إقبال النبي ﷺ على خيبر، وفيه قوله ﷺ: "الله أكبر، خربت خيبر...". ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر.

4الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، في أخبار خيبر وما سبقها وما ترتب عليها.

5أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع".

6أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه: "دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها على أن يعتملوها من أموالهم، ولرسول الله ﷺ شطر ثمرها".

7أخرجه البخاري في قصة معاملة أهل خيبر، وفيه قول النبي ﷺ: "نقركم على ذلك ما شئنا". ينظر: صحيح البخاري، حديث ابن عمر في معاملة أهل خيبر.

8أخرجه البخاري في قصة مدعم غلام النبي ﷺ، وفيه إنكار النبي ﷺ أخذ الشملة من الغنيمة قبل قسمتها، وما ترتب على ذلك من الوعيد. ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول.

9الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ المباركفوري، الرحيق المختوم؛ الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية؛ وابن القيم، زاد المعاد، في أخبار خيبر وأحكامها.

10أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قولها: "ولما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر."

11أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

12رواه أبو داود في سننه في باب الخرص، من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي إسناده كلام، ولذلك لم يُجعل هذا الطريق وحده أساسًا للحكم، وإنما يُذكر في سياق مجموع الروايات المتعلقة بتقدير ثمر خيبر.

13رواه مالك في الموطأ في كتاب المساقاة، في قصة تقدير عبد الله بن رواحة لثمر خيبر، وفيها إنكاره المحاباة وقوله لأهل خيبر إنه لا يحمله بغضه لهم على الحيف عليهم، وينبغي التعامل مع تفاصيل هذه الرواية بحسب درجتها الحديثية، مع ثبوت أصل معاملة أهل خيبر في الصحيح.

14سورة الأنفال، الآية ٤١؛ وسورة الحشر، الآية ٧، وقد فرق أهل العلم بين الغنيمة والفيء من حيث سبب حصول المال وأحكامه، وينظر في تفسير ذلك: الطبري، جامع البيان، عند تفسير آيتي الأنفال والحشر؛ وقد بسط الطبري الفرق بين الغنيمة والفيء في تفسيره.

15سورة الحشر، الآية ٧، في سياق أحكام الفيء، مع التنبيه إلى عدم إخراج الآية عن سياقها الفقهي والتاريخي.

16رواه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، بلفظ: "هذا سوقكم فلا ينتقصن ولا يضربن عليه خراج"، وقد ضعّف بعض أهل الحديث إسناده؛ ولذلك لا ينبغي بناء تفاصيل قطعية عن نظام السوق النبوي عليه منفردًا.

17الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ المباركفوري، الرحيق المختوم؛ الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، مع الاستفادة من ابن هشام، السيرة النبوية؛ وابن كثير، البداية والنهاية؛ وابن القيم، زاد المعاد، في استقراء التحولات التي طرأت على المجتمع الإسلامي في المدينة بعد اتساع موارده وقدرته.

الفصل الثامن عشر: فتح مكة — لحظة التمكين الكبرى

لم يكن فتح مكة حادثة عسكرية منفصلة عن سياق السيرة، ولم يكن مجرد انتصار حاسم على الخصم الذي أخرج المسلمين من ديارهم وعذّبهم وحاربهم سنوات طويلة؛ بل كان ثمرة مسار طويل من التربية، والهجرة، وبناء المجتمع، وإدارة الصراع، والصبر على مراحل القوة والضعف، ثم حسن استثمار اللحظة حين نضجت أسبابها.

فمكة التي خرج منها النبي ﷺ مطاردًا، وعاد إليها بعد نحو ثماني سنوات على رأس جيش كبير، لم تكن مجرد مدينة تُفتح بالسلاح؛ كانت موطن الدعوة الأول، ومهد الاضطهاد، والقبلة التي توجه إليها المسلمون، والبيت الذي أراد النبي ﷺ أن يطهّره من الشرك، ولذلك فإن قراءة الفتح لا تكتمل عند لحظة دخول الجيش مكة، وإنما تبدأ من السؤال الأعمق: كيف وصلت الدعوة إلى هذه اللحظة؟ وكيف أدار النبي ﷺ القوة حين أصبحت في يده؟

وهنا تتضح خصوصية هذا الفصل في مسار السيرة؛ فقد كشفت مكة في بدايات الدعوة عن قدرة المؤمن على الثبات وهو ضعيف، وكشفت المدينة عن قدرة الجماعة على البناء والتنظيم، أما فتح مكة فكشف عن امتحان آخر: كيف يتصرف المشروع حين يمتلك القوة؟

إن الضعف قد يفرض على الإنسان الصبر، أما القوة فتضع أمامه اختبارًا أشد تعقيدًا: هل تتحول القوة إلى انتقام، أم تبقى خادمة للحق؟ وهل يصبح النصر مناسبة لتصفية الحسابات، أم فرصة لإعادة بناء المجتمع؟ وهل يستطيع القائد أن ينتقل من إدارة الصراع إلى إدارة ما بعد الصراع؟

ومن هذه الزاوية يمكن قراءة فتح مكة بوصفه إحدى أهم اللحظات التي تجتمع فيها في السيرة معاني الرؤية البعيدة، والتخطيط، والحسم، وضبط القوة، والعفو، وتأليف القلوب، وإعادة بناء المجتمع.

المبحث الأول: كيف وصل المشروع إلى هذه اللحظة؟

مسار التمكين من الحديبية إلى الفتح

أولًا: الرواية التاريخية — حين نقضت قريش ما تعهدت به

لم يبدأ فتح مكة بقرار مفاجئ، وإنما سبقه تحول سياسي وعسكري مهم صنعته صلح الحديبية؛ فقد عقد النبي ﷺ مع قريش هدنةً تضع الحرب أوزارها، وتتيح لكل طرف أن يأمن الآخر، وكان من بنود الاتفاق أن من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه؛ فدخلت خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش.

وهذا التفصيل مهم لفهم الفتح؛ لأن الحدث الذي فجّر الأزمة لم يكن مجرد مواجهة عسكرية عارضة، بل كان نقضًا لنظام العهد الذي قامت عليه الهدنة.

فقد أغارت بنو بكر على خزاعة، وأمدتهم قريش بالسلاح والرجال، وكان في ذلك اعتداء على قبيلة دخلت في عهد النبي ﷺ، ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ لم يتعامل معه بوصفه حادثًا قبليًا منفصلًا، وإنما نظر إليه في إطار العهد القائم، وتذكر كتب السيرة أن خزاعة بعثت عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة يستنصر رسول الله ﷺ، وأنه أنشده شعرًا يذكر فيه ما وقع عليهم من الاعتداء.

وفي هذه المرحلة حاول أبو سفيان أن يتدارك الأمر، فقدم إلى المدينة يريد تجديد العهد، لكنه لم ينجح في ذلك، وهنا أصبح الموقف متجهًا إلى الحسم، خصوصًا بعد أن استقر للنبي ﷺ أن قريشًا لم تحفظ العهد الذي التزمت به.

ويعرض ابن هشام تفاصيل هذه الأحداث في سياق حديثه عن أسباب الفتح، كما يربط ابن كثير بين نقض العهد وبين خروج النبي ﷺ إلى مكة، ويجعل ابن القيم الحديبية وما تلاها جزءًا من مسار متصل انتهى بفتح مكة[1].

ولم يكن النبي ﷺ يريد أن تتحول العملية إلى مواجهة مفتوحة منذ بدايتها؛ لذلك حرص على التكتم على وجهته حتى لا تستعد قريش، ودعا أصحابه إلى الاستعداد للخروج، ثم خرج في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، حتى بلغ عدد جيشه نحو عشرة آلاف من المسلمين[2].

وهنا تظهر نقطة جوهرية في إدارة الحدث: لم يكن المقصود مجرد جمع أكبر قوة ممكنة لخوض معركة، وإنما إحداث تحول في ميزان القوة يجعل المقاومة أقل احتمالًا.

ولما اقترب الجيش من مكة، أمر النبي ﷺ بإيقاد النيران، فكانت كثرة النيران ليلًا ذات أثر واضح في إظهار ضخامة القوة القادمة. ثم دخلت مكة في يوم الفتح، وقد جعل النبي ﷺ لعدد من قادة الجيش مداخل مختلفة، وأمرهم ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

ويروي أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر.[3]

كما ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الفتح:

[إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهَا إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، فَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يُفْدَى وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ].

ثم قال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم؛ فقال رسول الله ﷺ: [إِلَّا الْإِذْخِرَ][4].

وهذا النص، وإن كان في سياق أحكام حرمة مكة، يكشف جانبًا من شخصية القيادة النبوية في لحظة الانتصار: فحتى المدينة التي كانت ساحة الصراع لا تُترك للفوضى، ولا تتحول لحظة الغلبة إلى انفلات من الضوابط.

ثانيًا: القراءة التربوية — النصر ثمرة مسار لا لحظة منفصلة

من الخطأ التربوي أن نقرأ فتح مكة وكأنه نتيجة مباشرة لتفوق عسكري عابر؛ فالفتح جاء بعد سنوات من بناء الإنسان، والهجرة، وبناء الدولة، والمواجهة العسكرية، والصلح، وتغير موازين القوى.

وهذا المعنى حاضر بقوة في قراءة الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ فالحديبية عنده ليست تنازلًا منفصلًا عن الفتح، وإنما مرحلة من مراحل النضج الذي أتاح للمسلمين بعد ذلك الانتشار والحركة في ظروف أكثر ملاءمة.[5] ويؤكد المباركفوري أن صلح الحديبية أحدث تحولًا كبيرًا في موقع المسلمين، وأن الهدنة أتاحت لهم مساحة أوسع للدعوة والاتصال بالقبائل[6].

أما الغضبان فيقرأ هذا المسار من زاوية تربوية وحركية، فيبرز قيمة المرحلة التي تسبق التمكين، وأن البناء لا يقاس فقط بالنتيجة النهائية، وإنما بالتحولات التي تصنع القدرة على حملها[7].

وهنا يمكن أن نفهم الفتح في ضوء سنة قرآنية عامة: النتائج الكبرى لا تُفهم بمعزل عن تراكم المراحل السابقة.

فالفتح لم يلغِ الحديبية، ولم يكن الحديبية خروجًا من طريق الفتح؛ بل كان جزءًا من الطريق إليه.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذا المسار – لا بوصفه نصًا شرعيًا مستقلًا، وإنما بوصفه قراءة في تسلسل الأحداث – أن التمكين في السيرة لم يكن قفزة مفاجئة، بل نتيجة تراكمية لبناء الإنسان والمجتمع وإدارة المراحل.

كما يظهر أن القوة الناجحة ليست مجرد امتلاك العدد والسلاح، بل القدرة على توظيفهما في لحظة مناسبة وبهدف واضح.

ولا يعني ذلك أن كل مشروع معاصر يمكنه أن يستنسخ مراحل السيرة حرفيًا؛ فالوقائع النبوية مرتبطة بسياقها التاريخي والوحي والتكليف النبوي، وإنما يمكن الإفادة من المبدأ العام: أن القرارات الكبرى تكون أكثر نضجًا حين تأتي ثمرةً لبناء سابق، لا محاولةً لتعويض غياب البناء.

رابعًا: التطبيقات المعاصرة

في العمل الإصلاحي والمؤسسي، يمكن الإفادة من هذا المعنى في عدم اختزال النجاح في لحظة الظهور أو التوسع؛ فالمؤسسة التي تصل إلى موقع تأثير بعد سنوات من بناء الإنسان، وإتقان العمل، وتراكم الخبرة، تكون أقدر على تحمل مسؤولية القوة من مؤسسة قفزت إلى الواجهة دون بنية داخلية. وهذا تطبيق معاصر واستنباط بشري، وليس وصفًا تاريخيًا لما كان يقصده النبي ﷺ في كل جزئية من جزئيات العمل المؤسسي الحديث.

المبحث الثاني: إظهار القوة دون حرب

التخطيط العسكري ودخول مكة سلميًا

أولًا: الرواية التاريخية — القوة التي استُخدمت لتجنب الحرب

حين أصبح خروج المسلمين إلى مكة واقعًا، لم يكن النبي ﷺ يجهل أن قريشًا قد تقاوم، لكنه في الوقت نفسه لم يجعل الحرب هدفًا بذاتها.

ومن هنا جاءت جملة من التدابير التي تظهر فيها دقة التخطيط: المحافظة على سرية التحرك، جمع قوة كبيرة، الوصول إلى مكة من جهات متعددة، وإظهار القوة قبل الدخول، مع إصدار التوجيهات التي تحد من القتال.

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: [لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا][8]. والحديث وإن كان متعلقًا بانتهاء حكم الهجرة من مكة بعد فتحها، فإنه يضع الفتح في سياقه الصحيح: لقد تغيرت طبيعة المرحلة، وأصبحت مكة دار إسلام، فلم يعد المطلوب من المسلم أن يهاجر منها هربًا من الاضطهاد.

ومن النصوص المشهورة في أخبار الفتح أن النبي ﷺ أعلن الأمان لمن دخل دار أبي سفيان، ومن دخل المسجد، ومن أغلق بابه.[9] وقد اختلف أهل العلم في بعض تفاصيل الروايات المتعلقة بهذا الإعلان، لكن أصل الأمان لأهل مكة ثابت في روايات صحيحة، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين في إعلان النبي ﷺ أمن من دخل دار أبي سفيان، مع اختلاف بعض الألفاظ والروايات[10].

وكان من تدبير النبي ﷺ أن دخلت الجيوش مكة من جهات متعددة، ولم تقع مقاومة واسعة، ووقع قتال محدود في الجهة التي كان فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه، ثم استقر الأمر للمسلمين.

ودخل النبي ﷺ مكة متواضعًا لله، حتى إن الروايات تصف انحناءه على راحلته من شدة التواضع حين رأى ما فتح الله عليه[11].

ثم توجه إلى الكعبة، فطاف بها، وأمر بإزالة الأصنام التي حولها، وهو يردد:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ * الإسراء: ٨١.

وثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: [جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ][12].

وهنا تكتمل صورة الفتح: قوة عسكرية ضخمة، لكن الهدف لم يكن تحويل مكة إلى ساحة انتقام، بل إزالة العائق الذي وقف في وجه الدعوة، وإعادة البيت إلى التوحيد، وإدخال المجتمع المكي في مرحلة جديدة.

ثانيًا: القراءة التربوية — القوة المنضبطة

من أكثر ما يلفت النظر في الفتح أن النبي ﷺ لم يسمح للقوة بأن تتحول إلى فوضى.

فقد كان قادرًا على الدخول في مواجهة شاملة، لكنه اختار تقليل مساحة الصدام، وهذا ليس مجرد قرار عسكري، بل يحمل قيمة تربوية عميقة: القوة ليست في كثرة استعمال القوة، وإنما في القدرة على ضبطها وتوجيهها.

ويبرز الشيخ محمد الغزالي في قراءته للفتح أن النبي ﷺ لم يكن طالب انتقام، وأن فتح مكة جاء في إطار إتمام مسار الرسالة، لا إشباع رغبة شخصية في الثأر.[13] كما يعرض المباركفوري تفاصيل التدبير الذي سبق الدخول، ويبين أن الحسم تحقق مع تقليل القتال[14].

ومن زاوية التربية القيادية، كان هذا درسًا بالغ الأهمية للصحابة أنفسهم؛ فقد عاش كثير منهم سنوات من التعذيب والمصادرة والإخراج من الديار، ثم عادوا إلى مكة وهم أصحاب قوة، وهنا كان يمكن للماضي أن يتحول إلى وقود للانتقام، لكن القيادة النبوية أعادت توجيه اللحظة كلها من منطق الثأر إلى منطق الرسالة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن الإفادة من هذه الوقائع في تقرير مبدأ عام: إذا أصبحت القوة ضرورة لحماية الحق أو تحقيق مصلحة مشروعة، فإن حسن إدارتها يقتضي أن تكون منضبطة بالغاية والشرع، لا بالرغبة في الانتقام.

ولا يصح تحويل هذا الاستنباط إلى قاعدة عسكرية تفصيلية مستخرجة من فتح مكة، ولا القول إن كل موقف معاصر ينبغي أن يعالج بالطريقة نفسها، وإنما الذي يدل عليه الحدث بوضوح هو أن النبي ﷺ جمع بين الإعداد للقوة وبين تقليل استعمالها حين أمكن.

رابعًا: التطبيقات المعاصرة

في الإدارة والقيادة والمؤسسات، يمكن ترجمة هذا المبدأ بصورة سلمية: امتلاك القدرة لا يعني استعمالها في كل مناسبة، وامتلاك أدوات الحسم لا يعني تحويل الخلافات إلى معارك.

أما في المجالات التي تتصل بالقوة العامة أو الأمن أو السياسة، فالتطبيق يحتاج إلى ضوابط قانونية وشرعية وسياقية لا يمكن استخراج تفاصيلها من واقعة الفتح وحدها.

المبحث الثالث: العفو العام وتحويل النصر إلى بداية

أولًا: الرواية التاريخية – مكة التي دخلها النبي ﷺ ولم يجعل يوم فتحها يوم انتقام

كان فتح مكة لحظة يمكن أن تستدعي ذاكرة سنوات طويلة من الأذى: التكذيب، والتعذيب، والمقاطعة، ومحاولة قتل النبي ﷺ، وإخراج أصحابه، ومصادرة أموالهم، والحروب المتتالية.

ومع ذلك لم يكن خطاب النبي ﷺ بعد دخول مكة خطاب المنتصر الذي يريد إذلال خصمه.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأهل مكة: [مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟]

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال رسول الله ﷺ: [اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ][15]. وهذه الرواية مشهورة في كتب السيرة، وقد أوردها ابن هشام وغيره، مع اختلاف أهل الحديث في درجة بعض طرقها وألفاظها؛ ولذلك ينبغي عند الكتابة العلمية ألا تُعامل كل ألفاظ قصة العفو وكأنها في درجة واحدة من الثبوت.

ومن الثابت كذلك في صحيح مسلم أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر، ثم أعلن حرمة مكة، وأمر بعدم القتال إلا في حدود ما وقع من مواجهة، وأعلن الأمان لمن دخل داره وألقى سلاحه[16].

كما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: [إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ][17].

وهكذا لم يجعل النبي ﷺ النصر مبررًا لإطلاق اليد في المدينة، بل عاد فور استقرار الأمر إلى ضبط المجال العام بالشرع.

أما العبارة التي ترد كثيرًا في بعض الكتابات المعاصرة: [لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ] فهي مأخوذة من خطاب يوسف عليه السلام لإخوته في القرآن الكريم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ * يوسف: ٩٢.

وقد اشتهرت في بعض روايات السيرة في سياق فتح مكة، لكن لا يصح جعلها في مرتبة النصوص الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في هذا الموطن دون بيان حال الرواية[18].

وهذا التفريق ليس شكليًا؛ لأن البحث في السيرة يحتاج إلى التمييز بين القرآن، والحديث الصحيح، والرواية التاريخية، والرواية التي تختلف درجات ثبوتها.

ثانيًا: القراءة التربوية – حين يصبح العفو وسيلة لإعادة بناء الإنسان

العفو في فتح مكة لا ينبغي أن يُقرأ بوصفه مجرد موقف عاطفي؛ فقد كان له أثر في إعادة تشكيل العلاقة بين المسلمين وأهل مكة.

فالنبي ﷺ لم يكن يتعامل مع مجتمع مكي كله بوصفه كتلة ثابتة من العداء؛ فالناس الذين واجهوه بالأمس أصبح بعضهم من أعمدة الإسلام بعد الفتح.

وهذه الحقيقة تظهر في عدد من التحولات التي وقعت بعد الفتح، وفي دخول أهل مكة في الإسلام، وفي انتقال شخصيات كانت في مقدمة الخصومة إلى مواقع في المجتمع الإسلامي الجديد.

ويقرأ الشيخ محمد الغزالي هذا التحول في إطار أخلاقي عميق؛ فالفتح لم يكن فرصة لإشباع الغضب، وإنما كان لحظة يظهر فيها الفرق بين أخلاق الرسالة وأخلاق الانتقام[19].

ويؤكد ابن القيم أن النبي ﷺ جمع في يوم الفتح بين إزالة مظاهر الشرك، وتأمين الناس، وإقامة التوحيد، وتأليف القلوب، بما يناسب طبيعة المرحلة الجديدة[20].

ومن هنا تظهر قيمة العفو في سياق الفتح: لم يكن المقصود محو الذاكرة، وإنما منع الماضي من أن يتحول إلى عائق أمام المستقبل.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذا الحدث مبدأً أخلاقيًا وإداريًا عامًا: الانتصار لا يكتمل بمجرد التغلب على الخصم، وإنما يكتمل حين تستطيع تحويل لحظة الغلبة إلى استقرار وإصلاح وبناء.

لكن ينبغي ألا نبالغ في تعميم هذا المبدأ بحيث يصبح العفو واجبًا في كل حالة أو تجاه كل شخص؛ فالسيرة نفسها تدل على أن النبي ﷺ لم يتعامل مع جميع الأفراد بالطريقة نفسها، وأن هناك أشخاصًا استثنيوا في سياق الفتح لأسباب تتعلق بجرائم أو اعتداءات محددة[21].

إذن فالعفو النبوي لم يكن عفوًا فوضويًا، كما أن الحزم لم يكن انتقامًا؛ بل كان تمييزًا بين الحالات وفق المصلحة والحق والعدل.

رابعًا: التطبيقات المعاصرة: في المجتمعات التي تخرج من نزاع أو انقسام، يمكن الإفادة من هذا المبدأ في أهمية الانتقال من مرحلة الصراع إلى مرحلة إعادة البناء، وعدم تحويل كل مرحلة سياسية جديدة إلى عملية انتقام جماعي؛ كما لا يعني إسقاط سياسة الفتح على الدول والمجتمعات الحديثة، ولا يعني إلغاء العدالة أو المحاسبة القانونية، وإنما يعني أن العدالة وإعادة بناء المجتمع لا ينبغي أن تتحولا إلى ثأر مفتوح.

المبحث الرابع: إعادة تشكيل المجتمع المكي

من إسقاط الأصنام إلى تأليف القلوب

أولًا: الرواية التاريخية — تحرير المكان وإعادة بناء الإنسان

كان فتح مكة يحمل بعدًا دينيًا واضحًا، فالبيت الذي جعله الله مثابة للناس كان قد امتلأ بمظاهر الشرك، فدخل النبي ﷺ الكعبة وطهرها من الأصنام.

وثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة وحول البيت أصنام، فجعل يطعنها ويقول: [جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ][22].

ثم صلى النبي ﷺ في الكعبة، وأمر بلالًا رضي الله عنه أن يؤذن فوق الكعبة[23].

ولم يكن ذلك مجرد تغيير لمشهد مادي؛ فقد كان إعلانًا بأن مكة دخلت طورًا جديدًا من تاريخها الديني والاجتماعي.

وفي الوقت نفسه لم يكن النبي ﷺ يسعى إلى محو المجتمع المكي أو إقصائه، بل بدأ بعد الفتح في التعامل مع أهله بوصفهم جزءًا من المجتمع الإسلامي الجديد.

وهنا تظهر مرحلة تأليف القلوب؛ فقد كان من سياسة النبي ﷺ أن يعطي بعض حديثي العهد بالإسلام من المال ما يقوي به إيمانهم ويزيل ما بقي في نفوسهم من آثار المرحلة السابقة، وقد كان ذلك ظاهرًا في قسمة غنائم حنين بعد الفتح، حيث أعطى النبي ﷺ جماعة من رؤساء قريش وغيرهم عطاءً كبيرًا، بينما لم يعط الأنصار مثل ذلك[24].

فلما وجد بعض الأنصار في أنفسهم، جمعهم النبي ﷺ وقال لهم:

[يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ عَلَيَّ؟ أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَمُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟]

قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل.

قال:[أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟]

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفضل.

قال رسول الله ﷺ: [أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ. أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لَعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً

مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ].

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا[25].

وهذا الحديث وقع بعد حنين، لا في يوم فتح مكة نفسه، لكن إدراجه هنا مهم لأنه يكشف كيف تعامل النبي ﷺ مع التركيب الاجتماعي الجديد الذي نشأ بعد الفتح، وكيف جمع بين تأليف فئات حديثة العهد بالإسلام، وحفظ مكانة الأنصار، ومعالجة المشاعر التي نشأت من اختلاف العطاء.

ثانيًا: القراءة التربوية — المجتمع لا يُبنى بإسقاط القديم وحده

من أهم ما ينبغي الانتباه إليه أن النبي ﷺ لم يعتبر إزالة الأصنام نهاية المهمة.

إسقاط الأصنام أنهى مظهراً من مظاهر الشرك في مركز التوحيد، لكنه لم يكن وحده كافيًا لصناعة مجتمع جديد؛ فالناس أنفسهم يحتاجون إلى التربية، وتأليف القلوب، وإعادة ترتيب العلاقات، وتجاوز العصبيات القديمة.

وهنا تتضح قيمة الخطاب النبوي للأنصار؛ فقد كان النبي ﷺ يدرك أن العدل لا يعني دائمًا التسوية الحسابية في العطاء؛ فقد يعطي فئة أكثر لعلة معينة، مع بقاء العدل في مقصده ومجموع آثاره.

والغضبان في قراءته للسيرة يولي عناية كبيرة لمسألة بناء الجماعة وتجاوز العصبيات القديمة، ويرى في التجربة النبوية نموذجًا لتكوين رابطة إيمانية تتجاوز الروابط الجاهلية[26].

كما أن المباركفوري، عند عرضه لأحداث الفتح وما بعده، يبين سرعة التحول الذي دخلت فيه مكة والقبائل العربية بعد انهيار مركز المقاومة القرشية[27].

أما ابن كثير وابن القيم فيعرضان أحداث الفتح وما تلاه ضمن سياق انتقال العرب من حال الصراع مع الدعوة إلى الدخول في الإسلام، مع بقاء التدرج في تأليف النفوس ومعالجة آثار الماضي[28].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستخلص من هذه المرحلة أن إعادة بناء المجتمع بعد انتهاء الصراع تحتاج إلى أكثر من تغيير السلطة أو إزالة مظاهر المرحلة السابقة؛ فهي تحتاج إلى معالجة العلاقات والمشاعر والانتماءات.

وهذا استنباط عام تدعمه وقائع متعددة في السيرة، لكنه ليس نصًا نبويًا يقرر نموذجًا سياسيًا حديثًا بعينه.

كما أن السيرة لا تدل على أن النبي ﷺ ألغى كل الفوارق الاجتماعية دفعة واحدة، وإنما تدل على أنه أعاد توجيه الانتماء العام نحو الإسلام، مع التعامل الواقعي مع حاجات الناس ومراتبهم ومواقفهم.

رابعًا: التطبيقات المعاصرة

في المجتمعات التي تمر بمرحلة انتقالية، لا يكفي تغيير القوانين أو القيادات؛ بل تحتاج عملية الاستقرار إلى معالجة آثار الانقسام، وبناء الثقة، وتوسيع دائرة الانتماء، ومنع عودة العصبيات التي غذت الصراع.

وهذا مجال للاستفادة المعاصرة، لا وصفٌ لما كان النبي ﷺ يفعله بمصطلحات الدولة الحديثة.

المبحث الخامس: القانون المستنبط

أخلاق القوة هي الاختبار الحقيقي لها

أولًا: من الرواية إلى القانون

إذا نظرنا إلى فتح مكة في سياقه الكامل، وجدنا أن الحدث يجمع سلسلة من المراحل:

- نقض عهد أدى إلى أزمة جديدة.
- استعداد منظم بعيد عن الاستعراض غير المحسوب.
- حشد للقوة يجعل المقاومة أقل احتمالًا.
- دخول مكة مع تقليل القتال.
- إعلان الأمان.
- ضبط القوة بعد الدخول.
- إزالة مظاهر الشرك.
- العفو عن جمهور من الخصوم.
- التعامل مع الاستثناءات وفق اعتبارات العدل.
- ثم الانتقال إلى مرحلة تأليف القلوب وإعادة بناء المجتمع.

وهذا التسلسل هو الذي يجعل فتح مكة أكثر من مجرد انتصار عسكري.

فالمرحلة السابقة كانت قد اختبرت المسلمين في ضعفهم: هل يثبتون؟

ثم اختبرتهم المدينة في قدرتهم على البناء: هل يستطيعون تأسيس مجتمع؟

أما الفتح فاختبرهم في سؤال جديد: ماذا يفعل الإنسان حين تصبح القوة في يده؟

وهنا تكمن إحدى أهم الدلالات التربوية للفتح.

ثانيًا: القراءة التربوية — القوة تكشف ما وراء الشعارات

في مرحلة الاستضعاف يمكن للإنسان أن يتحدث عن الصبر والعفو وضبط النفس لأنه لا يملك القدرة على الانتقام.

أما حين يصبح قادرًا على الانتقام، فإن أخلاقه تظهر بصورة أوضح.

ولهذا كان فتح مكة اختبارًا أخلاقيًا للنواة التي بناها النبي ﷺ طوال سنوات.

فالذين كانوا بالأمس مطاردين أصبحوا اليوم أصحاب سلطان، والذين كانوا يفرون من مكة دخلوا إليها منتصرين، والذين أُخرجوا منها أصبحوا قادرين على التحكم في مصير من أخرجهم.

ومع ذلك لم يتحول الفتح إلى مجزرة، ولم يجعل النبي ﷺ المدينة مجالًا لتصفية الحسابات العامة.
وهذا ينسجم مع ما ركز عليه الشيخ محمد الغزالي في قراءته الأخلاقية للسيرة: أن الانتصار النبوي لم يكن انفصالًا عن القيم التي قامت عليها الدعوة منذ بدايتها، وإنما كان ظهورًا لتلك القيم في ظروف القوة[29].

ويبرز المباركفوري تفاصيل الفتح وما صاحبه من أمان وضبط للقتال، بينما تساعد قراءة ابن القيم وابن كثير في وضع الحدث ضمن سياقه الشرعي والتاريخي الأوسع[30].

ثالثًا: القانون المستنبط

من مجموع هذه الوقائع يمكن صياغة قانون استنباطي – مع التنبيه إلى أنه صياغة تحليلية معاصرة وليست نصًا شرعيًا – على النحو الآتي:

أخلاق القوة هي الاختبار الحقيقي للقوة.

فالقوة في ذاتها لا تكشف جودة المشروع؛ لأن المشروع قد ينجح في الوصول إلى القوة ثم يفشل في إدارتها.

والسيرة في فتح مكة تقدم مثالًا بالغ الدلالة على أن القوة يمكن أن تُستخدم للحسم دون أن تتحول إلى انتقام، وأن النصر يمكن أن يتحول من نهاية للصراع إلى بداية لبناء جديد.

لكن هذا القانون لا يعني أن العفو هو الخيار دائمًا، ولا أن الحزم يناقض الأخلاق؛ فقد جمعت السيرة في الفتح بين الأمان والعفو من جهة، وبين استثناء بعض الحالات التي ارتبطت بجرائم واعتداءات مخصوصة من جهة أخرى.

ولهذا فالصياغة الأدق ليست: "أخلاق القوة تعني العفو دائمًا"، وإنما:

القوة الأخلاقية هي القوة التي تبقى منضبطة بالعدل والغاية المشروعة، ولا تتحول إلى انتقام لمجرد امتلاك القدرة عليه.

وهذا الاستنباط أكثر اتساقًا مع مجموع أحداث الفتح من اختزاله في شعار العفو وحده.

الضابط المنهجي: بين فتح مكة والواقع المعاصر

ينبغي هنا وضع حد فاصل بين السيرة بوصفها واقعة تاريخية نبوية، وبين الاستنباط التربوي، وبين التطبيق المعاصر.

فتح مكة واقعة مرتبطة برسول الله ﷺ، وبالوحي، وبسياق الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، وبعلاقات قبلية وسياسية وعسكرية لا تطابق بنية الدولة والمجتمع في عصرنا.

لذلك لا يصح أن يقال: إن فتح مكة يقدم وصفة جاهزة لإدارة الدول الحديثة، أو نموذجًا عسكريًا يمكن نقله حرفيًا، أو قاعدة سياسية تفصيلية تصلح لكل زمان.

الذي يمكن الإفادة منه هو المعاني العامة التي تستند إلى وقائع واضحة:

أن بناء القوة يحتاج إلى إعداد سابق.

وأن التخطيط لا يناقض التوكل.

وأن الحسم لا يعني بالضرورة استنفاد وسائل الصدام.

وأن إدارة النصر تختلف عن إدارة الصراع.

وأن المجتمع بعد انتهاء النزاع يحتاج إلى إعادة بناء للثقة والانتماء.

وأن القوة إذا انفصلت عن العدل يمكن أن تتحول من وسيلة للإصلاح إلى أداة للفساد.

أما تفاصيل السياسة والحرب والقانون والعلاقات الدولية في العصر الحديث، فتحتاج إلى مصادرها الشرعية والقانونية والمعرفية الخاصة، ولا ينبغي تحميل واقعة الفتح أكثر مما تحتمل.

التطبيقات المعاصرة

إذا انتقلنا من السيرة إلى مجال الاستفادة المعاصرة، أمكن تسجيل مجموعة من التطبيقات العامة، مع التأكيد أنها استنباطات بشرية وليست وقائع من السيرة:

١. في القيادة

لا ينبغي أن يكون الهدف من بناء القوة هو امتلاكها فقط، بل القدرة على ضبطها بعد امتلاكها.

فالقائد الذي يستطيع الانتصار ولا يستطيع إدارة النصر قد يحول نجاحه إلى أزمة جديدة.

٢. في إدارة النزاعات

انتهاء الصراع لا يعني انتهاء آثاره النفسية والاجتماعية، ولذلك فإن المجتمعات الخارجة من النزاعات تحتاج إلى مسار يجمع بين العدالة، والمصالحة، وإعادة بناء الثقة.

وهذا لا يعني إلغاء المحاسبة، وإنما يعني التمييز بين العدالة والثأر.

٣. في المؤسسات

حين تنتقل مؤسسة من مرحلة المنافسة أو الصراع إلى مرحلة التوسع، فإن عليها أن تغير أدواتها؛ لأن أساليب إدارة الأزمة ليست بالضرورة هي أساليب إدارة الاستقرار.

٤. في التعامل مع الخصوم

لا ينبغي أن يُنظر إلى الخصومة باعتبارها حكمًا أبديًا على الأشخاص؛ فقد تتغير المواقف، وقد ينتقل الخصم السابق إلى شريك في مشروع جديد.

لكن هذا لا يلغي ضرورة التحقق من السلوك والموقف، ولا يعني منح الثقة بلا ضوابط.

٥. في إدارة لحظة النجاح

لحظة النجاح من أخطر اللحظات على المؤسسات والأفراد؛ لأنها قد تولد الغرور، والاستعلاء، والرغبة في تصفية الحسابات.

ومن هنا يمكن الإفادة من مشهد فتح مكة في سؤال عملي مهم:

هل تستطيع أن تنتصر دون أن تفقد أخلاقك؟

الخلاصة:

لم يكن فتح مكة حادثة عسكرية معزولة، بل كان خاتمة لمسار طويل من التربية والبناء والهجرة والمواجهة والصلح.

وقد أظهر الحدث أن التمكين لا يأتي منفصلًا عن المراحل التي سبقته، وأن الحديبية وما ترتب عليها كانت جزءًا من الطريق الذي انتهى إلى الفتح.

وأظهر الفتح كذلك أن القوة يمكن أن تكون وسيلة للحسم دون أن تتحول إلى فوضى، وأن التخطيط وإظهار القوة قد يسهمان في تقليل الحرب بدل توسيعها.

ثم جاء الامتحان الأكبر: كيف يتعامل المنتصر مع من كان بالأمس خصمه؟

فلم يجعل النبي ﷺ مكة ميدانًا للانتقام الجماعي، بل جمع بين إعلان الأمان، وضبط القتال، والعفو عن جمهور من الناس، والحزم في بعض الحالات الخاصة، ثم الانتقال إلى تأليف القلوب وبناء المجتمع الجديد.

ومن هنا يمكن صياغة القانون المركزي لهذا الفصل:

التمكين لا يُقاس فقط بامتلاك القوة، وإنما بقدرة أصحابها على إدارتها بالعدل، وتحويل النصر من نهاية للصراع إلى بداية للبناء.

وهذا هو أحد أعمق التحولات التي تكشفها السيرة:

ففي مكة كان السؤال: هل يستطيع الإنسان أن يثبت وهو ضعيف؟

وفي المدينة أصبح السؤال: هل يستطيع أن يبني وهو مسؤول؟

وفي الفتح جاء السؤال الأشد: هل يستطيع أن يبقى أخلاقيًا وهو قوي؟
وهنا تبلغ التربية التي بدأت في مكة إحدى ثمارها الكبرى: أن القوة لم تُنشئ أخلاق الجماعة، بل كشفت عن أخلاق بُنيت فيها قبل أن تصل إلى القوة.

الهوامش والمراجع

1ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ج٤، في أخبار نقض قريش للعهد وأسباب فتح مكة؛ وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج٦، في أحداث السنة الثامنة من الهجرة؛ وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج٣، في فصل هديه ﷺ في فتح مكة.

2صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، في أحداث فتح مكة؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، في حديثه عن نتائج الحديبية والفتح؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج٤.

3أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح؛ وينظر كذلك: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح أحاديث فتح مكة.

4أخرجه البخاري ومسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حرمة مكة يوم الفتح.

5الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن صلح الحديبية ونتائجه السياسية والدعوية.

6المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث الحديبية وما أعقبها من انتشار الدعوة ثم فتح مكة.

7منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، في مباحث التربية والتمكين وتدرج العمل الإسلامي.

8أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

9ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، في أخبار دخول مكة وإعلان الأمان؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٦.

10أخرج البخاري ومسلم أصل إعلان الأمان يوم الفتح، مع اختلاف بعض الروايات في الألفاظ والتفاصيل.

11ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في وصف دخوله ﷺ مكة يوم الفتح؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج٤.

12أخرجه البخاري في كتاب المظالم، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، بألفاظ متقاربة.

13الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن فتح مكة وأخلاق النبي ﷺ في النصر.

14المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث فتح مكة وتوزيع الجيش ودخول مكة.

15أوردها ابن هشام في السيرة النبوية في أخبار فتح مكة، واشتهرت في كتب السيرة بلفظ "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وينبغي التفريق بين شهرة الرواية في كتب السيرة وبين درجة ثبوت كل طريق من طرقها.

16أخرجه مسلم في كتاب الحج، وأخرجه البخاري بألفاظ متقاربة في أبواب فضائل مكة والمغازي.

17أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

18ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، في أخبار خطبة النبي ﷺ يوم الفتح وما روي في عفوه عن أهل مكة؛ مع مراجعة أسانيد الألفاظ المختلفة، وأما أصل عبارة "لا تثريب عليكم اليوم" فهو نص قرآني في سورة يوسف، الآية ٩٢.

19الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن فتح مكة ومعاني العفو والنصر.

20ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في هديه ﷺ يوم فتح مكة وفي معاملته لأهلها بعد الدخول.

21ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، فيمن أُهدر دمهم يوم الفتح، ثم ما وقع في بعض الحالات من العفو بعد ذلك.

22أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في قصة دخول النبي ﷺ مكة وإزالة الأصنام.

23أخرجه البخاري ومسلم في قصة فتح مكة وصعود بلال رضي الله عنه على الكعبة للأذان، مع اختلاف في بعض تفاصيل الروايات.
24أخرجه البخاري ومسلم في قصة قسمة غنائم حنين وتأليف النبي ﷺ قلوب جماعة من حديثي العهد بالإسلام.
25أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه في قصة الأنصار بعد غنائم حنين، بألفاظ متقاربة.
26منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في مباحث بناء الجماعة وتجاوز العصبية وبناء الشخصية الجماعية.
27المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث فتح مكة وحنين وما أعقب ذلك من دخول القبائل في الإسلام.
28ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦؛ وابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في أحداث الفتح وحنين وتأليف القلوب.
29الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن أخلاق النبي ﷺ في النصر والفتح.
30المباركفوري، الرحيق المختوم؛ وابن القيم، زاد المعاد، ج٣؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، في مجموع أحداث فتح مكة وما تلاه.

الفصل التاسع عشر: حنين وتبوك — تحديات ما بعد التمكين

تمهيد: حين تصبح القوة نفسها اختبارًا

كان فتح مكة نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة؛ فقد انتقلت الجماعة المسلمة من حال الاستضعاف والمطاردة إلى حال القوة والظهور، ودخلت مكة، مركز الجزيرة العربية، في سلطان الإسلام، وأقبلت الوفود، واتسع نطاق الدولة، وأصبحت الدعوة تملك من الوسائل والقدرات ما لم يكن لها في المرحلة المكية ولا في السنوات الأولى من العهد المدني.

لكن التمكين لا ينهي الاختبار؛ بل يغيّر طبيعته.

في مرحلة الاستضعاف يكون السؤال: هل يثبت المؤمن حين لا يملك؟

وفي مرحلة القوة يصبح السؤال أشد تعقيدًا: هل يبقى ثابتًا حين يملك؟ وهل يعرف كيف يستخدم القوة دون أن تغره؟ وهل يستطيع أن يحمل مسؤولياتها دون أن تتحول النعمة إلى سبب للغفلة؟

ومن هنا تأتي غزوتا حنين وتبوك في موضع بالغ الأهمية من السيرة.

ففي حنين ظهرت مشكلة الثقة بالعدد والعدة، ثم جاء الانكشاف المفاجئ ليعيد النفوس إلى حقيقة التوكل على الله، وفي تبوك ظهرت صورة أخرى من صور الاختبار؛ إذ لم يكن أمام المسلمين خصم حاضر في ساحة المعركة، وإنما كان عليهم أن يثبتوا قدرتهم على الاستنفار والخروج في ظرف بالغ الشدة، مع الحر الشديد، وبعد المسافة، وقلة الزاد، وثقل النفقة، وتربص المنافقين.

ثم جاءت قضية المتخلفين عن تبوك لتكشف أن المجتمع الذي بلغ مرحلة القوة لا يستغني عن التربية والمحاسبة، وأن بناء الدولة لا يلغي ضعف الإنسان، وأن الخطأ لا يعالج دائمًا بالطريقة نفسها؛ فالمنافق له حكمه، والعاجز له حكمه، والمؤمن الذي أذنب ثم صدق في توبته له مسار آخر.

ولهذا فإن هذا الفصل لا يقرأ حنين وتبوك بوصفهما معركتين عسكريتين فقط، وإنما يقرأهما بوصفهما اختبارًا للإنسان والمجتمع والدولة بعد التمكين؛ حين تصبح القوة نفسها ميدانًا للتربية، ويصبح النصر مسؤولية، ويصبح التعامل مع الخطأ جزءًا من إدارة المجتمع.

المبحث الأول: حنين — وهم الكثرة وصدمة الهزيمة

أولًا: الرواية التاريخية — حين لم تغنِ الكثرة

بعد فتح مكة، اجتمعت هوازن وثقيف ومن انضم إليهما من القبائل لمواجهة المسلمين، وخرج النبي ﷺ إليهم في شوال من السنة الثامنة للهجرة، وكان معه من أهل مكة الذين أسلموا حديثًا عدد كبير، حتى بلغ مجموع الجيش — في أشهر الروايات — اثني عشر ألفًا: عشرة آلاف ممن شهدوا فتح مكة، وألفان من مسلمة الفتح[1].

وكان هذا العدد أكبر مما اعتاده المسلمون في غزواتهم السابقة، وقد كان له أثر نفسي ظاهر في بعض النفوس، وقد سجل القرآن هذه الحقيقة بوضوح:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * التوبة: ٢٥-٢٧.

وهذه الآيات تختصر جانبًا أساسيًا من مشهد حنين: الكثرة كانت موجودة، لكنها لم تكن سبب النصر بذاتها.

وقد وقع الاضطراب في بداية المعركة؛ إذ باغتت هوازن المسلمين من موضع اختبأت فيه، فانكشف بعض الجيش، وثبت النبي ﷺ في موقف شديد الخطورة.

ومن الروايات الصحيحة في تصوير ذلك المشهد ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه، قال:

[كَانَ رَجُلٌ يَقُولُ لَهُ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، أَوَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يُوَلِّ، وَلَكِنْ عَجِلَ سَرَعَانُ النَّاسِ، فَإِذَا هَوَازِنُ وَأَصْحَابُهَا رُمَاةٌ، فَمَا يَكَادُونَ يُخْطِئُونَ، فَأَقْبَلُوا هَكَذَا، وَأَنَا عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ][2].

وفي رواية أخرى عن العباس رضي الله عنه، يصف شدة الموقف، فيقول:

[فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَفِرُّ][3].

وهنا يظهر الفرق بين اضطراب بعض الجيش وثبات القيادة. لم يكن ثبات النبي ﷺ مجرد موقف معنوي، بل كان ثباتًا في قلب الخطر، في اللحظة التي اضطربت فيها الصفوف.

ثم عاد المسلمون إلى المعركة، ونزلت السكينة، واستعاد الجيش تماسكه، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

ولم يكن هذا النصر إلغاءً للأسباب العسكرية؛ فقد قاتل المسلمون، وثبتوا، واستعادوا تنظيمهم، وإنما جاءت الآيات لترد النصر إلى مصدره الحقيقي، وتمنع أن تتحول الأسباب إلى أوهام مستقلة عن مشيئة الله[4].

ثانيًا: القراءة التربوية — حين تتحول النعمة إلى اختبار

تكتسب حنين أهميتها التربوية من كونها وقعت بعد التمكين.

فالمشكلة لم تكن في قلة العدد كما كان الحال في بدر، ولا في ضعف الوسائل كما كان الحال في مراحل مكة؛ بل كانت إحدى مشكلات الموقف أن الكثرة نفسها أصبحت حاضرة، ولذلك جاء القرآن بتعبير شديد الدلالة:

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ .

فالقرآن لم يذم امتلاك القوة، ولم يجعل الكثرة مذمومة في ذاتها؛ وإنما كشف خطر الإعجاب بها حين تُفهم على أنها مصدر النصر المستقل.

وهذا ينسجم مع القراءة التي يقدمها الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ فالنصر في المنهج النبوي لا يلغي الأخذ بالأسباب، ولكنه يمنع القلب من الارتهان إليها.[5] ويبرز المباركفوري في عرضه لحادثة حنين كيف كان العدد الكبير من المسلمين في مقابل واقع الخصم سببًا في ظهور هذا الابتلاء بصورة أوضح[6].

أما الغضبان فيجعل أحداث السيرة مادة لتربية الشخصية المؤمنة على فهم الابتلاءات المتنوعة، ومنها الابتلاء بالقوة بعد أن كان الابتلاء بالضعف[7].

ومن هنا يمكن أن نفهم حنين تربويًا على مستويين:

الأول: تربية الفرد على ألا يخلط بين الوسيلة والسبب الحقيقي للنصر.

فامتلاك العدد، والخبرة، والتنظيم، والموارد، كلها أسباب معتبرة، لكن لا ينبغي أن تنتقل من كونها وسائل إلى أن تصبح مصدرًا للثقة المطلقة.

الثاني: تربية الجماعة على أن التمكين لا يلغي الحاجة إلى المراجعة.

فالجماعة التي نجحت في مكة والمدينة، وحققت فتح مكة، لم تصبح بمنأى عن الخطأ أو الاضطراب، ولذلك لم تعامل السيرة التمكين باعتباره نهاية التربية، وإنما كشفت أن مراحل القوة تحتاج إلى تربية من نوع جديد.

واللافت أن النبي ﷺ نفسه لم ينهار أمام اضطراب الموقف؛ فعبارته:

[أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ]

ليست مجرد صيحة في المعركة؛ إنها في سياق الرواية تعكس ثبات القيادة في اللحظة التي يحتاج فيها الناس إلى مركز ثبات يعودون إليه.

ثالثًا: الاستنباط — النصر لا يُقاس بحجم الموارد وحده

يمكن، من مجموع النصوص والروايات، صياغة استنباط منضبط:

القوة المادية سبب معتبر، لكنها لا تضمن النجاح بذاتها، كما أن امتلاك الموارد لا يغني عن سلامة النفوس وحسن القيادة والتوفيق الإلهي.

وهذا استنباط من دلالة آية حنين نفسها، وليس قاعدة تاريخية مطلقة تعني أن قلة العدد أفضل من كثرته، أو أن التخطيط والموارد غير مهمة.

فالسيرة لا تعلمنا أن نترك الأسباب، بل تعلمنا ألا نؤلّه الأسباب.

وهنا يظهر التوازن الذي يؤكد عليه ابن القيم في حديثه عن الهدي النبوي: التوكل الحقيقي لا يناقض مباشرة الأسباب، وإنما يجمع بين اعتماد القلب على الله واستعمال الأسباب التي جعلها الله أسبابًا[8].

التطبيق المعاصر

في التطبيقات المعاصرة يمكن الإفادة من هذا المعنى في المؤسسات والمشروعات والجماعات والمجتمعات:

ليس ارتفاع عدد الأعضاء، ولا وفرة المال، ولا اتساع الانتشار، ولا قوة الأدوات الإعلامية دليلًا كافيًا على نجاح المشروع.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن هذه إفادة معاصرة واستنباط تربوي، وليست قولًا بأن السيرة وضعت نموذجًا إداريًا حديثًا للمؤسسات.

والدرس الأقرب إلى دلالة النص هو أن النجاح لا ينبغي أن يتحول إلى غرور، وأن القوة تحتاج إلى وعي يحسن استعمالها، وأن الصدمة حين تكشف خللًا في النفس أو التنظيم ينبغي أن تتحول إلى فرصة للمراجعة لا إلى سبب للانهيار.

المبحث الثاني: تبوك — الاستنفار العام ومواجهة التحدي الأكبر

أولًا: الرواية التاريخية — جيش العسرة

كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، في ظرف بالغ المشقة؛ فقد اشتد الحر، وبعدت المسافة، وقلّت الموارد، وكان المسلمون في حاجة إلى إعداد كبير لمواجهة ما بلغهم من تجمع الروم ومن تحالف معهم.

وقد عُرفت تبوك بأنها غزوة العسرة، وسمى القرآن الخارجين فيها بـ"ساعة العسرة:"

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ * التوبة: ١١٧.

وقد كان النبي ﷺ في هذه الغزوة بحاجة إلى استنفار واسع، فحضّ المسلمين على التجهيز، وبذل الصحابة من أموالهم بحسب طاقتهم.

ومن أشهر مشاهد ذلك ما رواه البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، في سياق تجهيز جيش العسرة، حيث قال النبي ﷺ: [مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ][9].

فبادر عثمان رضي الله عنه بالبذل والتجهيز.

وفي المقابل ظهرت في هذه الغزوة صورة أخرى من صور العجز الحقيقي، وصورة ثالثة من صور التعلل الكاذب؛ فقد جاء القرآن موضحًا أن من الناس من لم يجد ما ينفقه ولا ما يركبه، ثم حزن لعجزه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ * التوبة: ٩١-٩٢.

وهذه الآيات مهمة جدًا في فهم تبوك؛ لأنها تمنع التبسيط الذي يجعل كل من لم يخرج متخلفًا مذمومًا بالمعنى نفسه؛ فهناك عجز حقيقي، وهناك تقصير متعمد، وهناك نفاق وتعلل، ولكل حالة حكمها.

كما تكشف السيرة أن النبي ﷺ لم يكن يخفي شدة الظرف، بل كانت تبوك مواجهة مع واقع بالغ الصعوبة، ولذلك كانت تعبئة الناس فيها اختبارًا حقيقيًا للإرادة والبذل[10].

وانتهى الأمر بوصول المسلمين إلى تبوك، ولم تقع المعركة الكبرى التي كانوا يتوقعونها؛ فانسحب الروم ولم يقع اشتباك حاسم[11].

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى مسألة مهمة: نجاح الحملة لا يشترط وقوع معركة؛ فقد تحقق المقصود من إظهار قدرة المسلمين على التحرك والاستنفار والوصول إلى الحدود الشمالية، وإعادة ترتيب موازين القوى في المنطقة.

ثانيًا: القراءة التربوية – اختبار الإرادة لا اختبار السلاح وحده

إذا كانت حنين قد اختبرت المسلمين في وفرة القوة، فإن تبوك اختبرتهم في كلفة استعمال القوة والاستجابة للاستنفار.

فالإنسان في مرحلة التمكين قد يستطيع اتخاذ القرار حين تكون الظروف مواتية، لكنه يُختبر اختبارًا مختلفًا حين يكون القرار مكلفًا.

ولهذا كانت تبوك غزوة شاقة على النفوس: حر، وبعد، وقلة في الموارد، وموسم ثمار، وظروف اقتصادية صعبة[12].

وقد كان القرآن صريحًا في كشف أثر هذه المشقة على النفوس:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ * التوبة: ١١٨.

فالتمكين لم يجعل الطريق سهلاً، بل ربما كشف مسؤوليات لم تكن مطلوبة بالدرجة نفسها في مرحلة الاستضعاف.

وهنا تتضح إحدى القضايا التربوية المهمة في السيرة: المرحلة الناجحة لا تعني مرحلة مريحة.

بل قد تنتقل التحديات من تهديد مباشر إلى مسؤوليات أثقل: تعبئة المجتمع، تمويل الجهد العام، ضبط الصف، مواجهة النفاق، وتحمل تبعات القرارات الكبرى.

وهذا قريب من المعنى الذي يبرز في قراءة الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ إذ ينظر إلى الأحداث لا بوصفها وقائع منفصلة، بل بوصفها مواقف تكشف كيفية بناء الجماعة وإعدادها لتحمل مسؤوليات الرسالة.[13] ويؤكد الغضبان في منهجه التربوي أن المواقف النبوية كانت وسائل عملية لصناعة الشخصية القادرة على تحمل التكاليف[14].

أما المباركفوري فيبرز في عرضه لتبوك طبيعة الظروف الاستثنائية التي أحاطت بها، من شدة الحر وبعد الطريق وضيق الحال، وما ترتب على ذلك من استنفار وبذل[15].

ثالثًا: الاستنباط – بعد التمكين تتسع دائرة المسؤولية

يمكن استخلاص معنى تربوي منضبط من تبوك:

كلما اتسعت القدرة اتسعت معها المسؤولية، ولم يعد معيار الالتزام هو الحماس وحده، وإنما القدرة على تحمل التكلفة حين تكون الظروف شاقة.

وهذا لا يعني أن كل إنسان مطالب بما لا يطيق؛ فالقرآن نفسه استثنى الضعفاء والمرضى ومن لا يجدون ما ينفقون.

ومن هنا لا يصح تحويل قصة تبوك إلى خطاب يساوي بين العاجز والمعتذر والمتخاذل والمنافق.

بل من أعظم الدروس المنهجية في هذه الغزوة أن التربية النبوية والقرآن يفرقان بين الحالات، ولا يعالجان الناس بمنطق واحد.

التطبيق المعاصر

يمكن الإفادة من هذا في المؤسسات والمشروعات الإصلاحية بأن المسؤولية ينبغي أن تكون متناسبة مع القدرة والتكليف، وأن أوقات الأزمات تكشف جدية الالتزام أكثر مما تكشفه أوقات الرخاء.

كما يمكن الاستفادة من تجربة تبوك في فهم أن بعض المبادرات الناجحة لا تُقاس بنتيجة صدامية مباشرة؛ فقد يحقق التحرك هدفه بإظهار القدرة، وردع الخصم، وتثبيت النفوذ، وإعادة ترتيب البيئة، دون أن تقع معركة فعلية.

لكن هذا استنباط معاصر، ولا يصح أن ننسب إلى النبي ﷺ أنه وضع نظرية حديثة في "الردع الاستراتيجي" بهذه المصطلحات؛ وإنما نستفيد من نتيجة الحدث ضمن سياقه التاريخي.

المبحث الثالث: معالجة النفاق والتخلف عن المسؤولية —

التربية بعد التمكين

أولًا: الرواية التاريخية — ليس كل متخلف سواء

كانت تبوك اختبارًا للمجتمع كله، ولذلك كشفت مستويات مختلفة من التعامل مع المسؤولية.

وقد سجل القرآن موقف المنافقين الذين حاولوا تثبيط الناس والاعتذار عن الخروج، وكشف شيئًا من خطابهم:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ * التوبة: ٨١.

لكن في الجهة الأخرى كانت هناك قصة ثلاثة من خيرة الصحابة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم، الذين تخلفوا عن الغزوة من غير عذر صحيح، ثم صدقوا النبي ﷺ في اعترافهم.

وكانت قصة كعب بن مالك من أشهر الروايات الصحيحة في السيرة، وقد رواها البخاري ومسلم مطولة.

قال كعب رضي الله عنه:

[لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ لِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِالْوَجْهِ الَّذِي يُرِيدُ][16].

ثم يصف كعب كيف كان قادرًا على الخروج، ولكنه سوّف حتى فاتته الفرصة.

وعندما عاد النبي ﷺ إلى المدينة، جاء المتخلفون يعتذرون، وكان المنافقون يحلفون، أما كعب وصاحباه فلم يبحثوا عن مخرج كاذب.

يقول كعب رضي الله عنه:

[فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي بَثِّي، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ][17].

وهنا تأتي لحظة تربوية بالغة القوة: الاعتراف بالخطأ بدل صناعة الأعذار.

ثم وقع هجر اجتماعي بأمر النبي ﷺ، فاعتزل الناس هؤلاء الثلاثة، واشتدت عليهم المحنة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

وبعد خمسين ليلة نزل القرآن بتوبة الله عليهم:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ * التوبة: ١١٨-١١٩.

وهنا ينبغي الوقوف عند أمر بالغ الأهمية: هؤلاء الثلاثة لم يكونوا من المنافقين.

فالقرآن أثبت لهم التوبة، ومدح صدقهم، بينما كانت آيات أخرى تكشف المنافقين وتفضح اعتذاراتهم.

وهذا التفريق ليس تفصيلًا تاريخيًا هامشيًا، بل هو أساس لفهم المنهج النبوي في معالجة الخطأ.

ثانيًا: القراءة التربوية — العدل في تشخيص الخلل

إن أعظم ما تكشفه قصة تبوك أن التربية لا تبدأ بالعقوبة، بل تبدأ بالتشخيص الصحيح.

فالمجتمع الذي يواجه أزمة لا يستطيع أن يعالج جميع المتخلفين باعتبارهم حالة واحدة.

هناك من تخلف لعجز حقيقي، وقد رفع الله عنه الحرج.

وهناك من تخلف نفاقًا، وكان خطره مختلفًا؛ لأنه لا يملك مجرد ضعف شخصي، وإنما يحمل موقفًا مضادًا للجماعة في الداخل.

وهناك مؤمن أخطأ وسوّف، ثم حين جاء وقت المواجهة لم يكذب.

وهذا هو كعب بن مالك.

ومن هنا كانت صدقيته في الاعتراف جزءًا من طريق التوبة.

وقد تناول الشيخ محمد الغزالي قصة كعب في سياق إبراز أثر الصدق في تربية المسلم، وأن الصراحة مع النفس ومع القيادة قد تكون مؤلمة في لحظتها، لكنها تحفظ الإنسان من فساد أكبر[18].

ويظهر في منهج الغضبان أن المواقف النبوية لا تعالج السلوك بمعزل عن شخصية صاحبه ودوافعه، وإنما تجمع بين التربية والمحاسبة وإعادة البناء[19].

أما المباركفوري فيعرض قصة الثلاثة ضمن أحداث تبوك وتداعياتها، ويبرز ما انتهت إليه من التوبة والفرج بعد الشدة[20].

كما أن ابن القيم أفاض في قصة توبة كعب وما اشتملت عليه من معانٍ إيمانية وتربوية، وجعلها مثالًا بارزًا على أثر الصدق، والصبر، وحسن الرجوع إلى الله[21].

واللافت في القصة أن العقوبة لم تكن إقصاءً نهائيًا.

كان الهجر إجراءً تربويًا مؤقتًا، انتهى بقبول التوبة.

فالمقصود لم يكن تحطيم المخطئ، وإنما إصلاحه وإعادته إلى الجماعة بعد تطهير موقفه.

ثالثًا: الاستنباط – المجتمع القوي يحتاج إلى أخلاق في المحاسبة

يمكن صياغة الدلالة المستنبطة من هذه القصة في عدة معانٍ مترابطة:

١. التمكين لا يلغي ضعف الإنسان

فحتى المجتمع الذي بلغ قوة سياسية وعسكرية واسعة يظل محتاجًا إلى التربية والمراجعة.

والنجاح المؤسسي لا يعني انتهاء الأخطاء الفردية.

٢. الصدق جزء من الإصلاح

لم يكن صدق كعب سببًا في إعفائه من آثار خطئه؛ ولكنه كان سببًا في اختلاف مساره عن مسار الكذب والنفاق.

وهذا يعلّمنا أن الصدق لا يلغي المسؤولية، لكنه يجعل الإصلاح ممكنًا.

٣. لا يصح الخلط بين العجز والتقصير والنفاق

وهذا من أكثر الدروس المنهجية أهمية.

فالقرآن نفسه فرّق بين الضعفاء وأهل الأعذار من جهة، وبين المنافقين من جهة، وبين الثلاثة الذين صدقوا واعترفوا بخطئهم من جهة ثالثة.

ومن ثم فلا يصح تحويل قصة تبوك إلى مبرر لتصنيف كل مخالف أو متخلف أو مقصر في خانة واحدة.

٤. المحاسبة لا تناقض الرحمة

النبي ﷺ لم يتعامل مع الخطأ بالتجاهل، كما لم يتعامل معه بالانتقام.

كانت هناك محاسبة، وكان هناك هجر، وكان هناك انتظار، ثم كانت هناك توبة وقبول وعودة إلى الجماعة.

وهذا يبين أن الرحمة التربوية ليست ترك الخطأ بلا معالجة، كما أن الحزم ليس إلغاء الإنسان بسبب خطئه.

رابعًا: التطبيق المعاصر – من التربية بعد التمكين إلى إدارة الأخطاء

في واقع المؤسسات والمجتمعات والمشروعات التربوية، يمكن الإفادة من هذه القصة في عدد من المعاني، مع التأكيد أن هذه تطبيقات اجتهادية معاصرة، وليست أحكامًا تاريخية مستخرجة حرفيًا من فعل النبي ﷺ.

أول هذه المعاني: ضرورة التمييز عند تقييم الأخطاء.

فليس كل تقصير ناشئًا عن الدافع نفسه، ولا كل متخلف متعمد، ولا كل اعتذار كذبًا، ولا كل خطأ دليل فساد في الأصل.

وثانيها: إيجاد مساحة للاعتراف بالخطأ.

فإذا كانت البيئة التربوية لا تسمح لأفرادها بالاعتراف إلا بعد أن يضطروا إلى الكذب، فإنها قد تدفع المخطئ إلى خطأ أكبر من خطئه الأول.

وثالثها: الجمع بين المساءلة وإمكان العودة.

فالمحاسبة التي لا تترك بابًا للإصلاح قد تحول الخطأ العارض إلى قطيعة دائمة، بينما الإفلات الكامل من المسؤولية يفسد معنى الالتزام.

ورابعها: عدم تحويل التمكين إلى حصانة نفسية ضد النقد.

فكلما اتسعت قدرة المؤسسة أو المجتمع ازدادت حاجته إلى مراجعة نفسه؛ لأن النجاح قد يجعل الأخطاء أقل ظهورًا في البداية، ثم أكثر كلفة حين تتراكم.

وهذه المعاني ليست وصفًا لما كانت عليه "الإدارة النبوية" بمصطلحات الإدارة الحديثة، وإنما هي إفادة تربوية معاصرة من طريقة معالجة حادثة ثابتة في السيرة والسنة.

خامسًا: التكامل بين حنين وتبوك

عند جمع مشاهد حنين وتبوك وقصة الثلاثة، يظهر أن التحدي بعد التمكين لم يعد تحديًا واحدًا.

في حنين كان الاختبار في علاقة الجماعة بالقوة؛ فالكثرة لم تمنع الاضطراب، وجاء القرآن ليعيد النفوس إلى حقيقة التوكل على الله.

وفي تبوك كان الاختبار في القدرة على تحمل التكلفة؛ إذ احتاج المجتمع إلى استنفار واسع في ظرف بالغ المشقة.

وفي قصة الثلاثة كان الاختبار في التعامل مع الخطأ؛ حيث ظهر الفرق بين العجز، والنفاق، والتقصير الصادق في الاعتراف.

وهكذا تكشف هذه المرحلة ثلاثة أوجه من التربية بعد التمكين:
التربية على عدم الاغترار بالقوة، والتربية على تحمل مسؤولية القوة، والتربية على إدارة الخطأ حين تقع آثاره.
وهذا هو المعنى الأعمق للمرحلة: أن التمكين ليس نهاية البناء، وإنما انتقال إلى مستوى آخر من الاختبار.
ففي مكة كان المسلم يُسأل: هل تثبت على الحق حين لا تملك شيئًا؟
وفي المدينة بعد التمكين يصبح السؤال:
هل تبقى عبدًا لله حين تملك القوة؟
وهل تستطيع أن تستخدمها دون أن تغتر بها؟
وهل تستطيع أن تحمل تكلفتها دون أن تتراجع؟
وهل تستطيع أن تحاسب المخطئ دون ظلم، وأن تفتح له باب التوبة دون إلغاء المسؤولية؟
هذه الأسئلة هي التي تجعل حنين وتبوك امتدادًا طبيعيًا لمشروع بناء الإنسان الذي بدأ في مكة، ولكن في ظروف جديدة.
القانون المستنبط من المرحلة: التمكين يضاعف المسؤولية
لا ينبغي أن نطلق على هذا المعنى "قانونًا شرعيًا" أو "سنة قطعية" بالمعنى التشريعي؛ فهو صياغة استنباطية بشرية تستخلص معنى متكررًا من أحداث السيرة.
ويمكن صياغته على النحو الآتي:
كلما انتقلت الجماعة من الاستضعاف إلى القوة، انتقلت التربية من مجرد الثبات على المبدأ إلى حسن حمل المسؤولية وإدارة القوة وضبط النفس ومراجعة الأخطاء.
فالقوة في السيرة ليست حالة مادية فقط.
هي امتحان للقلوب.
ولهذا لم يكن فتح مكة خاتمة التربية، بل جاءت حنين لتكشف أثر القوة في النفوس، وجاءت تبوك لتختبر القدرة على تحمل التكلفة، وجاءت قصة الثلاثة لتؤكد أن المجتمع القوي لا يستغني عن الصدق والتوبة والمحاسبة.

وهذا المعنى يلتقي مع الروح العامة التي يبرزها الشيخ محمد الغزالي في قراءة السيرة: أن أحداثها ليست أخبارًا عسكرية منفصلة، وإنما مواقف لتكوين الإنسان الذي يحمل الرسالة في أحوال الضعف والقوة معًا[22].

كما ينسجم مع المنهج التربوي عند الغضبان في قراءة السيرة بوصفها ميدانًا لتكوين الشخصيات والجماعات من خلال الابتلاء والممارسة والمسؤولية[23].

وتؤكد معالجة المباركفوري للأحداث أن مرحلة ما بعد الفتح لم تكن خالية من الاختبارات، بل شهدت حنين وتبوك وغيرهما من الوقائع التي كشفت استمرار التربية في المجتمع المسلم[24].

الخلاصة:

تكشف حنين وتبوك أن مرحلة التمكين ليست مرحلة انتهاء الاختبارات، وإنما مرحلة تغير طبيعتها.

• كشفت حنين أن كثرة العدد لا تكفي وحدها، وأن الإعجاب بالقوة قد يحجب حقيقة الافتقار إلى الله.

• وأظهرت ثبات النبي ﷺ في أشد لحظات الاضطراب أن القيادة تُختبر بصورة خاصة عند انكشاف الصفوف.

• وكشفت تبوك أن القوة تحتاج إلى قدرة على الاستنفار والبذل وتحمل المشقة، وأن التحدي قد يتحقق بمجرد إظهار القدرة والاستعداد، ولو لم تقع مواجهة عسكرية كبرى.

• وأظهرت تبوك كذلك أن القرآن يميز بين العاجز، والمنافق، والمؤمن المقصر الذي يصدق في اعترافه.

• وكشفت قصة كعب بن مالك وصاحبيه أن معالجة الخطأ يمكن أن تجمع بين المحاسبة والرحمة، وأن الصدق قد يكون طريقًا شاقًا لكنه طريق النجاة.

• ويتبين من مجموع هذه الوقائع أن التمكين لا يلغي الحاجة إلى التربية، بل يجعل مسؤولية التربية أعظم.

• والاستنباط الذي يمكن صياغته من المرحلة هو: أن القوة حين تتحول إلى تمكين تحتاج إلى ثلاثة ضوابط: ألا تُورث الغرور، وأن تُحمل بمسؤولية، وأن تبقى خاضعة للمراجعة والمحاسبة الأخلاقية.

أما التطبيقات المعاصرة، فهي اجتهاد في الإفادة من دلالات السيرة، وليست أحكامًا تاريخية أو تشريعات مستخرجة مباشرة من أحداث حنين وتبوك، والمقصود منها أن تساعد القارئ على الانتقال من فهم الحدث إلى فهم الإنسان الذي صنعه الحدث، ثم إلى الإفادة من معانيه في واقع مختلف.

الهوامش والمراجع

1محمد بن إسحاق، رواية ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: دار المعرفة، ج٤، في خبر غزوة حنين؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الرياض: دار السلام، في أحداث السنة الثامنة للهجرة، وينظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج٤، في غزوة حنين.

2صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة حنين، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

3صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة حنين؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين.

4ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة التوبة، الآيات ٢٥-٢٧؛ وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج٣، في غزوة حنين.

5الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، في حديثه عن غزوة حنين وسنن النصر والهزيمة.

6صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث غزوة حنين؛ وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، في أخبار هوازن وثقيف وحنين.

7منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المنصورة: دار الوفاء، في مباحث التربية بالابتلاء، وأثر الأحداث العسكرية في بناء الشخصية المسلمة.

8ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب في الهدي النبوي؛ وينظر كذلك: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، في بيان حقيقة التوكل وعلاقته بالأسباب.

9صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وينظر: صحيح الترمذي، كتاب المناقب، في فضائل عثمان رضي الله عنه.

10ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، في أخبار غزوة تبوك؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، في أحداث السنة التاسعة للهجرة؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، في غزوة تبوك.

11ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، في أخبار تبوك؛ وابن القيم، زاد المعاد، ج٣، في غزوة تبوك.

12سورة التوبة، الآيات ٨١-٩٢؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في سياق غزوة تبوك؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في تحليله لمواقف تبوك وآثارها في بناء الجماعة.

13الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في مباحث التربية النبوية وبناء الجماعة وتحمل التكاليف.

14منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في التربية بالابتلاء والمواقف العملية وتحمل المسؤولية.

15صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في غزوة تبوك وأسبابها وظروفها ونتائجها.

16صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك؛ وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

17صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك؛ وصحيح مسلم، كتاب التوبة.

18الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن التربية بالصدق وتحمل نتائج المواقف والمسؤولية الفردية في المجتمع المسلم.

19منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في التربية بالمواقف، ومعالجة الأخطاء، وبناء الشخصية المؤمنة.

20صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث غزوة تبوك وقصة الثلاثة الذين خلفوا.

21ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٣، في قصة كعب بن مالك وتوبة الثلاثة، وما اشتملت عليه من دروس إيمانية وتربوية.

22الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في المنهج العام لقراءة أحداث السيرة بوصفها مدرسة لبناء الإنسان والجماعة.

23منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ج١، في المنهج التربوي المستفاد من أحداث السيرة.

24صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في أحداث ما بعد فتح مكة، ولا سيما حنين وتبوك؛ وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤-٥، في أحداث السنتين الثامنة والتاسعة للهجرة.

الباب الخامس: القوانين الجامعة — ماذا تعلمنا من السيرة؟

الفصل العشرون: قوانين بناء الإنسان

تمهيد: قبل أن تُبنى المجتمعات

إذا كانت السيرة النبوية قد قدمت لنا نموذجًا فريدًا في بناء المجتمع والدولة وإدارة القوة والنصر، فإن وراء ذلك كله حقيقة أسبق: أن المجتمع الذي حمل هذه الرسالة لم يبدأ من مؤسسات، ولا من موارد، ولا من قوة مادية؛ وإنما بدأ من إنسان تغيّر قلبه، واستقام سلوكه، وتحررت إرادته، ثم أصبح قادرًا على حمل المسؤولية.

ولهذا فإن العودة إلى قوانين بناء الإنسان ليست عودة إلى مرحلة تاريخية تجاوزتها السيرة، بل عودة إلى الأساس الذي قامت عليه مراحلها اللاحقة.

لقد أمضت الدعوة المكية سنوات طويلة في بناء هذا الإنسان. لم تكن السنوات الأولى زمنًا فارغًا ينتظر فيه المسلمون قيام الدولة، وإنما كانت مرحلة تأسيس عميقة تشكلت فيها العقيدة، ونضج فيها اليقين، وتربى فيها الصبر، وظهرت فيها معادن الرجال والنساء، وتكونت فيها الجماعة الأولى التي استطاعت بعد ذلك أن تحمل أعباء الهجرة والجهاد والمجتمع والدولة.

ومن هنا تأتي أهمية أن نستخلص من السيرة قوانين بناء الإنسان، ولكن من غير أن نحمّل السيرة أكثر مما تحتمل؛ فليس كل تكرار لحدث قانونًا، وليس كل ملاحظة تربوية حكمًا عامًا، وليس كل نجاح في ظرف تاريخي نموذجًا قابلًا للنقل كما هو إلى كل زمان ومكان.

والمنهج الذي نسير عليه في هذا الفصل يقوم على التمييز بين مستويات خمسة:

١. ما ثبت في القرآن والسنة والسيرة من الوقائع والنصوص.

٢. ما تكشفه الوقائع من معانٍ تربوية في سياقها.

٣. ما يمكن استنباطه استقراءً من مجموع هذه الوقائع.

٤. الضوابط التي تمنع تحويل الاستنباط إلى قاعدة مطلقة.

٥. ما يمكن الإفادة منه في واقعنا المعاصر بوصفه اجتهادًا تطبيقيًا، لا جزءًا من السيرة نفسها.

والمرجعية الأساسية في هذا البناء هي ما قدمه الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة، وصفي الرحمن المباركفوري في الرحيق المختوم، ومنير محمد الغضبان في المنهج التربوي للسيرة النبوية، مع الرجوع إلى المصادر الأقدم والأوثق في الرواية، وفي مقدمتها السيرة النبوية لابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير، وزاد المعاد لابن القيم، إلى جانب كتب الحديث والتفسير عند الحاجة.

المبحث الأول: قانون الإيمان قبل التمكين والقدوة

أولاً: الرواية التاريخية – الإنسان الذي سبق المشروع

لم تبدأ الدعوة النبوية بإقامة نظام سياسي، ولا بإعداد قوة عسكرية، ولا بتشكيل مؤسسات عامة؛ وإنما بدأت بالوحي، وبالتوحيد، وبإعادة بناء تصور الإنسان عن الله والوجود والغاية والمصير.

ففي السنوات الأولى من الدعوة كان الخطاب القرآني المكي يركز بصورة ظاهرة على التوحيد، والإيمان بالبعث، وتزكية النفس، وتقرير المسؤولية الأخلاقية، والصبر على طريق الحق، وكان المسلم الأول يتلقى قبل أن يُطلب منه أن يحمل أعباء المجتمع والدولة.

وقد وصف القرآن وظيفة الرسول ﷺ بقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ * الجمعة: ٢.

والآية، وإن كانت واردة في سياق أوسع، تكشف بوضوح عن عناصر أساسية في الرسالة النبوية: التلاوة، والتزكية، والتعليم.

وفي مكة ظهرت هذه التربية في حياة الصحابة لا باعتبارها دروسًا نظرية فحسب، بل باعتبارها امتحانًا عمليًا للإيمان.

ومن أوضح الشواهد على ذلك ما رواه خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال:

[شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ].

فالنبي ﷺ لم يكن يعالج شكوى خباب بمجرد وعد قريب بانتهاء الألم، وإنما كان يعيد توجيه الوعي إلى طبيعة الطريق، ويصل الحاضر بالماضي والمستقبل، ويعلم أصحابه أن الابتلاء لا يعني خطأ الطريق، وأن تأخر النتيجة لا يعني غياب الوعد[1].

وهكذا كانت التربية المكية تصنع إنسانًا يستطيع أن يعيش على المبدأ قبل أن يرى ثمرة المبدأ.

ولم يكن النبي ﷺ يقدم هذا المعنى لأصحابه بوصفه خطابًا نظريًا فقط؛ فقد كان هو نفسه أول من يتحمل تبعات ما يدعو إليه، ومن هنا جاء أثر القدوة النبوية في التربية.

وقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خلق النبي ﷺ بعبارة جامعة حين سئلت عن خلقه فقالت:

[كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ].

فالنبي ﷺ لم يكن منفصلًا عن الرسالة التي يحملها، كانت تعاليم القرآن ظاهرة في شخصه وسلوكه ومعاملاته[2].

وهذه الحقيقة هي التي تجعل بناء الإنسان في السيرة مختلفًا عن مجرد تلقين مجموعة من الأفكار، فالمعاني تتحول إلى أخلاق، والأخلاق تتحول إلى مواقف، والمواقف المتكررة تصنع الشخصية.

ثانيًا: القراءة التربوية — لماذا سبق بناء الإنسان بناءَ المجتمع؟

يبرز في قراءة الشيخ محمد الغزالي للسيرة أن مرحلة مكة كانت في جوهرها مرحلة إعداد للإنسان الذي يستطيع أن يحمل تبعات الرسالة، لا مجرد مرحلة انتظار للتمكين.[3] ويؤكد المباركفوري، في عرضه لمراحل الدعوة، مركزية التوحيد والعقيدة والتربية في التكوين المكي، بينما يولي الغضبان اهتمامًا خاصًا للبناء التربوي الذي سبق المراحل اللاحقة من الحركة والجهاد[4].

لكن ينبغي هنا ضبط العبارة.

فليس صحيحًا أن النبي ﷺ "لم يعمل على المجتمع" في مكة، كما ليس صحيحًا أن التربية كانت منفصلة عن الواقع؛ فقد كانت الدعوة نفسها تغييرًا اجتماعيًا وأخلاقيًا عميقًا، وكان القرآن يعالج الشرك، والظلم، وأكل أموال الناس، ووأد البنات، والتفاوت الأخلاقي، وعبادة المال، وفساد العلاقات.

المقصود إذن أن الأولوية التأسيسية كانت لبناء الإنسان المؤمن؛ لأن الإنسان هو الذي سيحمل فيما بعد مسؤوليات المجتمع.

وهذا يظهر بوضوح في نماذج الصحابة: بلال رضي الله عنه لم يكن مجرد شخص اعتنق الإسلام، وإنما صار الإيمان عنده قدرة على الاحتمال؛ وخباب تحول ابتلاؤه إلى ثبات؛ ومصعب بن عمير انتقل من حياة الترف إلى حمل الرسالة؛ وأبو بكر رضي الله عنه جعل إيمانه قوةً في الدعوة والإنفاق والمواساة.

لقد كان المطلوب أن يصبح الإيمان صفة في الإنسان، لا معلومة في ذهنه.

ومن هنا يمكن فهم أهمية القدوة؛ فالتربية النبوية لم تكن قائمة على أن يقول المربي للناس ما ينبغي أن يفعلوه ثم يتركهم يبحثون عن نموذج تطبيقي، بل كان الرسول ﷺ يعيش المعاني التي يدعو إليها.

وهذا يفسر لماذا كان أثر شخصيته ﷺ في أصحابه عميقًا، فقد اجتمعت في شخصه الرسالة والقدوة، والتعليم والممارسة، والتوجيه والسلوك.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن – بناء على مجموع هذه الشواهد – صياغة قانون الإيمان قبل التمكين والقدوة بالصيغة الآتية:

كل بناء طويل الأمد يحتاج إلى إنسان يحمل قيمه من الداخل، ولا يكفي أن تُنشأ الهياكل والمؤسسات قبل أن تتكون القدرة الأخلاقية والإيمانية على حمل مسؤولياتها، وتزداد فاعلية التربية حين يقترن التعليم بالقدوة العملية.

وهذا استنباط تربوي، وليس نصًا شرعيًا بهذه الصياغة.

والذي تسنده السيرة بوضوح هو أن بناء الإيمان والتزكية والصبر والخلق كان سابقًا على التمكين السياسي والعسكري، وأن القدوة النبوية كانت جزءًا أصيلًا من التربية.

أما القول بأن كل مشروع إصلاحي في كل زمان يجب أن يمر بالمدة الزمنية نفسها أو بالمراحل التفصيلية نفسها، فليس مما تدل عليه السيرة.

ضابط القانون

لا ينبغي أن يتحول "الإيمان قبل التمكين" إلى ذريعة لتعطيل العمل، كما لا ينبغي أن يتحول "العمل" إلى ذريعة لإهمال بناء الإنسان.

فالذي يمكن إثباته من السيرة هو أولوية التأسيس الإيماني والأخلاقي، أما ترتيب صور العمل ومراحله وتوقيته فيختلف باختلاف الأحوال.

التطبيق المعاصر

وهنا ننتقل من السيرة إلى الاجتهاد المعاصر: إذا أرادت مؤسسة تربوية أو مشروع إصلاحي بناء أثر مستدام، فمن المناسب أن تجعل بناء الإنسان جزءًا أصيلًا من مشروعها، لا نشاطًا هامشيًا.

ويشمل ذلك ترسيخ الصدق، والأمانة، والانضباط، وتحمل المسؤولية، والقدرة على العمل مع الآخرين، وربط المعرفة بالسلوك.

كما ينبغي للقائد والمربي أن يدرك أن تأثيره لا يصنعه كلامه وحده؛ فطريقة تعامله مع المال، والخلاف، والسلطة، والنجاح، والفشل، والخصوم، قد تكون أبلغ من عشرات المواعظ.

وهذا تطبيق معاصر مستفاد من معنى القدوة في السيرة، وليس وصفًا لواقعة تاريخية.

المبحث الثاني: قانون الابتلاء والتدرج

أولاً: الرواية التاريخية — سنوات لم تكن سهلة

لم تكن السنوات المكية طريقًا مستقيمًا من الدعوة إلى النصر؛ فقد مرت الدعوة بمراحل متعددة من الضغط والمقاومة، وتعرض المسلمون لألوان من الأذى، وهاجر بعضهم إلى الحبشة، وحوصر بنو هاشم ومن معهم، وفقد النبي ﷺ خديجة وأبا طالب، ثم خرج إلى الطائف فعاد وقد لقي من أهلها ما لقي، ثم جاءت مرحلة البحث عن الأفق الجديد حتى انتهى الأمر إلى بيعة العقبة والهجرة.

وهذا التسلسل التاريخي مهم؛ لأنه يمنع قراءة السيرة بمنطق النتائج فقط.

فلو نظر القارئ إلى النهاية وحدها لرأى دولة وقوة ونصرًا، أما إذا عاد إلى الطريق فسيرى سنوات من الألم، والتأخر، والمحاولات، والهجرة، وتبدل الظروف.

ومن أوضح النصوص في التربية على الصبر حديث خباب المتقدم، إذ لم ينكر النبي ﷺ شدة ما يمر به أصحابه، ولكنه وضعه في سياق تاريخي أوسع، ثم أخبرهم بمآل الأمر.

كما تكشف قصة بلال رضي الله عنه عن صورة أخرى من صور الابتلاء؛ فقد تعرض للتعذيب الشديد بسبب إسلامه، ومع ذلك ثبت على التوحيد، حتى صار "أحدًا أحد" رمزًا للثبات في الذاكرة الإسلامية، وقد أوردت كتب السيرة أخبار تعذيبه وما كان يلقاه من أمية بن خلف، ضمن أخبار المستضعفين من أصحاب النبي ﷺ[5].

ولم يكن الابتلاء مقصورًا على الرجال؛ فقد عانت سمية بنت خياط رضي الله عنها، وكانت من أوائل من أوذي في الله، وقُتلت بسبب ثباتها على الإسلام، كما تذكر كتب السيرة والتاريخ.

وهكذا كان الإيمان يمر من الاختبار النظري إلى الاختبار العملي.

وفي الوقت نفسه لم تكن الدعوة تتحرك بطريقة واحدة طوال السنوات المكية؛ بل انتقلت من الدعوة السرية إلى الجهر، ومن مرحلة الاستضعاف إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى محاولات البحث عن النصرة، ثم إلى يثرب، ثم إلى الهجرة.

فالتدرج هنا لا يعني مجرد الانتظار؛ بل يعني تغير الوسائل والأولويات مع تغير الظروف، مع بقاء الأصل الإيماني ثابتًا.

ثانيًا: القراءة التربوية — الابتلاء ليس مرحلة هامشية

يركز الغضبان في قراءته التربوية للسيرة على أثر الابتلاء في بناء الشخصية المؤمنة، وعلى أن التربية الجادة لا تُقاس فقط بما يتلقاه الإنسان من معرفة، وإنما بما يستطيع أن يثبت عليه حين يدفع ثمنه[6].

وهذا المعنى ظاهر في السيرة نفسها.
فالصحابي الذي لم يُختبر إيمانه في الظروف الصعبة قد لا يكون قد اكتشف بعد مقدار ما يستطيع حمله من المسؤولية.
ومن هنا فإن الابتلاء في المرحلة المكية لم يكن مجرد عائق خارجي أمام الدعوة، بل أصبح — من حيث أثره التربوي — مجالًا لظهور الصادقين، وتمييز المعادن، وتكوين القدرة على التحمل.
أما التدرج، فتظهر معالمه في انتقال الدعوة من مرحلة إلى أخرى وفق مقتضيات الواقع، وقد عرض المباركفوري مراحل الدعوة المكية وتطورها، فيما قدم الشيخ محمد الغزالي قراءة للسيرة تجعل من الأحداث المتتابعة مادة لفهم السنن التي صاحبت الحركة النبوية[7].
لكن ينبغي الحذر من صياغة هذا الأمر بصورة ميكانيكية.
فلا نستطيع أن نقول إن كل دعوة لا بد أن تمر بالمراحل نفسها وبالترتيب نفسه. كما لا نستطيع أن نحول التدرج إلى قانون زمني محدد.
إنما الذي تكشفه السيرة أن الرسول ﷺ كان يتحرك وفق القدرة والظرف والمصلحة، ولم يكن يفرض على الجماعة ما يتجاوز طاقتها، ولم يكن يتعامل مع الواقع بطريقة واحدة في جميع مراحله.
ثالثًا: الاستنباط المنضبط
يمكن صياغة القانون هنا على النحو الآتي:
الابتلاء يكشف مستوى البناء الداخلي ويزيد الحاجة إلى التربية، والتدرج يتيح الانتقال من مرحلة إلى أخرى بحسب القدرة والظرف، مع المحافظة على الثوابت وعدم استعجال النتائج.
فالجزء الأول تؤيده مشاهد الابتلاء المتكررة في السيرة، والجزء الثاني يظهر من تنوع المراحل والوسائل.
أما عبارة "لا تستعجل النتائج" فهي استنباط تربوي من طبيعة المسار، وليست نصًا تاريخيًا يقال إن النبي ﷺ صاغه بهذه العبارة.
ضابط القانون
ينبغي ألا يُفهم الابتلاء على أنه مطلوب لذاته، أو أن زيادة الألم دليل على صحة الطريق.
فالسيرة لا تعلمنا تمجيد المعاناة لذاتها، وإنما تعلمنا كيف يُتعامل معها حين تقع.
كما أن التدرج لا يعني ترك المبادرة حتى تتوفر الظروف المثالية؛ فالرسول ﷺ ظل يدعو ويبلغ ويتحرك ويبحث عن المخارج طوال المرحلة المكية.

التطبيق المعاصر

في التربية المعاصرة، يمكن الإفادة من هذا المعنى في عدم توقع نتائج كبيرة من برامج قصيرة، وفي إدراك أن بناء الشخصية يحتاج إلى وقت وممارسة واختبار.

كما يمكن للمؤسسات الإصلاحية أن تفرق بين الهدف الثابت والوسيلة المتغيرة؛ فالهدف قد يبقى واضحًا، بينما تتغير الأدوات بحسب الموارد والبيئة والظروف.

وهذا لا يعني أن نكرر خطوات المرحلة المكية، وإنما يعني أن نستفيد من منطق التدرج الذي يظهر في السيرة.

المبحث الثالث: قانون المسؤولية الفردية — الفرد محور التغيير

أولاً: الرواية التاريخية — عندما يصبح الإيمان مسؤولية شخصية

من أبرز ما يميز التربية النبوية أنها لم تتعامل مع الإنسان باعتباره جزءًا ذائبًا في الجماعة، بل خاطبته باعتباره مسؤولًا عن اختياره وعمله.

وهذا المعنى سابق على بناء الدولة والمجتمع، بل هو من أسس البناء نفسه.

فالصحابة الذين دخلوا الإسلام لم يدخلوا باعتبارهم أبناء مؤسسة قائمة أو أعضاء في دولة تحميهم؛ كانوا أفرادًا يتخذون قرارًا شخصيًا في بيئة معادية.

خديجة رضي الله عنها اتخذت قرارها، وأبو بكر رضي الله عنه اتخذ قراره، وبلال رضي الله عنه، وعمار، وصهيب، وخباب، ومصعب، وغيرهم، واجه كل واحد منهم امتحانه الشخصي.

ولذلك كان الإسلام في مكة يعيد تشكيل مفهوم المسؤولية عند الإنسان.

فالقرآن يقرر:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ * الإسراء: ١٣.

ويقول:

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ * النجم: ٣٩.

ويقول:

﴿وَكُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ * المدثر: ٣٨.

وهذه الآيات ليست من أحداث السيرة بالمعنى الضيق، لكنها جزء من البيئة القرآنية التي صنعت الوعي الإسلامي في المرحلة المكية.

ثم جاءت السنة لتؤكد مسؤولية الفرد حتى داخل الجماعة، فقال النبي ﷺ:

[كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ].

فالانتماء إلى جماعة لا يلغي مسؤولية الفرد، كما أن وجود قيادة لا يعفي الإنسان من مسؤوليته الشخصية[8].

وهذه الحقيقة تفسر جانبًا مهمًا من التربية النبوية: فالرسول ﷺ لم يكن يصنع جمهورًا يتلقى، وإنما كان يصنع رجالًا ونساءً قادرين على اتخاذ القرار وتحمل التبعة.

ومصعب بن عمير مثال واضح على ذلك.
فحين أُرسل إلى يثرب لم يكن مجرد ناقل للرسائل، وإنما أصبح مسؤولًا عن تعليم الناس القرآن، ودعوتهم، والتعامل مع زعماء المجتمع الجديد، ومواجهة الأسئلة والمواقف، وفتح الطريق أمام مرحلة جديدة من الدعوة.
وهذا لا يعني أن مصعب كان يعمل مستقلًا عن توجيه النبي ﷺ؛ بل يدل على أن التربية النبوية كانت تخرج أفرادًا قادرين على حمل المسؤولية حين يوكل إليهم العمل.
ثانيًا: القراءة التربوية — من المتلقي إلى المسؤول
في قراءة الشيخ محمد الغزالي للسيرة تظهر قيمة الفرد المؤمن بوصفه اللبنة التي يبدأ منها التغيير، بينما يبرز عند الغضبان التركيز على التربية التي تنقل المسلم من مجرد التصديق إلى القدرة على العمل والحمل والتضحية[9].
أما المباركفوري في عرضه لأحداث المرحلة المكية والمدنية فيقدم نماذج عملية لصحابة تحولوا، بعد التربية، إلى دعاة وقادة ومجاهدين وأهل مسؤوليات متنوعة[10].
واللافت أن هذا التحول لم يكن نتيجة إلغاء شخصية الفرد، بل نتيجة بنائها.
فمصعب بقي مصعبًا، ولكن شخصيته أعيد توجيهها.
وخالد بن سعيد، وعثمان، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وبلال، وعمار، وغيرهم، لم يكونوا نسخًا مكررة؛ بل كان لكل واحد منهم تكوينه وطاقته وظروفه.
ومن هنا فإن صناعة الجماعة لا تعني إنتاج أفراد متشابهين، وإنما اكتشاف الطاقات المختلفة وربطها بالغاية المشتركة.
وهذا من المعاني التي تكشفها السيرة، وإن كان التعبير المعاصر "إدارة المواهب" أو "اكتشاف الطاقات" ليس تعبيرًا تاريخيًا منها.
ثالثًا: الاستنباط المنضبط
يمكن صياغة القانون على النحو الآتي:
لا يكتمل البناء الجماعي إذا لم يتحول الفرد من متلقٍّ إلى صاحب مسؤولية، لأن الجماعة لا تحمل رسالتها إلا من خلال أفراد يشعر كل واحد منهم بتبعة دوره أمام الله ثم أمام الناس.
وهذا استنباط تدعمه نماذج الصحابة ومسار تكليفهم بالمسؤوليات، وليس نصًا شرعيًا بهذه الصياغة.

كما أن المقصود بـ"الفرد محور التغيير" ليس أن الفرد يعمل منفردًا، أو أن الجماعة غير مهمة؛ بل المقصود أن الجماعة القوية تبدأ من أفراد قادرين على تحمل المسؤولية.

ضابط القانون

لا يصح أن يتحول الحديث عن المسؤولية الفردية إلى إنكار أثر المؤسسات والبيئات.

فالفرد يتأثر بالأسرة، والجماعة، والمجتمع، والتعليم، والاقتصاد، والسياسة، وسائر الظروف.

والسيرة نفسها تقدم نموذجًا متوازنًا: فهي تبني الفرد، ثم الأسرة، ثم الجماعة، ثم المجتمع.

إذن ليست العلاقة: فرد بدل الجماعة، وإنما: فرد مسؤول داخل جماعة منظمة وبيئة حاضنة.

التطبيق المعاصر

يمكن الإفادة من هذا القانون في التربية والتعليم والعمل المؤسسي عبر الانتقال من ثقافة "المشارك" إلى ثقافة "المسؤول."

فبدل أن يكون العضو مجرد حاضر في الاجتماعات، ينبغي أن يعرف ما الذي يتحمله من مسؤولية، وما الذي ينتظر منه، وما الذي يستطيع تطويره.

وفي المؤسسات التعليمية، لا يكفي أن يحفظ الطالب المعرفة؛ بل ينبغي أن يتعلم كيف يستخدمها، وكيف يتحمل نتائج اختياراته، وكيف يخدم من حوله.

وفي العمل الإصلاحي، لا ينبغي أن تكون القيادة وحدها مصدر المبادرة؛ بل ينبغي أن تتسع دائرة المسؤولية بحيث تتولد داخل المؤسسة أجيال قادرة على حمل الأدوار المختلفة.

وهذا كله استفادة معاصرة من مبدأ المسؤولية الفردية، وليس نقلًا حرفيًا لنظام تاريخي من عصر النبوة إلى عصرنا.

المبحث الرابع: قانون الصبر الجماعي —

الابتلاء يبني الجماعة كما يبني الفرد

أولاً: الرواية التاريخية — حين يصبح الألم تجربة مشتركة

لم يكن الابتلاء في مكة تجربة أفراد منفصلين فقط، بل أصاب الجماعة المسلمة في مجموعها.

فقد عانى المستضعفون التعذيب، وعانى النبي ﷺ وأصحابه التكذيب والإيذاء، ومرت الجماعة بحصار شديد، واضطر بعض المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم جاءت أحداث عام الحزن والطائف، ثم استمرت الدعوة في ظروف بالغة الصعوبة حتى ظهرت بشائر يثرب.

ومن أهم الأحداث التي تكشف أثر الابتلاء الجماعي الحصار في شعب أبي طالب.

فقد اجتمعت قريش على بني هاشم وبني المطلب ومن انضم إليهم، وكتبوا الصحيفة، وانقطع المسلمون ومن معهم عن كثير من أسباب الحياة الطبيعية، واستمر الحصار مدة طويلة، حتى بلغ بهم الجهد مبلغًا شديدًا.

وقد أورد ابن هشام وابن كثير أخبار الصحيفة وما أصاب المحصورين من شدة، مع اختلاف في بعض تفاصيل الروايات ومددها، وهو ما يقتضي التعامل مع الجزئيات بحذر، مع ثبوت أصل الحصار في الجملة[11].

وكان هذا النوع من الابتلاء مختلفًا عن اختبار الفرد وحده؛ لأن الجماعة أصبحت مطالبة بأن تحافظ على تماسكها تحت الضغط.

وفي المقابل، تكشف الهجرة إلى الحبشة عن وجه آخر من الصبر الجماعي: حين أصبحت البيئة المكية شديدة الوطأة على بعض المسلمين، لم يكن الحل هو ترك الدين، وإنما البحث عن موضع يستطيعون فيه حفظ دينهم.

وكان اختيار الحبشة مرتبطًا بما عُرف عن ملكها من العدل، فقال النبي ﷺ لأصحابه:

[إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ].

فكان في ذلك توجيه إلى حماية الجماعة المؤمنة حين يتعذر عليها دفع الأذى، مع المحافظة على أصل الرسالة[12].

ثم جاء موقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي ليظهر أن التربية التي تلقاها المهاجرون لم تكن مجرد قدرة على الصبر السلبي، بل كانت قد أنتجت وعيًا قادرًا على التعبير عن الإسلام بثقة ووضوح.

فقال جعفر رضي الله عنه في وصف حالهم قبل الإسلام:

[أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ].

ثم ذكر جعفر رضي الله عنه ما لقيه المسلمون من قومهم، فقال:

[فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ].

فهذا النص يقدم صورة كثيفة عن طبيعة البناء الذي أحدثه الإسلام في الإنسان: عقيدة، ثم أخلاق، ثم مسؤولية، ثم قدرة على الصمود في مواجهة الضغط[13].

ثانيًا: القراءة التربوية — من صبر الأفراد إلى مناعة الجماعة

عند قراءة السيرة من زاوية الغضبان، يظهر الابتلاء باعتباره مدرسة لتكوين الشخصية والجماعة معًا؛ فالجماعة التي تمر بالمحن لا تتعلم فقط كيف يصبر أفرادها، وإنما تتعلم كيف تتكافل، وكيف تحافظ على هويتها، وكيف توزع الأعباء، وكيف تمنع الخوف من تفكيكها[14].

وتكشف تجربة الحصار بصورة خاصة أن المحنة الجماعية تضع العلاقات الداخلية تحت الاختبار.

ففي الظروف الطبيعية يمكن أن تبدو الجماعة متماسكة، لكن الأزمات تكشف مستوى التماسك الحقيقي.

وهنا يظهر جانب مهم من المنهج النبوي: لم تكن التربية قائمة على صناعة أفراد أقوياء كل واحد منهم منفردًا، بل على صناعة أفراد يستطيعون أن يكونوا أقوياء معًا.

وهذا المعنى يتصل كذلك بما ظهر في الهجرة إلى الحبشة؛ فقد خرج المهاجرون من مكة جماعات، وحملوا دينهم معهم، ثم حافظوا على صلتهم بالمشروع النبوي، ولم تتحول الهجرة إلى انقطاع عن الرسالة. كما أن جعفرًا رضي الله عنه لم يقدم أمام النجاشي خطابًا سياسيًا مجردًا، بل قدم قصة تحول إنساني وأخلاقي: من الجاهلية إلى التوحيد، ومن الفوضى الأخلاقية إلى المسؤولية، ومن الخضوع للقوي إلى حفظ الكرامة.

وهنا تتضح قيمة الصبر الجماعي: المحنة لا تصبح تربوية لمجرد وقوعها؛ وإنما تصبح كذلك إذا أحسنت الجماعة التعامل معها، وحافظت في أثنائها على المعنى والهوية والتكافل.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن صياغة هذا القانون على النحو الآتي:

حين تتعرض الجماعة لابتلاء مشترك، فإن طريقة إدارتها للمحنة يمكن أن تسهم في زيادة تماسكها ونضج أفرادها، إذا حافظت على المعنى الإيماني، وتكافلت في تحمل الأعباء، وأحسنت التعامل مع الواقع.

والعبارة هنا مقصودة بعناية.

فلا نقول إن كل ابتلاء يقوي الجماعة؛ فقد يؤدي الابتلاء غير المحسن إدارته إلى الانقسام والإنهاك واليأس.

ولا نقول إن المعاناة مطلوبة لذاتها.

وإنما الذي تكشفه السيرة أن الجماعة المؤمنة قد مرت بابتلاءات شديدة، وأنها استطاعت في مراحل متعددة أن تحول هذه المحن إلى مزيد من الثبات والنضج والاستعداد للمراحل اللاحقة.

ضابط القانون

ينبغي كذلك ألا نخلط بين "الصبر" وبين قبول الظلم بلا تدبير.

فالهجرة إلى الحبشة نفسها دليل على أن الصبر لم يكن يعني البقاء في المكان نفسه مهما كانت النتائج؛ فقد اتخذ النبي ﷺ سببًا عمليًا لحماية أصحابه، واختار لهم بيئة أكثر أمنًا.

وكذلك فإن السيرة لا تقدم لنا نموذجًا واحدًا للتعامل مع الخطر؛ ففي موضع يكون الصبر، وفي موضع تكون الهجرة، وفي موضع البحث عن النصرة، وفي موضع الحوار، وفي موضع المواجهة.

ولهذا فإن الصبر قيمة ثابتة، أما صورة الصبر ووسيلته فتتغير بحسب الحال.

التطبيق المعاصر

في العمل الجماعي المعاصر، يمكن الإفادة من هذا المبدأ في بناء مؤسسات لا تنهار عند أول أزمة. ويقتضي ذلك أن تُبنى الثقة في أوقات الرخاء قبل الحاجة إليها في أوقات الشدة، وأن تكون المسؤوليات واضحة، وأن توجد ثقافة للتكافل، وأن يُتاح للأفراد التعبير عن مخاوفهم ومشكلاتهم دون أن تتحول الأزمة إلى اتهامات متبادلة.

كما ينبغي للقادة ألا يتعاملوا مع الأزمات باعتبارها اختبارات للأفراد وحدهم، بل باعتبارها اختبارات للنظام الداخلي كله: هل تتوزع الأعباء بعدل؟ هل تصل المعلومات بوضوح؟ هل تبقى القيم حاضرة؟ هل يشعر الضعيف أنه محمي؟ وهل يستطيع الأقوى أن يتحمل نصيبه من العبء؟

وهذه كلها أسئلة تطبيقية معاصرة مستفادة من المعنى التربوي العام، وليست أحكامًا نقلية عن السيرة.

الخلاصة:: الإنسان أول البناء وأبقى ثماره

عند جمع هذه القوانين الأربعة، يظهر أن السيرة لا تقدم "منهجًا في بناء الإنسان" بمعنى مجموعة تعليمات منفصلة، وإنما تقدم مسارًا حيًا تشكلت فيه الشخصية المؤمنة عبر الإيمان، والتزكية، والقدوة، والابتلاء، والمسؤولية، والعمل الجماعي.

فالإيمان يمنح الإنسان المعنى.

والقدوة تحول المعنى إلى سلوك.

والابتلاء يختبر هذا السلوك ويكشف مدى رسوخه.

والتدرج يمنح الإنسان والجماعة فرصة للنمو دون تحميلهما ما لا يحتملان.

والمسؤولية تنقل الإنسان من موقع المتلقي إلى موقع الفاعل.

والصبر الجماعي يحول الجماعة من تجمع أفراد إلى جماعة تستطيع أن تحمل الأعباء المشتركة.

ومن هنا يمكن تلخيص القوانين الأربعة في سلسلة مترابطة:

إيمان يبني الداخل، وقدوة تجسد المعنى، وابتلاء يكشف الثبات، وتدرج ينضج القدرة، ومسؤولية تحرك الفرد، وصبر جماعي يحفظ الجماعة.

لكن هذه الصياغة الأخيرة تركيب تحليلي من الكاتب، وليست نصًا من السيرة ولا عبارة منسوبة إلى أحد المراجع.

والأهم أن هذه القوانين لا ينبغي أن تتحول إلى وصفة جامدة.

فالسيرة نفسها أكثر مرونة وثراء من ذلك؛ إذ لم يتعامل النبي ﷺ مع جميع الناس بالطريقة نفسها، ولم يواجه جميع الأزمات بالوسيلة نفسها، ولم تكن كل مرحلة نسخة من المرحلة السابقة.

ولهذا فإن القيمة الحقيقية لهذه القوانين ليست في تكرار الأحداث، وإنما في فهم المعاني التي يمكن أن تستخلص منها مع مراعاة السياق.

خلاصة القوانين

١. قانون الإيمان قبل التمكين والقدوة

الملاحظة: سبق بناء العقيدة والتزكية والصبر مراحل التمكين، وكان النبي ﷺ قدوة عملية فيما يدعو إليه.

الاستنباط: البناء المستدام يحتاج إلى إنسان يحمل قيمه من الداخل، ويزداد أثر التربية حين تقترن بالقدوة.

الضابط: لا يعني ذلك تعطيل العمل، ولا أن كل مشروع يجب أن يمر بالمراحل المكية نفسها.

التطبيق: الاستثمار في بناء الشخصية الأخلاقية والإيمانية، وربط التعليم بالممارسة والقدوة.

٢. قانون الابتلاء والتدرج

الملاحظة: مرت الدعوة بمراحل متعددة، وتعرض المسلمون لابتلاءات شديدة، وتغيرت الوسائل مع تغير الظروف.

الاستنباط: الابتلاء يكشف مستوى البناء، والتدرج يساعد على الانتقال بين المراحل وفق القدرة والظرف.

الضابط: لا يعني الابتلاء أن الألم مطلوب لذاته، ولا يعني التدرج التسويف أو تعطيل المبادرة.

التطبيق: بناء المشروعات والأفراد بصورة تراكمية، وتغيير الوسائل بحسب الواقع مع ثبات المقاصد المشروعة.

٣. قانون المسؤولية الفردية

الملاحظة: أنتجت التربية النبوية أفرادًا قادرين على تحمل أدوار ومسؤوليات متنوعة، ولم تذب شخصية الفرد في الجماعة.

الاستنباط: الجماعة القوية تحتاج إلى أفراد يشعر كل واحد منهم بتبعة دوره.

الضابط: المسؤولية الفردية لا تلغي أثر الجماعة والمؤسسة والبيئة.

التطبيق: تحويل الأفراد من مجرد مشاركين إلى أصحاب أدوار واضحة ومسؤوليات قابلة للقياس والتقويم.

٤. قانون الصبر الجماعي

الملاحظة: مرت الجماعة المسلمة بمحن مشتركة، من التعذيب والحصار إلى الهجرة، واستطاعت في مراحل متعددة المحافظة على هويتها وتماسكها.

الاستنباط: حسن إدارة المحنة يمكن أن يزيد نضج الجماعة وتماسكها، إذا اقترن بالإيمان والتكافل وحسن التدبير.

الضابط: ليس كل ابتلاء باعثًا على القوة، ولا يعني الصبر الاستسلام أو ترك الأسباب.

التطبيق: بناء مؤسسات قادرة على تحمل الأزمات، وتوزيع الأعباء، وحفظ الثقة، وإدارة الخلاف والخوف في الظروف الصعبة.

ملاحظة منهجية ختامية

من المهم في هذا الباب خصوصًا أن نثبت الفرق بين ثلاثة أنواع من العبارات:

الأول: ما هو من السيرة نفسها.

مثل وقوع الابتلاء، والهجرة إلى الحبشة، والحصار، وتربية الصحابة، وتكليف بعضهم بمهام معينة.

الثاني: ما هو قراءة تربوية للوقائع.

مثل القول بأن الابتلاء كشف معادن الرجال، أو أن القدوة كان لها أثر عميق في التربية.

الثالث: ما هو تطبيق معاصر.

مثل بناء المؤسسات القادرة على إدارة الأزمات، أو تطوير نظم المسؤولية داخل المؤسسات.

وهذا التفريق ليس شكليًا، بل هو شرط أساسي في الكتاب؛ لأن قوة السيرة لا تحتاج إلى أن ننسب إليها ما لم تقله حتى نستفيد منها.

كما أن كلمة "القانون" المستخدمة في هذا الباب ينبغي أن تفهم بوصفها عنوانًا لمنهج الاستقراء والتحليل، لا بوصفها حكمًا شرعيًا أو قاعدة حتمية لا تتخلف.

والأدق أن نقول: إن السيرة تكشف أنماطًا متكررة من التربية والعمل والتعامل مع الإنسان والواقع، ويمكن للباحث أن يستنبط منها قواعد إرشادية، بشرط أن يبقى واعيًا بحدود الاستقراء وباختلاف السياقات.

وهذا هو الفارق بين فقه السيرة وبين تحويل السيرة إلى شعارات.

الهوامش والمراجع

1أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه؛ وينظر في سياق أخبار المستضعفين: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت؛ وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر.

2أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض؛ وفيه وصف عائشة رضي الله عنها لخلق النبي ﷺ بأنه "القرآن."

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، في المواضع التي يعالج فيها طبيعة المرحلة المكية وبناء الإنسان المؤمن وأثر التربية في حمل الرسالة.

4صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، في عرض المرحلة المكية ومراحل الدعوة؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، فيما يتعلق بالبناء الإيماني والتربوي في المرحلة المكية.

5ابن هشام، السيرة النبوية، أخبار تعذيب المستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ؛ وابن كثير، البداية والنهاية، أخبار السابقين الأولين وما أصابهم من البلاء.

6منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في مباحث التربية على الصبر والابتلاء والثبات.

7الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في قراءته لمراحل الدعوة وتدرجها؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في تقسيم مراحل الدعوة المكية وتطورها.

8أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، وكتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ * النساء: ٥٩؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، في حديث "كلكم راع."

9الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في حديثه عن أثر التربية النبوية في صناعة الشخصية المؤمنة؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في مباحث التربية على المسؤولية والعمل.

10صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في تراجم الصحابة وأدوارهم في مراحل الدعوة المختلفة؛ وابن هشام، السيرة النبوية، في أخبار السابقين الأولين وأهل الهجرة والدعوة إلى الإسلام.

11ابن هشام، السيرة النبوية، خبر الصحيفة والحصار؛ وابن كثير، البداية والنهاية، أحداث المقاطعة في شعب أبي طالب، مع مراعاة اختلاف الروايات في بعض التفاصيل.

12أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية في خبر الهجرة إلى الحبشة، ورواه أحمد في المسند من حديث أم سلمة رضي الله عنها في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة؛ وينظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية، أخبار الهجرة الأولى إلى الحبشة.

13أخرجه أحمد في المسند في حديث أم سلمة رضي الله عنها في قصة النجاشي، وفيه خطاب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، باب هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة؛ وابن كثير، البداية والنهاية، الموضع نفسه.

14منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في أثر الابتلاء الجماعي في بناء الجماعة والثبات؛ وينظر في السياق العام: الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم.

الفصل الحادي والعشرون: قوانين بناء الجماعة والمؤسسة

تمهيد

إذا كان بناء الإنسان هو البداية التي قامت عليها الدعوة، فإن بناء الجماعة هو المرحلة التي يتحول فيها الإيمان الفردي إلى طاقة اجتماعية قادرة على حمل المسؤولية، وقد كشفت السيرة النبوية أن الجماعة التي أرادها الإسلام لم تكن تجمعًا عدديًا حول فكرة، ولا مجرد صف من الأفراد المتشابهين، وإنما كانت بناءً تتكامل فيه وحدة الرسالة، والأخوة، والشورى، وتوزيع المسؤوليات، والثقة المتبادلة.

ومن هنا لا تبدو الجماعة في السيرة غاية مستقلة، ولا المؤسسة مجرد هيكل تنظيمي، وإنما كلاهما وسيلة لحفظ الرسالة وتحويل القيم إلى ممارسة مستمرة، ولذلك ارتبطت المرحلة المدنية ببناء المسجد، والمؤاخاة، وتنظيم المجتمع، وتوزيع المهام، وإسناد المسؤوليات إلى من يقدر عليها، مع بقاء المرجعية العليا للوحي والقيادة النبوية.

وقد تنبه الشيخ محمد الغزالي إلى أن قوة التجربة النبوية لم تكن في كثرة الأفراد، وإنما في نوعية الرجال الذين صنعتهم التربية الإسلامية، وفي قدرتهم على حمل المسؤولية بعد أن استقرت العقيدة في نفوسهم. كما أبرز المباركفوري في عرضه للسيرة كيف انتقلت الجماعة الإسلامية من طور الاستضعاف إلى طور بناء المجتمع المنظم، بينما اهتم الغضبان بإبراز الجانب التربوي والتنظيمي في صناعة الجماعة المسلمة.

غير أن الانتقال من هذه الوقائع إلى "قوانين" عامة يحتاج إلى قدر من الاحتياط؛ فليس كل إجراء اتخذه النبي ﷺ يتحول تلقائيًا إلى قاعدة تنظيمية عامة، ولا كل حادثة في السيرة تصلح أن تكون نموذجًا مؤسسيًا يُنقل بحرفيته إلى كل زمان، وإنما المقصود هنا قراءة ما تتكرر دلالته في الوقائع، ثم صياغته في صورة استنباط منضبط، مع الفصل بين ما وقع تاريخيًا، وما فهمه العلماء منه، وما يمكن أن نستفيد منه في واقعنا المعاصر.

المبحث الأول: قانون الأخوة ووضوح الرسالة

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

كان من أوائل الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد الهجرة بناء المسجد، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ولم تكن هذه الخطوات منفصلة عن طبيعة المجتمع الجديد؛ فالهجرة أخرجت جماعة من المسلمين من بيئتهم وأموالهم وعلاقاتهم، وأدخلتهم مجتمعًا جديدًا يحتاج إلى إعادة ترتيب الروابط الاجتماعية على أساس الإيمان.

وقد أثبت القرآن هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ * الحجرات: ١٠.

وقال الله سبحانه وتعالى في وصف المهاجرين والأنصار:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ * الأنفال: ٧٤.

وتظهر الصورة بصورة أوضح في وصف القرآن للأنصار:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ * الحشر: ٩.

وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه في قصة المؤاخاة:

[قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنًى، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: قَاسَمْتُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، فَإِذَا حَلَّتْ فَتَزَوَّجْهَا، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ...][1].

والرواية، مع دلالتها على عظيم ما بلغه الأنصار من الإيثار، تكشف في الوقت نفسه عن شخصية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ فلم يكن بناء الأخوة قائمًا على تحويل المهاجر إلى شخص عاجز ينتظر العطاء، بل انتهى موقفه إلى قوله: [دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ].

وهذه نقطة مهمة في فهم المؤاخاة؛ إذ لم يكن المقصود إلغاء شخصية المهاجر أو استقلاله، وإنما إزالة أثر الغربة والفقر والانقطاع الذي أحدثته الهجرة، وإيجاد رابطة اجتماعية جديدة تقوم على الإيمان والتناصر.

وقد عرض ابن هشام أخبار المؤاخاة في سياق حديثه عن بناء المجتمع المدني، كما تناول ابن كثير هذه المرحلة عند تفسير آيات الأنصار والمهاجرين، مبينًا ما اشتملت عليه من صور الإيثار والنصرة،

ويبرز المباركفوري هذه الخطوة بوصفها من الأعمال المؤسسة للمجتمع الجديد، بينما ينظر إليها الغضبان من زاوية تربوية تتصل ببناء الجماعة وتجاوز الروابط الجاهلية[2].

ثانيًا: القراءة التربوية

لم تكن الأخوة في التجربة النبوية شعارًا وجدانيًا فحسب، وإنما كانت تحويلًا للقيمة إلى علاقة ومسؤولية وسلوك.

فالمؤاخاة عالجت واحدة من أخطر مشكلات المجتمعات الناشئة: أن يحمل الفرد انتماءه القديم إلى الجماعة الجديدة، فيصبح اختلاف الأصل أو القبيلة أو المكان مصدرًا للتنافس والانقسام.

لقد جاء المهاجرون من قبائل وبيئات مختلفة، وكان الأنصار أنفسهم قد عاشوا تاريخًا طويلًا من النزاع بين الأوس والخزرج، وكان بناء الجماعة الجديدة يحتاج إلى رابطة أعلى من الروابط التي اعتادها الناس.

وهنا جاءت الأخوة الإيمانية لتعيد تعريف العلاقة بين الأفراد.

لكن السيرة تقدم صورة أكثر عمقًا من مجرد "إزالة العصبية"؛ فالأخوة لم تُلغِ الخصائص الشخصية، ولم تحول أفراد الجماعة إلى نسخة واحدة؛ فسعد بن الربيع بقي سعدًا، وعبد الرحمن بقي عبد الرحمن، وإنما اجتمعت الشخصيات المختلفة على غاية واحدة ومرجعية واحدة ومسؤولية مشتركة.

وهذا يفسر لماذا كان وضوح الرسالة سابقًا على قوة الجماعة؛ فالناس لا يجتمعون اجتماعًا مستقرًا بمجرد وجودهم في المكان نفسه، وإنما يحتاجون إلى معنى يجمعهم.

وقد قال النبي ﷺ:

[مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى][3].

فالحديث لا يقدم الأخوة بوصفها عاطفة عابرة، وإنما يصورها في صورة جسد واحد؛ أي أن سلامة الجماعة مرتبطة بقدرة أفرادها على الإحساس ببعضهم وتحمل المسؤولية المتبادلة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذه الوقائع أن تماسك الجماعة يحتاج إلى أمرين متلازمين: وضوح الغاية، وصحة العلاقة بين أفرادها.

فوضوح الرسالة يمنع الجماعة من التحول إلى تجمع للمصالح، والأخوة تمنع وضوح الرسالة من التحول إلى مجرد شعار تجريدي لا ينعكس على العلاقات.

لكن لا يصح تحويل المؤاخاة النبوية إلى نموذج تنظيمي جامد، أو القول إن كل جماعة في كل زمان يجب أن تطبق الصورة نفسها. الذي يمكن استخلاصه بدرجة أكبر من الاطمئنان هو مبدأ إعادة بناء الروابط الاجتماعية حول القيم المشتركة، وتقوية الثقة والتكافل بين أفراد الجماعة، مع حفظ استقلال الشخصية وتحملها لمسؤوليتها.

ضابط القانون

لا تستقيم الجماعة المستدامة بوضوح الرسالة وحده، ولا بالألفة الاجتماعية وحدها؛ وإنما تحتاج إلى غاية مشتركة تتحول إلى أخوة ومسؤولية متبادلة.

حدود التطبيق

هذا استنباط تربوي من السيرة، وليس نصًا تشريعيًا خاصًا ببناء المؤسسات المعاصرة. كما أن الأخوة الإسلامية لا تعني إلغاء اختلاف الناس في الآراء والاجتهادات، ولا تمنع التنظيم المؤسسي القائم على الاختصاص والمساءلة.

التطبيق المعاصر

في المؤسسات والجماعات والمشروعات الإصلاحية، يمكن الإفادة من هذا المبدأ في بناء ثقافة تجعل الانتماء للمهمة المشتركة أقوى من النزاعات الشخصية، مع إنشاء بيئة يشعر فيها الفرد أنه شريك في المسؤولية، لا مجرد أداة لتنفيذ قرارات الآخرين.

المبحث الثاني: قانون الشورى وتوزيع الأدوار

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

لم يكن المجتمع النبوي مجتمعًا يقوم على حضور القائد وحده، رغم مكانة النبي ﷺ ووحي الله إليه؛ فقد مارس النبي ﷺ الشورى، واستمع إلى أصحابه، وأشركهم في تقدير المواقف، وأسند إليهم أعمالًا تتناسب مع قدراتهم.

ومن أوضح الشواهد على ذلك ما وقع في غزوة بدر.

فعندما وصل المسلمون إلى بدر، ظهرت مسألة اختيار موقع النزول، فأشار الحباب بن المنذر رضي الله عنه بموقع آخر، وسأل النبي ﷺ:

[يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟]

فلما تبين أن الأمر من باب الرأي والتدبير، أشار الحباب بالمضي إلى موضع آخر، فقبل النبي ﷺ رأيه[4].

وتتكرر الشورى في السيرة في مواقف متعددة؛ ففي أحد أُخذ برأي غالبية الصحابة في الخروج، وفي الخندق ظهرت فكرة حفر الخندق، وفي الحديبية ظهر تفاعل الصحابة مع القرار النبوي حتى في أصعب اللحظات.

أما توزيع الأدوار، فكان ظاهرًا في حياة الجماعة منذ عهد مكة والمدينة؛ فقد أُرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى يثرب قبل الهجرة ليعلّم الناس ويدعوهم، وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن، وأسند إلى خالد بن الوليد وأمثاله مسؤوليات عسكرية، وإلى غيرهم مهام تتصل بالقضاء والتعليم والكتابة والإدارة.

وفي ذلك قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما:

[يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا][5].

فلم يكن إرسال الأشخاص مجرد توزيع للمهام، وإنما كان توجيهًا لهم إلى كيفية أداء المهمة.

وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ * الشورى: ٣٨.

ومع قوله سبحانه لنبيه ﷺ:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف الشورى في السيرة عن معنى يتجاوز مجرد المشاركة في اتخاذ القرار؛ إنها تربية للأمة على تحمل المسؤولية.

فحين يستمع القائد إلى رأي أصحابه، فهو لا يحصل فقط على معلومات إضافية، وإنما يدربهم على التفكير، ويجعلهم يشعرون أن الأمر العام ليس شأنًا يخص شخصًا واحدًا.

وفي الوقت نفسه، لا تعني الشورى أن القرار يصبح ملكًا للجميع دون مسؤولية قيادية؛ فالقرآن يقول بعد الأمر بالشورى:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.

وهنا يظهر التوازن النبوي: استماع، ومناقشة، ثم عزم ومسؤولية.

وهذا التوازن مهم في التربية القيادية؛ لأن الاستبداد يقتل المبادرة، بينما غياب المسؤولية القيادية قد يحول الشورى إلى تردد دائم.

كما أن توزيع الأدوار في السيرة لم يكن عشوائيًا؛ فقد كان النبي ﷺ يكتشف القدرات، ثم يضع الإنسان في الموضع الذي يستطيع أن يؤدي فيه أفضل ما عنده.

ومن هنا يمكن فهم إرسال مصعب إلى يثرب، واختيار بعض الصحابة لمهام عسكرية أو تعليمية أو إدارية، في سياق بناء جماعة لا تعتمد على شخص واحد.

وقد أبرز الشيخ محمد الغزالي هذا الجانب في قراءته للسيرة، مؤكدًا أن النبي ﷺ لم يكن يبني أتباعًا سلبيين، بل رجالًا قادرين على حمل المسؤولية، ويعطي الغضبان مساحة واسعة للجانب التربوي في إعداد الأفراد للقيام بالمهام، بينما يعرض المباركفوري وقائع التكليف والبعوث والولايات في سياق تطور المجتمع الإسلامي[6].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

من مجموع هذه الوقائع يمكن صياغة استنباط تربوي مؤداه أن الجماعة التي تحتكر المعرفة والقرار في شخص واحد تضعف قدرتها على الاستمرار، بينما الجماعة التي تشرك أهل الخبرة وتوزع المسؤوليات تربي أفرادًا قادرين على حمل الأمانة.

لكن ينبغي عدم إسقاط مفهوم "الشورى" النبوي على كل نموذج سياسي أو إداري معاصر بصورة آلية؛ فالنظم الحديثة تختلف في بنيتها ومؤسساتها وآليات اتخاذ القرار.

الذي تدل عليه السيرة بدرجة أوضح هو أصل المشاورة، والاستماع إلى أهل الرأي والخبرة، وتوزيع المسؤوليات بحسب القدرة، مع بقاء المسؤولية النهائية واضحة.

ضابط القانون

استدامة الجماعة لا تتحقق بتكثير الأتباع، وإنما بتوسيع دائرة المسؤولية، وإشراك أهل الرأي والخبرة، ووضع كل شخص في الموضع الذي يحسن القيام به.

حدود التطبيق

لا يعني توزيع الأدوار أن الجميع يملكون الاختصاص نفسه، ولا أن كل قرار يحتاج إلى إجماع. كما لا تعني الشورى إلغاء القيادة أو المسؤولية الفردية عن القرار.

التطبيق المعاصر

يمكن للمؤسسات أن تستفيد من هذا المبدأ ببناء آليات واضحة للمشاورة، وتحديد الاختصاصات، واكتشاف المواهب، وتفويض المهام، وربط التفويض بالمساءلة والتقييم.

المبحث الثالث: قانون صناعة الصف الثاني

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

من أبرز خصائص التربية النبوية أنها لم تكن تهدف إلى بقاء الجماعة متعلقة بشخص النبي ﷺ في كل تفاصيلها، وإنما صنعت رجالًا ونساءً قادرين على حمل المسؤولية.

فمن مكة ظهر أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وخباب ومصعب وغيرهم، ثم اتسعت دائرة المسؤوليات في المدينة، وأصبح هؤلاء وغيرهم يتولون التعليم والقيادة والقضاء والسفارات والبعوث.

ومن أوضح الأمثلة مصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي أرسله النبي ﷺ إلى يثرب بعد بيعة العقبة الأولى.

وقد روى البراء بن عازب رضي الله عنه:

[أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ الْقُرْآنَ...][7].

فهذا التكليف يكشف أن التربية لم تتوقف عند إعداد الفرد لنفسه، بل انتقلت إلى إعداده ليُربي غيره.

ومن صور صناعة القيادات كذلك إرسال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل إلى اليمن، وقد سأله عن كيفية قضائه إذا عرض له القضاء، فقال:

[بِمَ تَقْضِي؟]

قال: بكتاب الله.

قال:

[فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟]

قال: فبسنة رسول الله ﷺ.

قال:

[فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ؟]

قال: أجتهد رأيي ولا آلو.

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال:

[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ][8].

وقد اختلف أهل الحديث في إسناد هذه الرواية، ولذلك لا ينبغي جعلها وحدها أساسًا لقاعدة شرعية مستقلة، وإن كان معناها قد اشتهر في كتب السيرة والأصول[9].

وهذا الاحتياط المنهجي مهم؛ لأن الدراسة العلمية للسيرة لا تكتفي بشهرة الرواية، وإنما تنظر كذلك في درجتها ومصدرها.

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف هذه الوقائع أن النبي ﷺ كان ينقل أصحابه من مرحلة التلقي إلى مرحلة الأداء، ومن الاستجابة إلى المبادرة، ومن التعلم إلى التعليم.

ومصعب بن عمير مثال واضح؛ فقد كان شابًا تربى في مكة، ثم وجد نفسه أمام مهمة كبيرة في مجتمع آخر، ولم يكن دوره أن ينقل أخبار النبي ﷺ فقط، وإنما أن يتولى الدعوة والتعليم وبناء العلاقة بالمجتمع الجديد.

وهكذا يصبح المتربي جزءًا من عملية التربية نفسها.

وهذا من أعمق وجوه التربية النبوية: أن النجاح لا يقاس بعدد الأشخاص الذين يتلقون التربية من المربي، وإنما أيضًا بعدد الذين أصبحوا قادرين على حمل التربية إلى غيرهم.

وقد أشار الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة إلى هذه القدرة على صناعة الرجال الذين يحملون الدعوة بعد انتقالها إلى مراحل جديدة، بينما يعالج الغضبان هذه القضية من خلال مفهوم التربية القيادية وتحويل الفرد إلى عنصر فاعل، ويعرض المباركفوري شواهد متعددة على توسع دائرة المسؤوليات في العهد المدني[10].

ثم جاءت الأيام لتكشف عمق هذا البناء؛ فعندما توفي النبي ﷺ لم تنتهِ الجماعة، ولم تتوقف الرسالة بغياب القائد الأول، بل نهض أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، واستمر الصحابة في حمل الدين ونقله وتعليمه.

ولا يعني ذلك أن النبي ﷺ كان يقصد إنشاء "هيكل إداري حديث" بالمعنى المتداول اليوم؛ فهذا تحميل للتاريخ ما لا يحتمل. لكن الوقائع المتعددة تسمح باستنباط معنى تربوي واضح: أن التربية الناجحة تنتج أشخاصًا قادرين على تحمل المسؤولية بعد المربي، لا أشخاصًا لا يستطيعون العمل إلا في حضوره.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن صياغة هذا المعنى في قانون تربوي:

كل جماعة تريد الاستمرار تحتاج إلى إعداد أفراد قادرين على حمل بعض وظائفها ومسؤولياتها، بحيث لا تصبح سلامة العمل متوقفة على شخص واحد.

وهذا الاستنباط لا يعني أن السيرة قدمت "نظرية في التعاقب المؤسسي" بالمصطلح الإداري المعاصر، وإنما يعني أن تعدد الشخصيات التي حملت أدوارًا مختلفة في المجتمع النبوي يدل على قيمة تربوية تتمثل في التفويض، والتدريب العملي، واكتشاف الكفاءات، وإعطاء المتربي فرصة حقيقية لتحمل المسؤولية.

ضابط القانون

المربي الذي يحتفظ بكل المسؤوليات يصنع تابعين، أما المربي الذي ينقل المسؤولية تدريجيًا إلى أهلها فيسهم في صناعة حملة للرسالة.

حدود التطبيق

لا يعني التفويض ترك المسؤولية دون متابعة، ولا يعني إعطاء المبتدئ مهمة أكبر من قدرته. كما أن صناعة الصف الثاني لا تعني صناعة بدائل للصراع على القيادة، وإنما تعني توسيع دائرة الكفاءة والمسؤولية.

التطبيق المعاصر

في المؤسسات الدعوية والتعليمية والمجتمعية، ينبغي أن يُنظر إلى تدريب الأشخاص على المسؤوليات باعتباره جزءًا من العمل نفسه، لا نشاطًا إضافيًا مؤجلًا إلى المستقبل، ويشمل ذلك إعطاء الفرص، والمرافقة، والتقويم، ثم الانتقال التدريجي من التوجيه المباشر إلى التفويض.

المبحث الرابع: قانون الثقة بين القائد والجماعة

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

الثقة في السيرة ليست مجرد شعور نفسي بين القائد وأتباعه؛ فقد بُنيت على سنوات من الصدق والوفاء وتحمل المسؤولية.

لقد عرف أهل مكة النبي ﷺ قبل البعثة بالصادق الأمين، ثم شهد أصحابه منه خلال سنوات الدعوة ما جعل ثقتهم به تتجاوز المعرفة النظرية إلى اليقين العملي.

ومن أوضح صور ذلك ما وقع في صلح الحديبية، حين واجه الصحابة موقفًا شديدًا لم يفهم بعضهم حكمته في بدايته، ومع ذلك بقيت رابطة الثقة بالنبي ﷺ حاضرة، ثم جاءت نتائج الصلح لتكشف أبعادًا لم تكن ظاهرة لهم عند اتخاذ القرار.

كما تظهر الثقة في مواقف كثيرة من السيرة، ومنها ما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ...][11].

ثم ذكر ما يقع بعد ذلك من تغير بعض الناس، وهو حديث يضع الثقة في سياقها الصحيح: ليست الثقة عمياء، وإنما هي مرتبطة بالاقتداء بالحق والثبات عليه.

وفي المقابل، كان النبي ﷺ يثق بأصحابه ويعطيهم مسؤوليات حقيقية؛ فلم تكن العلاقة قائمة على الشك الدائم أو مراقبة كل حركة، بل على معرفة الأشخاص، واختبارهم، ثم إسناد المهام إليهم.

وهذا واضح في بعوثه وسراياه ورسله وولاته، وفي اعتماده على رجال مثل أبي عبيدة، ومعاذ، ومصعب، وعلي، وأبي موسى، وغيرهم رضي الله عنهم.

ثانيًا: القراءة التربوية

الثقة في التربية النبوية لم تكن بديلًا عن التثبت، وإنما كانت ثمرة معرفة وتجربة ووفاء متبادل.

فالقائد الذي يطلب من الناس التضحية، ثم لا يمنحهم ثقة، يخلق بيئة يغلب عليها الخوف والحذر، والجماعة التي تطلب من قائدها التوجيه ثم تشك في كل قرار تتخلى عنه، لا تستطيع أن تعمل في المواقف التي تحتاج إلى سرعة وتماسك.

لكن السيرة تقدم توازنًا دقيقًا: الثقة لا تعني إلغاء النصيحة، ولا تعني أن الصحابة لم يسألوا النبي ﷺ، أو لم يناقشوه، أو لم يستوضحوا منه.

لقد سأل الحباب عن طبيعة اختيار الموقع في بدر، وسأل الصحابة في مواقف أخرى عن الحكمة والمقصود، وكان النبي ﷺ يستمع إليهم.

إذن، الثقة الحقيقية لا تخاف من السؤال.

ومن هنا تظهر العلاقة الصحيحة بين الشورى والثقة: الشورى تفتح المجال للكلام، والثقة تمنع الاختلاف من التحول إلى خصومة، والقيادة الحازمة تحسم القرار عندما يحين وقت الحسم.

وهذا من المعاني التي يمكن استخلاصها من التجربة النبوية دون تحويلها إلى نظرية إدارية مصطنعة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستخلص أن الثقة عنصر من عناصر تماسك الجماعة، لكنها لا تُبنى بالأوامر ولا بالشعارات، وإنما تتكون من الصدق، والوفاء، والكفاءة، والوضوح، وتراكم التجربة المشتركة.

كما أن الثقة ينبغي أن تكون متبادلة؛ فالقائد يحتاج إلى ثقة الجماعة، والجماعة تحتاج إلى ثقة القائد بقدرتها على تحمل المسؤولية.

لكن ينبغي التمييز بين الثقة وبين العصمة التنظيمية؛ فالقائد غير المعصوم يُراجع ويُنصح، وأفراد الجماعة ليسوا معصومين من الخطأ، ومن ثم فإن الثقة الصحيحة لا تلغي المحاسبة، بل تجعل المحاسبة وسيلة للإصلاح لا أداة لهدم الأشخاص.

ضابط القانون

لا تُبنى الجماعة المتماسكة على الرقابة والخوف وحدهما، وإنما على ثقة متبادلة تنشأ من الصدق والكفاءة والوفاء، وتبقى محكومة بالحق والمساءلة.

حدود التطبيق

لا يجوز تحويل الثقة إلى ولاء شخصي مطلق، ولا إلى تعطيل للنصيحة أو النقد، ولا إلى قبول الخطأ لأن صاحبه موثوق. كما لا يصح قياس العلاقات المؤسسية الحديثة على العلاقة النبوية الخاصة بالصحابة؛ فالنبي ﷺ مؤيد بالوحي، أما القادة بعده فليسوا كذلك.

التطبيق المعاصر

يمكن ترجمة هذا المعنى إلى وضوح في الصلاحيات، وشفافية في المعلومات، ووفاء بالوعود، وعدالة في التقييم، وإتاحة المجال للنصيحة، وعدم بناء المؤسسة على ثقافة الشك الدائم؛ فالثقة في المؤسسة ليست كلامًا عن "روح الفريق"، وإنما سلوك يومي يتراكم حتى يصبح رأس مال معنويًا للجماعة.

الخلاصة:: من الأفراد إلى الجماعة القادرة

تكشف السيرة النبوية أن الجماعة لم تُبنَ بمجرد اجتماع المؤمنين في مكان واحد، وإنما من خلال منظومة متكاملة بدأت بتوحيد الغاية، ثم بناء الأخوة، ثم إشراك الأفراد في المسؤولية، ثم اكتشاف قدراتهم، ثم تفويضهم، ثم بناء الثقة بينهم وبين القيادة وبين بعضهم بعضًا.

وإذا كانت المرحلة المكية قد ركزت على صناعة الإنسان الذي يعرف ربه ويثبت على الحق، فإن المرحلة المدنية أظهرت كيف يتحول هذا الإنسان إلى عضو مسؤول في جماعة، ثم إلى حامل لمهمة، ثم إلى قائد قادر على أن يحمل جزءًا من أعباء المجتمع.

وهنا تتضح أهمية الانتقال من مفهوم "الفرد الصالح" إلى مفهوم "الفرد المسؤول."

فالمؤمن في السيرة لم يكن مطلوبًا منه أن يصلح نفسه فقط، بل أن يكون نافعًا، وأن يحمل أمانة، وأن ينصر أخاه، وأن يتعلم، ويعلّم، ويشاور، ويُستشار، ويُكلَّف، ويُحاسب، ويقوم بدوره في الجماعة.

ومن مجموع المباحث الأربعة يمكن صياغة القوانين في صورتها المختصرة:

١. قانون الأخوة ووضوح الرسالة: الجماعة تحتاج إلى غاية مشتركة تتحول إلى علاقات أخوة ومسؤولية.
٢. قانون الشورى وتوزيع الأدوار: استدامة العمل تتطلب إشراك أهل الرأي والخبرة وإسناد المسؤوليات إلى أهلها.
٣. قانون صناعة الصف الثاني: التربية لا تكتمل حتى يصبح المتربي قادرًا على حمل جزء من المسؤولية وتربية غيره.
٤. قانون الثقة: قوة الجماعة لا تقوم على الرقابة والخوف، وإنما على ثقة متبادلة تُبنى بالصدق والكفاءة والوفاء والمساءلة.

ولا ينبغي أن تُفهم هذه القوانين باعتبارها وصفة تنظيمية جاهزة لكل مؤسسة أو جماعة معاصرة؛ فهذا يتجاوز ما تسمح به السيرة، وإنما هي مبادئ تربوية مستنبطة من تكرر المعاني في التجربة النبوية، تحتاج عند تنزيلها إلى مراعاة اختلاف البيئات والأهداف والهياكل والأنظمة.

والفارق بين القراءة العلمية للسيرة والقراءة الإسقاطية أن الأولى تقول: هذا ما وقع، وهذا ما يدل عليه، وهذا ما يمكن أن نستفيد منه؛ أما الثانية فتبدأ بفكرة معاصرة ثم تبحث لها عن شاهد في السيرة.

الهوامش والمراجع

1 أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، موضع ذكر المؤاخاة؛ وابن كثير، البداية والنهاية، أحداث السنة الأولى من الهجرة.

2صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار السلام؛ الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، في مباحث بناء الجماعة والمؤاخاة.

3أخرجه مسلم، صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

4أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية في خبر بدر، ورواه أهل المغازي بألفاظ متقاربة؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، أحداث غزوة بدر؛ والمباركفوري، الرحيق المختوم، فصل غزوة بدر.

5أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، في بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن.

6الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في مباحث التربية القيادية والبعوث والولايات.

7أخرجه البخاري، صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، في خبر مقدم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى المدينة؛ وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، في أخبار بيعة العقبة والهجرة.

8رواه أبو داود والترمذي وأحمد بألفاظ متقاربة في قصة بعث معاذ إلى اليمن.

9نبه عدد من أهل الحديث إلى الكلام في إسناد حديث معاذ المشهور، ولذلك لا ينبغي جعله وحده أصلًا في تقرير حجية الاجتهاد، وإن كان معناه مستأنسًا به في كتب الفقه والأصول؛ وينظر في تخريجه ودراسته كتب التخريج وشروح السنة.

10الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية؛ المباركفوري، الرحيق المختوم؛ وابن كثير، البداية والنهاية، في أخبار البعوث والولايات والتعليم في العهد المدني.

11أخرجه مسلم، صحيحه، كتاب الإيمان، في حديث حذيفة رضي الله عنه، بألفاظه وسياقه المعروفين.

الفصل الثاني والعشرون: قوانين بناء المجتمع والدولة

تمهيد: حين تتحول التربية إلى نظام حياة

إذا كانت المرحلة المكية قد عنيت ببناء الإنسان، وكانت المدينة قد شهدت بناء الجماعة والمجتمع، فإن السيرة النبوية في مرحلتها المدنية تكشف عن انتقال مهم: انتقال القيم التي تربى عليها الأفراد إلى أنظمة وعلاقات ومؤسسات تضبط حياة المجتمع.

لم يعد المطلوب أن يكون المسلم صالحًا في ذاته فحسب، وإنما أن يعيش داخل مجتمع تُصان فيه الحقوق، وتُؤدى فيه الأمانات، ويقام فيه العدل، وتدار فيه الاختلافات، وتضبط فيه القوة، وتراعى فيه المصالح من غير أن تتحول المرونة إلى تفريط في المبادئ.

ومن هنا تأتي القوانين الأربعة التي يتناولها هذا الفصل: العدل والتكافل، وإدارة التنوع والاختلاف، وأخلاق السلطة والقوة، والمرونة الاستراتيجية.

والتعبير عنها بـ"قوانين" هنا لا يعني أنها قوانين تشريعية مستقلة، ولا أنها صيغ جاهزة يمكن إسقاطها على المجتمعات الحديثة إسقاطًا آليًا، وإنما المقصود سنن ودلالات يمكن استنباطها من مجموع الوقائع والنصوص والممارسات النبوية، ثم الإفادة منها في فهم بناء المجتمع وإدارة شؤونه.

المبحث الأول: قانون العدل والتكافل

من بناء الأخوة إلى حماية المجتمع

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

حين استقر النبي ﷺ في المدينة، لم يكن أمامه مجتمع متجانس مكتمل البناء، بل مجتمع تشكل من مكونات متعددة، لكل منها ظروفها ومصالحها وروابطها السابقة، وكان من أبرز التحديات التي واجهت المجتمع الجديد قضية العلاقة بين المهاجرين والأنصار.

المهاجرون تركوا مكة وأموالهم وديارهم، ووصل كثير منهم إلى المدينة من غير موارد مادية مستقرة، بينما كان الأنصار أهل الدار والمال والزراعة، ولذلك لم يكتف النبي ﷺ بإعلان مبدأ الأخوة، وإنما أقام له صورة عملية في حياة الناس.

وقد روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي ﷺ آخى بينه وبين سعد بن الربيع رضي الله عنه، فقال سعد لعبد الرحمن:[إِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ عَلِمُوا أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، فَسَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، فَإِذَا حَلَّتْ فَتَزَوَّجْهَا]؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: [بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ][1].

وتكشف الرواية عن طرفين متكاملين: كرم التكافل من الأنصاري، وعزة النفس والاستقلال من المهاجر؛ فلم تتحول الأخوة إلى إلغاء لشخصية المحتاج، كما لم يتحول الاعتماد على النفس إلى رفض للتكافل.

وقد سجل القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * الحشر: ٩.

ولم يقف البناء عند العلاقات الفردية، بل ارتبط كذلك بإقامة نظام اجتماعي ومالي يحفظ الحقوق ويمنع الظلم؛ فالزكاة شُرعت ونُظمت في المجتمع المدني، وأصبح للمال وظيفة تتجاوز المصلحة الفردية إلى حفظ التوازن الاجتماعي.

ومن هذا السياق نفهم أن بناء المجتمع النبوي لم يكن قائمًا على الوعظ المجرد، وإنما على ربط الإيمان بالعلاقات والحقوق والمسؤوليات[2].

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع عن دقة التربية النبوية؛ فالتكافل لم يكن إحسانًا يُمارس من طرف واحد بصورة تُبقي الطرف الآخر في موقع العجز، وإنما كان علاقة تحفظ الكرامة وتفتح باب الاعتماد على النفس.

فسعد رضي الله عنه عرض منتهى ما يستطيع من البذل، بينما لم يستقبل عبد الرحمن العرض باعتباره فرصة للاتكال، وإنما قال: [دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ].

وهنا تتضح قيمة تربوية دقيقة: المجتمع القوي لا يكتفي بإغاثة المحتاج، بل يساعده على استعادة قدرته على الفعل.

وقد أشار الشيخ محمد الغزالي في قراءته لبناء المجتمع النبوي إلى أن الإسلام لم يكن مشروعًا لفصل العبادة عن الحياة، وإنما نقل القيم الإيمانية إلى واقع اجتماعي يتحقق فيه التكافل والتعاون.[3] ويبرز الغضبان في قراءته التربوية للسيرة أن التربية النبوية لم تكن تربية فردية منعزلة، وإنما كانت تربية تُنشئ الإنسان داخل جماعة تحمل المسؤولية المشتركة[4].

أما المباركفوري، فيعرض بناء المجتمع المدني في سياق انتقال المسلمين من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة الاستقرار، حيث ظهرت صور عملية للأخوة والتكافل والتنظيم الاجتماعي[5].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذه الوقائع أن العدل والتكافل ليسا عنصرين منفصلين في بناء المجتمع؛ فالعدل يحفظ الحقوق، والتكافل يسند من يحتاج إلى السند.

لكن لا يصح تحويل موقف سعد وعبد الرحمن إلى قاعدة اقتصادية تفصيلية لم يرد بها النص، ولا القول إن السيرة قدمت نموذجًا اقتصاديًا مكتملًا بالمعنى المعاصر. الذي تدل عليه الرواية بوضوح هو اجتماع البذل، والكرامة، والعمل، والمسؤولية داخل رابطة الأخوة.

ضابط القانون

كل مجتمع يريد الاستقرار يحتاج إلى عدل يحفظ الحقوق، وتكافل يمنع الانهيار الاجتماعي، وآليات تحفظ للإنسان كرامته وقدرته على المشاركة.

حدود التطبيق

لا يعني ذلك أن كل صور التكافل التاريخية يجب أن تنقل حرفيًا إلى المؤسسات المعاصرة؛ فالأدوات الاقتصادية والاجتماعية تتغير، بينما تبقى القيم الكبرى التي دلت عليها النصوص: حفظ الحق، وإغاثة المحتاج، وصيانة الكرامة، وتحمل المسؤولية.

التطبيق المعاصر

هذا تطبيق معاصر، وليس وصفًا للسيرة: يمكن للمؤسسات والمجتمعات أن تجعل برامج الدعم مرتبطة بالتأهيل والتمكين، بحيث لا يكون هدفها مجرد معالجة الحاجة الآنية، بل مساعدة الإنسان على استعادة استقلاله وقدرته على الإنتاج والمشاركة.

المبحث الثاني: قانون إدارة التنوع والاختلاف

من تعدد المكونات إلى وحدة المجتمع

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

لم تكن المدينة مجتمعًا ذا مكوّن واحد، فقد اجتمع فيها المهاجرون والأنصار، وكان فيها اليهود، كما كانت فيها جماعات وقبائل وروابط مختلفة.

ولذلك جاءت صحيفة المدينة لتنظم العلاقة بين المكونات الموجودة في المجتمع الجديد، وقد أورد ابن إسحاق، كما نقل ابن هشام، بنودًا متعددة تتعلق بتنظيم العلاقة بين المسلمين واليهود، ومن ذلك قوله: [وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ][6].

وتضمنت الصحيفة كذلك تنظيم المسؤولية المشتركة عن المدينة، وبيان الحقوق والواجبات، وربط أطراف المجتمع بأمن الجماعة ومصلحتها العامة.

ولا ينبغي أن نطلق على الصحيفة أحكامًا حديثة من قبيل أنها "دستور" بالمعنى الاصطلاحي المعاصر على سبيل القطع؛ فالأدق تاريخيًا أن نقول إنها وثيقة لتنظيم العلاقات بين مكونات مجتمع المدينة[7].

وفي الوقت نفسه، لم يكن هذا التنظيم قائمًا على إلغاء الاختلاف الديني أو الاجتماعي. بل نصت الوثيقة على بقاء الخصوصية الدينية، مع تنظيم المسؤولية المشتركة داخل المجال العام.

وهذا يتفق مع قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ * البقرة: ٢٥٦،

وقوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ * الكافرون: ٦.

ثانيًا: القراءة التربوية

الدرس الأهم هنا أن بناء المجتمع لا يتطلب إزالة كل الفروق بين أفراده، وإنما يتطلب إدارة هذه الفروق ضمن إطار من الحقوق والواجبات.

فالاختلاف الديني لا يعني بالضرورة استحالة الاجتماع في المصالح المشتركة، كما أن وحدة المجتمع لا تعني إلغاء الخصوصيات.

وهذه نقطة مهمة في القراءة التربوية للسيرة؛ إذ إن النبي ﷺ لم يبن المجتمع الجديد على أساس تجاهل الواقع الموجود، وإنما تعامل مع الواقع كما هو، ثم نظّم العلاقات داخله.

ويؤكد الشيخ محمد الغزالي في قراءته للسيرة أن الإسلام حين انتقل إلى المدينة لم يعد يتعامل مع الإنسان باعتباره فردًا في جماعة دعوية محدودة، وإنما أصبح أمام مسؤولية بناء مجتمع كامل، بما يتضمنه ذلك من علاقات وعهود وتنظيمات[8].

ويظهر عند المباركفوري كذلك أن تنظيم المجتمع المدني كان مرتبطًا بواقع المدينة وتركيبتها السياسية والاجتماعية، ولم يكن مجرد إجراء شكلي.[9] أما الغضبان فيبرز البعد التربوي والتنظيمي في انتقال الجماعة من مجرد رابطة إيمانية إلى مجتمع له مسؤوليات مشتركة[10].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من التجربة المدنية أن إدارة التنوع لا تبدأ بإنكار الاختلاف، وإنما بتنظيم العلاقة بين المختلفين على أساس الحقوق والواجبات والعهود والمصلحة العامة.

لكن ينبغي الحذر من تحويل هذا الاستنباط إلى دعوى بأن المدينة كانت نموذجًا مطابقًا لكل مفاهيم "التعددية" السياسية والاجتماعية الحديثة؛ فهذه مصطلحات نشأت في سياقات تاريخية وفكرية مختلفة.

الذي تثبته السيرة هو أن المجتمع النبوي تعامل مع تعدد مكوناته من خلال العهد والتنظيم والحقوق والمسؤوليات.

ضابط القانون

وحدة المجتمع لا تستلزم إزالة الاختلاف، وإنما تحتاج إلى إطار عادل ينظم الاختلاف ويحفظ الحقوق ويحدد المسؤوليات.

حدود التطبيق

لا يجوز استخدام صحيفة المدينة لإثبات نظام سياسي معاصر كامل بكل تفاصيله، كما لا يجوز تجاهل خصوصيتها التاريخية، وإنما يمكن الاستفادة من مبدئها العام في أهمية وجود قواعد واضحة للعلاقات العامة، خصوصًا في المجتمعات المتعددة.

التطبيق المعاصر

هذا استنباط معاصر: تحتاج المجتمعات المتنوعة إلى قواعد معلنة تضبط الحقوق والواجبات، وتمنع التمييز والاعتداء، وتحدد المسؤولية المشتركة عن الأمن والمصلحة العامة، مع احترام الخصوصيات الدينية والثقافية في إطار النظام العام.

المبحث الثالث: قانون أخلاق السلطة والقوة

الحزم دون ظلم، والعفو عند المقدرة

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

حين انتقل النبي ﷺ إلى المدينة أصبح مسؤولًا عن مجتمع كامل، وواجه أخطارًا داخلية وخارجية، ولم تعد القيادة مقتصرة على التربية والتعليم، بل أصبحت تشمل القضاء، وتنظيم الأمن، وإدارة العهود، وقيادة الجيوش، واتخاذ القرارات التي تمس حياة المجتمع.

ومع ذلك بقيت القوة في الممارسة النبوية مقيدة بالعدل والحق.

ومن أوضح النصوص الجامعة في ذلك قوله ﷺ:

[إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ][11].

والحديث، وإن كان في سياق القتل والذبح، يكشف عن أصل أخلاقي مهم: حتى في المواضع التي تُستعمل فيها القوة، لا تسقط الضوابط الأخلاقية.

وفي المجال القضائي قال رسول الله ﷺ: [إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ][12].

وهذا النص يضع قاعدة بالغة الأهمية في علاقة السلطة بالحق: الحكم القضائي لا يحول الباطل إلى حق، ولا يمنح صاحب الحيلة ملكية ما ليس له.

ومن جهة أخرى، ظهرت في السيرة مواقف العفو حين امتلك النبي ﷺ القدرة على العقوبة، وكان فتح مكة أبرز أمثلتها.

فعندما دخل ﷺ مكة، كان أمامه مجتمع ارتبط جزء كبير من تاريخه بإيذاء المسلمين وإخراجهم ومحاربتهم، ومع ذلك لم يحول النصر إلى موجة انتقام شاملة، بل أعلن الأمان والعفو في مواضع متعددة، وكان من خطابه لأهل مكة:

[اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ][13].

كما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأهل مكة يوم الفتح:[مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟] قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال رسول الله ﷺ: [اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ][14].

وهنا تظهر القوة في صورتها الأخلاقية: القدرة لا تتحول تلقائيًا إلى انتقام.

ثانيًا: القراءة التربوية

تعلّمنا هذه الوقائع أن القوة في التصور النبوي ليست قيمة مستقلة عن الأخلاق.

فالقائد قد يمتلك القدرة على العقوبة، لكن امتلاك القدرة لا يعني أن كل عقوبة مشروعة أو حكيمة. كما أن الرحمة لا تعني إسقاط المسؤولية أو تعطيل العدل.

وهذا التوازن يظهر في السيرة نفسها: فقد عفا النبي ﷺ في مواقف، وعاقب في مواقف أخرى، وقبل العهود في مواضع، وواجه نقضها في مواضع أخرى، ولذلك لا يصح اختزال منهجه في شعار "العفو دائمًا"، كما لا يصح اختزاله في "الحزم دائمًا."

ويقرأ الشيخ محمد الغزالي هذا الجانب من السيرة في إطار القيادة النبوية التي جمعت بين الرحمة والحزم، وبين التعامل مع الإنسان بوصفه موضع دعوة وتربية، وبين حماية الجماعة من العدوان[15].

ويبرز المباركفوري في أحداث الفتح كيف تغيرت طبيعة العلاقة بعد زوال القدرة القرشية على المقاومة، فكان التعامل مع أهل مكة جزءًا من مرحلة جديدة من بناء المجتمع، لا مجرد تصفية حسابات الماضي[16].

أما الغضبان، فيربط التربية القيادية في السيرة بالقدرة على ضبط الانفعال، وتحويل القوة إلى وسيلة لتحقيق المقاصد الشرعية بدل أن تتحول إلى انتقام شخصي[17].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن القول إن السيرة تقدم أساسًا قويًا لاستنباط مبدأ:

كلما ازدادت القدرة، ازدادت الحاجة إلى الضبط الأخلاقي.

لكن هذا لا يعني أن العفو هو البديل عن العدالة، ولا أن التسامح يلغي الحقوق أو العقوبات المشروعة. بل إن العفو في موضعه جزء من الحكمة، كما أن الحزم في موضعه جزء من العدل.

ضابط القانون

القوة المشروعة لا تقاس بقدرتها على الإخضاع فقط، وإنما كذلك بقدرتها على ضبط نفسها بالعدل والرحمة والمصلحة.

حدود التطبيق

لا يجوز نقل أحكام الوقائع العسكرية أو القضائية في السيرة إلى الدولة الحديثة من غير دراسة لاختلاف الأنظمة والاختصاصات والسياقات. كما لا يجوز تحويل مواقف العفو النبوي إلى قاعدة تمنع كل صور العقوبة المشروعة.

التطبيق المعاصر

هذا استنباط معاصر: كل مؤسسة تمتلك سلطة على الآخرين تحتاج إلى آليات تمنع التعسف: وضوح الصلاحيات، استقلال التقييم، حق الاعتراض، التناسب في العقوبة، والتمييز بين العقوبة التي تحمي النظام والانتقام الذي يرضي الغضب.

المبحث الرابع: قانون المرونة الاستراتيجية

ثبات المقاصد وتنوع الوسائل

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

تكشف السيرة المدنية عن مواقف متعددة تغيرت فيها الوسائل بحسب الظروف، بينما بقيت المقاصد الكبرى ثابتة.

ومن أبرز الأمثلة صلح الحديبية؛ فقد قبل النبي ﷺ شروطًا بدت لبعض الصحابة شديدة الصعوبة، ومنها ما يتعلق بصياغة وثيقة الصلح نفسها.

فلما اعترض بعض الصحابة على كتابة "محمد رسول الله"، طلب النبي ﷺ أن تكتب الوثيقة:

[هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...]

فلما اعترض سهيل بن عمرو على ذلك، قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه:

[امْحُ رَسُولَ اللَّهِ].

فقال علي: والله لا أمحوك أبدًا، فمحاه النبي ﷺ بيده[18].

والنص هنا لا يدل على تنازل النبي ﷺ عن حقيقة رسالته، وإنما يدل على التفريق بين الحقيقة الثابتة والصيغة التفاوضية التي تكتب في وثيقة بين طرفين.

وقد أنزل الله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ * الفتح: ١.

فجاءت النتيجة التاريخية لتكشف أن ما بدا لبعض الصحابة تنازلًا مؤلمًا كان وراءه فتح واسع.

ومن صور المرونة كذلك تنوع أساليب الدعوة والتعامل بحسب الأشخاص والظروف، مع ثبات أصل الرسالة.

قال رسول الله ﷺ:[يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا][19].

وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن:[يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا][20].فهذه النصوص تبين أن حسن الأداء الدعوي والإداري لا ينفصل عن مراعاة حال المخاطَب والظرف.

ثانيًا: القراءة التربوية

من أخطر مشكلات العمل الإصلاحي أن تتحول الوسيلة إلى مبدأ، فيصبح الإنسان متمسكًا بطريقة معينة حتى بعد تغير الظروف التي جعلتها مناسبة.

والسيرة تعلمنا شيئًا مختلفًا: المبادئ ثابتة، لكن الوسائل قد تتنوع.
وهذا لا يعني البراغماتية المطلقة، ولا يعني أن الغاية تبرر الوسيلة؛ وإنما يعني أن الوسيلة ينبغي أن تخدم المقصد المشروع، وأن تُراجع عندما تتغير الظروف.
وقد ركز الشيخ محمد الغزالي في قراءته للحديبية على البعد العميق للقرار النبوي، وعلى ضرورة عدم الحكم على الأحداث من ظاهرها العاجل فقط.[21] كما يبرز المباركفوري تسلسل الأحداث التي سبقت الصلح وما أعقبته، بما يوضح أن القرار لم يكن منفصلًا عن تقدير شامل للظرف[22].
أما الغضبان فيؤكد في منهجه التربوي على ضرورة فهم الموقف النبوي ضمن مقاصده وملابساته، وعدم تجزئة الحدث عن السياق الذي صدر فيه القرار[23].
وابن القيم في زاد المعاد يقدم قراءة واسعة للحديبية، ويبين أوجه المصالح التي ترتبت على الصلح، وما انفتح بعده من آفاق للدعوة[24].
ثالثًا: الاستنباط المنضبط
يمكن أن نستنبط من ذلك أن المرونة لا تعني التنازل عن المبدأ، وإنما القدرة على تغيير الوسيلة حين يكون تغييرها أقدر على تحقيق المقصد المشروع.
غير أن هذا الاستنباط يجب أن يبقى منضبطًا؛ فلا يصح أن نجعل "المرونة الاستراتيجية" مبررًا لكل تنازل، لأن السيرة نفسها تُظهر ثوابت لم يتنازل عنها النبي ﷺ.
ضابط القانون
الثبات يكون على المبادئ والمقاصد المشروعة، أما الوسائل فتُختار وتُراجع في ضوء الواقع والمصلحة والقدرة على تحقيق المقصود.
حدود التطبيق
ليست كل التنازلات حكمة، وليست كل المرونة استراتيجية ناجحة، ويحتاج الحكم على أي قرار معاصر إلى معرفة حقيقية بالواقع، والموازنة بين المصالح والمفاسد، وعدم استعمال السيرة لتبرير قرار اتُّخذ مسبقًا.
التطبيق المعاصر
هذا تطبيق معاصر: يمكن للمؤسسات الإصلاحية والدعوية أن تثبت على رسالتها وقيمها، مع تغيير أدواتها في التعليم والإعلام والإدارة والعمل المجتمعي بحسب تغير الجمهور والظروف والتقنيات، ما دامت الوسائل مشروعة ولا تهدم المقاصد التي من أجلها اختيرت.

الخلاصة:

تكشف السيرة المدنية أن بناء المجتمع لا يكتمل بمجرد وجود أفراد صالحين أو جماعة متماسكة، وإنما يحتاج إلى منظومة من القيم التي تتحول إلى علاقات وضوابط ومسؤوليات.

ومن خلال الوقائع السابقة يمكن ضبط القوانين الأربعة على النحو الآتي:

١. قانون العدل والتكافل: المجتمع المستقر يجمع بين حفظ الحقوق وإسناد المحتاج، مع صيانة كرامة الإنسان وقدرته على المشاركة.

٢. قانون إدارة التنوع والاختلاف: وحدة المجتمع لا تعني إزالة الفروق، وإنما تنظيمها ضمن حقوق وواجبات وعهود واضحة.

٣. قانون أخلاق السلطة والقوة: امتلاك القوة لا يبرر الظلم؛ بل يجعل ضبطها بالعدل والرحمة والمسؤولية أكثر ضرورة.

٤. قانون المرونة الاستراتيجية: الثبات على المقاصد لا يستلزم الجمود على الوسائل، والمرونة المشروعة تكون حين تخدم المقصد ولا تهدم المبدأ.

وهذه القوانين الأربعة لا ينبغي أن تُقرأ بوصفها وصفة سياسية جاهزة، وإنما بوصفها دلالات مستنبطة من تجربة نبوية تاريخية مخصوصة، والقيمة العلمية للباحث ليست في إسقاط أحداث القرن الأول الهجري على القرن الحادي والعشرين، وإنما في فهم كيف تعامل النبي ﷺ مع الإنسان والاختلاف والقوة والمصلحة والظروف المتغيرة، ثم التمييز بين الثابت الذي دل عليه النص، وبين القراءة التي يستنبطها قارئ السنة النبوية من الحدث.

وبذلك تبقى السيرة مصدرًا للتربية والفهم والبصيرة، لا مجرد مستودع لشعارات معاصرة نبحث لها عن شواهد تاريخية.

الهوامش والمراجع

1البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الموضع نفسه.

2ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مواضع المؤاخاة وبناء المجتمع المدني؛ وابن كثير، البداية والنهاية، أحداث الهجرة وما بعدها.

3الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، المواضع المتعلقة ببناء المجتمع المدني.

4منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المباحث المتعلقة ببناء الجماعة والتكافل والتربية الاجتماعية.

5صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار السلام، أحداث الهجرة وبناء الدولة والمجتمع في المدينة.

6ابن هشام، السيرة النبوية، باب صحيفة المدينة؛ والنص من رواية ابن إسحاق.

7محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، في دراسة وثيقة المدينة ونصوصها؛ وانظر أيضًا: ابن كثير، البداية والنهاية، أحداث الهجرة وبناء مجتمع المدينة.

8الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، المواضع المتعلقة بالمرحلة المدنية وبناء المجتمع.

9المباركفوري، الرحيق المختوم، أحداث الهجرة والمؤاخاة وتنظيم مجتمع المدينة.

10الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المواضع المتعلقة بالتربية الجماعية والتنظيم.

11مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل.

12البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الأقضية.

13ابن هشام، السيرة النبوية، أحداث فتح مكة؛ والحديث بمعناه مروي في كتب السيرة.

14البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

15الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، المواضع المتعلقة بالقيادة النبوية وإدارة القوة.

16المباركفوري، الرحيق المختوم، فصل فتح مكة.

17الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المواضع المتعلقة بالتربية القيادية وضبط الانفعال.

18البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير.

19البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

20البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير.

21الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، المواضع المتعلقة بصلح الحديبية وقراءة نتائج الأحداث.

22المباركفوري، الرحيق المختوم، فصل غزوة الحديبية.

23الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، المواضع المتعلقة بفهم المواقف النبوية ومراعاة المقاصد.

24ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، فصل هديه ﷺ في صلح الحديبية وما ترتب عليه.

الباب السادس: السيرة والأسئلة المعاصرة — قراءة وتصحيح

الفصل الثالث والعشرون: الإشكاليات الكبرى

تمهيد

كلما اقتربت السيرة النبوية من الأسئلة الكبرى التي تشغل الإنسان المعاصر، ازدادت الحاجة إلى القراءة الهادئة التي تردُّ الوقائع إلى سياقاتها، والنصوص إلى أصولها، والاستنباطات إلى حدودها.

فالسيرة ليست مادة دفاعية نستخدمها لإسكات الأسئلة، وليست كذلك سجلًا تاريخيًا ننتقي منه ما يؤيد تصورًا سابقًا ثم نبني عليه حكمًا عامًا. إنها تجربة نبوية مكتملة، اجتمع فيها الوحي والتربية والدعوة والسياسة والمجتمع والحرب والسلم، وتنوعت فيها المواقف بحسب اختلاف الأحوال.

ومن هنا فإن بعض الإشكالات المعاصرة لا تنشأ من النصوص نفسها بقدر ما تنشأ من الخلط بين مستويات مختلفة من المعرفة: بين القرآن والسنة، وبين الرواية التاريخية والاجتهاد في تفسيرها، وبين الحكم الشرعي العام والتدبير النبوي في واقعة مخصوصة، وبين ما كان جزءًا من بنية المجتمع في القرن السابع الميلادي وما يمكن أن يستفاد منه في مجتمع حديث ذي نظم ومؤسسات مختلفة.

وقد كان من منهج الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة أن يتجاوز سرد الأحداث إلى محاولة الكشف عن المعاني الحية الكامنة وراءها، بينما يقدم المباركفوري مادة السيرة في تسلسلها التاريخي، ويمنح الغضبان مساحة واسعة لقراءة السيرة بوصفها مدرسة في التربية والحركة وإدارة مراحل الدعوة، وتأتي كتب ابن هشام وابن كثير وغيرها لتثبيت المادة التاريخية ومقارنتها بالمصادر والروايات.

وعليه، فإن المقصود في هذا الفصل ليس صناعة "دفاعيات" جاهزة، وإنما تحرير الأسئلة: ماذا وقع؟ وما النص الذي يحكم فهمه؟ وما السياق الذي وقع فيه؟ وما الدلالة التي يمكن استنباطها؟ وأين ينتهي الاستنباط ويبدأ الإسقاط المعاصر؟

ومن هذه القاعدة تنطلق المباحث الأربعة.

المبحث الأول: الجهاد والحرب والعلاقة مع الآخر

أولًا: الرواية التاريخية

لم تبدأ علاقة الدعوة الإسلامية بالحرب، وإنما بدأت بالتبليغ والدعوة والصبر على الأذى.

ففي مكة عاش المسلمون مرحلة طويلة من الاستضعاف، تعرضوا فيها للاضطهاد والمقاطعة والتعذيب، ولم يكن القتال مأذونًا لهم به، وكانت التوجيهات في تلك المرحلة منصرفة إلى الصبر والثبات واحتمال الأذى.

ثم تغيرت الظروف بعد الهجرة، وأصبح للمسلمين مجتمع في المدينة، وظهرت حالة جديدة من الصراع والتهديد، وفي هذا السياق نزل الإذن بالقتال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ * الحج: ٣٩.

ولا يصح إغفال دلالة لفظ الإذن في الآية وسياقها؛ فالآية جاءت في سياق من وقع عليهم القتال والظلم، لا في سياق أمر مطلق بإجبار الناس على اعتناق الإسلام.

ثم جاء الضابط القرآني:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * البقرة: ١٩٠.

وهذا النص لا يلغي بقية الأحكام المتعلقة بالقتال، لكنه يقرر أصلًا مهمًا في فهمه: أن القتال ليس مجالًا مفتوحًا للاعتداء.

وتأتي السنة فتضع ضوابط عملية للحرب؛ فقد ثبت في صحيح مسلم عن بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثم أوصاه في القتال بالنهي عن الغلول والغدر والمثلة وقتل الولدان، وأمره بالدعوة إلى الخيارات السلمية قبل القتال بحسب السياق[1].

كما ثبت أن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان عندما وُجدت امرأة مقتولة في بعض المغازي، فقال:

[نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ][2].

ومن ثم فإن الحرب في السيرة لم تكن حالة سقوط للأخلاق، بل كانت مجالًا آخر لتأكيدها.

وعند تتبع المرحلة المدنية تظهر تعددية الوسائل بوضوح: فهناك المواجهة العسكرية في بدر وأحد والخندق، وهناك المعاهدات، وهناك المفاوضات، وهناك الهدنة في الحديبية، وهناك إرسال الرسل، وهناك الدعوة والبيان، وهناك العفو عند القدرة.

وهذا التنوع مهم جدًا؛ لأنه يكشف أن العلاقة مع الآخر لم تكن في السيرة ذات صورة واحدة.
كما أن أحداث المدينة لا يمكن فهمها من خلال ثنائية بسيطة من نوع "مسلمين وغير مسلمين"، فقد عاشت في المدينة جماعات مختلفة، وكانت العلاقة بينها تتأثر بالعهد والالتزام والموقف السياسي والعدوان ونقض العهود.
وهذا ما ينبغي استحضاره عند قراءة الوقائع المتعلقة باليهود أو المشركين في المدينة؛ فليست كل واقعة ذات طبيعة واحدة، ولا يجوز تحويل حادثة ذات سياق عسكري أو سياسي مخصوص إلى حكم عام على أتباع دين أو جماعة بشرية بأكملها.
ويؤكد عرض ابن هشام وابن كثير لأحداث المرحلة المدنية ضرورة قراءة الوقائع في تسلسلها، وربط أسبابها بما سبقها وما ترتب عليها، بدل عزل المعركة عن مقدماتها ونتائجها[3].
ثانيًا: القراءة التربوية
تكشف هذه الوقائع عن قاعدة تربوية عميقة: القوة لا تعفي صاحبها من الأخلاق، بل تكشف حقيقة أخلاقه.
ففي حال الضعف يتعلم الإنسان الصبر، لكن في حال القوة يُختبر في العدل وضبط النفس.
ولهذا كان النهي عن الغدر والمثلة وقتل غير المقاتلين ذا دلالة تتجاوز الإجراء العسكري نفسه؛ إذ يربي المسلم على أن الخصومة لا تسقط عنه إنسانيته، وأن الحرب لا تبيح كل شيء.
وهذا المعنى ينسجم مع منهج الشيخ محمد الغزالي في قراءة السيرة؛ فهو لا يتعامل مع الغزوات باعتبارها سجلًا للانتصارات العسكرية، بل يربطها ببناء الشخصية المؤمنة القادرة على ضبط القوة.
كما يبرز الغضبان في قراءته التربوية أن الحركة النبوية لم تكن انفصالًا بين الغاية والوسيلة، بل كانت الوسيلة نفسها محكومة بالقيم التي قامت عليها الدعوة.
أما المباركفوري فيعرض انتقال المسلمين من مرحلة الاضطهاد إلى مرحلة المواجهة ضمن التطور التاريخي العام، بما يمنع اقتطاع القتال من سياقه[4].
ثالثًا: الاستنباط المنضبط
يمكن استنباط أصل عام من هذه المادة، وهو أن الحرب في السيرة النبوية ليست غاية مستقلة، وأن استعمال القوة مرتبط بسبب وسياق وضوابط شرعية وأخلاقية.

لكن لا يصح تحويل هذا الاستنباط إلى عبارة مطلقة من قبيل: "كل حرب في السيرة كانت دفاعية بالمعنى الاصطلاحي الحديث"، لأن مفهوم الحرب الدفاعية في القانون والسياسة الدوليين الحديثين له دلالاته الخاصة.

كما لا يصح في المقابل تصوير الغزوات باعتبارها حروبًا دينية عشوائية ضد المخالفين في الاعتقاد؛ فهذا لا ينسجم مع تعدد صور العلاقة التي عرفتها السيرة نفسها.

ضابط المسألة

لا تُفهم الحرب النبوية من خلال وجود الاختلاف الديني وحده، وإنما من خلال مجموع السياق: الدعوة، والعهد، والعدوان، والتهديد، والمصلحة، والضوابط الشرعية والأخلاقية.

حدود التطبيق المعاصر

لا يجوز للأفراد والجماعات أن يستخرجوا من وقائع السيرة ترخيصًا لممارسة العنف خارج مؤسسات الدولة والقانون؛ فالاجتهاد في قضايا الحرب المعاصرة ليس شأنًا فرديًا، ولا يصح تحويل النصوص العسكرية إلى أدوات للفوضى.

والإفادة المعاصرة الأهم من السيرة هنا ليست استنساخ شكل الصراع القديم، وإنما تعلم ضبط القوة، والتمييز بين الخصومة والاختلاف، والالتزام بالعهود، وحماية غير المقاتلين، وتقديم السلم حين يكون ممكنًا ومحققًا للمصلحة.

المبحث الثاني: المرأة والأسرة

أولًا: الرواية التاريخية

تكشف السيرة النبوية عن حضور المرأة في مراحل متعددة من البناء الإسلامي، لا باعتبارها صورة واحدة، وإنما باعتبارها شخصيات متنوعة القدرات والأدوار.

وتأتي خديجة رضي الله عنها في مقدمة هذه النماذج.

ففي بداية الوحي، حين عاد النبي ﷺ من غار حراء وقد أصابه من هول التجربة ما أصابه، قال:

[زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي]،

ثم أخبر خديجة بما حدث، وقال إنه خشي على نفسه؛ فكان جوابها من أشهر المواقف المؤسسة في السيرة:

[كَلَّا وَاللَّهِ، مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ][5].

وهنا لا تقدم الرواية مجرد مشهد عاطفي بين زوجين، وإنما تكشف عن قراءة خديجة لشخصية النبي ﷺ من خلال أخلاقه وأعماله السابقة؛ فهي لم تعتمد على تهدئة عابرة، بل استدلت على حفظ الله له بسيرته الأخلاقية.

ثم يظهر حضور النساء في مسار الدعوة والهجرة والبيعة والمجتمع المدني.

فأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ارتبط اسمها بمرحلة الهجرة، وعائشة رضي الله عنها أصبحت من كبار رواة السنة ومراجع العلم، وأم سلمة رضي الله عنها كان لها حضور في مواقف المشورة والرأي، إلى جانب نماذج كثيرة من الصحابيات في العبادة والعلم والخدمة والمشاركة الاجتماعية.

أما في داخل الأسرة، فقد ثبت عن النبي ﷺ:

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي][6].

وثبت عنه ﷺ قوله:

[وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا][7].

وجاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها قول النبي ﷺ:

[إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ][8].

وتتضافر هذه النصوص مع السيرة العملية لتقدم صورة للأسرة باعتبارها مجالًا أصيلًا من مجالات التربية.

ثانيًا: القراءة التربوية

من أهم ما تكشفه هذه المادة أن المشروع النبوي لم يكن قائمًا على الفصل بين "الحياة العامة" و"الحياة الأسرية" بمعنى يجعل البيت شأنًا ثانويًا.

فالبيت كان جزءًا من بناء الإنسان.

ومن هنا تكتسب خديجة رضي الله عنها أهميتها في السيرة، فقد كانت أول بيئة احتضنت النبي ﷺ في لحظة التحول الكبرى، ثم جاء بعد ذلك دور نساء أخريات في العلم والدعوة والهجرة والمشورة.

وهذا التنوع مهم، لأنه يمنع اختزال دور المرأة في نموذج واحد.

كما أن الحديث:

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ...]

ينقل معيار الخيرية من الصورة الاجتماعية الخارجية إلى السلوك داخل البيت، فالقوة التي تظهر خارج الأسرة لا تكفي إذا كان صاحبها سيئ المعاملة في أقرب دوائره.

وهنا تتلاقى القراءة النبوية مع جوهر المنهج التربوي الذي يؤكد عليه الشيخ محمد الغزالي والغضبان: أن التربية الحقيقية تظهر في الممارسة، وأن الشخصية التي تحمل رسالة في المجتمع لا يمكن أن تستثني بيتها من آثار هذه الرسالة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستخلص من السيرة أن الأسرة ليست هامشًا في مشروع الإصلاح، وأن المرأة كانت عنصرًا فاعلًا في مراحل متعددة من البناء النبوي.

لكن لا يصح تحويل كل نموذج تاريخي إلى حكم تفصيلي على جميع صور الأسرة والعمل والتعليم والمشاركة الاجتماعية في العصر الحديث.

فالسيرة تقدم نماذج وقيمًا وممارسات في سياقات تاريخية محددة، بينما تحتاج النظم الاجتماعية المعاصرة إلى اجتهاد يراعي النصوص الشرعية والواقع القانوني والاجتماعي.

ضابط المسألة

تثبت السيرة مركزية الأسرة وفاعلية المرأة، لكنها لا تفرض بالضرورة نموذجًا اجتماعيًا واحدًا لجميع المجتمعات والأزمنة.

حدود التطبيق المعاصر

الإفادة من السيرة لا تكون بإقامة مقارنة سطحية بين "المرأة في القرن السابع" و"المرأة في القرن الحادي والعشرين"، وإنما باستخراج المبادئ: الكرامة، والمسؤولية، والعلم، والمشاركة، وحسن العشرة، والتعاون في الخير، ثم تنزيلها في واقع معاصر وفق الضوابط الشرعية والقانونية.

المبحث الثالث: الدين والدولة

أولًا: الرواية التاريخية

أحدثت الهجرة انتقالًا نوعيًا في حياة الجماعة المسلمة.

ففي مكة كان المسلمون جماعة مضطهدة لا تملك مؤسسات عامة أو سلطة سياسية، أما في المدينة فقد أصبح لهم مجتمع يحتاج إلى تنظيم العلاقات، وإدارة الأمن، وتسوية النزاعات، وإدارة العلاقات الخارجية، وتنظيم الشؤون العامة.

ومن هنا جاءت مرحلة بناء المجتمع المدني.

وكان النبي ﷺ في المدينة رسولًا ونبيًا، وقائدًا للمجتمع، وقاضيًا، وإمامًا، وقائدًا عسكريًا، وصاحب عهد وصلح.

لكن هذه الأدوار يجب أن تُفهم ضمن خصوصية مقام النبوة؛ فلا يصح أن نساوي بصورة مباشرة بين "القيادة النبوية" وبين أي نموذج من نماذج الدولة الحديثة.

ومن أبرز مظاهر التنظيم المدني صحيفة المدينة، التي أورد ابن هشام نصوصها في سياق بناء مجتمع المدينة، وتضمنت تنظيم العلاقات بين جماعات متعددة، وتحديد بعض المسؤوليات المتعلقة بالأمن والدم والعهود والنصرة والعلاقات بين مكونات المجتمع[9].

كما أن القرآن نفسه قدم أصل الشورى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.

وقال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ * الشورى: ٣٨.

وقد مارس النبي ﷺ الشورى عمليًا في مواطن متعددة، من أشهرها بدر وأحد والخندق وغيرها.

وفي بدر استشار أصحابه في الموقف العسكري، وفي أحد ظهر أثر المشورة في اتخاذ القرار المتعلق بالخروج، وفي الخندق قبل فكرة حفر الخندق التي أشار بها سلمان رضي الله عنه بحسب روايات المغازي.

وهذا يدل على أن القيادة النبوية لم تكن مجرد إصدار أوامر، بل جمعت بين الوحي والمشورة والاجتهاد والتدبير.

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف المدينة عن انتقال التربية من بناء الفرد إلى بناء المجتمع.

في مكة كان التركيز الأكبر على صناعة الإنسان المؤمن، وفي المدينة أصبحت الحاجة إلى تنظيم العلاقات وإدارة الاختلاف والمسؤولية العامة جزءًا من التربية نفسها.

وهنا تظهر قيمة الشورى.

فالقائد لا يحتاج فقط إلى أتباع يطيعونه، بل إلى أفراد يفكرون ويقترحون وينصحون.

وفي الوقت نفسه لم تكن الشورى في النموذج النبوي تعني غياب القيادة، كما لم تكن القيادة تعني إلغاء رأي الجماعة.

وهذه الموازنة مهمة جدًا في التربية القيادية؛ فالجماعة التي لا تستشير تتحول إلى بيئة تابعة، والقائد الذي لا يحسم يتحول إلى أسير للتردد.

كما تكشف صحيفة المدينة عن قيمة أخرى: أن المجتمع المتعدد يحتاج إلى قواعد مشتركة تنظم العلاقات وتحفظ الحقوق وتحدد المسؤوليات.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستفيد من التجربة المدنية في تقرير أصول عامة، منها:

- ضرورة التنظيم العام للمجتمع.
- أهمية العدل وحفظ الحقوق.
- أهمية الشورى.
- الوفاء بالعهود.
- وجود قيادة مسؤولة عن الشأن العام.
- تنظيم العلاقة بين مكونات المجتمع.

لكن لا يصح بناء نظام سياسي معاصر كامل على مجرد إسقاط النموذج النبوي على مؤسسات الدولة الحديثة.

فمصطلحات مثل "الديمقراطية"، و"الدولة القومية"، و"المواطنة الحديثة"، و"الفصل بين السلطات"، وغيرها، نشأت في سياقات تاريخية مختلفة، ولا ينبغي أن تُفرض على السيرة فرضًا.

وفي المقابل لا يصح اختزال التجربة النبوية في شعار سياسي معاصر، كأنها تقدم نموذجًا مطابقًا لنظام حديث بعينه.

ضابط المسألة

السيرة النبوية تؤكد تنظيم الشأن العام وربطه بالعدل والشورى والمسؤولية، لكنها لا تجعل كل تفاصيل النظام السياسي من الثوابت التي يجب استنساخها حرفيًا في كل زمان.

حدود التطبيق المعاصر

يمكن للمسلم المعاصر أن يستفيد من المبادئ النبوية في بناء الدولة والمجتمع: العدل، والشورى، وصيانة الحقوق، والوفاء بالعهود، وتحمل المسؤولية، ومقاومة الاستبداد والفساد.

أما شكل المؤسسات وآليات الإدارة والقوانين الإجرائية، فمجالها أوسع للاجتهاد بحسب اختلاف الزمان والمكان، ما لم تصادم أصلًا شرعيًا ثابتًا.

المبحث الرابع: الحرية والاختلاف

أولًا: الرواية التاريخية والنصوص المؤسسة

من النصوص المركزية في هذه القضية قوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ * البقرة: ٢٥٦.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ * يونس: ٩٩.

وقال الله سبحانه وتعالى :﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ * الكهف: ٢٩.

وهذه الآيات لا تعني أن الإسلام لا يملك أحكامًا تتعلق بالمجتمع والنظام العام، لكنها تقرر أصلًا مهمًا في باب الاعتقاد: الإيمان لا يتحول إلى إيمان حقيقي بالإكراه.

وفي المدينة عاش المسلمون إلى جانب جماعات أخرى، وظهرت علاقات مختلفة بحسب الظروف.

وقد كانت صحيفة المدينة إحدى الوثائق التي نظمت العلاقة بين مكونات المجتمع، وأقرت أطرًا للتعاون والدفاع والمسؤولية والحقوق في سياقها التاريخي[10].

كما أن السيرة نفسها تكشف عن التمييز بين أنواع المخالفة.

فليس كل مخالف في العقيدة محاربًا، وليس كل اختلاف سياسي خيانة، وليس كل خيانة مجرد اختلاف في الرأي.

وهذا التمييز ضروري عند دراسة أحداث المدينة.

فعندما وقعت المواجهات مع بعض الجماعات اليهودية، كانت الوقائع مرتبطة بعقود ومواقف وتحالفات وأحداث عسكرية وسياسية، ولا يجوز تحويلها إلى حكم عام على اليهود بوصفهم جماعة دينية.

كما لا يصح تجاهل النصوص التي تثبت وجود علاقات ومعاملات ومواثيق مع غير المسلمين.

ثانيًا: القراءة التربوية

من أخطر أمراض الخطاب الديني أن يحول الإنسان إلى "تصنيف" قبل أن ينظر في موقفه.

أما السيرة فتقدم واقعًا أكثر تركيبًا.

هناك المؤمن، والمخالف، والمعاهد، والمحارب، والناصح، والمنافق، والحليف، والخصم.

وهذا يعني أن الحكم الأخلاقي والسياسي لا ينبغي أن يُبنى على الهوية المجردة وحدها، بل على الموقف والسلوك والعهد والحقوق والواجبات.

وهذه قاعدة تربوية مهمة في زمن الاستقطاب.

فليس المطلوب أن نتخلى عن قناعاتنا العقدية حتى نتعامل بعدل مع المخالف، بل المطلوب أن نتعلم العدل مع المخالف دون التنازل عن الاعتقاد.

وهذا منسجم مع قوله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ * الممتحنة: ٨.

فالقسط هنا ليس تنازلًا عن العقيدة، وإنما عدل في التعامل.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن استنباط أصل واضح من مجموع النصوص والوقائع: أن الاختلاف الديني لا يساوي بذاته حالة حرب، وأن العلاقة مع المخالف تتحدد بحسب طبيعة الموقف والعهد والاعتداء والحقوق المتبادلة.

لكن ينبغي الحذر من إسقاط مفهوم "الحرية" بصيغته الفلسفية والسياسية الحديثة على المجتمع النبوي بصورة مباشرة.

فالحرية الحديثة منظومة واسعة تتضمن مفاهيم قانونية وسياسية وفلسفية تشكلت تاريخيًا بعد عصر النبوة بقرون، بينما تقدم النصوص الإسلامية منظومة خاصة للإنسان والدين والمجتمع والمسؤولية.

ومن الخطأ كذلك أن نستخدم مفهوم الحرية الحديث لإلغاء كل الأحكام الشرعية، كما أنه من الخطأ استخدام بعض الأحكام المتعلقة بالحرب أو العقوبات لإلغاء أصل عدم الإكراه في الاعتقاد.

ضابط المسألة

الاختلاف في الاعتقاد لا يجعل الإنسان بمجرده محاربًا، والحرية في الإسلام ليست انفلاتًا من المسؤولية؛ وإنما تقوم العلاقة على الجمع بين الاعتقاد والعدل، وبين الحقوق والواجبات، وبين حرية الاختيار وتنظيم المجتمع.

حدود التطبيق المعاصر

الإفادة المعاصرة من السيرة هنا هي بناء ثقافة قادرة على التمييز بين:

- المخالف في الاعتقاد.
- المخالف في الرأي.
- الناقد.
- الخصم السياسي.

•المعتدي.
•ناقض العهد.
فالخلط بين هذه المستويات ينتج ظلمًا فكريًا واجتماعيًا، ويجعل كل اختلاف بوابة إلى الخصومة.
الخلاصة:
تكشف الإشكاليات الأربع أن السيرة النبوية لا تخشى الأسئلة المعاصرة، وإنما تحتاج إلى أن تُقرأ قراءة صحيحة.
ففي قضية الجهاد والحرب، تكشف السيرة أن القوة لم تكن غاية، وأن الحرب كانت محكومة بالسياق والضوابط والأخلاق.
وفي قضية المرأة والأسرة، تقدم السيرة نماذج متعددة للمرأة، وتضع الأسرة في قلب التربية، لكنها لا تمنحنا بالضرورة قالبًا اجتماعيًا تفصيليًا واحدًا لكل عصر.
وفي قضية الدين والدولة، تظهر المدينة نموذجًا لمجتمع منظم تقوده قيم الوحي والعدل والشورى والمسؤولية، دون أن يعني ذلك أن كل مؤسسة سياسية حديثة لها صورة مطابقة في التجربة النبوية.
وفي قضية الحرية والاختلاف، تميز السيرة بين مجرد المخالفة وبين العدوان ونقض العهد، وتعلم المسلم أن الثبات على الاعتقاد لا يناقض العدل مع المخالف.
ومن هنا يمكن صياغة المنهج الجامع لهذا الباب كله:
اقرأ النص قبل الحكم، والحدث في سياقه، والسيرة في مجموعها، والاستنباط في حدوده.
فلا ينبغي أن ندافع عن السيرة بإخفاء الوقائع الصعبة، كما لا ينبغي أن نهاجمها باقتطاعها من سياقها.
والقراءة العلمية لا تعني أن نتخلى عن قناعاتنا، كما لا تعني أن نحول قناعاتنا إلى حجاب يمنعنا من رؤية التاريخ كما وقع.
بل تعني أن نكون أكثر ثقة في النص، وأكثر عدلًا في الحكم، وأكثر دقة في التفريق بين ما قاله الوحي، وما وقع في التاريخ، وما فهمه العلماء، وما نستنبطه نحن اليوم.
وهذه هي القيمة التربوية الكبرى للسيرة في عصر الأسئلة: أن تعلمنا كيف نفكر قبل أن تعلمنا ماذا نقول.

الهوامش والمراجع

1 مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيتهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١)، وفيه وصية النبي ﷺ للأمراء بتقوى الله، والنهي عن الغلول والغدر والمثلة وقتل الولدان، وغير ذلك من آداب الحرب، والحديث صحيح ثابت في صحيح مسلم.

2البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب، حديث رقم (٣٠١٥)، وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن امرأة وجدت مقتولة في بعض مغازي النبي ﷺ، فنهى عن قتل النساء والصبيان.

3عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، في أخبار الهجرة وبناء مجتمع المدينة والمغازي؛ وإسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، في أحداث المرحلة المدنية والمغازي، وينظر كذلك: صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في عرض تطور الدعوة من المرحلة المكية إلى المدنية؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في القراءة التحليلية للمغازي ودلالاتها؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في التربية الجهادية ومراحل الحركة.

4الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في مباحث المرحلة المدنية والمغازي؛ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، في تسلسل أحداث المرحلة المدنية؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية: التربية الجهادية، في الدلالات التربوية للمواجهة والجهاد، وتظهر البيانات الببليوغرافية المتاحة للكتاب الأخير أنه صدر في المنهج التربوي للسيرة النبوية: التربية الجهادية، ج١، عن مكتبة المنار سنة ١٩٩١م.

5البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣)، وفيه رواية عائشة رضي الله عنها لمشهد بدء الوحي، وعودة النبي ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها وقولها له: "كلا والله ما يخزيك الله أبدًا..." إلى آخر شهادتها بأخلاقه ﷺ.

6الترمذي، السنن، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، حديث رقم (٣٨٩٥)، عن عائشة رضي الله عنها: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"، وقد حكم الترمذي على الحديث بأنه حسن غريب صحيح، وصححه عدد من أهل العلم.

7البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، حديث رقم (٥١٨٥/٥١٨٦)، وفيه وصية النبي ﷺ بالنساء خيرًا.

8أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلل في منامه، حديث رقم (٢٣٦)، وفيه جواب النبي ﷺ لأم سليم رضي الله عنها وقوله: "إنما النساء شقائق الرجال."

9ابن هشام، السيرة النبوية، موضع ذكر صحيفة المدينة عقب الهجرة؛ وينظر أيضًا: ابن كثير، السيرة النبوية، في أحداث الهجرة وبناء مجتمع المدينة، وينبغي في النسخة النهائية اعتماد طبعة محددة للكتابين وإثبات الجزء والصفحة وفق الطبعة التي ستعتمد في قائمة المصادر العامة.

10ابن هشام، السيرة النبوية، في أخبار الهجرة وما عقده رسول الله ﷺ بين أهل المدينة؛ وينظر: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، في دراسة نص الصحيفة ومقارنتها بالروايات التاريخية.

11الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ولا سيما المباحث التي تتناول بناء المجتمع المدني والقيادة والشورى.

12ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، في هديه ﷺ في الجهاد والسياسة والمعاهدات؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، عند تفسير آيات القتال والعلاقات مع غير المسلمين؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، في القراءة المقاصدية لأحداث المغازي.

13سورة البقرة، الآية (٢٥٦)، وسورة يونس، الآية (٩٩)، وسورة الكهف، الآية (٢٩)، وفي تنظيم العلاقة مع غير المحاربين: سورة الممتحنة، الآية.(8)

14ابن هشام، السيرة النبوية؛ وابن كثير، السيرة النبوية والبداية والنهاية؛ في أخبار المدينة والعهود والعلاقات مع اليهود والمشركين، مع ضرورة الجمع بين الروايات وعدم اقتطاع حادثة منفردة عن سياقها.

15ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، في هديه ﷺ في معاملاته وعهوده وجهاده؛ والشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في استخلاص الدلالات التربوية والحركية من الأحداث.

الفصل الرابع والعشرون: أخطاء القراءات المعاصرة

تمهيد

ليست المشكلة في قراءة السيرة النبوية أن يختلف قارئ السنة النبوية ون في زاوية النظر إليها؛ فاختلاف الزوايا قد يكون من أسباب إثرائها، ما دام الاختلاف منضبطًا بالمصادر، ومراعيًا للسياق، ومميزًا بين الخبر التاريخي والدلالة المستنبطة منه، وإنما تبدأ المشكلة حين تتحول زاوية النظر إلى اختزال يحجب بقية السيرة، أو إلى إسقاط يجعل أحداث القرن الأول الهجري مجرد أمثلة جاهزة لنظريات نشأت في سياقات تاريخية مختلفة، أو إلى تقديس للاجتهاد البشري بحيث يصبح كل تصرف قيادي في السيرة قاعدةً ملزمة لا تقبل النظر في علته وخصوصيته.

والسيرة النبوية أوسع من أن تختزل في باب واحد؛ فهي سيرة عبادة وتزكية، ودعوة وتربية، وأسرة ومجتمع، وسلم وحرب، وهجرة وبناء، وشورى وقيادة، وعلاقات داخلية وخارجية، ومواقف تتداخل فيها الهداية بالواقع، والثابت بالمتغير، والوحي بالاجتهاد في تدبير شؤون الحياة، ومن هنا فإن سلامة قراءتها تقتضي ألا ننتزع حادثة من سياقها ثم نحملها ما لا تحتمل.

وقد تنبه علماء السيرة إلى هذا المعنى من زوايا مختلفة؛ فالشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة لا يتعامل مع الأحداث بوصفها وقائع تاريخية معزولة، وإنما يسعى إلى استحضار دلالتها الإيمانية والحضارية، مع نقد بعض طرائق العرض التي تحول السيرة إلى حكايات، والمباركفوري يعنى بتثبيت التسلسل التاريخي وربط الوقائع بأسبابها ونتائجها، بينما يتوسع الغضبان في استجلاء الأبعاد التربوية والقيادية والسياسية من الوقائع، وتزداد قيمة هذه المقاربات حين تُقرأ إلى جانب المصادر الأقدم، وفي مقدمتها السيرة النبوية لابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير، وزاد المعاد لابن القيم، مع الرجوع إلى كتب الحديث عند الاحتجاج بالنصوص النبوية.

وعليه، فإن المقصود في هذا الفصل ليس مهاجمة القراءات المعاصرة من حيث هي معاصرة، ولا رفض الاستفادة من علوم الاجتماع والسياسة والإدارة والتربية وغيرها، وإنما وضع ضوابط القراءة التي تمنع أن تتحول السيرة إلى مادة لإثبات نظرية سابقة عليها، أو إلى مخزن انتقائي للاقتباسات التي توافق موقف قارئ السنة النبوية.

المبحث الأول: اختزال السيرة في السياسة أو الوعظ أو الغزوات

أولًا: الرواية التاريخية

حين نتتبع السيرة النبوية في مصادرها نجد أنها لا تسير على محور واحد؛ فقد بدأت قبل قيام المجتمع والدولة بتكوين الإنسان المؤمن، واستمرت في المدينة في بناء الجماعة وتنظيم المجتمع، ثم واجهت مقتضيات الحرب والسلم والعلاقات مع القبائل والدول، مع بقاء العبادة والتزكية والأسرة والأخلاق حاضرة في جميع هذه المراحل.

فالمرحلة المكية نفسها لا يمكن تفسيرها تفسيرًا سياسيًا محضًا؛ إذ كان مركزها بناء التوحيد، وترسيخ الإيمان، وتربية الجيل الأول على الصبر والثبات، وفي الوقت نفسه لا يصح اختزالها في الوعظ الفردي؛ فقد نشأت جماعة مؤمنة، وظهرت لها روابط جديدة، ثم انتقلت الدعوة إلى مرحلة الجهر والمواجهة والهجرة، وانتهت إلى بناء علاقة مع يثرب أفضت إلى الهجرة والتأسيس.

ثم جاءت المرحلة المدنية أكثر تركيبًا؛ فالنبي ﷺ بنى المسجد، وآخى بين المهاجرين والأنصار، ونظم العلاقة بين مكونات المجتمع، وعقد العهود، وأدار السلم والحرب، واستقبل الوفود، وأرسل الرسائل إلى الملوك، وقاد الغزوات والسرايا، وفي الوقت نفسه ظل المربي والمعلم والزوج والأب والقاضي.

وهذا الاتساع في الوظائف تؤكده النصوص النبوية نفسها؛ فعندما قدم وفد من الشباب إلى رسول الله ﷺ وأقاموا عنده، لم يتعامل معهم بوصفهم أفرادًا منفصلين عن مجتمعاتهم، بل وجههم إلى العودة إليها وتعليم أهلها، فقال مالك بن الحويرث رضي الله عنه:

[أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَقْنَا إِلَى أَهْلِنَا، فَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَقَالَ: ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ].

رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، حديث.(631)

فالحديث يجمع في سياق واحد بين الرحمة والرفق، والتعليم، وبناء الأسرة، وإقامة الشعيرة، وتنظيم الجماعة، وليس في ذلك ما يسمح بجعل جانب واحد هو التفسير الكافي لشخصية النبي ﷺ ومشروعه.

كما أن السيرة المدنية لا يمكن اختزالها في الحرب؛ فعدد من الوقائع الكبرى التي صنعت التحول التاريخي لم تكن معارك أصلًا؛ فالحديبية مثلًا كانت اتفاقًا سياسيًا انتهى إلى آثار واسعة، وقد ثبت

في صحيح مسلم أن عدد أصحاب النبي ﷺ في الحديبية كان ألفًا وأربعمائة، وأنهم بايعوه تحت الشجرة على ألا يفروا.

وفي المقابل، فإن اختزال السيرة في التربية الوجدانية وحدها يهمل أن النبي ﷺ أقام مجتمعًا له تنظيمه، وأدار علاقاته، وعقد عهوده، وقاد جيوشه، وتعامل مع الوقائع السياسية والعسكرية بما يناسب كل مرحلة.

ومن ثم فالمادة التاريخية نفسها ترفض القراءة الأحادية.

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف السيرة هنا عن خاصية أساسية في البناء النبوي: تكامل الوظائف وعدم انفصال التربية عن الواقع.

فالتربية لم تكن مقدمة نظرية تنتهي عند لحظة النزول إلى المجتمع، والسياسة لم تكن مجالًا منفصلًا عن الأخلاق، والغزو لم يكن هو عنوان السيرة الوحيد، كما لم تكن العبادة شأنًا فرديًا مقطوع الصلة بالحياة.

وهذا التكامل يظهر بوضوح في الطريقة التي كان النبي ﷺ يتعامل بها مع أصحابه؛ فهو يعلمهم الصلاة، ويأمرهم بالعودة إلى أهلهم وتعليمهم، ويستشير أصحابه في المواقف الكبرى، ويخطط للهجرة، ويفاوض في الحديبية، ويقود الجيش في بدر وأحد والخندق، ويعالج أخطاء أصحابه، ويربيهم في كل ذلك.

ومن الخطأ المنهجي أن نفترض أن هذه المجالات كانت منفصلة عنده ﷺ كما قد تكون منفصلة في التصنيفات الحديثة؛ فالواقع النبوي كان أكثر تركيبًا.

ومن الشواهد الدالة على أن النبي ﷺ كان يميز بين مجالات الخطاب ما رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه في قصة تأبير النخل، قال:

[قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ. قَالَ: لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا، فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ].

وفي رواية أنس رضي الله عنه: [أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ]. رواه مسلم، كتاب الفضائل، حديث2362) ، ٢٣٦٣.(

ولا يصح تحميل هذا الحديث أكثر مما يدل عليه؛ فهو لا يفصل الدين عن الدنيا، وإنما يبين تمييزًا في مقام مخصوص بين ما يصدر عن النبي ﷺ من أمر ديني، وبين رأي بشري في شأن فني تجريبي، وهذه الدقة نفسها مهمة في قراءة السيرة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن القول، استنباطًا من مجموع السيرة، إن من أخطر عيوب القراءة المعاصرة الانتقائية: أن يختار قارئ السنة النبوية من السيرة ما يخدم النموذج الذي يحمله مسبقًا، ثم يعيد تعريف السيرة كلها على أساسه.

فالذي يقرأها من منظور سياسي محض قد يرى النبي ﷺ قائد دولة قبل أن يراه نبيًا ومربيًا ومعلّمًا؛ والذي يقرأها قراءة وعظية مجردة قد يرى فيها مواقف إيمانية فردية ويتجاوز بناء المجتمع والمؤسسة؛ والذي يقرأها عسكريًا قد يجعل الغزوات مركز السيرة، مع أن الحديبية والهجرة والمؤاخاة وبناء المسجد والوفود والتعليم والقضاء والأسرة كلها وقائع مركزية في تشكيل المجتمع النبوي.

وهذا لا يعني أن السياسة أو التربية أو الجهاد ليست من السيرة؛ بل يعني أن الجزء لا يجوز أن ينتحل صفة الكل.

ومن هنا يمكن ضبط القاعدة على النحو الآتي:

السيرة كلٌّ متكامل، ولا يجوز بناء تصور شامل عنها من مجال واحد من مجالاتها.

وهذا استنباط من طبيعة المادة التاريخية نفسها، وليس نصًا شرعيًا مستقلًا.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في القراءة المعاصرة للسيرة ينبغي أن يبدأ قارئ السنة النبوية بالسؤال: ما الذي وقع؟ ثم: ما الذي يدل عليه؟ ثم: ما الذي يمكن نقله إلى واقعنا؟

وبذلك لا تتحول السيرة إلى كتاب سياسي فقط، ولا إلى مادة خطابية وعظية، ولا إلى سجل للمعارك، وإنما تُقرأ بوصفها تجربة نبوية متعددة الأبعاد.

كما ينبغي في التربية والدعوة والمؤسسات أن يحذر القارئ من بناء مشروع كامل على بعد واحد من السيرة؛ فالتربية التي لا تنتقل إلى المسؤولية قد تظل فردية، والعمل العام الذي لا يقوم على التربية قد يفتقد العمق، والقيادة التي لا يحكمها الخلق قد تتحول إلى إدارة مجردة للقوة.

وهذه ليست أحكامًا تاريخية عن مجتمع معاصر، وإنما إفادة تربوية معاصرة من ملاحظة اتساع التجربة النبوية وتكاملها.

المبحث الثاني: إسقاط النظريات الحديثة وقراءة الأحداث خارج سياقها

أولًا: الرواية التاريخية

من أبرز ما يواجه قراءة السيرة في العصر الحديث محاولة تفسير الوقائع القديمة بمصطلحات ونماذج تفسيرية نشأت في بيئات تاريخية لاحقة، ثم التعامل معها كما لو كانت هي الوصف الطبيعي للأحداث.

ولا يعني ذلك رفض الاستفادة من العلوم الحديثة؛ فالعلوم أدوات نافعة لفهم بعض جوانب الواقع، وقد يستفيد قارئ السنة النبوية منها في التنظيم والتحليل والمقارنة، وإنما الخلل في أن تتحول النظرية الحديثة من أداة لفهم جزء من الظاهرة إلى قالب يفرض على السيرة تفسيرًا لم يكن في مصادرها.

ويظهر ذلك بوضوح عند دراسة أحداث مثل الهجرة والحديبية والغزوات.

فالهجرة، مثلًا، لم تكن في الرواية النبوية مجرد حركة جغرافية من مكة إلى المدينة، ولا مجرد مغامرة عاطفية قائمة على حسن الظن دون تخطيط؛ فقد أخذ النبي ﷺ بالأسباب، واختار الصحبة، ورتب الطريق، واستعان بالدليل، وحدد المواعيد، واختفى في غار ثور.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها:

[وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خِرِّيتًا ـ وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ ـ قَدْ غَمَسَ يَمِينَ حِلْفٍ فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَأَتَاهُمَا بِرَاحِلَتَيْهِمَا صَبِيحَةَ لَيَالٍ ثَلَاثٍ، فَارْتَحَلَا، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ الدِّيلِيُّ، فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ، وَهُوَ طَرِيقُ السَّاحِلِ].

رواه البخاري، كتاب الإجارة، حديث.(2263)

فالمصدر نفسه يقدم لنا نموذجًا مركبًا: ثقة بالله، مع تخطيط، واختيار للأشخاص، واستفادة من الخبرة، وإدارة للمخاطر.

لكن إذا أسقطنا عليه مباشرة مصطلحات حديثة مثل "الإدارة الاستراتيجية" أو "إدارة المخاطر" ثم قلنا: هذا هو المفهوم الذي كان النبي ﷺ يقصده، فقد تجاوزنا الرواية إلى تفسير معاصر لا يملك حق التحول إلى حقيقة تاريخية إلا بدليل.

والأمر نفسه في الحديبية؛ فقد رأى بعض الصحابة في ظاهر شروط الصلح مشقة، ثم جاءت النتائج على خلاف القراءة العاجلة، وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها في وصف

منهجه العام: [مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا].

رواه البخاري، كتاب المناقب، حديث (٣٥٦٠)، ومسلم بمعناه.

وهذا النص يضيء جانبًا من شخصيته ﷺ في اختيار الأيسر ما لم يكن إثمًا، لكنه لا يبرر تحويل كل قرار نبوي إلى نموذج جاهز لنظرية حديثة بعينها.

ثانيًا: القراءة التربوية

السياق ليس خلفية زائدة حول الحدث، بل هو جزء من معنى الحدث نفسه.

فلا يمكن فهم الهجرة دون معرفة وضع المسلمين في مكة، وضغط قريش، وتغير الظروف، وظهور بيعة العقبة، واستعداد المدينة لاستقبال النبي ﷺ، ولا يمكن فهم بدر بمعزل عن مقدماتها، ولا أحد بمعزل عن بدر وما أحدثته في توازن القوى، ولا الخندق دون معرفة اجتماع الأحزاب والتهديد الذي أحاط بالمدينة.

ومن هنا فإن القراءة الصحيحة لا تسأل فقط: ماذا حدث؟ وإنما تسأل أيضًا: متى حدث؟ ولماذا حدث؟ وما الذي سبقه؟ وما الذي ترتب عليه؟

وهذه الطريقة أقرب إلى طبيعة السيرة كما عرضها أصحابها؛ فابن هشام لا يسرد الحوادث في فراغ، بل يربطها بأنساب الأشخاص، وأسباب الوقائع، ومراحل الدعوة، وتتابع الأحداث، وابن كثير يجمع بين الروايات ويقارن بينها ويستحضر الآيات والأحاديث، والمباركفوري يقدم السيرة في تسلسل تاريخي مترابط، بينما يركز الشيخ محمد الغزالي والغضبان على ما يمكن أن تكشفه الأحداث من معانٍ تربوية ومنهجية، ومن ثم فإن الجمع بين هذه المراجع يتيح قراءة أكثر توازنًا من الاقتصار على مصدر واحد.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

هناك فرق جوهري بين قولنا:

"تكشف الهجرة عن أهمية التخطيط والأخذ بالأسباب".

وبين قولنا:

"كان النبي ﷺ يطبق نظرية الإدارة الاستراتيجية الحديثة".

الأول استنباط يمكن مناقشته في ضوء الرواية؛ لأن التخطيط والأخذ بالأسباب ظاهران في تفاصيل الهجرة.

أما الثاني فهو إسقاط اصطلاحي؛ إذ يجعل النموذج الحديث هو الأصل، ثم يعيد تفسير الحدث وفقه. والأمر نفسه ينطبق على مفاهيم مثل القيادة التحويلية، وإدارة الأزمات، والحوكمة، وبناء رأس المال الاجتماعي، وغيرها. يمكن الاستفادة منها في وصف بعض الجوانب، بشرط أن يبقى واضحًا أن المصطلح حديث وأن استعماله تحليلي، لا أنه مصطلح كان حاضرًا في وعي الصحابة أو في خطاب النبي ﷺ.

والقاعدة المنهجية هنا:

يجوز استعمال المفاهيم الحديثة أداةً للتحليل، ولا يجوز تحويلها إلى حقائق تاريخية إلا بدليل.

ومن الخطأ كذلك قراءة حدث تاريخي من خلال نتائج عرفناها نحن ولم يكن المشاركون يعرفونها في لحظتها؛ فالصحابي الذي عاش الحديبية لم يكن يملك علمًا بالنتائج اللاحقة التي نعرفها نحن، ولذلك ينبغي أن نفرق بين المعلومة التاريخية اللاحقة وبين وعي الفاعلين بالحدث وقت وقوعه.

وهذه النقطة بالذات مهمة في الدراسات التربوية؛ لأن التربية لا تستفيد من الحدث إذا ألغينا مشاعر أصحابه وأسئلتهم وترددهم، ثم قدمنا النتيجة وكأنها كانت واضحة منذ البداية.

رابعًا: حدود الاستفادة من النظريات الحديثة

لا يعني هذا المنهج إغلاق السيرة أمام العلوم الحديثة. بل يمكن أن تكون تلك العلوم نافعة في تحليل بعض الوقائع، بشرط أن تبقى في موضعها الصحيح.

فيمكن مثلًا استخدام مفاهيم إدارة المخاطر عند دراسة الهجرة، ومفاهيم القيادة عند تحليل مواقف الشورى والتفويض، ومفاهيم التفاوض عند دراسة الحديبية، ومفاهيم بناء الجماعة عند دراسة المؤاخاة.

لكن ينبغي أن يقال بوضوح: هذا تفسير معاصر للحدث، وليس جزءًا من الرواية التاريخية نفسها.

وهذا الفصل بين المستويات يحفظ للسيرة أصالتها، ويحفظ للتحليل الحديث قيمته، فلا نضطر إلى تزوير أحدهما لصالح الآخر.

المبحث الثالث: تحويل الاجتهادات القيادية إلى أحكام قطعية

أولًا: الرواية التاريخية

من أكثر الأخطاء دقة في قراءة السيرة الخلط بين ما صدر عن النبي ﷺ بوحي وتشريع، وبين ما صدر عنه في مجال تدبير الوقائع واختيار الوسائل وفق مقتضيات الحال.

وهذا الباب يحتاج إلى عناية خاصة؛ لأن النبي ﷺ هو الأسوة، وطاعته واجبة، لكن دراسة أفعاله لا تستقيم إذا سُويت جميع أفعاله في طبيعتها ودلالتها دون تمييز.

وقد دل الحديث الصحيح على هذا التمييز في سياق قصة تأبير النخل، كما سبق، وفيه:

[إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ].

رواه مسلم.(2362)

ولا يجوز أن يفهم الحديث على أنه إسقاط لحجية السنة، فباب التشريع شيء آخر، وإنما يدل في سياقه على أن النبي ﷺ قد يتكلم في بعض شؤون المعاش والرأي البشري بما لا يكون حكمًا شرعيًا عامًا.

وتظهر الحاجة إلى هذا التمييز في الوقائع العسكرية والسياسية؛ فالنبي ﷺ اتخذ في الهجرة طريقًا معينًا، واختار دليلًا، واختفى في موضع معين، واتخذ في بدر موقعًا، وفي أحد موقعًا آخر، وحفر الخندق في غزوة الأحزاب، وقبل في الحديبية شروطًا معينة.

هذه الوقائع ثابتة في السيرة، لكن ثبوت الفعل لا يعني أن كل تفاصيله تشريع عام.

فقد يكون الفعل:

- تشريعًا؛
- أو بيانًا لعبادة؛
- أو حكمًا قضائيًا؛
- أو تدبيرًا سياسيًا؛
- أو قرارًا عسكريًا مرتبطًا بظرفه؛
- أو استعمالًا لوسيلة متاحة في عصره؛
- أو تصرفًا بشريًا في شؤون المعاش.

وتحديد نوع الفعل هو الذي يحدد مدى قابلية نقله إلى واقع آخر.

ثانيًا: القراءة التربوية

لا يعني التمييز بين الثابت والمتغير أن نتعامل مع السيرة بعقلية تفكيكية تفصل الاقتداء عن النبي ﷺ؛ بل المقصود هو حسن الاقتداء.

فالاقتداء الحقيقي لا يعني تقليد الصورة الخارجية للفعل في كل زمان، وإنما فهم ما كان وراء الفعل من هداية ومقصد ومنهج، ثم معرفة ما إذا كانت وسيلته جزءًا من الحكم أو وسيلة لتحقيقه.

ولهذا قال النبي ﷺ في شأن الحج: [لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ]. رواه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود.(1970)

ففي العبادات التي بينها النبي ﷺ لأمته يكون الاقتداء بالفعل جزءًا من نقل العبادة وتفاصيلها.

أما في الوسائل المتغيرة، فالمطلوب أن نفهم وظيفة الوسيلة ومقصدها؛ فالهجرة لم تكن درسًا في أن يسلك المسلمون الطريق نفسه إلى غار ثور في كل ظرف، وإنما يظهر فيها الأخذ بالأسباب، واختيار الطريق المناسب، والاستعانة بأهل الخبرة، والاحتياط من الخطر.

ومن هنا فإن الجمود على الوسيلة التاريخية قد يكون في بعض الأحيان مناقضًا للمقصد الذي تكشف عنه السيرة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن تقسيم ما في السيرة من توجيهات وأفعال إلى دوائر متباينة في قوة الدلالة، مع الاحتراز من تحويل هذا التقسيم نفسه إلى قاعدة فقهية مستقلة دون استناد إلى أصولها:

الدائرة الأولى: ما ثبت بوحي أو في مقام التشريع والعبادة.

وهذا لا يصح التعامل معه باعتباره مجرد تجربة قيادية قابلة للاستبدال.

الدائرة الثانية: ما يتصل بالمقاصد والقيم العامة التي تتكرر في السيرة والنصوص.

كالعدل، والرحمة، والوفاء بالعهد، والشورى، والأمانة، والصبر، وحفظ الحقوق، وهذه معانٍ أوسع من صورة تاريخية واحدة.

الدائرة الثالثة: الوسائل والتدابير المرتبطة بظرف معين.

وهذه مجال النظر في مدى ملاءمتها للزمان والمكان.

الدائرة الرابعة: الخبرات البشرية والفنية.

وهنا يكون المجال أوسع للاستفادة من تجارب الناس ومعارفهم، ما لم تخالف أصلًا شرعيًا.

وهذا التفريق لا ينبغي أن يستخدم لإسقاط السنة، كما لا ينبغي أن يستخدم لتجميد كل تصرف نبوي في صورة واحدة لا تتغير.

ومن الشواهد المهمة هنا أن النبي ﷺ كان يستفيد من خبرة غير المسلم في الهجرة، فقد استعان بدليل ماهر من بني الديل، وكان على دين قريش، وأمنه النبي ﷺ وأبو بكر ودفعا إليه راحلتيهما، كما ثبت في صحيح البخاري"واستَأجَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بَكرٍ رَجُلًا مِن بَنِي الدِّيلِ هاديًا خِرِّيتًا، وهو على دينِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، فدَفَعا إليه راحِلَتَيهما، وواعَداه غارَ ثَورٍ بَعدَ ثَلاثِ لَيالٍ براحِلَتَيهما صُبحَ ثَلاثٍ".

فالمستفاد تاريخيًا هو وقوع هذا الاختيار في حادثة الهجرة، والمستفاد تربويًا إمكان الاستفادة من الخبرة والكفاءة حيث لا يوجد مانع شرعي، أما تحويل الواقعة إلى قاعدة تفصيلية شاملة يحتاج إلى بحث فقهي آخر، ولا يكفي فيه مجرد ذكر الحادثة.

رابعًا: من الخطأ القيادي إلى القاعدة القطعية

من الأخطاء الشائعة أن يأخذ قارئ السنة النبوية قرارًا واحدًا للنبي ﷺ ثم يعممه على كل الظروف. فإذا اختار النبي ﷺ وسيلة معينة في غزوة، قيل: هذه هي الوسيلة النبوية التي يجب أن نتبع دائمًا، وإذا عقد صلحًا بشروط معينة، قيل: هذه هي السياسة الشرعية في كل زمان، وإذا اختار قائدًا أو رسولًا أو أسلوبًا معينًا، قيل: هذه هي القاعدة القيادية الثابتة.

والأدق أن نسأل: لماذا اختار النبي ﷺ هذه الوسيلة في هذا الظرف؟

فإذا كانت العلة ثابتة، أمكن أن يكون الحكم أو المبدأ قابلًا للاعتبار حيث توجد العلة، وإذا كانت الوسيلة مرتبطة بظرفها، بقيت تاريخًا يستفاد منه في فهم المنهج لا في تقليد الصورة.

وهنا تبرز قيمة كتب السيرة التي تجمع بين الرواية والتحليل؛ فالمباركفوري مثلًا يعرض الوقائع العسكرية في سياق أسبابها وتحركاتها ونتائجها، ويصف التخطيط النبوي وتنوع أساليبه، بدل أن يقدم طريقة واحدة جامدة، والغضبان، من جهته، يجعل من السيرة مجالًا لاستخراج الدروس التربوية والقيادية، لكن هذه الدروس ينبغي أن تبقى في مستوى الاستنباط لا أن تُعاد صياغتها بوصفها نصوصًا نبوية أو قواعد تاريخية قطعية. أما الشيخ محمد الغزالي فيؤكد قيمة الفقه في السيرة، أي تجاوز مجرد سرد الوقائع إلى فهم دلالاتها، مع بقاء النص والسياق أساسًا لهذا الفهم.

خامسًا: التطبيق المعاصر

في القيادة المعاصرة ينبغي ألا يقال: "فعل النبي ﷺ كذا، إذن على كل قائد أن يفعل كذا بالصورة نفسها".

بل الأصح أن يقال:

ثبت أن النبي ﷺ فعل كذا في ظرف كذا، ويُنظر في المقصد أو العلة أو القيمة التي يمكن الإفادة منها في واقعنا.

وهذا يحمي السيرة من استعمالين متناقضين:

الأول: الجمود، حين تتحول الوسائل التاريخية إلى قوالب لا تتغير.

والثاني: التسيب التأويلي، حين يصبح كل فعل قابلًا لإعادة التفسير حتى يفقد دلالته الأصلية.

والتوازن بينهما هو أن نثبت ما ثبت، ونفهم سياقه، ونستنبط بقدر ما يسمح به الدليل، ثم نميز بوضوح بين النص التاريخي والفهم العلمي والتطبيق المعاصر.

خاتمة الفصل: كيف نقرأ السيرة دون أن نفسدها؟

إن أخطر ما يمكن أن يقع في الدراسات المعاصرة للسيرة ليس قلة المعلومات، وإنما سوء ترتيبها.

فقد يمتلك قارئ السنة النبوية عشرات المراجع، لكنه يبدأ بالنتيجة التي يريد إثباتها، ثم يبحث في السيرة عما يؤيدها، وقد يحفظ عددًا كبيرًا من النصوص، لكنه ينتزعها من سياقها، وقد يستفيد من نظرية حديثة نافعة، ثم ينسى أنها أداة تحليلية نشأت في سياق مختلف، فيحولها إلى مفتاح وحيد لفهم مجتمع النبوة.

والقراءة العلمية المتوازنة تحتاج إلى ثلاث طبقات متتابعة:

الأولى: طبقة الرواية.

ما الذي ثبت وقوعه؟ وما مصدره؟ وما درجة ثبوته؟ وما سياقه الزمني والتاريخي؟

الثانية: طبقة الفهم.

ما الذي يكشفه الحدث من قيم ودلالات تربوية أو قيادية أو اجتماعية؟ وما الذي يمكن نسبته إلى الحدث نفسه دون زيادة؟

الثالثة: طبقة التطبيق.

ما الذي يمكن أن نستفيد منه اليوم؟ وما الذي يحتاج إلى اجتهاد جديد بسبب اختلاف الزمان والمكان والظروف؟

وعند الفصل بين هذه الطبقات يصبح من الممكن أن نقول بوضوح:

•هذا نص نبوي.

•وهذا خبر تاريخي.

•وهذا فهم لعالم من علماء السيرة.

•وهذا استنباط للباحث.

•وهذا تطبيق معاصر.

وكلما حافظ قارئ السنة النبوية على هذه الحدود كان أقرب إلى الأمانة العلمية.

ومن هنا لا تكون السيرة مادة نبحث فيها عن أنفسنا فقط، ولا مرآة نُجبرها على أن تعكس نظرياتنا المعاصرة، بل تصبح مجالًا نتعلم منه كيف نفهم الإنسان، وكيف تتشكل الجماعة، وكيف تدار الأزمات، وكيف تتفاعل المبادئ مع الواقع، وكيف يظل الثابت ثابتًا دون أن تتحول الوسائل المتغيرة إلى ثوابت، وكيف يمكن للإنسان أن يستفيد من التاريخ دون أن يسجنه التاريخ.

وهذه هي الحكمة الأهم في دراسة السيرة: ألا نحمّلها ما لم تقل، وألا نحرم أنفسنا مما قالت.

الهوامش والمراجع

1سورة الجمعة، الآية ٢؛ وينظر في الوظائف النبوية في التعليم والتزكية إلى: الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية.

2محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب: "إذا زار الإمام قومًا فأمهم"، حديث رقم.(631)

3مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: "وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا"، حديث رقم (٢٣٦٢)، وفي رواية أنس حديث.(2363)

4صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية، وينظر خصوصًا مباحث المرحلة المدنية والغزوات والحديبية، وقد عُرف الكتاب بعرض السيرة في تسلسل تاريخي مترابط وربط الأحداث بعضها ببعض.

5محمد بن إسحاق، رواية محمد بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي.

6إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، قسم السيرة النبوية، دار هجر.

7منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ولا سيما مباحث التربية القيادية والتربية السياسية والتربية الجماعية؛ وتظهر عناية المؤلف بجوانب القيادة والتربية في مشروعه العام في السيرة.

8الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، وينظر منهجه العام في الانتقال من مجرد سرد الحوادث إلى فقه دلالاتها.

9مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم.(2362)

10محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب: "استئجار المشركين عند الضرورة"، حديث رقم (٢٢٦٣)، في قصة استئجار النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنهما دليلًا ماهرًا للهجرة.

11مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم (١٨٥٦)، وفيه خبر جابر رضي الله عنه في عدد أهل بيعة الرضوان وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، وبايعوا ألا يفروا.

12البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم (٣٥٦٠)، عن عائشة رضي الله عنها: "ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما."...

13مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم (١٢٩٧)، في قول النبي ﷺ في حجة الوداع: "لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه."

14أبو داود، سنن أبي داود، كتاب المناسك، حديث رقم (١٩٧٠)، وقد ورد فيه معنى أخذ المناسك عن النبي ﷺ.

15صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، مباحث الهجرة والغزوات والحديبية؛ وينظر أيضًا عرضه لأحوال القيادة العسكرية النبوية وربطها بظروفها وملابساتها.

16ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ولا سيما أبواب الهدي النبوي في الغزوات والعبادات والسياسة الشرعية والمعاملات.

17ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ولا سيما شروحه للأحاديث المتعلقة بالاقتداء، والهجرة، والسياسة، وتصرفات النبي ﷺ؛ وينظر كذلك شرحه لحديث (٦٣١) من صحيح البخاري.

18منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ولا سيما مباحث التربية السياسية والقيادية والجماعية؛ وتوجد للمؤلف مؤلفات مستقلة في هذه المجالات ضمن مشروعه في التربية بالسيرة.

19الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق؛ وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ ومنير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ويستفاد من الجمع بينها في المزاوجة بين الرواية التاريخية والقراءة التربوية، مع ضرورة إبقاء كل استنباط في مرتبته العلمية.

20القاعدة المنهجية الواردة في هذا الفصل ـ التمييز بين الرواية، والفهم، والاستنباط، والتطبيق ـ هي ضابط منهجي في البحث، وليست نصًا منقولًا عن أحد المراجع، ولذلك لا تنسب إلى الشيخ محمد الغزالي أو المباركفوري أو الغضبان بلفظها.

الباب السابع: من المنهج إلى الواقع — كيف نعيش السيرة؟

الفصل الخامس والعشرون: الفرد والأسرة المعاصرة

تمهيد

إذا كانت الفصول السابقة قد انتقلت بالسيرة من الحدث إلى المبدأ، ومن المبدأ إلى القانون، فإن هذا الباب يحاول أن يقطع الخطوة الأخيرة: من فهم السيرة إلى سؤال العيش بها.

وهذه الخطوة تحتاج إلى قدر أكبر من الاحتياط؛ لأن السيرة ليست كتابًا في التنمية البشرية، ولا مجموعة وصفات جاهزة للحياة المعاصرة، كما أن واقع الإنسان اليوم يختلف في بنيته وتعقيداته عن البيئة التي عاش فيها النبي ﷺ وأصحابه، ولذلك فالمقصود هنا ليس البحث عن "حلول معاصرة" جاهزة داخل كل حادثة من حوادث السيرة، وإنما استقراء المعاني التربوية الثابتة التي يمكن أن تهدي إلى حسن التعامل مع أسئلة الإنسان والأسرة اليوم.

وتظهر هذه الحقيقة بوضوح في المرحلة المكية والمدنية معًا؛ فقد بدأ البناء النبوي بالإنسان قبل أن يتسع إلى الجماعة والمجتمع، وظل الإنسان حاضرًا في جميع مراحل المشروع: إيمانًا، وتزكية، وصبرًا، ومسؤولية، وعلاقةً بالآخرين. ثم انتقل هذا البناء إلى الأسرة؛ إذ لم تكن الأسرة في المجتمع النبوي هامشًا تابعًا للحركة العامة، وإنما كانت إحدى البيئات التي تتشكل فيها الشخصية، ويتعلم فيها الإنسان الحوار والمسؤولية والصبر وحسن المعاشرة.

ومن هنا يعالج هذا الفصل أربع قضايا مترابطة: أزمة المعنى وبناء الشخصية، والأسرة والتربية، والقدوة والانضباط الذاتي، وتربية الأبناء في زمن الفتن.

وليس المقصود أن نقول إن كل مشكلة معاصرة لها حادثة مماثلة في السيرة؛ فهذا تحميل للنصوص ما لا تحتمل، وإنما المقصود أن نعود إلى منهج التربية النبوية، ثم نسأل: ما الذي يمكن أن نستفيد منه في بناء الإنسان والأسرة اليوم؟

المبحث الأول: أزمة المعنى وبناء الشخصية

أولًا: الرواية النبوية والقرآنية — بناء الإنسان من الداخل

لم تبدأ الرسالة النبوية بتشكيل مؤسسة سياسية، ولا بإقامة نظام اجتماعي مفصل، وإنما بدأت بتكوين الإنسان الذي يستطيع أن يحمل الوحي ويعيش مقتضاه.

وكان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

ثم جاء بعد ذلك خطاب التكليف والتزكية والإنذار.

وتصف عائشة رضي الله عنها بدايات نزول الوحي فتقول في الحديث المشهور:

[أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ...] إلى آخر الحديث[1].

وهذه الرواية لا تقدم لنا "برنامجًا نفسيًا" بالمعنى المعاصر، ولا يصح تحويل التحنث في حراء إلى وصفة تربوية عامة؛ لكنها تكشف عن حقيقة تاريخية مهمة: أن الرسالة جاءت في سياق إنساني كان النبي ﷺ فيه يمر بمرحلة من التهيؤ للقاء الوحي.

وبعد نزول الوحي بدأت عملية بناء الإنسان بصورة أعمق؛ فالقرآن المكي لم يكن يقدم منظومة معلومات مجردة، بل كان يعيد تشكيل التصور عن الله، والإنسان، والكون، والحياة، والموت، والآخرة، والمسؤولية.

ولهذا كان القرآن يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ * الشمس: ٩-١٠.

ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ * الأعلى: ١٤-١٥.

وفي المدينة وصف القرآن مهمة الرسول ﷺ بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ * الجمعة: ٢.

فالإنسان في المنهج النبوي ليس مجرد عنصر في مشروع اجتماعي؛ بل هو غاية أصيلة من غايات الرسالة من جهة إصلاحه وتزكيته وهدايته.

وقد أبرز الشيخ محمد الغزالي هذا المعنى في قراءته للسيرة، إذ يرى أن المرحلة المكية كانت في جوهرها مرحلة بناء العقيدة والشخصية المؤمنة، قبل الانتقال إلى مقتضيات المجتمع والدولة. كما يبرز المباركفوري في عرضه للمرحلة المكية مركزية التوحيد والآخرة والتربية الإيمانية، ويؤكد الغضبان في قراءته التربوية للسيرة أن التربية لم تكن عنصرًا ثانويًا في المشروع النبوي، بل كانت من صميمه[2].

ثانيًا: القراءة التربوية — أزمة الإنسان قبل أزمة الواقع

حين يعيش الإنسان بلا معنى جامع، تتحول حياته إلى مجموعة من الاستجابات المتفرقة: دراسة من أجل الشهادة، وعمل من أجل المال، واستهلاك من أجل المتعة، وحضور اجتماعي من أجل الاعتراف، دون أن تنتظم هذه الأعمال في رؤية كلية للحياة.

وهنا تظهر إحدى أهم الدلالات التي يمكن استنباطها من البناء المكي: أن الإنسان يحتاج قبل كثرة الأدوار إلى وضوح الغاية.

لم يكن الصحابة في مكة يمتلكون أدوات القوة المادية التي تسمح لهم بتغيير واقعهم سريعًا، لكنهم امتلكوا شيئًا أكثر عمقًا: تصورًا جديدًا للإنسان وللحياة وللمصير.

ولذلك لم تكن التربية النبوية مجرد تدريب على الصبر، وإنما كان الصبر نفسه جزءًا من رؤية إيمانية تجعل التضحية ذات معنى.

فالقرآن يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ * الذاريات: ٥٦.

ويقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ * المؤمنون: ١١٥.

وهذا التصور لا يلغي حاجات الإنسان الدنيوية، وإنما يضعها في إطار أوسع يمنعها من أن تصبح غاية نهائية.

ومن هنا يمكن فهم أهمية حديث النبي ﷺ: [إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...][3].

فالنية في المنظور الإسلامي ليست مجرد فكرة داخلية، وإنما هي التي تمنح العمل وجهته وقيمته.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن صياغة الاستنباط هنا في قاعدة محدودة:

كل بناء إنساني مستدام يحتاج إلى معنى يسبق السلوك، وإلى تصور يوجه الاختيارات.

وهذا استنباط تربوي من مجموع النصوص والممارسة النبوية، وليس نصًا نبويًا بهذا اللفظ، ولا يصح نسبته إلى السيرة باعتباره "قانونًا تاريخيًا" قطعيًا.

والمقصود المعاصر منه أن التربية لا ينبغي أن تكتفي بإنتاج الإنسان المنضبط خارجيًا؛ بل تحتاج إلى مساعدته على فهم لماذا يعيش، ولأجل ماذا يعمل، وما الذي ينبغي أن يظل ثابتًا عندما تتغير الظروف.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في واقع اليوم، يمكن ترجمة هذا المعنى في التربية الفردية إلى أسئلة عملية:

- ما الغاية التي تنتظم حولها حياة الإنسان؟
- هل اختياراته المهنية والاجتماعية والاستهلاكية مرتبطة بقيم واضحة؟
- هل يمتلك قدرة على تأجيل الإشباع من أجل هدف أبعد؟
- هل يستطيع أن يثبت على قيمة لا تمنحه مكافأة فورية؟

ولا يعني ذلك أن كل أزمة نفسية أو اجتماعية سببها "ضعف الإيمان"، فهذا تبسيط غير علمي لمشكلات الإنسان، وإنما المقصود أن المعنى والقيم والانتماء الروحي عناصر أصيلة في البناء الإنساني، ينبغي ألا تغيب عن التربية.

المبحث الثاني: الأسرة بين التفكك والتربية النبوية

أولًا: الرواية – البيت في التجربة النبوية

تظهر الأسرة في السيرة النبوية في صور متعددة؛ فهي بيت السند في بداية الدعوة، وبيت الحوار، وبيت التعليم، وبيت تحمل المسؤولية.

ومن أبرز ذلك موقف خديجة رضي الله عنها عقب نزول الوحي؛ فقد عاد النبي ﷺ إلى بيته خائفًا، وقال:

[زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي].

فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم أخبر خديجة رضي الله عنها بما حدث وقال:

[لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي].

فقالت له:

[كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ...][4].

وهذا من أقوى الشواهد في السيرة على أن البيت كان حاضرًا في لحظة التأسيس الأولى، لا بوصفه مكانًا للراحة فحسب، وإنما بوصفه بيئة للثبات والتثبيت.

ثم يتكرر حضور الأسرة في السيرة في صور أخرى: في هجرة أم سلمة، وفي مواقف عائشة رضي الله عنها، وفي حياة فاطمة رضي الله عنها، وفي علاقات النبي ﷺ بزوجاته وبناته وأحفاده.

وكان النبي ﷺ يقول:

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي][5].

وهذا الحديث لا يقدم شعارًا عاطفيًا مجردًا، بل يربط معيار الخيرية بالسلوك داخل الدائرة الأقرب التي قد لا يراها الناس.

وفي تعامله مع أهله كان يظهر جانب الرفق والملاطفة، ومن ذلك قول عائشة رضي الله عنها:

[كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ][6].

وفي ذلك ملمح من المودة اليومية التي لا تحتاج إلى خطب طويلة، وإنما تتجسد في التفاصيل.

ثانيًا: القراءة التربوية – الأسرة بيئة بناء لا مجرد مؤسسة

الأسرة هي البيئة التي يتعلم فيها الطفل للمرة الأولى معنى الأمان، والثقة، والحدود، والحوار، والاختلاف، والمسؤولية.

وهذه الحقيقة يمكن أن تفسر لنا لماذا كانت الأسرة حاضرة بقوة في السيرة، لا باعتبارها "مشروعًا تربويًا حديثًا" بالمعنى الاصطلاحي، وإنما باعتبارها المجال الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان علاقاته الأولى.

وفي القرآن:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ * الروم: ٢١.

فالقرآن يضع السكن والمودة والرحمة في قلب العلاقة الزوجية.

والنبي ﷺ لم يجعل حسن المعاشرة أمرًا هامشيًا، بل قال: [اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا][7].

وقال:[لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ][8].

وهذا النص مهم تربويًا لأنه يعالج أحد أخطر أسباب انهيار العلاقات: اختزال الإنسان في عيب واحد.

فالعلاقة الزوجية في التصور النبوي ليست قائمة على الكمال، وإنما على القدرة على رؤية الإنسان في مجموع صفاته، وعلى احتمال ما لا يوافق الطبع ما لم يبلغ حدًا يوجب المفارقة أو المعالجة.

ثالثًا: إدارة الخلاف

لم تكن الأسرة النبوية خالية من المواقف الإنسانية؛ ومن الخطأ تقديم البيت النبوي وكأنه نموذج مصطنع لا يعرف الغيرة أو الاختلاف.

بل وردت مواقف صريحة في هذا الباب، ومن ذلك قول عائشة رضي الله عنها في قصة الإناء:

[مَا أَغَارُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا أَغَارُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا...][9].

وتروي عائشة رضي الله عنها أن إحدى أمهات المؤمنين بعثت بطعام في صحفة، فضربت عائشة الصحفة بيدها فانكسرت، فقال النبي ﷺ: [غَارَتْ أُمُّكُمْ]، ثم أخذ النبي ﷺ الإناء الصحيح فجعل فيه الطعام، وقال:[كُلُوا]، وحفظ الموقف من أن يتحول إلى إذلال أو فضيحة[10].

والشاهد هنا ليس أن الغيرة أمر محمود لذاتها، وإنما أن التعامل مع الانفعال داخل الأسرة يحتاج إلى احتواء وحكمة، لا إلى تحويل لحظة غضب إلى حكم نهائي على العلاقة.

رابعًا: الاستنباط

يمكن استنباط مبدأ تربوي محدود:

الأسرة القوية ليست الأسرة التي لا يقع فيها خلاف، وإنما الأسرة التي تمتلك من القيم والمهارات الأخلاقية ما يمنع الخلاف من التحول إلى هدم للعلاقة.

وهذا استنباط من جملة النصوص والمواقف، وليس وصفًا تاريخيًا يُقال إن النبي ﷺ "أسس علم إدارة الخلاف الأسري."

خامسًا: التطبيق المعاصر

في الأسرة المعاصرة يمكن الإفادة من هذا المنهج عبر:

١. الفصل بين الشخص والخطأ.
٢. عدم تحويل الخلاف الجزئي إلى حكم شامل على الإنسان.
٣. الحفاظ على الكرامة أثناء الغضب.
٤. جعل الحوار وسيلة للفهم لا محاكمة للنيات.
٥. بناء عادات يومية صغيرة للمودة؛ فالعلاقة لا تُصلحها المحاضرات وحدها.
٦. إدراك أن التربية الأسرية ليست مسؤولية الأم وحدها ولا الأب وحده، وإنما مسؤولية مشتركة.

المبحث الثالث: القدوة والانضباط الذاتي

أولًا: الرواية – حين يسبق الفعل القول

من أبرز خصائص التربية النبوية أن النبي ﷺ لم يكن يربي أصحابه بالمواعظ المجردة، وإنما كان يجسد ما يدعو إليه.

وقد أثنى القرآن على هذا الجانب بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ * الأحزاب: ٢١.

والأسوة هنا ليست مجرد الاقتداء في هيئة خارجية، وإنما في المنهج والسلوك والموقف.

وعندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ قالت:

[كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ][11].

وهذه العبارة من أعمق النصوص في فهم الشخصية النبوية؛ إذ تجعل القرآن حاضرًا في السلوك، لا محفوظًا في الذاكرة فقط.

وفي الانضباط الذاتي يقول النبي ﷺ:

[لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ][12].

فالقوة هنا لا تُقاس بمجرد القدرة على التغلب على الآخرين، وإنما بالقدرة على ضبط الذات عند لحظة الانفعال.

ثانيًا: القراءة التربوية – الطفل يقرأ ما نفعله قبل ما نقوله

هذه الدلالة أكثر وضوحًا في الأسرة.

يمكن للوالد أن يقول لطفله: "لا تكذب"، ثم يراه الطفل يكذب في موقف آخر، ويمكنه أن يحدثه عن الصلاة، ثم يراه يتعامل معها بوصفها أمرًا ثانويًا، ويمكنه أن يأمره بضبط غضبه، بينما لا يرى الطفل منه عند الخلاف إلا الصراخ.

هنا لا تعود المشكلة في نقص المعلومات، بل في التناقض بين الرسالة والسلوك.

والقدوة النبوية لا تعني أن الوالد ينبغي أن يكون كاملًا، فهذا غير ممكن، وإنما تعني أن الاعتراف بالخطأ وإصلاحه أمام الأبناء يمكن أن يكون هو نفسه جزءًا من التربية.

ولهذا فإن التربية بالقدوة لا تعني "الكمال"، وإنما تعني الاتساق العام بين ما نطلبه وما نحاول أن نعيشه.

ثالثًا: الاستنباط

يمكن صياغة المبدأ هكذا:

أكثر ما يربي الإنسان في محيطه القريب هو السلوك الذي يراه متكررًا، لا الكلام الذي يسمعه عابرًا.

وهذا استنباط تربوي تؤيده طبيعة التربية النبوية، لكنه لا ينبغي أن يُحوَّل إلى قانون علمي مطلق دون الاستناد إلى الدراسات التربوية والنفسية المتخصصة.

رابعًا: التطبيق المعاصر – الانضباط قبل الرقابة

في عصر الشاشات والمنصات الرقمية، لم تعد الرقابة الأبوية وحدها كافية؛ فالطفل يستطيع أن يرى ويسمع ويتعلم خارج البيت في دقائق ما لم يكن متاحًا للأجيال السابقة.

ولهذا تصبح تربية الرقابة الداخلية أكثر أهمية من مجرد زيادة الرقابة الخارجية.

ومن المفيد أن يتعلم الأبناء:

- لماذا يرفض بعض المحتوى؟
- كيف يضبط وقته؟
- كيف يميز بين الرغبة والحاجة؟
- كيف يتعامل مع الغضب؟
- كيف يعترف بخطئه؟
- كيف يعتذر ويصلح ما أفسده؟

وهذه ليست "وصفة نبوية مباشرة"؛ وإنما هي ترجمة معاصرة لمعنى الانضباط الذاتي والقدوة.

المبحث الرابع: تربية الأبناء في زمن الفتن

أولًا: الرواية — التربية بالمشاركة والمسؤولية

لم يكن شباب الصحابة في السيرة مجرد متلقين صغارًا للتوجيه؛ بل شاركوا في صناعة الأحداث وتحمل المسؤوليات.

ومن الشواهد البارزة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، الذي ولاه النبي ﷺ قيادة جيش وهو شاب، وقد أثارت حداثة سنه اعتراض بعض الناس، فخطب النبي ﷺ فقال:

[إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ][13].

وهذا الحديث لا يعني أن كل شاب يصلح لكل مسؤولية، ولا يقرر قاعدة إدارية مطلقة، لكنه يكشف عن مبدأ نبوي مهم: اكتشاف الكفاءة وإعطاء الإنسان مسؤولية تناسب قدرته.

ومن ذلك أيضًا تربية ابن عباس رضي الله عنهما؛ فقد كان صغير السن، ومع ذلك دعا له النبي ﷺ فقال:

[اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ][14].

وكان النبي ﷺ يخاطب الصغار ويعلمهم، ومن أشهر ذلك قوله لابن عباس:

[يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...][15].

وهذا النص يجمع بين التعليم العقدي والتوجيه العملي وبناء الاستقلال الداخلي.

ثانيًا: القراءة التربوية — لا تحموا أبناءكم من الحياة

من الأخطاء التربوية أن تتحول حماية الأبناء إلى إلغاء قدرتهم على تحمل المسؤولية.

والسيرة تقدم نموذجًا مختلفًا: كان الصحابة الصغار يتعلمون، ويسألون، ويشاركون، ويتحملون المسؤولية بحسب قدراتهم.

ولذلك لا يكفي أن نقول للطفل: "احذر العالم"، بل ينبغي أن نعلمه كيف يتعامل مع العالم.

فالفتن لا تُواجه دائمًا بإبعاد الإنسان عنها؛ لأن بعض جوانب الحياة لا يمكن عزل الإنسان عنها إلى الأبد، وإنما يحتاج إلى بناء داخلي يساعده على الاختيار.

ثالثًا: التربية في زمن التدفق المعلوماتي

الطفل المعاصر يواجه عالمًا مفتوحًا من المعلومات والصور والأفكار، ولذلك أصبحت مهمة الأسرة أعقد من مجرد نقل المعلومات الدينية.

إنها مطالبة ببناء:

- عقل يستطيع السؤال.
- قلب يستطيع التعلق بالله.
- ضمير يستطيع التمييز.
- شخصية تستطيع قول "لا."
- قدرة على تحمل الإغراء وتأجيل الرغبة.
- علاقة أسرية تجعل الطفل يعود إلى والديه عندما يواجه سؤالًا أو أزمة.

وهنا يمكن الإفادة من منهج النبي ﷺ في المصاحبة والتعليم والحوار، دون الادعاء بأن السيرة عالجت الإنترنت أو وسائل التواصل الحديثة.

رابعًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستخلص من هذه الشواهد مبدأ:

تربية الأبناء لا تكتمل بحمايتهم من الخطأ، وإنما تشمل بناء القدرة التي تمكنهم من التعامل مع الخطأ والفتنة والمسؤولية عندما يواجهونها.

وهذا استنباط تربوي معاصر مستند إلى نماذج نبوية في تعليم الصغار وإسناد المسؤوليات إليهم، وليس نصًا تاريخيًا يقول إن النبي ﷺ كان يواجه "تحديات الطفولة في العصر الرقمي."

الخلاصة:

تكشف السيرة، عند قراءتها من زاوية الفرد والأسرة، عن تدرج واضح في البناء: إيمان يوجه الإنسان، وتزكية تضبط سلوكه، وأسرة توفر له السكن والمودة والتربية، وقدوة تحول القيم إلى ممارسة، ومسؤولية تُعده لمواجهة الحياة.

ومن الخطأ أن نختزل هذا كله في عبارات وعظية من قبيل "كونوا صالحين"؛ لأن التجربة النبوية كانت أكثر عمقًا من ذلك. لقد بُني الإنسان بالقرآن، والصحبة، والممارسة، والابتلاء، والمسؤولية، والعلاقة الإنسانية، ثم أُدخل تدريجيًا في دوائر أوسع من الواجب.

ويمكن تلخيص الدلالة التطبيقية للفصل في أربع قواعد:

أولًا: لا يكفي أن تسأل الأسرة أبناءها: ماذا تفعلون؟ بل ينبغي أن تسألهم أيضًا: لماذا تفعلون؟ ولأجل ماذا تعيشون؟

ثانيًا: لا تبنى الأسرة السليمة على غياب الخلاف، وإنما على القدرة على إدارة الخلاف دون هدم المودة والكرامة.

ثالثًا: القدوة لا تعني أن يكون الوالدان بلا أخطاء، وإنما أن يرى الأبناء في والديهم محاولة صادقة للاتساق بين القيم والسلوك.

رابعًا: حماية الأبناء من الفتن لا تعني عزلهم عن العالم، بل إعدادهم بالعلم والإيمان والتمييز والمسؤولية ليحسنوا التعامل معه.

وبذلك لا تصبح السيرة مجرد مادة للموعظة، ولا مجرد تاريخ نقرأه، وإنما تتحول إلى مرجعية قيمية وتربوية تساعد الإنسان المعاصر على إعادة النظر في طريقة بنائه لنفسه وبيته وعلاقته بأبنائه، مع بقاء الحد الفاصل واضحًا بين ما وقع في السيرة، وما استنبط منها، وما نقترحه نحن تطبيقًا في واقع مختلف.

الهوامش

1البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

2الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، وتُثبت أرقام الصفحات في النسخة النهائية بحسب الطبعات المعتمدة الموحدة.

3البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث "إنما الأعمال بالنيات"؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة.

4البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث بدء الوحي.

5الترمذي، سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ؛ وابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، والحديث صححه الترمذي.

6مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله.

7البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

8مسلم، صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

9البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

10البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة؛ والترمذي، سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ.

11مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض؛ وأحمد، المسند، من حديث عائشة رضي الله عنها.

12البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب.

13البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أسامة بن زيد؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما.

14البخاري، صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل ابن عباس رضي الله عنهما.

15الترمذي، سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الفصل السادس والعشرون: الجماعة والمؤسسة

تمهيد

إذا كانت المرحلة المكية قد انصرفت في جانبها الأعظم إلى بناء الإنسان، فإن المرحلة المدنية كشفت عن وجه آخر من وجوه المنهج النبوي: كيف يتحول الإنسان المؤمن إلى عضو فاعل في جماعة، وكيف تتحول الجماعة إلى مجتمع قادر على حمل أعباء الرسالة، وكيف تُدار الطاقات والاختصاصات والأزمات دون أن تفقد الجماعة روحها الإيمانية.

وهنا تبرز قيمة النظر إلى السيرة من زاوية تتجاوز تسجيل الأحداث إلى قراءة طريقة بناء العلاقات، وتوزيع المسؤوليات، واكتشاف القدرات، والتعامل مع الطوارئ، وصناعة الثقة.

غير أن المنهج العلمي يقتضي التنبيه منذ البداية إلى أن ألفاظًا مثل: "المؤسسة"، و"القيادة الحديثة"، و"الصف الثاني"، و"إدارة الأزمات" ليست مصطلحات وردت في السيرة بهذا الاصطلاح؛ وإنما هي مفاهيم تحليلية معاصرة نستعين بها لفهم بعض الممارسات النبوية، ولذلك لا يصح القول إن النبي ﷺ أسس "نظرية إدارية" بالمفهوم الحديث، وإنما الصحيح أن سيرته اشتملت على ممارسات في التنظيم والقيادة وتوزيع المسؤوليات يمكن الإفادة منها في بناء المؤسسات المعاصرة، مع مراعاة اختلاف السياقات.

وقد كان الشيخ محمد الغزالي من أكثر من نبه إلى ضرورة تجاوز القراءة السطحية للسيرة إلى فقه السنن والمعاني، بينما أبرز المباركفوري تسلسل بناء المجتمع المدني ومؤسساته، واهتم الغضبان في كتاباته بالجانب التربوي والحركي في تكوين الجماعة وتوزيع الأدوار، وتأتي إلى جانب هذه المراجع الأساسية المصادر المبكرة، وعلى رأسها ابن هشام، وما جمعه ابن كثير من روايات السيرة والحديث، وما قرره ابن القيم من فقه الهدي النبوي.

المبحث الأول: العمل الجماعي والقيادة المعاصرة

من الفردية إلى فرق العمل المؤمنة

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

لم يكن المجتمع الذي استقبل النبي ﷺ في المدينة مجموعة من الأفراد الذين يعيش كل واحد منهم لنفسه، بل أخذ منذ اللحظة الأولى يتشكل في صورة جماعة لها روابطها وشعائرها ومصالحها ومسؤولياتها المشتركة.

ومن أبرز مظاهر ذلك بناء المسجد النبوي، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم تنظيم المجتمع بعلاقات وعهود وحقوق وواجبات، ويذكر المباركفوري أن من أوائل الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة بناء المسجد، ثم المؤاخاة بين المسلمين، ثم تنظيم المجتمع الجديد.

ولم تكن المؤاخاة مجرد إعلان عاطفي للأخوة، فقد ترتب عليها نوع من التكافل العملي، كما يظهر في الحديث الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما.

قال أنس رضي الله عنه: [قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ، فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْيَمْ؟ قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟ قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ].

رواه البخاري، كتاب النكاح، حديث (٥٠٧٢)، وله أصل في كتاب البيوع، حديث (٢٠٤٨)، وترد رواية المؤاخاة أيضًا في كتاب مناقب الأنصار.

والدلالة المهمة في هذه الرواية ليست في مقدار المال الذي عرضه سعد، وإنما في أن الأخوة تحولت إلى مبادرة عملية، ثم ظهر في الطرف الآخر عبد الرحمن بن عوف بشخصيته المستقلة وقدرته على المبادرة والعمل، فقال: "دُلُّوني على السوق"؛ فالمجتمع المتماسك لا يلغي شخصية أفراده، وإنما يوفر لهم بيئة تمكنهم من العمل والعطاء.

ومن جهة أخرى، لم يكن النبي ﷺ يحتكر جميع المهام، بل كان يبعث أصحابه في الأعمال المختلفة، ويولي بعضهم على بعض، ويكلفهم بالمهام بحسب ما يراه من أهلية.

ومن أوضح الشواهد بعث معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري إلى اليمن؛ ففي الحديث أن النبي ﷺ قال لهما:

[يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا].

رواه البخاري في كتاب المغازي، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، بألفاظ متقاربة.

وهذا التوجيه النبوي مهم في سياق العمل المشترك؛ لأنه لا يكتفي بتحديد المهمة، بل يحدد الروح التي ينبغي أن تؤدى بها المهمة: التيسير، والبشارة، والتعاون، واجتناب التنازع.

كما يظهر اعتماد النبي ﷺ على الكفاءة والتخصص في عدد كبير من المواقف؛ فكان يبعث الرسل، ويولي العمال، ويستعين بأصحاب الخبرة، ويكلف كل واحد بما يناسب قدرته وموقعه.

ومن ذلك بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن، وهو شاهد واضح على الثقة بأهلية الفرد وتحميله مسؤولية تتجاوز ذاته، وقد تناول ابن القيم نماذج متعددة من بعوث النبي ﷺ وولاته، مبينًا أن هديه اشتمل على تولية الرجال وإسناد الأعمال بحسب ما يلائمها، وتظهر في زاد المعاد نماذج من ذلك في سياق حديثه عن بعوثه وولاته ﷺ.

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف هذه الوقائع أن الجماعة في المنهج النبوي لم تكن بديلًا عن الفرد، كما أن الفرد لم يكن بديلًا عن الجماعة.

عبد الرحمن بن عوف لم يذُب في الجماعة حتى يفقد استقلاله، وسعد بن الربيع لم يحصر الأخوة في الكلام، ومعاذ لم يكن مجرد تابع ينتظر التعليمات في كل جزئية؛ وإنما كان أهلًا لتحمل مسؤولية مستقلة.

ومن هنا يمكن فهم العمل الجماعي في السيرة باعتباره عملية تجمع بين عنصرين متكاملين:

قوة الجماعة، واستقلال الفرد المسؤول.

فالجماعة تمنح الفرد الحماية والثقة والبيئة، والفرد يمنح الجماعة قدرته ومبادرته وخبرته.

وهذا يختلف عن نمطين مختلين:

- فردية تجعل كل شخص يعمل منفردًا ولا يثق بغيره.
- جماعية تلغي الشخصية وتحول الأفراد إلى مجرد منفذين.

والنموذج النبوي أقرب إلى التكامل بين الشخصيات والقدرات.

كما أن قول النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى: "وتطاوعا ولا تختلفا" يلفت إلى أن نجاح الفريق لا يقوم فقط على توزيع المهام، بل على حسن العلاقة بين أصحاب المهام.

فالاختلاف في الرأي أو الأسلوب قد يقع، لكن المطلوب ألا يتحول إلى تنازع يفسد المقصد.

وهذه الدلالة تنسجم مع ما يبرزه الغضبان في قراءته التربوية للسيرة من أهمية بناء الجماعة على الثقة والانضباط والتعاون، ومع معالجة الشيخ محمد الغزالي للسيرة باعتبارها مدرسة في تكوين الإنسان الذي يستطيع أن يحمل المسؤولية، لا مجرد تابع ينتظر التوجيه.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستنبط من هذه الوقائع مبدأً عامًا مفاده:

إن قوة العمل الجماعي لا تتحقق بإلغاء الفرد، وإنما بتحويل استقلال الأفراد إلى طاقة متكاملة داخل مقصد مشترك.

وهذا استنباط تحليلي من مجموعة من الوقائع، وليس نصًا شرعيًا مستقلًا باسم "قانون العمل الجماعي."

والذي تدل عليه السيرة بوضوح هو أن النبي ﷺ:

١. بنى روابط الأخوة.
٢. وثق بأصحابه.
٣. أسند إليهم مسؤوليات.
٤. راعى اختلاف قدراتهم ومواقعهم.
٥. وجههم إلى التعاون وحسن التعامل.

أما تحويل ذلك إلى نظريات إدارية تفصيلية، كالهياكل التنظيمية الحديثة أو نماذج إدارة الفرق، فهو مجال اجتهادي معاصر لا ينبغي نسبته إلى السيرة نفسها.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في المؤسسة الدعوية أو التعليمية أو الاجتماعية، لا يكفي جمع مجموعة من الصالحين تحت عنوان واحد. المطلوب أن تتحول المجموعة إلى فريق يعمل على مقصد واضح، ويعرف كل فرد فيه مسؤوليته، ويثق بقدرات الآخرين.

وتستفيد المؤسسات المعاصرة من هذا المعنى في:

- توزيع المهام بحسب الكفاءة لا بحسب القرب الشخصي.
- إعطاء العامل مساحة للمبادرة.

•تدريب القائد على بناء الفريق لا احتكار القرار.
•معالجة الخلاف قبل أن يتحول إلى صراع.
•الجمع بين الانضباط والمرونة.
•بناء روابط إنسانية وإيمانية داخل الفريق، لا الاكتفاء بالعلاقة الوظيفية.
وهذه تطبيقات معاصرة مستفادة من الدلالة العامة، وليست وقائع تاريخية من السيرة.

المبحث الثاني: إدارة الأزمات في المؤسسات

من الخندق إلى مواجهة الطوارئ

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

من أوضح النماذج النبوية في التعامل مع الخطر المركب غزوة الأحزاب.

فقد واجهت المدينة تحالفًا واسعًا من القوى المعادية، حتى بلغ عدد من وافى الخندق من المشركين -بحسب ما أورده ابن القيم- نحو عشرة آلاف، واستشار النبي ﷺ أصحابه في كيفية مواجهة الخطر، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق، فأخذ النبي ﷺ بالمقترح، وشارك أصحابه في العمل.

وهنا تظهر نقطة منهجية مهمة: لا ينبغي اختزال المعركة في فكرة الخندق وحدها؛ لأن الأزمة كانت مركبة: عدو خارجي كبير، تهديد للمدينة، نقص في الموارد، ضغط نفسي، وخطر داخلي مرتبط بمواقف بعض أهل المدينة.

وقد وصف القرآن شدة الموقف بقوله تعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ * الأحزاب: ١٠-١١.

فالقرآن نفسه لا يقدم الأزمة باعتبارها موقفًا عسكريًا مجردًا، بل يكشف بعدها النفسي والإيماني والاجتماعي.

وفي وسط هذا الضغط كان النبي ﷺ مشاركًا في العمل، لا متفرجًا عليه، وتذكر كتب السيرة مشاركته أصحابه في حفر الخندق، وهي الصورة التي أبرزها المباركفوري في عرضه لبناء الخندق، حيث ذكر أنه ﷺ كان ينقل اللبن والحجارة مع أصحابه.

ثم جاء العامل الإلهي الحاسم في نهاية الأزمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ * الأحزاب: ٩.

فالنصر في التصور القرآني لم يكن نتيجة الخطة البشرية وحدها، كما أن التوكل لم يكن تركًا للأسباب. وهذه نقطة مركزية في فهم الحدث.

ثانيًا: القراءة التربوية

في الخندق تتجمع عدة عناصر تربوية في موقف واحد.

أولها: قراءة الخطر قبل وقوعه.
لم ينتظر النبي ﷺ وصول الأحزاب إلى قلب المدينة حتى يبدأ التفكير، بل تحرك عند ظهور الخبر.
وثانيها: الاستفادة من الخبرة مهما كان مصدرها.
اقتراح سلمان رضي الله عنه لم يكن من تقاليد العرب في الحرب، ومع ذلك لم يمنع اختلاف البيئة أو الخلفية من الاستفادة منه.
وثالثها: مشاركة القيادة في تحمل العبء.
حين يعمل القائد مع جماعته في الخطر، يتحول التكليف إلى مشاركة، وتتحول الطاعة إلى ثقة، لأن الأتباع يرون قائدهم داخل الميدان لا فوقه.
ورابعها: إدارة الخوف لا إنكاره.
فالقرآن لم ينفِ الخوف عن المؤمنين، بل وصفه: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ *، وهذا مهم تربويًا؛ فالشجاعة ليست غياب الخوف، وإنما القدرة على أداء المسؤولية رغم وجوده.
وهنا يلتقي البعد التربوي الذي يبرزه الغضبان في قراءة الابتلاءات الجماعية مع ما يورده الشيخ محمد الغزالي من أن السيرة لا تُفهم إلا باستحضار أثر الأحداث في تكوين الجماعة، لا باعتبارها أخبارًا عسكرية منفصلة.
ثالثًا: الاستنباط المنضبط
يمكن أن تستخرج من واقعة الخندق قاعدة تحليلية مفادها:
كلما كان التهديد مركبًا، احتاجت القيادة إلى تشخيص مبكر، واستشارة، وتوزيع للجهد، واستثمار للخبرات، وحضور قيادي، مع بقاء الثقة بالله أصلًا يحكم التعامل مع الأسباب.
لكن ينبغي عدم تجاوز الدليل.
فالسيرة لا تقدم لنا "منهجًا حديثًا لإدارة الكوارث" بمراحله الاصطلاحية المعروفة اليوم، ولا يصح أن نضع في كلام النبي ﷺ مفاهيم مثل "إدارة المخاطر المؤسسية" أو "خطة الطوارئ" ثم نزعم أنها وردت في السيرة.
إنما نستفيد من الحدث بالتناظر الوظيفي: هناك خطر، وهناك تشخيص، واستشارة، وخطة، وتنفيذ، ومشاركة، وصبر، ثم نتيجة.
رابعًا: التطبيق المعاصر
يمكن للمؤسسات اليوم أن تستفيد من هذا المعنى في إعدادها للأزمات، من خلال:

•رصد المخاطر قبل تحولها إلى أزمات.
•فتح قنوات الاستشارة أمام أصحاب الخبرة.
•إعداد خطط بديلة.
•توزيع المسؤوليات بدل تركيزها في شخص واحد.
•حضور القيادة وقت الشدة.
•التواصل الصادق مع العاملين.
•الجمع بين التخطيط والأمل، وبين الواقعية والثقة بالله.

وهذا لا يعني أن كل مؤسسة تواجه أزمة يجب أن "تحفر خندقًا"، وإنما يعني أن الاستجابة الحكيمة للخطر قد تتطلب وسيلة غير مألوفة إذا اقتضتها طبيعة الواقع.

المبحث الثالث: بناء الثقة واكتشاف القيادات الشابة

الصف الثاني في زماننا

أولًا: الرواية التاريخية الموثقة

من خصائص المجتمع النبوي أنه لم يكن قائمًا على شخص النبي ﷺ وحده في تنفيذ كل الأعمال؛ بل كانت المسؤوليات توزع على أصحابه، وكان الشباب منهم يتحملون أدوارًا كبيرة.

وقد ظهر ذلك في عدد من الصور، منها إرسال معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري إلى اليمن، وهو ما يدل على الثقة بقدراتهما وتحملهما مسؤولية دعوية وتعليمية وقضائية في بيئة جديدة.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لهما:

[يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا].

وهذا التوجيه يكشف أن التكليف لم يكن مجرد نقل أوامر، وإنما كان يتضمن مساحة من المسؤولية في تنزيل التوجيه على الواقع.

ومن النماذج كذلك أسامة بن زيد رضي الله عنهما، فقد ولاه النبي ﷺ قيادة جيش مع وجود كبار الصحابة فيه، وهذه واقعة ذات دلالة واضحة في موضوع الثقة بالقدرات الشابة، وإن كانت لا تعني أن السن لا قيمة له أو أن الشباب مقدمون دائمًا على غيرهم، وإنما تدل على أن الكفاءة والأهلية قد تكون معتبرة في توزيع المسؤوليات.

وتذكر كتب السيرة أن النبي ﷺ عقد لواء أسامة وأمره على الجيش، وكان في الجيش أبو بكر وعمر وغيرهما، ثم توفي ﷺ قبل خروج الجيش، فأنفذ أبو بكر بعث أسامة، وقد أورد ابن هشام وابن كثير هذه الواقعة في سياق أحداث أواخر العهد النبوي، كما تناولها ابن القيم ضمن هديه ﷺ في البعوث والقيادة.

وهذه الواقعة تزداد أهمية إذا قرئت إلى جانب ما ورد في السنة من النهي عن طلب الإمارة حرصًا عليها. قال رسول الله ﷺ:

[يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا].

رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ: [إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ]. رواه مسلم، كتاب الإمارة، حديث.(1733)

فالثقة في القيادة في المنهج النبوي لا تعني إطلاق المسؤوليات بلا ضوابط، ولا تعني أن الأكثر رغبة في السلطة هو الأحق بها؛ بل الأمر مرتبط بالأهلية والأمانة وحسن الاختيار.

ثانيًا: القراءة التربوية

إن صناعة القادة لا تبدأ يوم يُمنح الشخص منصبًا، بل تبدأ قبل ذلك بوقت طويل.

فالمسؤولية في المنهج النبوي كانت وسيلة لكشف القدرة وتنميتها.

الشخص الذي يُعطى مهمة ويتعلم كيف يتعامل معها، وكيف يتخذ القرار في حدود مسؤوليته، وكيف يرجع إلى الأصول عند الاشتباه، يصبح أقدر على حمل أعباء أكبر.

ولهذا فإن التربية النبوية لم تكن قائمة على إبقاء الصحابة في حالة اعتماد دائم على شخص النبي ﷺ، بل كانت تربيهم على القدرة على العمل وتحمل المسؤولية.

وهنا تتضح قيمة التفويض.

فالتفويض ليس مجرد نقل عبء من القائد إلى التابع، وإنما هو نقل مسؤولية مع إبقاء المرجعية والقيم والضوابط.

وهذا ما يجعل قصة أسامة بن زيد مهمة تربويًا: فالقائد الشاب لم يُختَر لأنه شاب فحسب، وإنما لأن هناك مؤشرات سابقة على أهليته، ولأن القيادة النبوية كانت تعرف كيف تمنح الثقة في موضعها.

وفي المقابل، يحذر حديث "لا تسأل الإمارة" من جانب آخر: الرغبة في القيادة ليست هي نفسها صلاحية القيادة.

ومن هنا لا يصح بناء نموذج قيادي على مجرد الحماس، أو الشعبية، أو الجرأة، أو الرغبة في الظهور.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن صياغة الاستنباط في صورة مبدأ:

استدامة الجماعة تتطلب ألا تحتكر القيادة الخبرة والمسؤولية، بل تعمل على اكتشاف أهلية الآخرين، وتدريبهم، ومنحهم مسؤوليات متدرجة تناسب قدراتهم.

وهذا استنباط معتبر من مجموع الممارسات النبوية، لكنه لا يعني أن "صناعة الصف الثاني" مصطلح نبوي.

كما أن السيرة لا تعطينا قاعدة تقول إن كل شاب أصلح للقيادة من الكبير، ولا أن التقدم في السن عائق أمام المسؤولية.

الأدق أن نقول: العبرة بالأهلية، والأمانة، والقدرة، وحسن الاختيار، وقد يكون الشباب من أهل الأهلية إذا ظهرت فيهم.

وهذا أكثر اتزانًا من تحويل تجربة أسامة رضي الله عنه إلى شعار عام يقدّم السن على الكفاءة.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في المؤسسات الدعوية والتعليمية والخيرية والمجتمعية، تظهر الحاجة إلى بناء جيل لا ينتظر غياب الجيل السابق حتى يبدأ.

ومن التطبيقات الممكنة:

١. إعطاء الشباب مسؤوليات حقيقية لا أدوارًا شكلية.
٢. التفويض المتدرج: مهمة محددة، ثم مساحة أوسع، ثم مسؤولية مستقلة.
٣. المراجعة والتقويم بدل المراقبة الخانقة.
٤. اكتشاف المواهب مبكرًا قبل الحاجة الملحة إليها.
٥. إشراك أصحاب الخبرة في تدريب الشباب بدل صناعة صراع أجيال.
٦. ربط المسؤولية بالأمانة والكفاءة لا بالحماس وحده.
٧. إعداد البدائل القيادية حتى لا تصبح المؤسسة رهينة لشخص واحد.

وهذه التطبيقات ليست نقلًا حرفيًا من مجتمع المدينة إلى المؤسسة الحديثة، وإنما هي محاولة للاستفادة من منطق التفويض والثقة والتدرج في المسؤولية كما يظهر في الوقائع النبوية.

الخلاصة:

تكشف السيرة المدنية أن بناء الجماعة لم يكن مرحلة منفصلة عن بناء الإنسان، بل كان امتدادًا له. فالإنسان الذي تربى في مكة على الإيمان والصبر والانضباط أصبح في المدينة قادرًا على المشاركة في بناء مجتمع، وتحمل مسؤولية، والعمل مع غيره، ومواجهة الخطر.

ومن خلال الوقائع التي تناولها هذا الفصل يمكن تسجيل ثلاث دلالات كبرى:

أولًا: الجماعة لا تلغي الفرد.

فالمؤاخاة والتعاون لم يحولا الصحابة إلى نسخ متشابهة، بل جمعا شخصيات وقدرات مختلفة حول مقصد واحد.

ثانيًا: القيادة لا تعني احتكار العمل.

فالنبي ﷺ كان يربي ويكلف ويفوض ويبعث، ويمنح أصحابه مساحات من المسؤولية تتناسب مع أهليتهم.

ثالثًا: المؤسسة لا تُختبر في أوقات الاستقرار فقط.

ففي الخندق ظهر معنى القيادة تحت الضغط: استشارة، واستفادة من الخبرة، وخطة، ومشاركة، وثبات، ثم توكل على الله.

وعليه، فإن الاستفادة المعاصرة من السيرة في مجال المؤسسات لا ينبغي أن تنطلق من البحث عن "نموذج إداري جاهز" داخل أحداث القرن الأول، وإنما من محاولة فهم المبادئ التي حكمت السلوك النبوي: الثقة، والمسؤولية، والتعاون، والاستفادة من الخبرة، والتفويض، وحسن اختيار الرجال، والثبات عند الأزمات.

وهذا هو الحد الفاصل بين فقه السيرة وبين إسقاط المصطلحات الحديثة عليها.

الهوامش والمراجع

1سورة الأحزاب، الآيتان: ٩-١١.

2البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، كتاب النكاح، حديث (5072).

3البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، حديث (٢٠٤٨)، في قصة مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وقد أوردت المصادر الحديثية الرواية بألفاظ متقاربة.

4مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الإمارة، حديث (١٧٣٣)، في النهي عن تولية من يطلب الإمارة.

5البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، في توجيه النبي ﷺ لأبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير بألفاظ متقاربة.

6صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ١٧٨ وما بعدها في بناء المسجد والمؤاخاة وتنظيم المجتمع المدني، وتؤكد بيانات الطبعة المنشورة أن الكتاب في مجلد واحد، وعدد صفحاته ٥٠٣ صفحات في هذه الطبعة.

7عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار ابن كثير، الطبعة الخامسة، ٢٠٢٢م، مجلد واحد.

8محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة المنقحة والمزيدة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٦ مجلدات، وتعرض هذه الطبعة مادة السيرة والبعوث والقيادة والهدي النبوي في سياقات متعددة.

9الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

10منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ولا سيما مباحث التربية على المسؤولية والجماعة والقيادة.

11البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، في بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبي موسى إلى اليمن.

12مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث (١٦٥٢)، في قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: "لا تسأل الإمارة..."؛ وحديث (١٧٣٣) في عدم تولية من يطلب العمل حرصًا عليه.

13ابن هشام، السيرة النبوية، الموضع المتعلق ببعث أسامة بن زيد في أحداث أواخر العهد النبوي؛ وانظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة، في بعث أسامة.

14ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، المواضع المتعلقة بأحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة.

15ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، مباحث البعوث والسرايا والولايات، وقد ثبت في النسخ المفهرسة من الكتاب عرضه لبعوث النبي ﷺ وولاته.

16الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م؛ ومنير الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، في مباحث بناء الجماعة والتربية على المسؤولية.

17صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، في عرض المرحلة المدنية وبناء المجتمع وتنظيمه.

18ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، دار ابن كثير، الطبعة الخامسة، ٢٠٢٢م، وتتميز هذه الطبعة بكونها طبعة حديثة محددة البيانات، في مجلد واحد، وهو ما يسهل توحيد الإحالة إليها في العمل النهائي.

19ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

الفصل السابع والعشرون: المجتمع والدولة المعاصرة

تمهيد

إذا كانت الفصول السابقة قد انتقلت بالسيرة من بناء الإنسان إلى بناء الجماعة، ومن الجماعة إلى المجتمع، فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذه المرحلة ليس: كيف كان المجتمع النبوي؟ فهذه مسألة تاريخية سبق أن عالجتها الفصول السابقة، وإنما السؤال هنا: ماذا يمكن أن نتعلم من التجربة النبوية في بناء المجتمع وإدارة الشأن العام في واقعنا المعاصر؟

وهذا السؤال يحتاج إلى قدر كبير من الاحتياط المنهجي؛ لأن الانتقال من التاريخ إلى الواقع ليس عملية نقل آلي؛ فالمجتمع النبوي نشأ في سياق تاريخي خاص، وكانت له مؤسساته وأعرافه وتحدياته، بينما تعيش المجتمعات المعاصرة في سياقات سياسية واقتصادية وقانونية مختلفة جذريًا، ومن ثم فالمقصود ليس البحث عن صورة جاهزة تُنسخ في كل زمان، وإنما الكشف عن المبادئ والمعاني والقيم التي ظهرت في الممارسة النبوية، ثم النظر في إمكان الإفادة منها في واقع مختلف.

وهنا تظل المرجعية الأساسية لهذا الكتاب هي ما قدمه الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة من قراءة واعية للحدث وربطه بمقاصده، وما عرضه صفي الرحمن المباركفوري في الرحيق المختوم من بناء تاريخي متسلسل لأحداث السيرة، وما بذله منير محمد الغضبان في المنهج التربوي للسيرة النبوية من إبراز البعد التربوي والقيادي والجماعي للأحداث، مع العودة إلى المصادر الأقدم، وفي مقدمتها ابن هشام وابن كثير، والاستفادة من ابن القيم وغيره في تفسير الدلالات العامة للسلوك النبوي.

وعلى هذا الأساس، يعالج هذا الفصل أربعة مجالات مترابطة: التكافل والعدالة الاجتماعية، وإدارة التنوع، وأخلاق السلطة والمواطنة، ثم القوة وعلاقتها بالردع والأخلاق.

المبحث الأول: إعادة التكافل والعدالة الاجتماعية

الزكاة والأوقاف في مواجهة الفقر

أولًا: الرواية التاريخية

لم يكن بناء المجتمع في المدينة منفصلًا عن بناء نظام أخلاقي واجتماعي يضبط علاقة الفرد بالمال وبغيره، فقد انتقل الإسلام في المدينة من مرحلة تأسيس العقيدة وتكوين الجماعة المؤمنة إلى مرحلة ظهرت فيها أحكام مالية واجتماعية أكثر تفصيلًا، وأصبحت الزكاة جزءًا من النظام العام للمجتمع المسلم.

ومن أوضح النصوص النبوية في ذلك حديث بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، حين قال له النبي ﷺ:

[إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ].

وهذا الحديث، وهو في صحيح البخاري، يكشف عن أكثر من حكم فقهي متعلق بالزكاة؛ فهو يربط العبادة ببناء المجتمع، ويحدد بصورة واضحة جهة أخذ الزكاة وجهة صرفها، وينبه العامل عليها إلى ألا يتجاوز في أخذه إلى أجود أموال الناس وأكرمها.

وتكشف السنة كذلك عن عناية خاصة بالفقراء الذين قد لا يظهر فقرهم للناس. قال النبي ﷺ:

[لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ].

وهذا المعنى مروي في صحيح البخاري، ويشير إلى أن معالجة الفقر لا ينبغي أن تتوقف على انتظار المحتاج حتى يتحول فقره إلى سؤال علني؛ فثمة فئات قد تحفظ كرامتها ولا تعرض حاجتها.

ولم تكن العناية بالمال مقتصرة على جمع الزكاة؛ بل قررت السنة كذلك مبدأ المسؤولية في العطاء، فقال رسول الله ﷺ:

[الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ].

وهو حديث صحيح في البخاري، وفيه ترتيب للمسؤوليات المالية يبدأ بمن تلزم الإنسان نفقتهم، كما يجمع بين قيمة البذل وقيمة الاستعفاف.

وفي الجانب الآخر، لم تكن الملكية الفردية في المجتمع النبوي ملغاة، ولم يكن التكافل قائمًا على إلغاء الفروق في الملكية، وإنما كان المال مرتبطًا بحقوق وواجبات، وكانت الزكاة فريضة محددة المصارف، كما جاءت أبواب الصدقة والوقف والإنفاق لتوسيع دائرة النفع العام.

ومن هنا يمكن فهم الأوقاف الإسلامية التي تطورت في المجتمع الإسلامي بعد العهد النبوي ضمن الإطار الأوسع للصدقة الجارية وحبس الأصل وتسبيل المنفعة. أما نسبة نظام مؤسسي كامل للأوقاف بصورته التاريخية المتأخرة إلى النبي ﷺ مباشرة فتحتاج إلى الاحتياط؛ لأن تطور الوقف كمؤسسة له تاريخ ممتد بعد عصر النبوة.

ثانيًا: القراءة التربوية

اللافت في التصور النبوي أن الفقر لم يُتعامل معه بوصفه مشكلة مالية مجردة، بل بوصفه مسألة تمس كرامة الإنسان وتماسك المجتمع.

فالحديث عن الزكاة لا يبدأ بالمال وينتهي به؛ وإنما يأتي المال داخل منظومة أوسع: عبادة، ومسؤولية، وعدالة، ورعاية للضعيف.

ولهذا جاءت العبارة النبوية: "تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ" لتربط بين حركة المال وحاجة المجتمع، وليس المقصود مجرد نقل مبلغ من يد إلى يد، وإنما إقامة حق معلوم للفقراء داخل النظام الاجتماعي.

كما أن النهي عن أخذ "كرائم الأموال" يكشف بعدًا أخلاقيًا مهمًا في ممارسة السلطة المالية؛ فحتى حين يكون للسلطة حق مشروع في أخذ المال، لا يعني ذلك أن لها أن تستغل حاجة الناس أو سلطتها لتأخذ أجود ما عندهم بغير حق.

وهنا يلتقي البعد الاقتصادي بالبعد التربوي: المجتمع العادل لا يُقاس فقط بما يجمعه من المال، بل بالطريقة التي يجمع بها، وبالجهة التي يصل إليها، وبالكرامة التي يحافظ عليها أثناء ذلك.

وهذا المعنى يتفق مع الاتجاه الذي يبرز في قراءة الشيخ محمد الغزالي للسيرة؛ إذ لا يكتفي بالنظر إلى الأحكام بوصفها إجراءات، وإنما يبحث عن الروح التي تجعل الحكم أداة لإصلاح الإنسان والمجتمع.

كما يبرز الغضبان في منهجه التربوي أن بناء الجماعة لا يكتمل بمجرد جمع الأفراد حول فكرة، بل يحتاج إلى علاقات عملية تقوم على المسؤولية والبذل والتكافل.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن، في ضوء هذه النصوص، صياغة مبدأ عام: لا يستقيم المجتمع المستقر إذا انفصلت العبادة عن المسؤولية الاجتماعية، أو إذا أصبح المال قوة منفصلة عن حق الضعفاء.

لكن هذا الاستنباط لا يعني أن كل نظام اقتصادي معاصر يجب أن ينسخ الصورة التاريخية نفسها؛ فالزكاة عبادة ذات أحكام شرعية ثابتة، أما أدوات تنظيم الاقتصاد، وأنظمة الضمان الاجتماعي، والمؤسسات الخيرية، وآليات إدارة الأوقاف، فهي مجالات تتغير بتغير الظروف ما دامت منضبطة بالأصول الشرعية.

ومن الخطأ كذلك تحويل التجربة التاريخية للوقف إلى وصفة مؤسسية واحدة؛ فالوقف يمكن أن تتنوع صوره ووسائله، بينما يبقى جوهره في حبس الأصل أو تخصيص المنفعة في وجوه البر بحسب الأحكام المعتبرة.

رابعًا: التطبيق المعاصر

في الواقع المعاصر، يمكن الإفادة من هذا المعنى في أربعة اتجاهات:

١. تطوير مؤسسات الزكاة بحيث تجمع بين الدقة المالية والوصول إلى المستحقين الحقيقيين.
٢. بناء قواعد بيانات تحفظ خصوصية الفقراء وتساعد المؤسسات على اكتشاف الفئات التي لا تطلب المساعدة.
٣. تطوير الأوقاف لتصبح أداة مستدامة في التعليم والصحة والإسكان والبحث العلمي وغيرها.
٤. الانتقال من معالجة الفقر بعد وقوعه إلى دعم التعليم والتأهيل وفرص العمل التي تساعد الإنسان على الخروج من دائرة الاحتياج.

وهذه تطبيقات معاصرة مستنبطة، وليست وصفًا لنظم مؤسسية كانت قائمة بهذه الصورة في المدينة النبوية.

المبحث الثاني: التعايش وإدارة التنوع

نموذج صحيفة المدينة في المجتمعات المتعددة

أولًا: الرواية التاريخية

عندما استقر النبي ﷺ في المدينة، لم يجد مجتمعًا متجانسًا من الناحية الدينية والاجتماعية والقبلية؛ بل وجد المهاجرين والأنصار، وفي المدينة جماعات يهودية، وبقايا علاقات قبلية قديمة، وتعددًا في الولاءات والمصالح.

ومن هنا جاءت الحاجة إلى تنظيم العلاقة بين مكونات المجتمع.

وتُعد الصحيفة المعروفة في المصادر باسم صحيفة المدينة من أهم النصوص التي تعكس هذا التنظيم، وقد أورد ابن هشام نصها ضمن أخبار الهجرة وبناء مجتمع المدينة، كما تناولها أهل السيرة والحديث والوثائق بدرجات متفاوتة من التفصيل.

والمنهج العلمي هنا يقتضي أمرين متلازمين: الاعتراف بأهمية الوثيقة في فهم التنظيم السياسي والاجتماعي المبكر للمدينة، وعدم إطلاق أحكام تاريخية قطعية من قبيل أنها "أول دستور في التاريخ" أو أنها تطابق مفهوم الدستور الحديث؛ فهذه أوصاف حديثة تحتاج إلى تعريف ومقارنة تاريخية دقيقة.

ومن مضامين الصحيفة أنها نظمت العلاقة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وأقرت التعاون في تحمل التبعات، كما نظمت العلاقة مع يهود المدينة في إطار العهد والالتزامات المتبادلة.

ويكشف هذا السياق أن المجتمع الجديد لم يُبنَ بإلغاء جميع الاختلافات الاجتماعية دفعة واحدة، وإنما بإقامة إطار من الحقوق والواجبات يضبط العلاقة بين مكوناته.

ثانيًا: من الأخوة الدينية إلى التنظيم الاجتماعي

كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إحدى الوسائل التي عالج بها النبي ﷺ آثار الهجرة؛ فلم يكن المهاجرون مجرد أفراد وصلوا إلى المدينة، بل أصبحوا جزءًا من جماعة جديدة.

وفي الوقت نفسه، لم تكن الأخوة الإسلامية تعني إلغاء بقية الروابط الاجتماعية والقانونية في المجتمع، وإنما جاءت ضمن بناء أوسع للعلاقات.

ومن المعاني النبوية الجامعة في هذا الباب قوله ﷺ: [لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ]. وقد رواه البخاري ومسلم، وفي رواية مسلم: "لأخيه أو لجاره."

والحديث في أصله يتحدث عن كمال الإيمان والعلاقة الأخلاقية بالآخر، لكنه يفتح بابًا مهمًا لفهم الأساس النفسي الذي يمكن أن يقوم عليه المجتمع المتماسك: أن يتجاوز الإنسان منطق المنافسة الأنانية إلى إرادة الخير للآخر.

وتتسع دائرة المسؤولية الأخلاقية في السنة لتشمل الجوار، فقد جاءت النصوص في التحذير من أذى الجار، مما يؤكد أن المجتمع لا يُبنى بالعلاقات السياسية وحدها، بل يبدأ من العلاقة اليومية بين الناس.

ثالثًا: التعايش ليس إلغاءً للاختلاف

من الأخطاء المنهجية أن تُقرأ صحيفة المدينة على أنها إعلان عن إلغاء الفروق الدينية أو القبلية بين سكان المدينة؛ فالوثيقة نفسها جاءت لتنظيم مجتمع توجد فيه اختلافات حقيقية.

والتعايش في التجربة النبوية لا يعني القول بأن جميع المعتقدات واحدة، ولا يعني إزالة الحدود بين الهويات الدينية، بل يعني إدارة الاختلاف داخل إطار من العهود والحقوق والواجبات.

وهذا المعنى ينسجم مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ * البقرة: ٢٥٦. كما قال سبحانه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ * الممتحنة: ٨.

فالآية لا تذيب الاختلاف العقدي، لكنها تضع التمييز المهم بين الاختلاف في الدين وبين العدوان.

رابعًا: العهد بوصفه أساسًا للاستقرار : من أهم ما تكشفه التجربة المدنية أن العلاقات بين الجماعات لا يمكن أن تستقر بمجرد النوايا الحسنة، وإنما تحتاج إلى عهود واضحة والتزامات معلومة وآليات لضبط الخلاف.

وهذه النقطة تظهر بصورة أكبر حين نتتبع أحداث المدينة اللاحقة؛ فقد تعامل النبي ﷺ مع العهود باعتبارها التزامات حقيقية، كما تعامل مع نقضها ضمن سياقاتها السياسية والعسكرية والقانونية.

ومن هنا فإن قراءة صحيفة المدينة لا ينبغي أن تكون قراءة احتفالية فقط، وإنما قراءة مؤسسية أيضًا: كيف انتقل مجتمع متعدد المكونات من مجرد التعايش القائم على العرف والقبيلة إلى علاقات أكثر تنظيمًا؟

وهذا الجانب مهم في قراءة الشيخ محمد الغزالي والمباركفوري للسيرة؛ فالسيرة عندهما ليست مجرد وقائع منفصلة، وإنما سلسلة انتقالات من حالة اجتماعية إلى أخرى. أما الغضبان فيضيف إلى ذلك أن التربية الجماعية لا تكتمل إلا عندما تتحول المبادئ إلى سلوك وعلاقات ونظم.

خامسًا: الاستنباط المنضبط

يمكن استخلاص مبدأ عام:

إدارة التنوع لا تقوم على إلغاء الاختلاف، وإنما على تنظيمه ضمن حقوق وواجبات وعدالة وعهود واضحة.

وهذا المبدأ أوسع من صحيفة المدينة نفسها، ولذلك ينبغي ألا يُقال إن كل نظام للتنوع المعاصر هو "تطبيق للصحيفة"؛ فهذا تحميل للتاريخ أكثر مما يحتمل.

والأدق أن نقول: إن التجربة النبوية تقدم نموذجًا تاريخيًا لإدارة مجتمع متعدد المكونات، ويمكن للباحث المعاصر أن يستفيد من منطقها العام في بناء نظم حديثة تراعي خصوصيات الدولة والقانون والمواطنة.

سادسًا: التطبيق المعاصر

يمكن الإفادة من هذا المعنى في المجتمعات الحديثة من خلال:

- ترسيخ المساواة أمام القانون.
- حماية الحقوق الدينية والمدنية وفق النظام القانوني المعتمد.
- إدارة الخلاف من خلال مؤسسات واضحة بدل تحويله إلى صراع اجتماعي.
- بناء ثقافة المواطنة التي تجعل الاختلاف الديني أو العرقي أو الثقافي غير مانع من التعاون في المصالح العامة.
- تحويل التعدد من سبب للتنازع إلى مجال للتعاون على المشتركات الإنسانية والوطنية.

وهذه كلها اجتهادات تطبيقية معاصرة، وليست ادعاء بأن المدينة النبوية عرفت الدولة الحديثة بمؤسساتها ومفاهيمها القانونية الحالية.

المبحث الثالث: أخلاق السلطة والمواطنة

المشاركة والمسؤولية العامة

أولًا: القيادة في المجتمع النبوي

حين انتقلت الدعوة إلى المدينة، لم يعد النبي ﷺ يتعامل مع جماعة صغيرة مضطهدة فقط، بل أصبح قائدًا لمجتمع تتعدد فيه العلاقات والمسؤوليات.

وهذا الانتقال لا يعني أن مفهوم السلطة في المدينة كان نسخة مطابقة لمفهوم الدولة الحديثة، وإنما يعني أن النبي ﷺ تولى مسؤوليات عامة متعددة، من القضاء، وتنظيم العلاقات، وإدارة السلم والحرب، وإرسال العمال والولاة، واستقبال الوفود، وتنظيم المال العام.

وقد ارتبطت القيادة في السنة بالمسؤولية، لا بالامتياز الشخصي. قال رسول الله ﷺ:

[كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ].

فالقيادة في هذا الحديث ليست مجرد سلطة إصدار الأمر، وإنما أمانة ومسؤولية ومحاسبة.

وهذا المعنى يتسق مع أصل قرآني جامع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ * النحل: ٩٠.

ثانيًا: العدل لا يتوقف على الانتماء

من أهم المعاني التي ينبغي إبرازها في هذا السياق أن العدالة النبوية لم تكن مجرد عدالة داخل الجماعة المؤمنة.

وقد جاء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ * المائدة: ٨.

فالخصومة لا تبيح الظلم، والانتماء لا يبرر التحيز.

ويؤكد ذلك توجيه نبوي آخر في معالجة الظلم داخل الجماعة نفسها. قال رسول الله ﷺ [انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا].

فقال الصحابة: يا رسول الله، هذا أنصره مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ فقال رسول الله ﷺ: [تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ].

أي تمنعه من الظلم، والحديث في صحيح البخاري، وفيه معنى بالغ الأهمية: نصرة القريب أو الأخ لا تعني حمايته من العدالة، بل قد تكون نصرته الحقيقية في منعه من الظلم.

وهذا يضع حدًا واضحًا للانتماء العصبي؛ فالولاء الأخلاقي لا يتحول إلى حصانة من المسؤولية.

ثالثًا: السلطة في التصور النبوي أمانة

تتكرر في السنة معاني المسؤولية والمحاسبة، ولا تظهر السلطة بوصفها امتيازًا يعلو بصاحبه على الناس.

ومن ذلك قوله ﷺ:

[وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا].

وهو حديث صحيح في مسلم، وفي رواياته ذكر العبد الحبشي.

والدلالة الظاهرة في سياق الحديث هي أن معيار الطاعة هنا ليس النسب أو اللون أو المكانة الاجتماعية، وإنما قيام القائد بما أُوكل إليه وفق كتاب الله.

ومن المهم ألا يُنقل هذا الحديث مباشرة إلى نظام سياسي معاصر وكأنه يقدم صيغة دستورية مكتملة؛ فالحديث يتحدث عن مبدأ في الطاعة والقيادة، ولا يضع نظامًا انتخابيًا حديثًا أو شكلًا مؤسسيًا للدولة.

وهنا تظهر قيمة التمييز بين المبدأ النبوي والأداة التاريخية أو السياسية.

رابعًا: الشورى والمسؤولية العامة

كانت الشورى حاضرة في حياة النبي ﷺ في مواقع متعددة، كما ظهر ذلك في بدر وأحد والخندق والحديبية وغيرها، مع اختلاف طبيعة كل موقف.

والقرآن نفسه أثنى على المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ * الشورى: ٣٨.

كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ * آل عمران: ١٥٩.

ولا يصح أن يُفهم من الشورى النبوية أنها مساوية تمامًا لمفهوم الديمقراطية الحديثة؛ فالنظامان نشآ في سياقين مختلفين، ولكل منهما بنيته الفكرية والمؤسسية.

لكن يمكن أن نستخلص من الممارسة النبوية معنى أوسع: أن تدبير الشأن العام لا ينبغي أن يقوم على استبداد الرأي، وأن أهل الخبرة والرأي لهم مكان معتبر في صناعة القرار، وأن القائد الناجح لا يرى الاستماع إلى الآخرين انتقاصًا من سلطته.

خامسًا: الاستنباط المنضبط

من مجموع هذه النصوص والمواقف يمكن صياغة المبدأ الآتي:

كل سلطة تستمد مشروعيتها الأخلاقية من قيامها بالمسؤولية والعدل، لا من مجرد قدرتها على إصدار الأوامر.

وهذا الاستنباط يمكن الإفادة منه في المجتمعات المعاصرة في الحديث عن النزاهة، والمساءلة، والشفافية، وتوزيع المسؤوليات، واحترام القانون، ومحاربة المحاباة.

لكن ينبغي التوقف عند حدود الاستنباط: فالسيرة لا تقدم لنا نظامًا انتخابيًا حديثًا مفصلًا، ولا نموذجًا حزبيًا، ولا برلمانًا بالمعنى المعاصر، ولا تحدد شكل الدولة القومية الحديثة.

لذلك لا يصح أن ننسب إلى النبي ﷺ نظامًا سياسيًا معاصرًا لم يوجد في عصره، كما لا يصح في المقابل أن نزعم أن مبادئ العدل والشورى والمسؤولية لا علاقة لها بالشأن السياسي المعاصر.

سادسًا: التطبيق المعاصر

يمكن أن تتحول هذه المبادئ إلى مجموعة من القيم الحاكمة للمؤسسات المعاصرة:

- أن تكون الوظيفة العامة تكليفًا لا امتيازًا.
- أن يكون المسؤول قابلًا للمساءلة.
- أن تقدم الكفاءة والأمانة على القرابة والمحسوبية.
- أن تُبنى القرارات الكبرى على التشاور والخبرة.
- أن يكون القانون فوق الأهواء الشخصية.
- أن يُنظر إلى المواطن باعتباره صاحب حقوق وعليه واجبات، لا مجرد تابع للسلطة.

وهنا يصبح مفهوم المواطنة ترجمة معاصرة لمجموعة من المسؤوليات والحقوق المدنية، وليس مصطلحًا ينبغي إسقاطه حرفيًا على مجتمع المدينة.

المبحث الرابع: القوة بين الردع والأخلاق

العلاقات الدولية والحرب والسلم اليوم

أولًا: القوة في السيرة النبوية

لم تكن الدولة النبوية مجتمعًا منعزلًا عن محيطه، بل دخلت في علاقات مع قوى وجماعات مختلفة، وشهد العهد المدني معاهدات وحروبًا وهدنًا ومراسلات ووفودًا.

وهنا ينبغي تصحيح صورتين متقابلتين:

الأولى: تصوير السيرة على أنها سلسلة حروب لا تكاد تعرف غير المواجهة.

والثانية: تصويرها وكأن القوة لم تكن عنصرًا من عناصر حماية المجتمع.

والصواب أن المجتمع النبوي عرف الحرب باعتبارها جزءًا من واقع تاريخي وسياسي، لكنه لم يجعل الحرب غاية في ذاتها، كما لم يجعل القوة منفصلة عن الأخلاق والعهد والمسؤولية.

والقرآن يقرر مبدأ واضحًا في العلاقة مع من يميل إلى السلم:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ * الأنفال: ٦١.

فالاستعداد للقوة لا يعني رفض السلام، كما أن قبول السلام لا يعني إلغاء القدرة على الدفاع.

ثانيًا: القوة ليست قيمة مستقلة

القوة في التصور الإسلامي ليست فضيلة لمجرد كونها قوة؛ قيمتها تتحدد بالغاية التي تستخدم فيها وبالحدود التي تضبطها.

ولهذا جاء القرآن: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ * المائدة: ٨.

وهذا المبدأ مهم للغاية عند قراءة العلاقات الدولية في السيرة؛ فالخصومة لا تلغي الأخلاق.

وفي السنة جاء النهي عن استهداف من لا يشاركون في القتال، وهو معنى ثابت في جملة من الروايات الواردة في أبواب الجهاد والسير، كما جاءت أحكام العهود والمواثيق لتمنع تحويل الحرب إلى حالة من الفوضى الأخلاقية.

ومن ثم فإن القوة النبوية لم تكن قوة منفلتة، وإنما قوة محكومة بالشرع والعهد والغاية والعدل.

ثالثًا: الوفاء بالعهد

يكتسب العهد في المجتمع النبوي أهمية خاصة؛ لأن العلاقة بين الجماعات والدول لا يمكن أن تستقر إذا فقدت الثقة في المواثيق.

والقرآن يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا﴾ * الإسراء: ٣٤.

كما أن السيرة تقدم نماذج متعددة للعهود والصلح، وفي مقدمتها صلح الحديبية الذي سبق أن تناولناه بالتفصيل.

واللافت أن النبي ﷺ قبل في الحديبية صيغة تفاوضية لم تكن مرضية لجميع أصحابه في لحظتها، لكن هذا لا يعني أن التنازل أصبح قيمة مطلقة، بل كان قرارًا مرتبطًا بسياق معين، وبمصلحة تقديرية، وبعهد محدد. ومن هنا فإن الدرس ليس: "تنازل دائمًا"، ولا "لا تتنازل أبدًا"، وإنما:

تُقدَّر المرونة السياسية بقدر ما تحفظ المقاصد والحقوق ولا تتحول إلى تفريط في الثوابت أو خيانة للعهود.

رابعًا: الردع لا يعني العدوان

قد تحتاج الدولة إلى قوة تحمي أمنها وتمنع الاعتداء عليها، لكن امتلاك القوة لا يجعل استعمالها مشروعًا في كل حال.

والقرآن يقول:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ * الأنفال: ٦٠.

والآية في سياق الاستعداد، ولا يصح اختزالها في الدعوة إلى الحرب؛ إذ تأتي بعدها مباشرة آية السلم:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ * الأنفال: ٦١.

وهذا الجمع بين الآيتين مهم في الفهم: الاستعداد للقوة قد يكون وسيلة للردع وحماية المجتمع، لكنه لا يلغي مشروعية السلم حين تتوافر أسبابه.

خامسًا: من السيرة إلى العلاقات الدولية المعاصرة

عند الانتقال إلى العصر الحديث يجب أن نكون أكثر احتياطًا؛ لأن العلاقات الدولية اليوم تحكمها دول ذات سيادة، وقوانين ومعاهدات دولية، ومنظمات ومؤسسات متعددة الأطراف.

ولهذا لا يجوز أن يقال إن كل قرار عسكري معاصر يمكن تبريره مباشرة بحادثة من السيرة، كما لا يصح استخدام أحداث الحروب النبوية لتبرير العنف الفردي أو الجماعي خارج سلطة القانون.

فالحرب في التجربة النبوية كانت مرتبطة بقيادة المجتمع وتنظيمه، ولم تكن دعوة للأفراد إلى أن ينصب كل واحد منهم نفسه صاحب قرار في الحرب والسلم.

سادسًا: الاستنباط المنضبط

يمكن استخلاص أربعة مبادئ عامة من هذا المجال:

أولًا: القوة وسيلة لحماية المصالح المشروعة وليست غاية مستقلة.

ثانيًا: الاستعداد للقوة لا يتعارض مع السعي إلى السلام.
ثالثًا: العهد والالتزام الأخلاقي عنصران أساسيان في استقرار العلاقات بين الجماعات.
رابعًا: الخصومة لا ترفع واجب العدل.
وهذه المبادئ أقرب إلى ما يمكن أن يسمى الأخلاق السياسية للقوة، لا إلى وصفة عسكرية جاهزة.
سابعًا: التطبيق المعاصر
في العلاقات الدولية المعاصرة، يمكن أن يظهر هذا الفهم في:
•بناء القدرات الدفاعية لحماية المجتمع، لا لتحويل القوة إلى وسيلة للعدوان.
•احترام المعاهدات والاتفاقات الدولية المعتبرة.
•تقديم الوسائل السلمية والدبلوماسية متى أمكن تحقيق المقصود بها.
•عدم استهداف المدنيين أو تحويل الخلاف السياسي إلى كراهية جماعية.
•ربط استخدام القوة بقرار مؤسسي وقانوني مسؤول.
•إدراك أن قوة الدولة لا تقاس بقدرتها العسكرية وحدها، بل أيضًا بقدرتها على بناء الثقة والوفاء بالعهود وحماية الحقوق.
وهذه التطبيقات ليست أحكامًا تاريخية من السيرة، وإنما قراءة معاصرة لمبادئ أخلاقية يمكن استلهامها من التجربة النبوية.
خاتمة الفصل
تكشف السيرة المدنية، عند قراءتها بعيدًا عن الاختزال، أن بناء المجتمع لم يكن مرحلة منفصلة عن بناء الإنسان، وإنما كان امتدادًا له في مجال أوسع.
فالإنسان الذي تربى في مكة على التوحيد والصبر والمسؤولية، أصبح في المدينة عضوًا في جماعة، ثم مواطنًا في مجتمع متعدد المكونات، ثم صاحب مسؤولية في الشأن العام، ثم جزءًا من مجتمع يحتاج إلى اقتصاد عادل، ونظام اجتماعي متماسك، وقيادة مسؤولة، وقدرة على حماية نفسه دون أن تتحول القوة إلى انفلات أخلاقي.
ومن هنا يمكن جمع الدروس الأربعة لهذا الفصل في منظومة واحدة:
العدالة تحفظ المجتمع من التفكك، والتكافل يحفظ الإنسان من السقوط، وتنظيم التنوع يحفظ المجتمع من الصراع، وأخلاق السلطة والقوة تحفظ الدولة من التحول إلى مجرد قدرة مادية.

لكن الأهم منهجيًا هو ألا نقفز من هذه المعاني إلى نتائج لم تقل بها السيرة؛ فالسيرة ليست كتابًا في الاقتصاد الحديث، ولا دستورًا لدولة قومية معاصرة، ولا نظرية جاهزة للعلاقات الدولية. إنها تجربة تاريخية نبوية فريدة، تحمل مبادئ وقيمًا ومواقف، ويمكن للباحث أن يستخرج منها ما يسنده النص والحدث، ثم يجتهد في تنزيل تلك المعاني على واقعه دون أن يخلط بين ما وقع في المدينة، وما فهمناه منه، وما نقترحه نحن اليوم.

وهذا التفريق ليس احتياطًا أكاديميًا فحسب؛ بل هو جزء من الأمانة في التعامل مع السيرة؛ فكلما ازداد احترامنا لخصوصية التجربة النبوية، أصبح استلهامها للواقع أكثر نضجًا وأبعد عن التكلف.

الهوامش

1سورة النحل، الآية ٩٠.

2البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم (١٣٩٥)، وفيه بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن وبيان أخذ الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء.

3البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، حديث رقم.(1458)

4البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، حديث رقم (١٤٧٩)، في بيان حقيقة المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يسأل الناس.

5البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، حديثا1427) ، ١٤٢٨.(

6الشيخ محمد الغزالي، محمد، فقه السيرة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الحديثة الأولى، ٢٠٠٠م.

7المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، الرياض: دار السلام، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، والنسخة المفهرسة من هذه الطبعة في مجلد واحد، ٥٠٣ صفحات.

8الغضبان، منير محمد، المنهج التربوي للسيرة النبوية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى؛ وتندرج ضمن السلسلة مجلدات متعددة في التربية القيادية والجماعية والسياسية والجهادية.

9ابن هشام، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ، ضمن المواضع المتعلقة بالهجرة وبناء مجتمع المدينة وصحيفة المدينة.

10ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، المواضع الخاصة بالسيرة النبوية والعهد المدني، مع مراعاة اختلاف ترقيم الصفحات باختلاف الطبعات.

11مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم.(45)

12البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، حديث رقم.(2444)

13البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، حديث رقم (٢٤٤٢)، في قوله ﷺ: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه."

14مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم (١٨٣٨)، وفيه: "ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا."

15سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

16سورة الممتحنة، الآية ٨.

17سورة المائدة، الآية ٨.

18ابن هشام، السيرة النبوية، المواضع المتعلقة بصحيفة المدينة وتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار ويهود المدينة.

19ابن القيم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، طبعة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، خمسة أجزاء بحسب بيانات النسخة المفهرسة.

20سورة الشورى، الآية ٣٨.

21سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

22سورة النحل، الآية ٩٠.

23سورة المائدة، الآية ٨.

24سورة الأنفال، الآية ٦٠.

25سورة الأنفال، الآية ٦١.

26سورة الإسراء، الآية ٣٤.

27الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، المواضع المتعلقة ببناء المجتمع المدني وتنظيم العلاقات السياسية والاجتماعية.

28المباركفوري، الرحيق المختوم، المواضع المتعلقة بالهجرة، وبناء الدولة والمجتمع المدني، والعهود والغزوات والمعاهدات.

29الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، ولا سيما مجلدات التربية القيادية والجماعية والسياسية، في المواضع التي تعالج بناء الجماعة والقيادة وإدارة المجتمع، وتثبت الفهارس الببليوغرافية صدور التربية القيادية في أربعة مجلدات ضمن السلسلة عن دار الوفاء سنة ١٩٩٨م.

30ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، المواضع المتعلقة بهدي النبي ﷺ في المعاهدات والسياسة الشرعية والجهاد والسلم.

المبحث الأول: العلم والمعرفة في بناء النهضة

أولًا: الرواية التاريخية والشاهد

لم تبدأ الرسالة الإسلامية بشعار سياسي، ولا بمشروع اقتصادي، ولا بتنظيم عسكري؛ وإنما بدأ أول خطاب نبوي بلفظ شديد الدلالة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ * العلق: ١-٥.

وقد روى البخاري ومسلم حديث بدء الوحي، وفيه أن جبريل عليه السلام جاء النبي ﷺ وهو في غار حراء فقال له: [اقْرَأْ]، ثم عاد فقال له: [اقْرَأْ]، ثم جاءه بالآيات الأولى من سورة العلق، وفي الرواية نفسها تصف خديجة رضي الله عنها زوجها بما عرفت من أخلاقه قبل البعثة، وتذهب به إلى ورقة بن نوفل، فتتصل بداية الوحي بالتثبت والعلم ومعرفة أهل الخبرة[1].

وهذا السياق مهم؛ لأن المعرفة في التصور الإسلامي لم تظهر منفصلة عن الإيمان، كما أن الإيمان لم يُقدَّم بوصفه نقيضًا للمعرفة؛ فالأمر بالقراءة جاء مقترنًا باسم الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ *، وجاء الحديث عن الخلق، والقلم، والتعليم.

ثم جاءت التربية القرآنية المتدرجة، فكان من وظائف الرسول ﷺ أن يتلو الآيات، ويزكي، ويعلم الكتاب والحكمة، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ * الجمعة: ٢.

ومن اللافت أن التعليم جاء ضمن الوظائف الأصلية للرسالة، لا باعتباره نشاطًا هامشيًا.

ولم يكن بناء الصحابة بناءً معرفيًا مجردًا؛ فقد كان المسجد النبوي بعد الهجرة مركزًا للتعلم والعبادة والاجتماع، وكان الصحابة يتلقون القرآن والسنة والتوجيه النبوي، ثم يحملون ما تعلموه إلى غيرهم.

ومن الشواهد البارزة قول النبي ﷺ: [خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ][2].

وفي الصحيح كذلك: [بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً][3]. وهذان النصان لا يقدمان المعرفة باعتبارها امتيازًا فرديًا، وإنما يربطانها بالتعلم والتعليم والتبليغ.

وقد أدرك علماء السيرة أن بناء الإنسان كان سابقًا على اتساع المجتمع؛ فالشيخ محمد الغزالي، في قراءته للسيرة، يلح على أن التربية الإيمانية كانت أساسًا لتكوين الجيل الذي حمل الرسالة بعد ذلك، بينما يعرض المباركفوري مراحل الدعوة وتكوين الجماعة، ويبرز الغضبان البعد التربوي في تكوين الشخصيات التي تحولت من أفراد إلى حملة رسالة[4].

ولا يعني هذا أن السيرة تقدم نظرية تفصيلية في "البحث العلمي" بالمعنى المؤسسي المعاصر؛ فهذا تحميل لها ما لا تحتمل. لكنها تقدم شواهد قوية على أن التعلم والتعليم كانا جزءًا أصيلًا من عملية بناء المسلم والمجتمع المسلم.

ثانيًا: القراءة التربوية

الملاحظة الأهم هنا أن المعرفة لم تُفصل عن بناء الشخصية.

فالمقصود لم يكن أن يعرف الإنسان أكثر فحسب، وإنما أن يتحول ما يعرفه إلى بصيرة وسلوك ومسؤولية، ولهذا جاء التعليم في السياق القرآني ملازمًا للتزكية.

وهذه الثنائية بالغة الأهمية في بناء الحضارة: معرفة بلا تزكية قد تنتج قدرة بلا أخلاق، وتزكية بلا معرفة قد تنتج حسن نية بلا كفاءة.

والسيرة، في هذا الجانب، لا تقدم لنا عالمًا منفصلًا عن الواقع؛ بل تقدم جيلًا تعلم ثم تحرك، وسمع ثم بلغ، وفهم ثم تحمل المسؤولية.

ومن هنا يمكن فهم كثرة الشخصيات التي برزت بعد وفاة النبي ﷺ في التعليم والقضاء والإفتاء والإدارة والقيادة؛ فالتربية النبوية لم تكن تهدف إلى إبقاء الصحابي متلقيًا دائمًا، وإنما إلى أن يصبح قادرًا على حمل جزء من الأمانة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن، بناءً على هذه الشواهد، صياغة مبدأ تربوي مفاده:

لا يمكن لمشروع طويل الأثر أن يستغني عن بناء المعرفة لدى أفراده وربطها بالمسؤولية الأخلاقية.

لكن ينبغي ضبط هذا الاستنباط بثلاثة أمور:

أولًا: لا يصح القول إن السيرة قدمت "نظرية حضارية في البحث العلمي" بالمفهوم الحديث.

ثانيًا: لا يصح اختزال العلم في العلوم الدينية وحدها؛ فالاستفادة المعاصرة تقتضي توسيع دائرة المعرفة النافعة بحسب حاجات المجتمع، مع بقاء المرجعية القيمية الإسلامية.

ثالثًا: لا تكفي كثرة المعلومات لصناعة النهضة؛ فالمعرفة التي لا تتحول إلى عمل ومسؤولية تبقى محدودة الأثر.

ضابط المبدأ

العلم في المشروع الحضاري وسيلة لبناء الإنسان، وترشيد القرار، ونقل الخبرة، وصناعة الأثر؛ وليس مجرد تراكم للمعلومات.

التطبيق المعاصر

في واقعنا، يعني ذلك أن الاستثمار في التعليم لا ينبغي أن ينحصر في الحصول على الشهادة، بل يتجه إلى بناء القدرة على التفكير، والبحث، وحل المشكلات، وإنتاج المعرفة، ونقلها إلى الأجيال.

ومن ثم فإن المدرسة والجامعة ومراكز البحث والمكتبات والمنصات التعليمية ليست مجرد مرافق خدمية؛ وإنما يمكن أن تكون أدوات لبناء الإنسان إذا اقترنت المعرفة فيها بالمسؤولية والقيم.

وهذا استنباط معاصر من المعاني العامة في السيرة، وليس وصفًا لمؤسسات حديثة بأنها كانت موجودة في العصر النبوي.

المبحث الثاني: صُنّاع الأجيال

أولًا: الرواية التاريخية والشاهد

لم يكن النبي ﷺ يربي جيلًا يعيش معه فقط، وإنما كان يبني رجالًا ونساءً يحملون الرسالة ويعلمون من بعده.

ومن أوضح النصوص في ذلك قول النبي ﷺ:

[نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ][5].

فالحديث يرسم سلسلة واضحة: سماع → حفظ → فهم/حمل → تبليغ → انتقال الأثر إلى جيل آخر.

وكان النبي ﷺ يبعث أصحابه إلى التعليم والدعوة، ومن ذلك بعث معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن، فقال لهما:

[يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا][6].

وفي هذا التوجيه تظهر مسؤولية من يُكلَّف بتعليم الناس ودعوتهم؛ فالمعرفة وحدها لا تكفي، بل لا بد من حسن عرضها، ومراعاة أحوال المتلقين، والتعاون بين القائمين على المهمة.

ومن النماذج البارزة كذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي قال له النبي ﷺ:

[يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ ..، ومَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ...][7].

وهنا لا يقتصر التعليم على إعطاء معلومة، بل يأتي في صورة سؤال، وتحفيز للعقل، ثم تصحيح للمفهوم، وهو أسلوب تربوي يتكرر في السنة.

كما يظهر إعداد الجيل في توزيع المسؤوليات وتقديم بعض الصحابة في ميادين مختلفة، بحسب قدراتهم واستعداداتهم.

ولذلك فإن ما ترويه كتب السيرة من انتقال الصحابة من مرحلة التلقي في مكة إلى أدوار التعليم والدعوة والقيادة في المدينة وما بعدها، يكشف عن تربية تتجه إلى تحويل المتربي إلى صاحب رسالة ومسؤولية، ويبرز الشيخ محمد الغزالي والغضبان هذا المعنى عند حديثهما عن التربية النبوية وبناء الشخصيات، كما تعرض كتب السيرة والتراجم نماذج واسعة لهذا الانتقال[8].

ثانيًا: القراءة التربوية

من أكبر أخطاء التربية أن يظل المربي مركزًا دائمًا لكل شيء.

أما التربية التي صنعتها السيرة، فكان من نتائجها أن أصبح المتعلم قادرًا على التعليم، والجندي قادرًا على القيادة، والداعية قادرًا على الوصول إلى بيئات جديدة، والعالم قادرًا على نقل العلم.

وهذا لا يعني أن النبي ﷺ "تخلى" عن التربية، بل يعني أن التربية نجحت في صناعة أشخاص قادرين على تحمل مسؤوليات مستقلة ضمن الإطار العام للرسالة.

وهنا تظهر قيمة اكتشاف المواهب وتوزيع المسؤوليات.

فليس المطلوب أن يكون جميع أفراد الجماعة نسخة واحدة من القائد، وإنما أن يحمل كل واحد نصيبه من الأمانة بحسب قدرته.

وهذا ما يجعل صناعة الأجيال مختلفة عن صناعة الأتباع؛ فالتابع قد ينجح في تنفيذ ما يُطلب منه، أما صاحب الرسالة فيستطيع أن يفهم الغاية، ويتحمل المسؤولية، ويواصل الطريق عند غياب القائد.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن استنباط قاعدة تربوية محدودة:

استدامة أي مشروع ترتبط بقدرته على تحويل التربية إلى أجيال جديدة من أصحاب الكفاءة والمسؤولية.

لكن لا ينبغي أن ننسب إلى النبي ﷺ مصطلحات الإدارة الحديثة مثل "إدارة المواهب" أو "التخطيط للصف الثاني" إلا على سبيل الوصف التحليلي المعاصر، لا باعتبارها مصطلحات تاريخية وردت في السيرة.

ضابط المبدأ

التربية الناجحة لا تكتفي بصناعة الصالح، وإنما تسعى إلى أن يصبح الصالح قادرًا على الإصلاح بحسب طاقته.

التطبيق المعاصر

في المؤسسات التعليمية والدعوية والاجتماعية، ينبغي ألا يكون النجاح مرتبطًا بشخص واحد؛ فإذا غاب المؤسس انهار المشروع، دل ذلك على ضعف في نقل الخبرة وبناء القيادات.

أما المشروع الناضج، فيسعى إلى:

- تدريب الجيل الجديد.
- نقل الخبرات.
- إتاحة فرص المسؤولية تدريجيًا.

•اكتشاف القدرات المختلفة.
•تعليم النقد والمراجعة.
•بناء القدرة على العمل دون اعتماد دائم على شخصية واحدة.
وهذه تطبيقات معاصرة مستفادة من المبدأ، وليست وصفًا لما كان يسمى بهذه المصطلحات في المجتمع النبوي.

المبحث الثالث: استمرارية المشروع — من أفراد إلى أمة ذات رسالة

أولًا: الرواية التاريخية والشاهد

من أعظم ما تكشفه السيرة أن المشروع الذي بدأ في مكة لم يكن متعلقًا بحياة الأشخاص وحدها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ * آل عمران: ١٤٤.

وقد كان نزول هذه الآية في سياق عظيم بعد إشاعة مقتل النبي ﷺ يوم أحد، فوقع الاضطراب في بعض الصحابة، ثم جاء التذكير بأن الرسالة لا تقوم على بقاء شخص، وأن موت الرسول لا يعني موت الدين.

وهذا المعنى ظهر بأوضح صورة بعد وفاة النبي ﷺ.

ففي الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قام بعد وفاة النبي ﷺ فقال: [مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ].

ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ .

قال أنس رضي الله عنه: [فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ يَوْمَئِذٍ، فَأَخَذَهَا النَّاسُ مِنْهُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا][9].

وهذه اللحظة تكشف بوضوح أن أعظم اختبار لاستمرارية المشروع هو لحظة غياب المؤسس.

ولم تنتهِ الأمة بوفاة النبي ﷺ، بل استمرت الرسالة، وجمع أبو بكر رضي الله عنه الناس على الثبات، ثم استمرت الخلافة الراشدة، وانتقل القرآن والسنة والعلم والدعوة إلى أجيال متتابعة.

وقد أشار ابن كثير عند تفسير آية آل عمران إلى هذا المعنى، مبينًا أن المقصود ألا يجعل المؤمنون ارتباطهم بالدين متعلقًا بشخص الرسول ﷺ، بل بالله تعالى وبما جاء به الرسول[10].

كما أن ابن القيم، في حديثه عن هداية الصحابة ومنهجهم، يبرز انتقالهم من التلقي عن النبي ﷺ إلى حمل الهداية ونشرها، وهو معنى يتصل باستمرار الرسالة بعد الجيل الأول[11].

ثانيًا: القراءة التربوية

تكشف هذه الواقعة أن أعظم اختبار لأي مشروع ليس لحظة صعوده، وإنما قدرته على الاستمرار عندما تتغير الظروف ويغيب الأشخاص.

لقد كان الصحابة يحبون النبي ﷺ حبًا عظيمًا، لكن التربية النبوية لم تجعلهم أسرى لشخصه؛ بل ربطتهم بالله والوحي والرسالة.

وهذا فارق جوهري بين المشروع الرسالي والمشروع الشخصاني.
المشروع الشخصاني ينهار غالبًا إذا غاب صاحبه؛ لأن الفكرة مرتبطة بشخصه، والقرار مرتبط به، والمعرفة محصورة عنده، والناس ينتظرون منه كل شيء.
أما المشروع الذي تربى أفراده على الرسالة، فإنه يستطيع أن يستمر مع تغير الأشخاص، لأن الأصول واضحة، والمسؤوليات موزعة، والخبرة تنتقل، والجيل الجديد قادر على حمل الأمانة.
ومن هنا فإن وفاة النبي ﷺ، مع كونها أعظم مصاب عرفه الصحابة، كانت في الوقت نفسه لحظة كشفت عمق التربية التي تلقوها.
ثالثًا: الاستنباط المنضبط
يمكن صياغة المبدأ المستنبط على النحو الآتي:
استمرارية الأثر لا تتحقق بمجرد قوة التأسيس، وإنما بقدرة الجيل المؤسس على نقل الرسالة والمعرفة والمسؤولية إلى من بعده.
وهذا استنباط تربوي من مجموع الشواهد، وليس قانونًا شرعيًا مستقلًا.
ولا ينبغي كذلك أن نقول إن النبي ﷺ وضع "خطة مؤسسية للاستدامة" بالمفهوم الإداري الحديث؛ فهذا تعبير تحليلي معاصر لا نص تاريخي.
لكن الثابت تاريخيًا أن التربية النبوية أخرجت جيلًا قادرًا على حمل الرسالة بعد وفاته، وأن القرآن والسنة والتربية والتكليف والمسؤولية انتقلت إلى هذا الجيل، ثم إلى الأجيال التي تلته.
ضابط المبدأ
المشروع الذي لا ينقل رسالته وخبرته ومسؤوليته إلى جيل تالٍ يظل محدودًا بأعمار مؤسسيه، أما الأثر الممتد فيحتاج إلى أجيال تحمل الأصل وتجدّد الوسائل.
رابعًا: من الجماعة إلى الأمة
وهنا تكتمل الرحلة التي حاول هذا الكتاب تتبعها منذ بدايته.
بدأت السيرة بإنسان يتلقى الوحي.
ثم تشكلت حوله نواة صغيرة.
ثم تربت هذه النواة على الإيمان والصبر.
ثم اتسعت لتصبح جماعة.
ثم احتاجت الجماعة إلى بيئة تحتضنها.

ثم قامت في المدينة ببناء مجتمع.
ثم واجهت التحديات الخارجية والداخلية.
ثم وصلت إلى مرحلة القوة والتمكين.
ثم حمل الصحابة الرسالة بعد وفاة النبي ﷺ.
فالمسار الذي تكشفه السيرة ليس مسارًا واحدًا يمكن نسخه في كل زمان، لكنه يكشف ترابط مستويات البناء: إنسان، ثم جماعة، ثم مجتمع، ثم أثر يتجاوز الجيل المؤسس.
ولهذا فإن الحديث عن "صناعة الحضارة" ينبغي ألا يبدأ من نهايتها؛ فلا الحضارة تبدأ بالمؤسسات الضخمة، ولا بالأبنية، ولا بالشعارات، وإنما تبدأ بالإنسان الذي يحمل معنى، وبالمعرفة التي ترشده، وبالجماعة التي تسنده، وبالأجيال التي تحفظ ما بُني وتطوره.

الخلاصة:
تكشف السيرة النبوية، في مسارها الطويل، عن ثلاثة معانٍ مترابطة:
أولها: أن المعرفة جزء من البناء.
فأول خطاب الوحي كان ﴿اقْرَأْ﴾ *، وكانت من وظائف الرسالة التلاوة والتعليم والتزكية، وتحوّل الصحابة من متلقين إلى معلمين وحملة رسالة.
وثانيها: أن أعظم استثمار هو الإنسان.
فالنبي ﷺ لم يصنع جمهورًا من المتلقين، وإنما ربّى رجالًا ونساءً حملوا العلم والدعوة والمسؤولية، وأصبحوا بدورهم صانعي أجيال.
وثالثها: أن الأثر الحقيقي هو الأثر القابل للامتداد.
وقد كشفت وفاة النبي ﷺ عن عمق هذا البناء؛ إذ لم تنتهِ الرسالة بغياب المؤسس، بل بقي القرآن، وبقيت السنة، وحمل الصحابة الأمانة، ثم حملها من بعدهم التابعون ومن جاء بعدهم.
ومن هنا يمكن أن نضع الضابط الجامع لهذا الفصل:
الحضارة لا تُبنى بكثرة المنجزات وحدها، وإنما بإنسان يعرف، ويؤمن، ويعمل، ويعلّم، ويترك بعده من يستطيع أن يحمل الأمانة.
وهذه ليست دعوة إلى استنساخ تجربة القرن الأول، وإنما إلى الإفادة من منطقها التربوي العام: ابنِ الإنسان، وارفع قدر المعرفة، وصنّع الجيل الذي بعدك، ثم اجعل الأثر أكبر من أعمار أصحابه.

الهوامش

1البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣)؛ مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم.(160)

2البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، حديث رقم.(5027)

3البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم.(3461)

4الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في المواضع التي تناولت التربية النبوية وتكوين الصحابة وبناء الجيل الأول.

5أبو داود، سنن أبي داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، حديث رقم (٣٦٦٠)؛ والترمذي، سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، حديث رقم (٢٦٥٦)، وقال الترمذي: حديث حسن.

6البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، حديث رقم (٤٣٤٤)؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم.(1733)

7البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، حديث رقم (٧٣٧٣)؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم.(30)

8الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية؛ وابن هشام، السيرة النبوية، في أخبار تربية الصحابة وبعثهم للدعوة والتعليم؛ وابن كثير، السيرة النبوية، في تراجم الصحابة وأخبار الدعوة بعد الهجرة.

9البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث رقم (٤٤٥٢)؛ وينظر أيضًا: صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: "سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر."

10ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

11ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، في بيان منزلة الصحابة في حمل العلم والفتوى والتبليغ؛ وينظر له كذلك زاد المعاد في هدي خير العباد في أبواب هديه ﷺ في التعليم والدعوة والتربية.

الفصل التاسع والعشرون: رحلة التحول

تمهيد: حين تنتهي الرحلة ويبدأ الطريق

بعد أن طاف بنا هذا الكتاب في مشاهد السيرة النبوية من مكة إلى المدينة، ومن الاستضعاف إلى التمكين، ومن بناء الفرد إلى بناء الجماعة والمجتمع، يبقى السؤال الأهم:

ماذا صنعت بنا هذه الرحلة؟

فالسيرة ليست معرفةً تاريخية تُضاف إلى رصيد القارئ ثم تنتهي عند آخر صفحة، وليست مجموعة من الوقائع التي نستحضرها في المناسبات، ثم نعود إلى حياتنا كما كانا. إن قيمتها الحقيقية تظهر حين تنتقل من صفحات الكتاب إلى سلوك الإنسان، ومن الإعجاب بالنبي ﷺ إلى الاقتداء به، ومن الاقتداء إلى البناء، ومن البناء إلى تحمل المسؤولية، ومن المسؤولية إلى أثر يبقى بعد صاحبه.

وقد كان القرآن يربط محبة الله باتباع الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ * آل عمران: ٣١.

فالآية لا تجعل المحبة دعوى وجدانية مجردة، وإنما تجعل لها علامة عملية هي الاتباع.

وهذا هو المدخل الصحيح لختام الرحلة: أن تتحول معرفة السيرة إلى تغيير في الحياة.

المبحث الأول: من المعرفة إلى الاقتداء — كيف نعشق النبي ﷺ عمليًا؟

أولًا: الرواية والشاهد

كان النبي ﷺ بالنسبة إلى أصحابه حاضرًا في حياتهم اليومية؛ يتعلمون منه العبادة، والأخلاق، والمعاملة، والصبر، والشجاعة، والرحمة، والحلم، وإدارة الخلاف، والتعامل مع الناس.

وقد وصفه القرآن بقوله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ * الأحزاب: ٢١.

فالآية لم تقل إن النبي ﷺ مجرد شخصية تاريخية عظيمة، وإنما قدمته أسوة؛ أي نموذجًا يقتدى به.

ومن أوضح الشواهد قول النبي ﷺ:

[صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي] [1].وقوله ﷺ: [خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ][2].

فالعبادة نفسها لم تكن مجرد أوامر نظرية؛ وإنما جسدها النبي ﷺ ممارسةً أمام أصحابه، ثم دعاهم إلى التعلم من هديه العملي.

وكذلك في الأخلاق، قال رسول الله ﷺ: [إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ][3].

وكانت سيرته العملية ترجمة لذلك؛ فقد قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلقه ﷺ: [كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ][4].

وهذه الجملة القصيرة تختصر جانبًا عظيمًا من معنى الاقتداء: فالقرآن لم يكن عند النبي ﷺ مجموعة تعاليم منفصلة عن الحياة، وإنما ظهر أثره في أخلاقه ومعاملاته وسلوكه.

ومن هنا كان الصحابة يتعلمون من مشاهد حياته كما يتعلمون من أقواله.

ثانيًا: القراءة التربوية

المحبة الحقيقية للنبي ﷺ لا تُختبر بكثرة الحديث عنه وحدها، وإنما بقدر ما يتحول حبُّه إلى اتباع.

وهذا لا يعني أن الاقتداء هو تقليد جميع التفاصيل بصورة واحدة في كل زمان ومكان؛ فهناك من أفعال النبي ﷺ ما هو تشريع عام، ومنها ما يتعلق بخصوصية أو ظرف معين، ومنها ما هو من العادات البشرية، ولذلك يحتاج الاقتداء إلى علم يميز بين مراتب الهدي النبوي، ولا يحول كل تفصيل تاريخي إلى حكم شرعي.

وهنا تظهر قيمة دراسة السيرة دراسة واعية؛ فكلما ازداد الإنسان معرفةً بسياق الفعل النبوي، ازداد قدرة على فهم موضع الاقتداء فيه.

فالاقتداء ليس أن نسأل فقط:

ماذا فعل النبي ﷺ؟

بل نسأل أيضًا:

لماذا فعل؟ وما القيمة التي كان يجسدها؟ وما الذي كان خاصًا بظرفه؟ وما الذي يمكن أن يكون هديًا عامًا؟

وهذه الأسئلة تحول السيرة من مجموعة مواقف إلى مدرسة في الفهم.

وقد كان الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة حريصًا على تجاوز العرض القصصي المجرد إلى استكشاف الدلالات التي تصنع الشخصية المسلمة، بينما يبرز المباركفوري تسلسل الأحداث وسياقاتها، ويمنح الغضبان عناية خاصة للبعد التربوي في بناء الشخصيات[5].

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستخلص من هذا أن:

محبة النبي ﷺ تكتمل حين تتحول من معرفة سيرته إلى اتباع هديه في حدود ما يقتضي الاتباع شرعًا.

وليس المقصود أن يصبح المسلم صورة طبق الأصل في تفاصيل الحياة، وإنما أن تتشكل في حياته القيم التي جسدها النبي ﷺ: الصدق، والرحمة، والعدل، والصبر، والأمانة، والعبادة، وتحمل المسؤولية.

التطبيق المعاصر

يمكن للقارئ أن يحول دراسة السيرة إلى برنامج عملي بسيط:

أن يختار في كل مرحلة خلقًا أو عبادة أو موقفًا نبويًا، ثم يسأل نفسه: ما الموضع الذي أستطيع أن أطبقه في حياتي؟

فمن قرأ عن رحمته ﷺ بأهله، فليبحث عن أثر الرحمة في بيته.

ومن قرأ عن صدقه، فليراجع صدقه في معاملاته.

ومن قرأ عن صبره، فلينظر إلى طريقة تعامله مع الأزمات.

ومن قرأ عن عفوه، فليراجع خصوماته.

وهذه ليست وقائع تاريخية جديدة، وإنما ترجمة تربوية معاصرة لمعاني الهدي النبوي.

المبحث الثاني: من الاقتداء إلى البناء — بناء الذات والأسرة خطوة أولى

أولًا: الرواية والشاهد

لم تكن التربية النبوية موجهة إلى بناء الفرد بمعزل عن محيطه، فالإنسان الذي يصلح نفسه يحمل أثر صلاحه إلى أسرته ومجتمعه.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ * التحريم: ٦.

وفي السنة قول النبي ﷺ:

[كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ][6].

فالحديث يجعل المسؤولية ممتدة إلى دوائر متعددة، ويجعل الأسرة إحدى دوائر الأمانة الأساسية.

وقد كان النبي ﷺ في بيته نموذجًا عمليًا في المعاملة. قالت عائشة رضي الله عنها:

[كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ][7].

وهذا الشاهد بالغ الدلالة؛ لأن القدوة هنا تظهر في تفاصيل الحياة اليومية، لا في المواقف الكبرى وحدها.

وكان ﷺ يقول:

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي][8].

فتتحول الأسرة من مساحة خاصة منفصلة عن التربية إلى أول ميدان تظهر فيه أخلاق الإنسان.

ثانيًا: القراءة التربوية

قد ينجح الإنسان في الحديث عن القيم خارج البيت، ثم يفشل في ممارستها داخله.

لكن السيرة تقدم معيارًا أكثر عمقًا: أقرب الناس إليك هم أول من يختبر حقيقة أخلاقك.

ولهذا فإن بناء الذات ليس مشروعًا فرديًا مغلقًا، بل بداية لسلسلة من المسؤوليات.

فالصلاة التي تصلح علاقة الإنسان بربه ينبغي أن يظهر أثرها في أخلاقه.

والعلم الذي يكتسبه ينبغي أن يزيده تواضعًا وبصيرة.

والاقتداء بالنبي ﷺ ينبغي أن يجعل بيته أكثر رحمة، لا أن يتحول إلى شعارات خارجية.

ومن هنا فإن الأسرة ليست مرحلة لاحقة بعد اكتمال بناء الفرد؛ بل هي البيئة التي تختبر فيها الشخصية ما تعلمته.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن صياغة المبدأ هنا:

أقرب دوائر الإصلاح إلى الإنسان هي نفسه وأسرته؛ وفيها يظهر مدى صدق التحول الذي أحدثته المعرفة والتربية.

ولا يعني ذلك أن السيرة تضع ترتيبًا إداريًا إلزاميًا لمراحل الإصلاح، وإنما هو استنباط تربوي من النصوص التي تجعل الإنسان مسؤولًا عن نفسه وأهله، ومن النموذج النبوي في الحياة الأسرية.

التطبيق المعاصر

قبل أن يسأل الإنسان: كيف أغير المجتمع؟ يمكنه أن يسأل:

- هل تغير سلوكي؟
- هل أصبح بيتي أكثر أمنًا ورحمة؟
- هل يسمع أبنائي مني ما يرونه في سلوكي؟
- هل أتعامل مع الخلاف داخل الأسرة بالطريقة التي أتحدث بها عن الأخلاق خارجها؟
- هل تحولت السيرة إلى ممارسة أم بقيت معلومات؟

فإذا أصبحت السيرة حاضرة في البيت، انتقلت من الكتاب إلى الحياة.

المبحث الثالث: من البناء إلى المسؤولية — حمل الأمانة في المجتمع

أولًا: الرواية والشاهد

لم يتوقف بناء الصحابة عند إصلاح أنفسهم؛ فقد تحولوا بعد ذلك إلى أصحاب مسؤوليات في المجتمع.

وكان النبي ﷺ يوزع المهام، ويبعث الصحابة، ويولي بعضهم مسؤوليات مختلفة، ويعلمهم قبل تكليفهم.

ومن ذلك قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن:

[إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ][9].

فالحديث يجمع بين العقيدة والعبادة والعدل الاجتماعي والمسؤولية العملية.

وفي الحديث الآخر:

[مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ][10].

والحديث يدل على أن الإيمان ليس عزلة عن الواقع، مع ارتباط المسؤولية بالاستطاعة والقدرة.

كما قال رسول الله ﷺ:

[مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ][11].

وقال رسول الله ﷺ:

[وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ][12].

فهذه النصوص تنقل الإنسان من دائرة الاهتمام بنفسه إلى دائرة الاهتمام بالآخرين.

ثانيًا: القراءة التربوية

إذا كان الاقتداء يصنع الإنسان، فإن المسؤولية تختبر هذا الإنسان.

فمن السهل أن يحب الإنسان القيم وهو يتحدث عنها، لكن الامتحان الحقيقي يبدأ حين تصبح لهذه القيم تكلفة: وقت، وجهد، مال، صبر، أو تنازل عن مصلحة شخصية.

وهذا هو أحد المعاني الكبرى التي تكشفها السيرة: أن الصحابي لم يكن متلقيًا سلبيًا، بل كان يُربى ليحمل شيئًا من الرسالة.

ولذلك تحولت الشخصيات التي بدأت حياتها في مكة أفرادًا مستضعفين إلى دعاة وقادة ومعلمين وقضاة ومجاهدين وأمناء على مصالح الناس.

ولا ينبغي أن نفهم ذلك باعتباره انتقالًا سياسيًا فقط؛ بل هو انتقال من الاستهلاك إلى العطاء، ومن التلقي إلى المسؤولية.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن أن نستخلص:

الاقتداء الذي لا ينتج مسؤولية يظل ناقص الأثر؛ لأن من مقاصد التربية أن يصبح الإنسان نافعًا في دائرة استطاعته.

وهذا لا يعني أن كل إنسان مطالب بأن يصبح قائدًا عامًا أو شخصية مؤثرة بالمعنى الإعلامي المعاصر.

بل المسؤولية تتناسب مع القدرة والموقع:

الأب مسؤول في أسرته، والمعلم في طلابه، والطبيب في مرضاه، والموظف في عمله، وقارئ السنة النبوية في علمه، وصاحب المال فيما آتاه الله.

التطبيق المعاصر

ليس السؤال:

كيف أصبح مشهورًا؟

بل:

أين وضعتني الحياة، وما الأمانة التي أستطيع القيام بها؟

فقد يكون أعظم أثر لإنسان في أسرته، وقد يكون أثر آخر في علمه، وقد يكون ثالث في خدمة مجتمعه.

والسيرة لا تمنحنا قالبًا واحدًا للأثر، وإنما تكشف لنا تنوع المسؤوليات التي حملها الجيل الأول.

المبحث الرابع: من المسؤولية إلى الأثر — صناعة التاريخ كما صنعه السلف

أولًا: الرواية والشاهد

كان الصحابة يدركون أن الإنسان لا يملك أن يعيش لنفسه فقط.

ومن أعظم الشواهد في ذلك قول النبي ﷺ:

[إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ][13].

فالحديث يلفت إلى صور من الأثر يتجاوز نفعها حياة صاحبها.

والعلم الذي ينتفع به، والصدقة الجارية، والولد الصالح، كلها صور لعمل لا ينتهي أثره بمجرد انتهاء عمر صاحبه.

وهذا المعنى يلتقي مع ما شهدته الأمة في الجيل الأول؛ فقد نقل الصحابة القرآن والسنة، وعلموا من بعدهم، وبنوا المجتمعات، ونقلوا الدين إلى الأمصار.

ولم يكن ذلك نتيجة عمل فرد واحد، بل نتيجة تراكم جهود أجيال.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ * الحشر: ١٠.

فالآية نفسها تربط اللاحق بالسابق، وتجعل الأجيال المتعاقبة جزءًا من سلسلة إيمانية واحدة.

ثانيًا: القراءة التربوية

الأثر ليس بالضرورة أن يكون ضخمًا.

قد يكون كتابًا ينتفع به طالب.

وقد يكون إنسانًا تعلم منك خلقًا.

وقد يكون ابنًا صالحًا ربيته.

وقد تكون مؤسسة نافعة أسهمت في بنائها.

وقد يكون علمًا نقلته.

وقد يكون موقفًا ترك في شخص آخر أثرًا غيّر حياته.

ولهذا فإن صناعة التاريخ لا تعني أن يصبح كل إنسان شخصية تاريخية مشهورة.

إنها تعني أن يعيش الإنسان بحيث لا ينتهي نفعه بانتهاء حضوره الشخصي.

وهذا يعيدنا إلى السؤال الذي بدأ به الفصل: ماذا صنعت بنا السيرة؟

فإذا قرأناها ثم انتهت آثارها بانتهاء الكتاب، فقد عرفنا أحداثًا.
أما إذا جعلتنا أكثر صدقًا، وأرحم بأهلنا، وأشد تحملًا للمسؤولية، وأكثر نفعًا للناس، فقد انتقلت السيرة من المعرفة إلى الحياة.

ثالثًا: الاستنباط المنضبط

يمكن صياغة المبدأ الأخير:

الأثر الممتد هو ثمرة اجتماع المعرفة والاقتداء والعمل والمسؤولية.

ولا يصح أن نعد كل مشروع معاصر امتدادًا مباشرًا للسلف؛ فالسياقات التاريخية مختلفة، والوسائل متغيرة، والمؤسسات الحديثة لها طبيعتها الخاصة.

لكن يمكن الإفادة من المعنى العام الذي تكشفه النصوص والسيرة: أن الإنسان المؤمن لا يعيش فقط لما يستهلكه في حياته، وإنما لما يستطيع أن يتركه من خير بعده.

التطبيق المعاصر

يمكن لكل إنسان أن يضع لنفسه سؤالًا بسيطًا:

إذا غبت غدًا، ما الشيء النافع الذي سيبقى بعدي؟

ثم يحول السؤال إلى عمل:

علمٌ يُنقل.

إنسانٌ يُربى.

أسرةٌ تُبنى.

مؤسسةٌ تُخدم.

خيرٌ يستمر.

أو خلقٌ ينتقل إلى الآخرين.

وهكذا يصبح مفهوم "الأثر" أقرب إلى المسؤولية اليومية منه إلى البحث عن الشهرة.

الخاتمة: من المعرفة إلى الحياة

تنتهي صفحات هذا الكتاب، لكن المقصود منه ألا تنتهي الرحلة.

لقد بدأنا من مكة، حيث كان الإنسان أول ميدان للبناء، ثم رأينا كيف تشكلت النواة، وكيف صبرت تحت الابتلاء، وكيف بحثت عن البيئة التي تستطيع فيها أن تنمو، ثم انتقلت إلى المدينة فبنت المجتمع، وواجهت الأزمات، وأدارت القوة، وتحملت مسؤولية الشهادة على الناس.

وفي كل مرحلة كان هناك سؤال واحد يعود بصورة مختلفة:
كيف يتحول الإيمان إلى حياة؟
والجواب الذي تكشفه الرحلة ليس شعارًا واحدًا، وإنما مسار متدرج:
معرفة ← اقتداء ← بناء ← مسؤولية ← أثر.
المعرفة وحدها لا تكفي.
والإعجاب وحده لا يكفي.
والحديث عن النبي ﷺ لا يكفي إذا لم يظهر أثر محبته في السلوك.
والصلاح الفردي، مع أهميته، لا ينبغي أن يتحول إلى عزلة عن مسؤولية الإنسان تجاه أهله ومجتمعه.
والمسؤولية نفسها لا ينبغي أن تنتهي عند جيل واحد، بل ينبغي أن تتحول إلى أثر ينتفع به من يأتي بعدنا.
وهنا يمكن أن نفهم معنى قوله تعالى:
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ * الأحزاب: ٢١.
فالأسوة ليست صورة معلقة في الذاكرة، وإنما طريق يُسلك.
وليست السيرة كتابًا نقرأه ثم نضعه على الرف، وإنما ميزانًا نسأل به أنفسنا:
كيف أعبد؟
كيف أتعامل؟
كيف أربي؟
كيف أختلف؟
كيف أصبر؟
كيف أخدم؟
كيف أتحمل مسؤوليتي؟
وكيف أترك بعدي خيرًا يستمر؟
إن أعظم ما يمكن أن يخرج به القارئ من السيرة ليس أن يعرف عدد الغزوات، ولا أن يحفظ أسماء الرجال، ولا أن يستحضر تواريخ الأحداث فحسب؛ وإنما أن يعرف كيف صنع النبي ﷺ الإنسان الذي استطاع أن يحمل رسالة، وكيف استطاع هذا الإنسان أن يصنع أثرًا امتد بعده.

وهنا يصبح السلف بالنسبة إلينا أكثر من شخصيات في كتب التاريخ؛ يصبحون شاهدًا على أن الإنسان، حين يصدق مع الله، ويهذب نفسه، ويتعلم، ويتحمل مسؤوليته، يستطيع أن يترك أثرًا يتجاوز عمره.
لكن المقصود ليس أن نصنع نسخة من القرن الأول في القرن الخامس عشر أو السادس عشر الهجري، ولا أن نستنسخ تفاصيل مجتمع تغيرت ظروفه ووسائله.
المقصود أن نأخذ الهداية لا القوالب، والقيم لا الصور الجامدة، والمنهج لا التفاصيل التي ارتبطت بظروفها.
فالثبات على الحق لا يعني الجمود في الوسائل.
والاقتداء لا يعني إلغاء اختلاف الزمان.
والاستفادة من السيرة لا تعني تحميلها إجابات تفصيلية عن كل سؤال معاصر.
إنما تعني أن نقرأها بعين قارئ السنة النبوية ، ونفهمها بعقل المتدبر، ونقتدي بها بقلب المحب، ونترجم ما نتعلمه إلى حياة.
وفي النهاية، ربما يكون السؤال الذي ينبغي أن يبقى معنا بعد إغلاق هذا الكتاب أبسط من كل الأسئلة:
ماذا ستفعل بما عرفت؟
فقد قرأت عن النبي ﷺ.
وعرفت كيف صبر.
وكيف ربّى.
وكيف بنى.
وكيف قاد.
وكيف عفا.
وكيف واجه.
وكيف حمل أصحابه الأمانة.
لكن السيرة لا تطلب منك أن تعجب بها فقط.
إنها تدعوك إلى أن تعيش شيئًا من معانيها في موضعك، وبقدر استطاعتك، وبوعي بزمانك.
ومن هنا تبدأ الرحلة الحقيقية.
رحلة من المعرفة إلى الحياة.

الهوامش

1البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، حديث رقم.(631)

2مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، حديث رقم.(1297)

3أحمد بن حنبل، المسند، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم (٨٩٥٢)؛ والحديث حسنه عدد من أهل العلم، وله شواهد بمعناه.

4مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، حديث رقم.(746)

5الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة؛ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم؛ منير محمد الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية، في المواضع المتعلقة بالاقتداء والتربية النبوية وبناء الشخصية.

6البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، حديث رقم (٥٢٠٠)؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم.(1829)

7البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، حديث رقم.(676)

8الترمذي، سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، حديث رقم (٣٨٩٥)، وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

9البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة من الأغنياء فترد في الفقراء حيث كانوا، حديث رقم (١٤٩٦)؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم.(19)

10مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم.(49)

11البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم (٢٤٤٢)؛ ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم.(2580)

12مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم.(2699)

13مسلم، صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم.(1631)

خاتمة الكتاب

لقد انتهت صفحات الكتاب، لكن السيرة لم تنتهِ.
ستظل أمام كل واحد منا بوصفها سؤالًا مفتوحًا: أي إنسان نريد أن نكون؟ وأي أثر نريد أن نترك؟
فليست الغاية أن نقول: قرأنا السيرة.
بل أن نستطيع يومًا أن نقول:
غيّرتني السيرة.
غيّرت صلاتي.
غيّرت أخلاقي.
غيّرت علاقتي بأهلي.
غيّرت نظرتي إلى المسؤولية.
غيّرت طريقة تعاملي مع الاختلاف.
جعلتني أكثر صبرًا حين تضيق الطرق.
وأكثر تواضعًا حين تتسع.
وأكثر رحمة حين أملك القدرة.
وأكثر وعيًا بأن ما أعطاني الله من علم أو مال أو قدرة ليس ملكًا شخصيًا محضًا، وإنما أمانة.
وهكذا تتحول السيرة من كتاب عن النبي ﷺ إلى طريق نتعلم فيه كيف نحيا لله، وكيف ننفع الناس، وكيف نترك بعدنا أثرًا صالحًا.
وهذه هي الرحلة التي لا ينبغي أن تنتهي عند آخر صفحة.
رحلة من المعرفة إلى الحياة.

المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. عبد الملك بن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة.

٣. إسماعيل بن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر.

٤. ابن القيم الجوزية، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

١. البخاري، محمد بن إسماعيل .*صحيح البخاري* .تحقيق/ترقيم الطبعات المعتمدة بحسب النسخة المستخدمة في التخريج.

٢. مسلم بن الحجاج .*صحيح مسلم* .تحقيق/ترقيم الطبعات المعتمدة بحسب النسخة المستخدمة في التخريج.

٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر .*البداية والنهاية* .الطبعات المحققة المتداولة.

٤. ابن القيم، محمد بن أبي بكر .*زاد المعاد في هدي خير العباد* .تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ثانيًا: المراجع الأساسية للدراسة

١. الشيخ محمد الغزالي، محمد؛ *فقه السيرة* .تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. القاهرة: دار الشروق، الطبعة الحديثة الأولى، ٢٠٠٠م، وتثبت البيانات الببليوغرافية للطبعة الحديثة نشر الكتاب في دار الشروق بالقاهرة سنة ٢٠٠٠م.

٢. المباركفوري، صفي الرحمن .*الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام* .الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٣. الغضبان، منير محمد .*المنهج التربوي للسيرة النبوية* .المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، وتشمل السلسلة مجلدات متخصصة في التربية القيادية والجماعية والسياسية والجهادية.